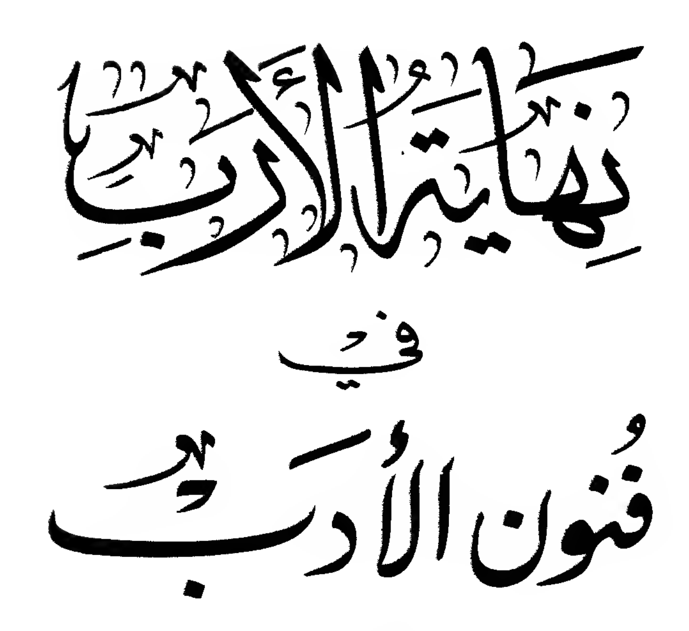


نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الخامس

تحقيق

الدكتور يحيى الشامي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي

ذِكْر أخْبار إسحٰق بن إبراهيم

هو أبو محمد إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ، وقد تقدّم نسبُه في أخبار أبيه. وكان الرشيد[١] يُولَع به فيكنيهِ أبا صَفْوان. قال أبو الفرجِ الأصفهاني[٢] في ترجمة إسحٰق: وموضعُه من العلم، ومكانُه من الأدب، ومحلُّه من الرواية، وتقدُّمه في الشعر، ومنزلتُه في سائر المحاسن أشهَرُ من أن يُدَلَّ عليها بوصف. قال: فأما الغناء فكان أصغرَ علومهِ وأدنى ما يوسم[٣] به وإن كان الغالبَ عليه وعلى ما كان يحسنُه، فإنه كان له في سائر أدواته نظراءُ وأكفاء[٤] ولم يكن له في هذا نظير. لَحِق بمن مضى فيه وسبق من قد بقي، وسهّل طريق الغناءِ وأنارها، فهو إمامُ أهل صناعته جميعًا وقُدوتُهم ورأسُهم ومعلّمُهم؛ يعرف ذلك منه الخاصُّ والعامّ، ويشهد له به الموافقُ والمفارق. على أنه كان أكرهَ الناسِ للغناء وأشدَّهم بغضًا له لئلا يُدعَى إليه ويُسمّى به. وكان المأمون[٥] يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء

---

(١) الرشيد، لقب الخليفة العباسي الخامس هارون، ابن المهدي، أمه الخيزران. من أشهر الخلفاء العباسيين. حارب البيزنطيين وبلغ أبواب القسطنطينية وهو لا يزال حاكمًا قبل تسلّمه مقاليد الخلافة. أقام علاقات بينه وبين شارلمان ملك الفرنج. ازدهرت في عهده العلوم والآداب. نكب البرامكة. مات في طوس سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٩. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

(٢) هو علي بن الحسين، من أئمة الأدب واللغة والتاريخ. عاش ببغداد والتحق بالوزير المهلبي. انصرف إلى جمع التاريخ وتدوينه، والأدب في كتابه المشهور الموسوم بـ «الأغاني». له من المصنفات كتاب «مقاتل الطالبيين» و«أدب السماع» و«أخبار الطفيليين». مات سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م. انظر: الفهرست، لابن النديم، ص ١٦٦ ـ ١٦٧. دار المعرفة. بيروت.

(٣) يوسم به: يوصف به.

(٤) الأكفاء والنظراء، جمع كفء ونظير، وهو الشبيه والمماثل.

(٥) المأمون، لقب الخليفة العباسي السابع عبد الله بن هارون الرشيد. من كبار الخلفاء العباسيين. أمّه جارية فارسية. قتل أخاه الأمين وخلفه. عني بالعلوم والآداب وأنشأ «بيت الحكمة» في بغداد فازدهرت في عهده الترجمة. كان نصيرًا للمعتزلة وقال بخلق القرآن. مات سنة ٢١٨ هـ/ =

لولّيتُه القضاءَ بحضرتي، فإنه أولى به وأعفُّ وأصدقُ وأكثرُ دِيْنًا وأمانةً من هؤلاء القضاة. وقد روى الحديثَ ولَقِيَ أهلَه مثلَ مالكِ بنِ أنسٍ(١) وسفيانَ بنِ عُيَينة(٢) وهشيم بن بشير وإبراهيمَ بنِ سعدٍ وأبي معاويةَ الضريرِ ورَوْح بن عُبَادةَ وغيرِهم من شيوخ العراقِ والحجاز. وكان مع كراهته للغناء أضنَّ خلقِ الله به وأشدَّهم بخلًا على كل أحدٍ حتى على جواريه وغلمانِه ومن يأخذ عنه منتسبًا إليه ومتعصّبًا له فضلًا عن غيرهم. قال: وهو صحّح أجناسَ الغناء وطرائقَه ومَيّزها تمييزًا لم يقدِر عليه أحد قبله.

وقال محمدُ بنُ عِمرانَ الجُرْجاني: كان واللهِ إسحٰقُ غُرَّةً(٣) في زمانه، وواحدًا في عصره علمًا وفهمًا وأدبًا ووقارًا وجَوْدةَ رأيٍ وصحّةَ مودّة. وكان والله يُخرسُ الناطقَ إذا نطق، ويُحيّر السامعَ إذا تحدّث، لا يَمَلّ جليسُه مجلسَه، ولا تمجّ(٤) الآذانُ حديثَه، ولا تنبو(٥) النفسُ عن مُطاولته. إن حدّثك ألهاك، وإن ناظرك أفادك، وإن غنّاك أطربك. وما كانت خَصْلةٌ من الأدبِ، ولا جنسٌ من العلمِ يتكلمُ فيه إسحٰقُ فيُقدِم أحد على مساجلته(٦) أو مناوأته(٧) فيه.

حكى أبو الفرج عن إسحٰقَ قال: دعاني المأمون وعنده إبراهيمُ بنُ المهديّ(٨) وفي مجلسه عشرون جاريةً قد أَجْلس عشرًا عن يمينهِ وعشرًا عن شمالِه. فلما دخلتُ سمعتُ من الناحية اليسرى خطأً فأنكرتُه. فقال المأمون: أسمعتَ خطأ؟ قلت: نعم يا

= ٨٣٣ م. انظر: مروج الذهب، للمسعودي ٤/ ٤ ـ ٤٥. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار المعرفة، بيروت ١٩٨٢ م.

(١) مالك بن أنس، أحد الأعلام المشهورين. صاحب المذهب الفقهي المنسوب إليه، وهو المذهب المالكي. عاش في المدينة. له من المصنّفات «الموطّأ» وهو أساس مذهبه، و«الردّ على القدريّة» و«المدوّنة الكبرى». مات سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٢٨٩ ـ ٢٩١.

(٢) هو أبو عبد الله، المحدث والإمام، صاحب «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» في الحديث؛ وله كتاب «الفرائض»، لآرائه نكهة خاصة تثير الجدل. مات سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م. شذرات الذهب ١/ ٢٥٠.

(٣) الغرّة، في الأصل، بياض في جبهة الفرس. والغرّة من كل شيء، أوّله ومعظمه، وطلعته، ووجهه. والغرّة من القوم: الشريف فيهم.

(٤) تمجّ: تعاف، وتستكره. (٥) تنبو: تبتعد.

(٦) مساجلته: مباراته. (٧) مناوأته: مخالفته.

(٨) إبراهيم بن المهدي، عم المهدي، وأخو هارون الرشيد. بويع له بالخلافة في غياب المأمون لما كان بخراسان. ولما رجع المأمون عفا عنه. اشتهر بالغناء واللهو، مات سنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٩ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٥٣.

أمير المؤمنين. فقال لإبراهيمَ بنِ المهديّ: هل تسمع خطأ؟ قال: لا. قال: فأعاد عليّ السؤال، فقلت: بلى واللهِ يا أمير المؤمنين، وإنه لفي الجانب الأيسر. فأعاد إبراهيمُ سَمْعه إلى الناحية اليسرى ثم قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما في هذه الناحية خطأ. فقلت: يا أمير المؤمنين، مُر الجواريَ اللاتي على اليمين يُمْسِكْنَ، فأمرهنّ فأمْسَكْن، ثم قلت لإبراهيم: هل تسمع خطأ؟ فتسمَّع ثم قال: ما هٰهنا خطأ. فقلت: يا أمير المؤمنين، يُمسِكْن وتَضْرب الثانية، فأمسكن وضربت الثانية، فعرف إبراهيم الخطأ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، هٰهنا خطأ. فقال المأمون عند ذلك لإبراهيمَ بنِ المهديّ: لا تُمارِ[1] إسحٰق بعدها، فإن رجلًا عرف الخطأ بين ثمانين وترًا وعشرين حَلْقًا لجدير ألّا تماريَه؛ قال: صدقت.

وقال ابن حمدونَ: سمعتُ الواثقَ[2] يقول: ما غنّاني إسحٰقُ قطُّ إلا ظننتُ أنه قد زِيد في مُلْكي، ولا سمعتُه قطُ يغنّي غناء ابن سُرَيج إلا ظننتُ أنّ ابن سُرَيج قد نُشِر، وإني ليحضُرني غيرُه إذا لم يكن حاضرًا، فيتقدّمه عندي بطيب الصوت، حتى إذا اجتمعا عندي رأيت إسحٰق يعلو ورأيت مَن ظننتُ أنه يتقدّمُه ينقص. وإنَّ إسحٰقَ لنعمةٌ من نعم الملوك التي لم يُحْظَ أحدٌ بمثلها. ولو أن العمرَ والشبابَ والنشاطَ مما يُشْتَرَى لاشتريتُهنّ له بشطر مُلْكي.

وحُكي عن أحمدُ بنِ المكّي عن أبيه قال: كان المغنُّون يجتمعون مع إسحٰقَ وكلُّهم أحسنُ صوتًا منه ولم يكن فيه عيبٌ إلا صوتُه فيطمعون فيه، ولا يزال بلُطفه وحِذقه ومعرفته حتى يغلبَهم جميعًا ويفضُلَهم ويتقدّم عليهم. قال: وهو أوّل مَن أحدث المجتَثّ ليوافقَ صوتَه ويشاكلَه فجاء معه عجبًا من العجب، وكان في حلقه نُبُوّ[3] عن الوتَر.

وحُكي قال: سأل إسحٰقُ الموصليُّ المأمونَ أن يكون دخولُه مع أهل العلمِ والأدبِ والرُّواة لا مع المُغنّين، فإذا أراد الغناءَ غنّاه، فأجابه إلى ذلك. ثم سأله بعد مدّة طويلة أن يأذَن له في الدخول مع الفقهاءِ فأذن له؛ قال: فكان يدخل ويدُه في يد

(١) لا تمارِ: لا تجادل أو تنازع.

(٢) الواثق بالله، هارون بن المعتصم، الخليفة العباسي الذي شُغل بالخلافات الكلامية وناصر المعتزلة حاذيًا حذو المأمون. امتحن الناس في خلق القرآن. مات سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م. انظر: التنبيه والإشراف، للمسعودي ص ٣١٢، دار صعب. بيروت.

(٣) النبوّ: الابتعاد والمجافاة.

قاضي القضاةِ يحيىٰ بنِ أكثم[١]. ثم سأل إسحـٰقُ المأمونَ في لُبس السوادِ يومَ الجمعةِ والصلاة معه في المقصورة[٢]؛ قال: فضحك المأمون وقال: ولا كلّ هذا يا إسحـٰق! وقد اشتريت منك هذه المسألة بمائةِ ألفِ دينارٍ وأمَر له بها.

وكان لإسحـٰقَ مع إبراهيمَ بنِ المهديِّ مخاطباتٌ ومنازعاتٌ ومحاوراتٌ بسبب الغناءِ، وكان الرشيدُ ينصرُ إسحـٰقَ على إبراهيمَ أخيه. من ذلك ما حكاه إسحـٰق قال: كنت عندَ الرشيد يومًا، وعنده ندماؤه وخاصّته وفيهم إبراهيمُ بنُ المهديّ؛ فقال لي الرشيد: غنِّ: [من الوافر]

شرِبتُ مُدامةً[٣] وسُقِيتُ أُخرى ... ورَاحَ المُنتشُون[٤] وما انتشَيْتُ[٥]

فغنيته. فأقبل عليَّ إبراهيمُ بنُ المهديِّ فقال لي: ما أصبتَ يا إسحـٰقُ ولا أحسنت. فقلت له: ليس هذا مما تعرفه ولا تُحسنُه، وإن شئت فغنّه فإن لم أجدك أنك تُخطىء فيه منذُ ابتدائك إلى انتهائك فدَمِي حلال. ثم أقبلت على الرشيد فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه صَناعتي وصَناعة أبي، وهي التي قرّبتْنا منك واستخدمتْنا لك فأوطأتْنا بساطَك، فإذا نازَعَنا أحدٌ بغير علم لم نجد بُدًّا من الإفصاح والذبّ[٦]؛ فقال: لا غَرْوَ[٧] ولا لومَ عليك. وقام الرشيدُ ليبولَ؛ فأقبل إبراهيمُ بنُ المهديّ عليّ وقال: ويحَك يا إسحـٰقُ! أتجترىءُ عليّ وتقولُ لي ما قلتَ يا ابنَ الفاعلة! لا يَكْنِي[٨]. فداخلني ما لم أملكْ نفسي معه، فقلت له: أنت تشتِمُني ولا أقدِرُ على إجابتِك وأنت ابنُ الخليفةِ وأخو الخليفة، ولولا ذلك لقلتُ لك: يا ابنَ الزانية كما قلتَ لي يا ابن الزانية. أوَ تراني كنتُ لا أحسنُ أن أقول: يا ابنَ الزانية! ولكن قولي في ذمّك ينصرفُ كلُّه إلى خالك الأعْلَم[٩]، ولولاك لذكرتُ صناعتَه ومذهبَه ـ قال إسحـٰق: وكان بَيْطارًا[١٠] ـ قال: ثم سكتّ، وعلمتُ أن إبراهيمَ

---

(١) يحيىٰ بن أكثم، فقيه وقاضٍ مشهور. ولد في مرو بخراسان. صار قاضيًا من قضاة بغداد على أيام المأمون. عزله المتوكل، ومات سنة ٢٤٢ هـ/ ٨٥٧ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٠١ - ١٠٢.

(٢) المقصورة: الدار الواسعة المحصّنة، أو هي حجرة خاصة من حجر الدار.

(٣) المدامة: الخمرة.

(٤) المنتشون: السكارى.

(٥) انتشيت: سكرت.

(٦) الذبّ: الدفع والمنع.

(٧) لا غرو: لا عجب.

(٨) لا يكني: لا يذكره ليدلّ به على غيره.

(٩) الأعلم: من في شفته العليا أو في جانبها شقّ كالعلم. وفي الأصل، الأعلم، صفة خاصة بالبعير.

(١٠) البيطار: الذي يعالج الدابّة ويسمّر نعالها بالمسامير.

سوف يشكوني إلى الرشيد، وسوف يسأل مَنْ حضر عما جرى فيخبرونه، فتلافيتُ ذلك بأن قلت: إنك تظن أن الخلافة تصيرُ إليك، فلا تزال تتهدّدني بذلك وتُعاديني كما تُعادِي سائرَ أولياء أخيك حسدًا له ولولده على الأمر! وأنت تَضْعُف عنه وعنهم، وتستخِفّ[1] بأوليائهم تَشفِّيًا[2]، وأرجو ألا يُخرجها الله من الرشيدِ وولدِهِ، وأن يقتلَك دونَها. فإن صارت إليك ـ والعياذُ باللهِ تعالى من ذلك ـ فحرامٌ عليّ حينئذٍ العيشُ! والموتُ أطيبُ من الحياة معك، فاصنعْ حينئذٍ ما بدا لك! قال: فلما خرج الرشيدُ وثب إبراهيمُ فجلس بينَ يديه وقال: يا أميرَ المؤمنين، شتمني إسحٰقُ وذكر أمّي واستخفّ بي. فغضِب وقال لي: ويلك! ما تقول؟ قلت: لا أعلمُ، فسَلْ مَن حضر. فأقبل على مسرورٍ وحسينٍ فسألهما عن القصة فجعلا يُخبرانِه ووجهُه يَرْبَدُّ إلى أن انتهيا إلى ذكر الخلافةِ فسُرِّي[3] عنه ورجع لونُه، وقال لإبراهيمَ: لا ذنبَ له، شتمته فعرّفك أنه لا يقدِرُ على جوابك، ارجِعْ إلى موضعِك وأمسكْ عن هذا. فلما انفضّ المجلسُ وانصرف الناسُ أمر الرشيدُ بألّا أبرح. وخرج كل مَن حضر حتى لم يبق غيري، فساء ظنّي وهمّتْني[4] نفسي. فأقبل عليّ وقال: يا إسحٰقُ، أتراني لم أفهم قولك ومرادك! قد والله زنّيته ثلاث مرات! أتراني لا أعرف وقائعَك وأقدامَك وأين ذهبت! ويلك لا تَعُدْ! حدِّثْني عنك لو ضربك إبراهيمُ أكنتُ أقتصُّ لك منه فأضربه وهو أخي يا جاهل! أتُرَاه لو أمر غلمانَه فقتلوك أكنتُ أقتلَه بك! فقلت: والله يا أميرَ المؤمنين، قد قتلني هذا الكلامُ، وإن بلغه ليقتلنّي، وما أشك أنه قد بلغه الآن. فصاح بمسرور وقال له: عليّ بإبراهيمَ فأُحضِر، وقال لي: قمْ فانصرفْ. فقلتُ لجماعةٍ من الخَدَم ـ وكلُّهم كان لي محبًّا وإليّ مائلًا ولي مطيعًا ـ: أَخْبِروني بما يجري؛ فأخبَروني من غدٍ أنه لمّا دخل عليه وبّخه وجهّله وقال له: أتستخفّ بخادمي وصنيعتي وابن خادمي وصنيعتي وصنيعة أبي في مجلسي! وتُقدِم عليّ وتستخِفّ بمجلسي وحضرتي! هاه هاه هاه! وتُقْدِم على هذا وأمثاله! وأنت مالَك وللغناء! وما يدريك ما هو! ومن أخذك به وطارحك إياه حتى تتوهّم أنك تبلغ منه مبلغَ إسحٰقَ الذي غُذِّي به وعلّمه وهو من صناعته! ثم تظن أنك تُخَطِّئه فيما لا تدريه، ويدعوك إلى إقامة الحجة عليه فلا تثبُت لذلك وتعتصم

---

(١) تستخفّ: تستجهل، وتزيل عن الحق والصواب.

(٢) تشفّيا: نكايةً.

(٣) سرّي عنه: زال عنه ما كان يجده من الغضب أو الهمّ.

(٤) همّتني نفسي: أقلقني وأحزنني.

بشتمه! هذا مما يدلّ على السقوط وضعفِ العقل وسوءِ الأدبِ من دخولِك فيما لا يشبهُك، وغلبةِ لذّتِك على مروءتك[١] وشرفك، ثم إظهارِك إياه ولم تُحكمه، وادّعائك ما لا تعلمه حتى ينسبَك إلى إفراطِ الجهل. ألا تعلم، ويحك، أن هذا سوءُ أدبٍ وقلّةُ معرفةٍ وقلة مُبَالاة بالخطإِ والتكذيبِ والردّ القبيح! ثم قال: واللهِ العظيمِ وحقِّ رسولِهِ وإلا فأنا بريءٌ من المهديّ[٢] إن أصابه أحدٌ بسوءٍ أو سقط عليه حجرٌ من السماء أو سقط مِن دابّته أو سقط عليه سقفُه أو مات فجأةً لأقتلنك به. والله! والله! ولله! فلا تعرِض له وأنت أعلم! قم الآن فاخرجْ؛ فخرج وقد كاد يموت. فلما كان بعد ذلك دخلت على الرشيد وإبراهيمُ عنده فأعرضت عن إبراهيم فجعل ينظر إليّ مرة وإليه مرةً ويضحكُ؛ ثم قال: إني لأعلم محبّتك لإسحٰقَ وميلَك إليه وإلى الأخذ عنه، وإن هذا لا يجيئك من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى، والرضا لا يكون بمكروه، ولكن أحسِنْ إليه وأكرمْه واعرفْ حقَّه وبِرَّه وصِلْه، فإذا فعلتَ ذلك ثم خالف ما تهواه عاقبته بيد مستطيلة منبسطة ولسانٍ منطلق. ثم قال لي: قم إلى مولاك وابنِ مولاك فقبّل رأسَه؛ فقمت إليه وقام إليّ وأصلح الرشيدُ بيننا.

قال أبو الفرج: وكان إسحٰقُ جيّد الشعر، كان يقول الشعرَ وينسِبُه للعرب. فمن ذلك قوله: [من الكامل]

لفَظ الخدورُ[٣] إليك حُورًا[٤] عِينًا[٥] … أنسَيْن ما جمَع الكِناسُ[٦] قَطِينا[٧]

فإذا بسَمْنَ فعَنْ كمثل غَمامة … أو أُقْحُوان الرَمل بات مَعِينا

وأصحُّ ما رأتِ العيونُ محاجرًا[٨] … ولهَنّ أمرض ما رأيتَ عيونا

---

(١) المروءة: النخوة، وكمال الرجوليّة.

(٢) المهدي: لقب الخليفة العباسي الثالث محمد بن المنصور. اشتهر بحروبه ضدّ البيزنطيين. أنشأ الطرق العامة، وحسّن جهاز البريد. توفي سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٣) الخدور: جمع خدر، وهو كل ما يتوارى به، والسّتر يمدّ للجارية في ناحية البيت.

(٤) الحور: جمع حوراء، صفة للجارية أو لغير الجارية التي في عينيها حور، وهو شدّة بياض العين وسوادها.

(٥) العين: جمع عيناء، وهي الواسعة العين.

(٦) الكناس: بيت الظبي، يجعله من الشجر.

(٧) القطين: جمع القاطن، وهم أهل الدار والخدم والأتباع، للواحد والجمع.

(٨) المحاجر: جمع محجر. ومحجر العين، ما دار بها.

فكأنما تلك الوجوهُ أهلّةٌ أقمرْنَ بين العشْرِ والعِشْرينا[١]

وكأنهنّ إذا نهضْنَ لِحَاجةٍ ينهضْنَ بالعَقَدَاتِ مَنْ يَبْرِينا[٢]

وأشعاره في هذا النوع كثيرة.

رُوِيَ عن الأصمعيّ[٣] قال: دخلت أنا وإسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ يومًا على الرشيد فرأيناه لَقِسَ[٤] النفس؛ فأنشده إسحٰق: [من الطويل]

وآمرةٍ بالبُخل قلتُ لها اقْصِري[٥] فذلك شيءٌ ما إليه سبيلُ

أرى الناس خُلّان[٦] الكرامِ ولا أرى بخيلًا له حتى المماتِ خليل

وإني رأيتُ البخل يُزْرِي[٧] بأهله فأكرمتُ نفسي أن يقال بخيل

ومن خيرِ حالاتِ التي لو علمته إذا نال خيرًا أن يكون يُنِيل[٨]

فِعالِي فعالُ المُكثِرين تجمُّلًا[٩] ومالي كما قد تعلمين قليل

وكيف أخافُ الفقر أو أُحرَمُ الغِنَى ورأيُ أمير المؤمنين جميل!

قال: فقال الرشيد: لا تخفْ إن شاء الله؛ ثم قال: للهِ درُّ أبياتٍ تأتينا بها ما أشدَّ أصولَها، وأحسنَ فصولَها، وأقلّ فُضُولَها! وأمر له بخمسين ألف درهم. فقال له

---

(١) الأهلّة: جمع الهلال، وهو الشهر في أوله. وأقمرن: صرن أقمارًا، ولا يسمى القمر قمرًا إلا إذا مضى عليه عشر ليالٍ حتى العشرين.

(٢) نهضن: قمن. والعقدات: ما عقدت من البناء. ويبرين: اسم رمل مشهور بظبائه، وهو رمل لا تدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة، وقيل بأعلى بلاد بني سعيد. وقيل: من أصقاع البحرين قريبًا من هجر والأحساء.

(٣) الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك، اللغوي البصري المشهور. تلميذ أبي عمرو بن العلاء. عهد إليه هارون الرشيد بتعليم الأمين. له كتب كثيرة أهمها: «خلق الإنسان» و«الخيل» و«الإبل» و«الأضداد». وأشهر كتبه الأدبية «الأصمعيات» جمع فيها عددًا من أشعار العرب مات سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م. انظر حياته مفصّلة في المقدمة من كتاب «فقه اللغة» للثعالبي، ص ١٩. المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٢٠.

(٤) اللَّقِس مشتق من لقِست نفسه من الشيء غثت وخبثت. وورد في الحديث الشريف «لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لَقِست نفسي». وإنما كره ﷺ ذلك هربًا من لفظ الخبث والخبيث أن يوصف بهما المؤمن.

(٥) اقصري: كفي.

(٦) خلّان: أصدقاء.

(٧) يزري: يعيب ويحقر.

(٨) ينيل: يعطي ويجود.

(٩) تجمّلًا: تكلّفًا.

إسحٰق: وصفُك والله يا أمير المؤمنين لشِعري أحسنُ منه، فعلَام آخذ الجائزة! فضحك الرشيدُ وقال: اجعلوها مائةَ ألفِ درهم. قال الأصمعيّ: فعلمت يومئذ أن إسحٰقَ أحذقُ بصيد الدراهم منّي.

قال أبو عبد الله بن حمدون: سأل المتوكل[١] عن إسحٰقَ، فعُرِّف أنه كُفّ[٢] وأنه بمنزله ببغدادَ، فكتب في إحضاره. فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قُدّامَ السريرِ وأعطاه مخدّةً وقال: بلغني أن المعتصمَ[٣] دفع إليك في أوّل يوم جلستَ بينَ يديه مخدّةً، وقال: إنه لا يستجلبُ ما عند حرّ مثلُ إكرامه. ثم سأله: هل أكل؟ فقال: نعم؛ فأمر أن يُسقَى. فلما شرب أقداحًا قال: هاتوا لأبي محمد عُودًا؛ فجِيءَ به فاندفع يغنّي بشعره: [من البسيط]

ما عِلّة الشيخ عيناه بأربعةٍ تَغْرَوْرِقانِ[٤] بدمعٍ ثم ينسَكبُ

قال ابن حَمْدون: فما بقي غلامٌ من الغِلمان الوقوفِ على الحَيْر[٥] إلا وجدتُه يرقُص طربًا وهو لا يعلم بما يفعل؛ فأمر له بمائة ألفَ دينار. ثم انحدر المتوكل إلى الرّقّة[٦] وكان يستطيبُها لكثرة تغريدِ الطير فيها؛ فغنّاه إسحٰق: [من الطويل]

أأَنْ هَتَفتْ وَرْقاءُ في رَوْنقِ الضُّحَى على فَنَنٍ غضُّ النباتِ مِنَ الرَّنْدِ
بكيتَ كما يبكي الوليدُ ولم تزل جليدًا وأبديت الذي لم تكن تُبْدِي[٧]

(١) المتوكل على الله: لقب الخليفة العباسي العاشر جعفر بن المعتصم. أحبّ السنّة وحارب المعتزلة، ولم يقل بخلق القرآن، بخلاف المأمون. اغتاله القواد الأتراك، سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م. فكان اغتياله بداية انحطاط الخلافة العباسية. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٣.

(٢) كفّ: صار كفيفًا وضريرًا.

(٣) المعتصم بالله، لقب الخليفة العباسي الثامن محمد بن هارون الرشيد. خلف أخاه المأمون، واستعان بالجنود الأتراك. قضى قائده الإفشين على ثورة بابك الخرّمي. هزم البيزنطيين واحتلّ عمورية. بنى سامرّاء وجعلها عاصمة ملكه وخلافته. مال إلى المعتزلة وقال بخلق القرآن. مات سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣٠٥.

(٤) تغرورقان: تدمعان كأنهما غرقتا في دمعهما.

(٥) الحير: اسم القصر الذي بناه المتوكل بسامرّاء.

(٦) الرّقة: مدينة في شمال سورية على الفرات. أسسها السلوقيون. جعلها الرشيد عاصمة صيفيّة وبنى فيها قصر السلام فعرفت بمدينة الرشيد. دمّرتها غزوات المغول في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

(٧) الشعر لابن الدمينة. والورقاء: الحمامة. والرونق: الضياء. والرند: ضرب من الطّيب. والفنن: الغصن. والجليد: القوي.

فضحك المتوكلُ ثم قال: يا إسحٰق، هذه أُخْتُ فَعلتِك بالواثق لمّا غنّيته بالصالحيّة[١]: [من الوافر]

طَرِبتُ إلى أُصَيْبِيَةٍ[٢] صِغارِ وذكَّرني الهوى قربُ المزارِ

فكم أعطاك لمّا أذِن لك في الانصراف؟ قال: مائة ألف دينار؛ فأمر له بمائة ألف دينار وأذن له بالانصراف. وكان آخر عهده بإسحٰق. تُوفي بعد ذلك بشهرين. وكانت وفاتُه في شهر رمضانَ سنةَ خمسٍ وثلاثينَ ومائتين. وكان يسأل الله تعالى ألا يبتليه بالقُولَنج[٣] لِما رأى من صعوبته على أبيه، فرأى في منامه كأنّ قائلًا يقول له: قد أُجيبت دعوتُك ولست تموتُ بالقُولَنجِ ولكنّك تموت بضدِّه، فأصابه ذَرَبٌ[٤] في شهر رمضان، فكان يتصدّقُ في كل يومٍ يمكنُه صومه بمائة درهم، ثم ضعُف عن الصوم فلم يُطِقه ومات في الشهر. ولما نُعِي إلى المتوكل غمّه وحزِن عليه وقال: ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته. رحمه الله تعالى.

ذِكْرُ أخبار عَلُّويَه

هو أبو الحسن عليُّ بنُ عبدِ الله بن سيف. وجدُّه سيفٌ من الصُّغْدِ[٥] الذين سباهم الوليدُ بنُ عثمانَ بنِ عفّان واسترقّ[٦] منهم جماعةً اختصّهم لخدمتهِ وأعتق بعضَهم ولم يُعتِق الباقين فقتلوه. قال أبو الفرج الأصفهاني: وكان عليٌّ هذا مغنّيًا حاذقًا، ومؤدِّبًا مُحسِنًا، وصانعًا متقِنًا، وضاربًا متقدّمًا، مع خفّة رُوحٍ وطيب مجالسةٍ وملاحَةِ نوادر. وكان إبراهيمُ الموصليُّ علّمه وخرّجه وعُنِي بتحذيقه جدًّا، فبرع وغنّى لمحمد الأمينِ[٧] وعاش إلى أيام المتوكّلِ وما بعدَ إسحٰقَ الموصلي بيسير.

---

(١) الصالحية: موقع على الفرات، بالدقة بمحافظة دير الزور، كانت تقوم عليه قديمًا مدينة دورا أوروبوس، وقد اتخذ خلفاء بني العباس من هذا الموقع مقامًا للراحة والانتجاع. انظر: معجم البلدان، لياقوت ٣/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠. دار صادر ـ دار بيروت ٣/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠ بيروت ١٩٨٤ م.

(٢) الأصيبية: تصغير صبية، وهم الأولاد.

(٣) القولنج: مرض يصيب الأمعاء، وهو السّداد.

(٤) الذرب: مرض يصيب المعدة والأمعاء.

(٥) الصغد: جماعة أو أقوام سكنوا الصغد، وهي كورة عجيبة نصبتها سمرقند، وقيل: بخارى إلى الشمال الشرقي من خراسان.

(٦) استرقّهم: جعلهم رقيقًا وعبيدًا.

(٧) الأمين: لقب الخليفة العباسي محمد بن هارون الرشيد. أمه زبيدة. قتل في نزاع حول الخلافة مع أخيه المأمون. وذلك سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣٠٠.

وكان سبب وفاته أنه خرج عليه جَرَبٌ، فشكاه إلى يحيىٰ بن ماسَوَيْهِ[١]، فبعث إليه بدواء مُسهل وطِلاء، فشرب الطلاءَ واطّلى بالدواء، فقتله ذلك. قال: وكان عَلُّويَه أعسرَ، فكان عوده مقلوبَ الأوتار: البَمُّ[٢] أسفلُ الأوتارِ كلّها ثم المِثْلَثُ[٣] فوقَه ثم المَثْنَى[٤] ثم الزِّيرُ[٥]؛ فكان عودُه إذا كان في يد غيرِه يكونُ مقلوبًا، وإذا أخذه كان في يده اليمنى وضرب باليسرى فيكون مستويًا. وكان إسحٰقُ يتعصّبُ له في أكثر أوقاته على مُخَارِق[٦]. وقال حماد بنُ إسحٰقَ: قلتُ لأبي: أيّما أفضل عندكَ مُخَارقٌ أم عَلُّويه؟ فقال: يا بنيّ، عَلُّويه أعرقُهما فهمًا بما يخرج من رأسه، وأعلمُهما بما يغنّيه ويؤدّيه، ولو خُيّرت بينهما من يطارح[٧] جواريّ، أو شاورني من يستنصحني لما أشرت إلا بعَلُّويه؛ لأنه يؤدّي الغناءَ، وإذا صنع شيئًا صنعه صَنعةً مُحكمةً، ومخارقٌ لتمكُّنِه من حَلقهِ وكثرةِ نَغَمه لا يُقْنَع بالأخذ منه، لأنه لا يؤدّي صوتًا واحدًا كما أخذه ولا يغنّيه مرّتين غناءً واحدًا لكثرة زوائدِه فيه، ولكنهما إذا اجتمعا عندَ خليفةٍ أو سُوقةٍ[٨] غلب مُخارق على المجلس والجائزةِ بطيب صوتهِ وكثرةِ نغمه.

وقال أبو عبد الله بن حمدون: حدّثني أبي قال: اجتمعتُ مع إسحٰقَ يومًا في بعض دُور بني هاشم، وحضر علُّويه فغنّى أصواتًا ثم غنّى من صنعته: [من الطويل]

ونُبِّئتُ ليلى أُرسِلتْ بشفاعةٍ إليّ فهلّا نفسُ ليلى شفيعُها!

فقال له إسحٰق: أحسنتَ أحسنتَ واللهِ يا أبا الحسن! أحسنتَ ما شئت! فقام علُّويه من مجلِسه فقبّل رأسَ إسحٰقَ وعينيْه وجلس بينَ يديه وسُرّ بقولهِ سرورًا كثيرًا؛ ثم قال: أنت سيدي وابن سيدي وأستاذي وابن أستاذي، ولي إليك حاجة. قال: قل، فوالله إني أبلُغ فيها ما تُحبّ. قال: أيّما أفضلُ أنا عندك أم مُخارق؟ فإني أُحبّ أن أسمعَ منك في هذا المعنى قولًا يُؤثَرُ ويحكيه عنك من حضر، فشرِّفني به. فقال

---

(١) هو يوحنا، ويعرف بابن ماسويه، الطبيب السرياني المشهور. خدم الرشيد وخلفاءه حتى المتوكل. ولّاه الرشيد ترجمة كتب الطبّ القديمة. من آثاره: «النوادر الطبّية» و«كتاب الحميات» و«كتاب الأزمنة». توفي سنة ٨٥٧ م.

(٢) البَمّ: أغلظ أوتار العود.

(٣) المثلث: ثالث أوتار العود.

(٤) المثنى: ثاني أوتار العود.

(٥) الزير: أدق أوتار العود.

(٦) مخارق: من مشاهير المغنّين في العهد العباسي. نادم الرشيد والمأمون. توفي سنة ٨٤٥ م.

(٧) يطارح: يناظر ويجاوب.

(٨) السوقة: الرعيّة من الناس، لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء من أمره.

إسحٰق: ما منكما إلا مُحسِنٌ مُجمِل، فلا تُرِد أن يجري في هذا شيء. قال: سألتك بحقّي عليك وبتُرْبة أبيك وبكل حقّ تُعظِّمه إلا حكمت! فقال: ويحك! والله لو كنت أستجيز أن أقول غير الحق لقلته فيما تحب، فأمّا إذ أبيتَ إلا ذكر ما عندي، فلو خُيّرت أنا من يطارح جواريّ ويُغنِّيني لما اخترت غيرك، ولكنكما إذا غنّيتما بين يدي خليفةٍ أو أمير غلبك على إطرابه واستبدّ عليك بجائزته. فغضب علُّويه وقام وقال: أُفٍّ من رضاك وغضبِك!

وكان الواثقُ بالله يقول: علُّويه أصحُ الناسِ صنعةً بعدَ إسحٰقَ، وأطيبُ الناس صوتًا بعد مُخارق، وأضربُ الناسِ بعدَ زَلْزَلٍ[1] وملاحظ، فهو مُصَلِّي[2] كلِّ سابق نادر وثاني كل أوّل، وأصلُ كل متقدّم. وكان يقول: غناء علُّويه مثل نقر الطَّست[3] يبقى ساعة في السمع بعد سكوته.

وقال عبد الله بنُ طاهر[4]: لو اقتصرت على رجل واحد يغنّيني لما اخترتُ سوى علُّويه؛ لأنه إن حدّثني ألهاني، وإن غنّاني أشجاني، وإن رَجعت إلى رأيه كفاني.

وقال محمد بنُ عبدِ الله بنِ مالك: كان علُّويه يغنّي بين يدي الأمين، فغنَّى في بعض غنائه: [من الرمل]

لـيـتَ هـنـدًا أنـجـزتـنـا مـا تـعِـدْ   وشَـفَـت أنـفُـسَـنـا مِـمـا تَـجِـدْ[5]

وكان الفضل بنُ الربيعِ[6] يضطغن[7] عليه شيئًا، فقال للأمين: إنما يُعرِّض بك ويستبطىء المأمونَ في محاربته إياك؛ فأمر به فضُرِب خمسين سوطًا وجُرّ برجله حتى

---

(١) زلزل: من أشهر المغنيّن العباسيين، ومثله ملاحظ.

(٢) المصلّي، اسم الفاعل من صلّى الفرس تصلية، إذا جاء بعد السابق.

(٣) الطست، الإناء من نحاس وغيره.

(٤) عبد الله بن طاهر، من أشهر الولاة في عهد المأمون العباسي. وطّد الأمن في مصر. خلف أخاه طلحة في حكم خراسان. توفي سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م. انظر: الفهرست، ص ٢٧٠.

(٥) هذا الشعر لعمر بن أبي ربيعة. وتجد: تحزن من شدة العشق والحب. انظر القصيدة كاملةً في: ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٧٣، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت ١٩٦٨.

(٦) الفضل بن الربيع، حاجب المنصور العباسي، صار وزيرًا للرشيد بعد نكبة البرامكة. ولما جاء الأمين أقرّه في الوزارة، لكن المأمون أبعده منها. توفي سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٤ م. انظر: الفهرست، ص ٢٣٦.

(٧) يضطغن: يحقد.

أُخرِج، وجفاه مدّة؛ حتى سأل كوثرًا أن يترضّاه له فترضّاه له وردّه إلى الخدمة وأمر له بخمسة آلاف درهم. فلما قدِم المأمون تقرّب إليه بذلك فلم يقع له بحيث يحبّ، وقال: إن الملك بمنزلة الأسدِ أو النار فلا تتعرّضْ لما يُغضبه، فإنه ربما جرى منه ما يُتلفُك ثم لا يَقدِر بعد ذلك على تلافي ما فَرَط منه؛ ثم قرُب من المأمون بعد ذلك.

قال علّويه: أمرنا المأمون أن نباكره لنصطبح[1]، فلقيني عبدُ اللهِ بن إسماعيلَ المراكبي مولى عَرِيب[2] فقال: أيها الظالمُ المعتدي، أمَا ترحمُ ولا ترِقّ! عَرِيب هائمة من الشوق إليك تدعو الله وتستحكمُه عليك وتحلُم بك في نومها في كل ليلة ثلاث مرات. قال علّويه: فقلت أمّ الخلافة زانية ومضيت معه. فحين دخلت قلت: أستوثق من الباب فإني أعرَفُ الناس بفضول الحُجّاب؛ وإذا عَريب جالسة على كرسيّ تطبخ ثلاث قدور من دَجاج. فلما رأتني قامت فعانقتني وقبّلتني وقالت: أيَّ شيء تشتهي؟ فقلت: قِدْرًا من هذه القدور؛ فأفرغت قِدْرًا بيني وبينها فأكلنا، ودعت بالنبيذ فصبّت رِطلًا فشربَتْ نصفه وسقتني نصفه؛ فما زلتُ أشربُ حتى كدْتُ أن أسكر. ثم قالت: يا أبا الحسنِ، غنّيتُ البارحةَ في شعر لأبي العتاهيةِ[3] أعجبني، أفتسمعه وتُصلحه؟ فغنّت: [من الطويل]

عَذِيري من الإنسان لا إن جَفَوتُه ... صفا لي ولا إن صرتُ طوْعَ يديه
وإنّي لَمشتاقٌ إلى ظِلّ صاحبٍ ... يروقُ ويصفُو إن كَدِرْتُ عليه[4]

فصيّرناه مجلسنا. وقالت: قد بقي فيه شيء؛ فلم أزل أنا وهي حتى أصلحناه. ثم قالت: أُحبّ أن تغنّي أنت أيضًا فيه لحنًا ففعلتُ، وجعلنا نشرب على اللحنين ثلاثًا. ثم جاء الحُجّاب فكسروا الباب واستخرجوني، فدخلت على المأمون فأقبلت

(١) نصطبح: نتناول خمرة الصباح.
(٢) عريب: ويطلق عليها اسم عريب المأمونية، شاعرة مغنيّة قرّبها المأمون فنسبت إليه. عشقها إبراهيم بن المدبّر، فكانا يتراسلان شعرًا ونثرًا. توفيت سنة ٨٩٠ م.
(٣) أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم، شاعر مكثر سهل الأسلوب. نشأ في الكوفة واشتغل بصناعة الجرار. كني بأبي العتاهية لميله إلى التعته والمجون. لكنه غلب عليه الزهد والنسك في آخر حياته ووضع شعرًا في الزهد من أرقى الشعر وأوفره. اتصل بالمهدي والهادي وبلغ منزلة عالية عند الرشيد. له ديوان شعر مطبوع. مات سنة ٨٢٥ م.
(٤) العذير: القادر، والناصر أو النصير. وجفوته: ابتعدت عنه. وانظر الشعر في: ديوان أبي العتاهية. ط دمشق ١٩٧٥ م.

أرقُص من أقصى الإيوان[١] وأُصفّق وأُغنّي بالصوت؛ فسمع المأمون والمغنُّون ما لم يعرفوه فاستطرفوه، وقال المأمون: ادنُ يا علُّويه وردّده، فردّدته عليه سبع مرات. فقال لي في آخرها عند قولي: «يروق ويصفو إن كَدِرت عليه»: يا علُّويه خذ الخلافة وأعطني هذا الصاحب.

وقال علُّويه: قال إبراهيم الموصليّ يومًا: إني قد صنعت صوتًا وما سمعه مني أحد بعدُ، وقد أحببت أن أنفعك به وأرفع منك بأن أُلقيه عليك وأَهَبَه لك، ووالله ما فعلت هذا بإسحٰق قطّ، وقد خصَصْتك به، فانتحله وادّعِه، فلست أنسبه إلى نفسي، وستكسِب به مالًا. فألْقَى عليّ: [من الطويل]

إذا كان لي شيئانِ يا أمَّ مالكٍ فإنَّ لجارِي منهما ما تخيَّرا[٢]

فأخذتُه عنه وادّعيته، وسترته طولَ أيامِ الرشيدِ خوفًا من أن أُتَّهَمَ فيه وطولَ أيام الأمين، حتى حدث عليه ما حدث وقدِم المأمون من خُراسانَ، وكان يخرج إلى الشَّمّاسِيّة[٣] فيتنزّه، فركبت يومًا في زُلَالِي[٤] وجئت أتبعه، فرأيت حَرّاقة[٥] عليّ بنِ هشامٍ، فقلت للملّاح: اطرحْ زُلَالي على الحرّاقة ففعل، واستؤذِن لي فدخلت وهو يشربُ مع الجواري، وما كانوا يحجبون جواريَهم، فغنّيته الصوتَ فاستحسنَه جدًّا وطرِب عليه، وقال: لمن هذا؟ فقلت: هذا صوت صنعتُه وأهديتُه لك ولم يسمعْه أحدٌ قبلَك؛ فازداد به عجبًا وطربًا، وقال للجارية: خُذِيه عنه، فألقيته عليها حتى أخذته، فسُرّ بذلك وطرِب، وقال لي: ما أجد لك مكافأة على هذه الهديّة إلا أن أتحوّل عن هذه الحرّاقة بما فيها وأسلمه إليك؛ فتحوّل إلى أخرى وسُلّمت لي بخزانتها وجميع آلاتها وكل شيء فيها؛ فبعت ذلك بمائة ألف وخمسين ألف درهم، واشتريت ضيعتي الصالحية.

وقال عَلّويه: خرج المأمون يومًا ومعه أبياتٌ قد قالها وكتبها في رُقعة بخطّه وهي: [من الطويل]

خرجتُ إلى صَيْدِ الظِّباء فصَادَني هُناكَ غَزَالٌ أدْعجُ العَيْنِ أحْوَرُ[٦]

---

(١) الإيوان: المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاثة حيطان، وهو القصر أيضًا.
(٢) أم مالك: كنية التي يتحدث عنها الشاعر ويخاطبها.
(٣) الشماسية: وهي مجاورة لدار الروم في أعلى مدينة بغداد. وهي تنسب إلى بعض شمّاسي النصارى.
(٤) الزلالي: ضرب من المراكب النهرية. (٥) الحراقة: ضرب من المراكب النهرية.
(٦) الأحور: الذي فيه حور، أي شدة بياض العين وشدة سوادها، وهو كناية عن الحبيب. =

غـزالٌ كـأنّ الـبَـدْرَ حـلّ جـبـيـنَـه وفي خدّه الشِّعْرَى[١] المُنِيرةُ تَزْهَرُ
فـصـادَ فُـؤادي إذ رَمـانـي بـسـهـمـه وسهمُ غزالِ الإنس طرْفٌ ومحْجَرُ[٢]
فيا من رأى ظبيًا يصِيد، ومن رأى أخا قَنَصٍ يُصطادُ قهرًا ويُقْسَرُ[٣]

قال: فغنّيته فأمر لي بعشرين ألف درهم.

ذِكْر أخبارِ معبَد اليَقْطيني

قال أبو الفرج: كان معبَد هذا غلامًا مولّدًا[٤] من مولّدي المدينة، أخذ الغناء عن جماعة من أهلها، واشتراه بعضُ ولدِ عليّ بنِ يَقْطين[٥]. وأخذ الغناء بالعراق عن إسحٰقَ وابنِ جامع وطبقتِهما، وخدم الرشيدَ ولم يخدمْ غيرَه من الخلفاء، ومات في أيامه. وكان أكثرُ انقطاعِه إلى البرامكة[٦]. وروى أبو الفرج الأصفهانيُّ حكايةً عنه أحببت أن أذكرَها في هذا الموضع، وهي ما رواه بسنده إلى محمد بنِ عبدِ الله بنِ مالكٍ الخُزَاعيّ، قال: حدّثني معبَد الصغير المغنّي مولى علي بنِ يَقْطين قال: كنت منقطعًا إلى البرامكةِ أُحدّثُهم وأُلازمُهم. فبينا أنا ذاتَ يوم في منزلي إذ أتاني آتٍ فدقّ بابي، فخرج غلامي ثم رجع إليّ فقال لي: على الباب فتى ظاهرُ المُروءة يستأذنُ عليك؛ فأذِنت له، فدخل شابٌ ما رأيت أحسنَ وجهًا منه ولا أنظفَ ثوبًا ولا أجمل زِيًّا منه من رجلٍ دَنِفٍ عليه آثارُ السّقم ظاهرة. فقال لي: إني أُحاول لقاءك منذ مدّة ولا أجد إلى ذلك سبيلًا، وإن لي حاجة. فقلت: وما هي؟ فأخرج ثلاثمائة دينارٍ فوضعها بين يديّ فقال: أسألك أن تقبلَها وتصنع في بيتين قلتُهما لحنًا تغنّيني به.

= والأدعج: الواسع العينين أسودهما.

(١) الشعرى: نجم مشهور، وهو نوعان: الشعري الشامية في السماء الشمالية، والشعري اليمانية في السماء الجنوبية.

(٢) الطرف: العين. والمحجر، مكانها ومستقرّها.

(٣) يقسر: يرغم ويؤسر.

(٤) المولّد من الأعاجم: من ولد في ديار العرب فتأثر بهم وبأخلاقهم وآدابهم.

(٥) علي بن يقطين: أحد أتباع الإمام الصادق، ومن شيعته. عمل لدى الخلفاء العباسيين وكان يقضي مصالح المقرّبين إليه.

(٦) البرامكة: أسرة فارسية من بلخ. تولّى أبناؤها الوزارة في عهد العباسيين. عظم شأنهم وقرّبوا الشعراء واشتهروا بالكرم. نقم عليهم الرشيد ونكبهم؛ أشهرهم خالد بن برمك الذي خدم السفّاح، ويحيىٰ بن خالد مؤدب الرشيد ووزيره، والفضل بن يحيىٰ مؤدب الأمين، وجعفر بن يحيىٰ الذي قتله الرشيد سنة ٨٠٣ م. انظر خبر نكبتهم في: مروج الذهب، للمسعودي، ٣/ ٣٨٧.

فقلت: هاتِهما؛ فأنشدني: [من البسيط]

والله يا طَرْفِي[١] الجاني على بَدنِي لتُطفِئَنَّ بدمعي لوعَة الحَزَنِ

أو لأبوحنّ حتى يحجُبُوا سَكَنِي فلا أراه وقد أُدرِجتُ[٢] في كَفَنِي

قال: فصنعت فيه لحنًا ثم غنّيته إياه، وأُغمِي عليه حتى ظننته قد مات، ثم أفاق فقال: أعِدْ، فديتُك! فناشدتُه الله في نفسه وقلت: أخشى أن تموت؛ فقال: هيهات! أنا أشقى من ذلك. وما زال يخضع لي ويتضرّع حتى أعدته، فصعِق صعقةً أشدَّ من الأولى حتى ظننت أنّ نفسَه قد فاضت[٣]. فلما أفاق رددت عليه الدنانيرَ فوضعتُها بين يديه، وقلت: يا هذا، خذ دنانيرَك وانصرفْ عني، قد قضيت حاجتَك وبلغت وطرًا[٤] مما أردته، ولست أُحبّ أن أُشركَ في دمك. فقال: يا هذا، لا حاجة لي في الدنانير، وهذه مثلُها لك، ثم أخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يديّ وقال: أعِد الصوتَ عليّ مرةً أُخرى وحِلٌّ لك دمي! فشرِهَتْ[٥] نفسي في الدنانير، وقلت: لا والله ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط. قال: وما هي؟ قلت: أولاهن أن تقيم عندي وتتحرّمَ بطعامي. والثانية أن تشربَ أقداحًا من النبيذ تُطَيِّبُ قلبك وتسكُن ما بك. والثالثة أن تُحدّثني بقصّتك. قال: أفعلُ ما تريد. فأخذت الدنانير ودعوتُ بطعامٍ فأصاب منه إصابة مُعَذِّر[٦]، ثم دعوت بالنبيذ فشرب أقداحًا، وغنّيته بشعرِ غيره في معناه وهو يشربُ ويبكي، ثم قال: الشرطَ أعزّكَ الله! فغنّيته صوته فجعل يبكي أحرّ بُكاءٍ ويَنْشِج أشدّ نَشِيج وينتحب. فلما رأيت ما به قد خفّ عما كان يلحَقه ورأيت النبيذ قد شدّ قلبَه، كررت عليه صوتَه مرارًا. ثم قلت: حدّثْني حديثك، فقال: أنا رجل من أهل المدينة خرجت متنزّهًا في ظاهرها وقد سال العقيق[٧] في فِتية من أقراني وأخداني[٨]، فبصرنا بفَتَيات قد خرجت لمثل ما خرجنا له، فجلسن حَجْرَةً[٩] منا، وبُصِرْتُ منهن بفتاة كأنها قضيبٌ قد طلّه الندى، تنظر بعينين ما ارتد طرْفَهما إلا بنفس مَن

---

(١) طرفي: عيني وبصري.
(٢) أدرجت: دخلت.
(٣) فاضت: خرجت وانسلخت منه.
(٤) وطرًا: مأربًا وحاجة.
(٥) شرهت: طمعت.
(٦) المعذّر: المقصّر في الأمر بعد جهد.
(٧) العقيق: وادٍ بناحية المدينة وفيه عيون ونخل ودور وقصور ومنازل وقرى. وكان هذا الوادي يمتلىء بالمياه ثم تنضب فيترك في جنابه من الزهر والنور والنبت، من كل زوج بهيج. وقد تغنّى بحسنه ومقيله الشعراء والمغنّون. انظر: معجم البلدان ٤/ ١٣٩ ـ ١٤٠.
(٨) أخداني: أصدقائي، جمع خدن.
(٩) الحجرة: الناحية.

يلاحظهما. فأطلنا وأطلن حتى تفرّقَ الناسُ، وانصرفن وانصرفنا وقد أبقت بقلبي جُرحًا بطيئًا اندمالُه[١]؛ فعدت إلى منزلي وأنا وَقِيذ[٢]، وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحدٌ فلم أر لها ولا لصواحبها أثرًا، ثم جعلت أتتبّعها في طرق المدينة وأسواقها، وكأنّ الأرض أضمَرتها فلم أحسَّ لها بعين ولا أثر، وسقِمت حتى أيِس مني أهلي. وخَلتْ بي ظِئري[٣] فاستعلمتني حالي وضمنت لي كتمانَها والسعي فيما أحبّه منها، فأخبرتها بقصتي؛ فقالت: لا بأس عليك، هذه أيام الربيع وهي سنة خِصْب وأنواءٍ[٤] وليس يبعد عنك المطرُ، ثم هذا العقيقُ فتخرج حينئذٍ وأخرج معك فإن النسوة سيجئن؛ فإذا فعلن ورأيتُها أتبعُها حتى أعرف موضعها ثم أصل بينك وبينها وأسعى لك في تزويجها. فكأنّ نفسي اطمأنت إلى ذلك ووثِقت به وسكنت إليه، فقوِيتُ وطمِعت وتراجَعتْ إليّ نفسي. وجاء مطر بعقبِ ذلك وسال العقيق وخرج الناس وخرجت مع إخواني إليه، فجلسنا مجلِسنا الأوّل بعينه، فما كنا والنسوةَ إلا كفَرَسَيْ رِهان[٥]؛ فأومأتُ إلى ظِئري فجلستْ، وأقبلتُ على إخواني فقلت: لقد أحسن القائل: [من الطويل]

رمتني بسهم أقصدَ القلبَ[٦] وانثنَتْ وقد غادرتْ جُرْحًا به ونُدُوبا[٧]

فأقبلتْ علي صواحباتها وقالت: أحسن والله القائل، وأحسن من أجابه حيث يقول: [من الطويل]

بنا مثلُ ما تشكو فصبْرًا لعلّنا نرى فَرَجًا يَشفِي السَّقامَ[٨] قَرِيبًا

فسكتُّ عن الجواب خوفًا من أن يظهر مني ما يفضحُني وإياها، وعرفت ما أرادت. ثم تفرّق الناس وانصرفنا، وتبعَتْها ظئري حتى عرفت منزلَها، وصارت إليّ فأخذت بيدي ومضينا إليها، فلم نزل نتلطّف حتى وصلتُ إليها، فتلاقينا وتزاورنا على حال مخالسةٍ ومُراقبةٍ، حتى شاع حديثي وحديثُها وظهر ما بيني وبينها، فحجبها أهلها

---

(١) اندماله: شفاؤه. (٢) الوقيذ: الشديد العياء والمرض.
(٣) الظئر: الأنثى العاطفة على ولد غيرها.
(٤) الأنواء: جمع نوء، وهو المطر في وقت معلوم، تنبىء به مطالع النجوم ومساقطها. وهي ثمانية وعشرون نوءًا على مدار العام، وكل نوء يساوي ثلاثة عشر يومًا.
(٥) فرسا الرهان: هما الفرسان اللذان يعدوان في الحلبة، ويتراهن على أيّ يكون سابقًا.
(٦) أقصد القلب: أصابه. (٧) الندوب: الجروح.
(٨) السقام: العلّة والمرض.

وسدّوا أبوابها؛ فما زلت أجهد في لقائها فلا أقدِر عليه، وشكوت ذلك إلى أبي لشدّة ما نالني وسألته خِطْبَتَها لي. فمضى أبي ومَشْيَخة أهلي إلى أبيها فخطبوها؛ فقال: لو كان بدأ بهذا قبل أن يفضَحها ويشهَرها لأسعفته بما التمس، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقّق قول الناس فيها بتزويجه إياها؛ فانصرفتُ على يأسٍ منها ومن نفسي. قال معبد: فسألته أن ينزل بجواري، وصارت بيننا عِشرة. ثم جلس جعفرُ بنُ يحيىٰ[1] ليشربَ فأتيتُه، فكان أوّل صوت غنّيته صوتي في شعر الفتى، فشرِب وطرِب عليه طربًا شديدًا، وقال: ويحك! إن لهذا الصوت حديثًا فما هو؟ فحدّثته، فأمر بإحضار الفتى فأُحضِر من وقته، واستعاده الحديث فأعاده؛ فقال: هي في ذمتي حتى أزوّجك إياها؛ فطابت نفسُه وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح، وغدا جعفر إلى الرشيد فحدّثه الحديثَ، فعجب منه وأمر بإحضارنا جميعًا فأُحضِرنا، وأمر بأن أغنّيه الصوتَ فغنيته إياه وشرِب عليه وسمع حديث الفتى؛ فأمر من وقته بكتاب إلى عاملِ الحجازِ بإشخاصِ[2] الرجلِ وابنتِه وجميعِ أهله إلى حضرتِه؛ فلم تمضِ إلا مسافةُ الطريقِ حتى أُحضِروا. فأمر الرشيدُ بإحضارِ أبي الجاريةِ إليه فأُحضِر، وخطب إليه الجارية للفتى وأقسم عليه ألّا يخالف أمرَه؛ فأجابه وزوّجها إياه؛ وحمل الرشيدُ إليه ألفَ دينار لجِهازها وألف دينارٍ لنفقة طريقِه، وأمر للفتى بألفِ دينار ولي بألف دينار، وأمر جعفرٌ لي وللفتى بألف دينار. وكان المدِينيُّ بعدَ ذلك من نُدماء جعفرِ بنِ يحيىٰ.

ذكر أخبار محمد الرّف

هو محمدُ بنُ عمرو مولى بني تميم، كوفيُّ المولدِ والمنشأ. والرفّ لقبٌ غلبَ عليه. وكان مُغنّيًا ضاربًا صالحَ الصَّنعةِ مليحَ النادرة. وكان أسرعَ خلقِ اللهِ أخذًا للغِناء وأصحَّهم أداءً له وأذكاهم. وكان إذا سمع الصوتَ مرتين أو ثلاثًا أدّاه لا يكونُ بينَه وبينَ مَن أخذه عنه فرقٌ فيه. وكان متعصِّبًا على ابن جامع مائلًا إلى إبراهيمَ الموصليّ وابنِهِ إسحٰقَ، وكانا يرفعان منه ويقدّمانه ويأخذانِ له الصِّلاتِ من الخلفاء. وكانت فيه عربدةٌ إذا سكِر. فعربد بحضرة الرشيدِ مرةً، فأمر بإخراجِهِ ومنعه من الدخول إليه

---

(١) جعفر بن يحيىٰ: الوزير البرمكي، جعفر بن يحيىٰ بن خالد بن برمك، قرّبه الرشيد ثم انقلب عليه لأسباب غير واضحة وقتله في نكبة مشهورة تعرف بنكبة البرامكة، وذلك سنة ٨٠٣ م. انظر: مروج الذهب، ٣/ ٣٨٧.

(٢) إشخاص: إحضار.

وجفاه وتناساه. قال أبو الفرج: وأحسبه مات في خلافتِه أو خلافة الأمين. ومن أخباره في جودة الأخذِ وسرعة الحفظِ ما رواه حمادُ بنُ إسحٰقَ عن أبيه قال: غنّى ابن جامع يومًا بحضرة الرشيد: [من الطويل]

جَسُورٌ[1] على هجري جَبانٌ عن الوصلِ
كذوبُ عِدَاتٍ[2] يُتْبِعُ الوعدَ بالمَطْلِ[3]
مُقَدِّمُ رِجلٍ في الوِصَالِ مؤخِّرٌ
لأُخرى يشوبُ[4] الجِدّ في ذاك بالهَزْلِ
يَهُمّ بنا حتى إذا قلتُ قد دَنَا
وجاذبني عِطْفاه[5] مالَ إلى البُخْلِ
يزيدُ امتناعًا كلما زِدْتُ صبْوَةً[6]
وأزدادُ حِرْصًا كلما ضَنّ[7] بالبَذْلِ[8]

فأحسن فيه ما شاء وأجمل، فغمزت عليه محمد الرفّ وفَطِن لما أردت، واستحسنه الرشيدُ وشرب عليه واستعاده مرتين أو ثلاثًا. ثم قمتُ إلى الصلاة وغمزت الرفَّ فجاءني، وأومأتُ إلى مُخارق وعلويّهِ وعقيدٍ فجاءوني؛ فأمرته بإعادة الصوت فأعاده وأدّاه كأنه لم يزل يرويه؛ ولم يزل يكرره على الجماعة حتى غنّوه. ثم عدتُ إلى المجلس؛ فلما انتهى الدّورُ إليّ ابتدأتُ فغنّيته قبل كل شيء غنّيته. فنظر إلى ابن جامع محدّدًا طَرْفَه؛ وأقبل عليّ الرشيد وقال: أكنت تَرْوِي هذا الصوت؟ قلت: نعم يا سيّدي. فقال ابن جامع: كذب والله ما أخذه إلا مني الساعة. فقلت: هذا صوت أرويه قديمًا، وما فيمن حضر أحد إلا وقد أخذه منّي. وأقبلت عليهم فقلت لهم: غنُّوه، فغنّاه علّويهِ ثم عقيدٌ ثم مُخارِق. فوثب ابنُ جامع فجلس بين يديه فحلف بحياته وبطلاق امرأتِه أنّ اللحنَ صنعه منذُ ثلاثِ ليالٍ وما سُمِع به قبل ذلك الوقت. فأقبل الرشيد عليّ وقال: بحياتي اصدُقني عن القِصّة، فصدَقته، فجعل يضحكُ ويصفّقُ ويقول: لكل شيء آفة[9]، وآفةُ ابنِ جامعِ الرفُّ.

(١) الجسور: الجريء.
(٢) عدات: جمع عدة، وهي الوعد. من وعد عدةً ووعدًا.
(٣) المطل: التسويف.
(٤) يشوب: يخلط.
(٥) عطفاه: جانباه.
(٦) صبوةً: ميلًا إليه وحبًّا.
(٧) ضنّ: بخل.
(٨) البذل: العطاء، وهنا، كناية عن الوصال.
(٩) الآفة: العلّة.

قال إسحٰق بنُ إبراهيمَ: كان محمدُ الرفّ أروَى خلقِ الله تعالى للغناء وأسرعَهم أخذًا لما سمعه، ليست عليه في ذلك كُلْفة، إنما يسمع الصوتَ مرة واحدة وقد أخذه. وكنا معه في بلاء إذا حضر، فكان كل من غنّى منّا صوتًا فسأله عدوٌ له أو صديقٌ بأن يُلقِيَه عليه فبخِل ومنعه إياه واسأل محمد الرفّ أن يأخذه فما هو إلا أن يسمعه مرّةً واحدةً حتى أخذه وألقاه على مَنْ سأله. قال: وكان أبي يُبرّه ويصله ويُجْدِيه[1] من كل جائزة وفائدة تصل إليه. وكان محمد الرفّ مُغْرًى بابن جامعٍ خاصّةً من بين المغنّين لبخله، وكان لا يفتح ابنُ جامعٍ فاه بصوتٍ إلا وضع عينَه عليه وصغَى بسمعه إليه حتى يحكِيَه. وكان في ابن جامعٍ بخلٌ شديدٌ لا يقدِر معه على أن يُسْعِفه ببرّ ورِفْد. وساق نحو ما تقدّم إلا أنه قال: إن الرّف أخذ الصوت لأوّل مرة وألقاه على إسحٰقَ فأخذه عنه في ثلاثة مرار. قال حماد: وللرفّ صَنعةٌ يسيرة، وذكر منها أصواتًا.

ذِكْرُ أخبار محمد بن الأشعث

قال أبو الفرج: كان محمدُ بنُ الأشعثِ القرشيُّ ثم الزُّهْريّ كاتبًا، وكان من فِتيان أهل الكوفةِ وظُرفائِهم، وكان يقول الشعرَ ويُغَنّي فيه. فمن ذلك قولُه في سَلّامة زرقاء ابن رامين: [من البسيط]

أمسى لسلّامةَ الزرقاءِ في كَبِدِي ... صَدْعٌ[2] يُقيم طَوَالَ الدهر والأبَدِ

لا يستطيع صَنَاعُ[3] القومِ يَشْعَبُه[4] ... وكيف يُشْعَب صَدْعُ الحبّ في الكبِد

إلّا بوصلِ التي مِنْ حبّها انصدعتْ ... تلك الصدوعُ مِنَ الأسقام[5] والكَمَدِ[6]

وكان ملازمًا لابنِ رامينَ ولجاريتهِ سلّامةَ الزرقاء، فشُهِر بذلك، فلامه قومُه في فعله فلم يَحْفِلْ بمقالتهم؛ وطال ذلك منه ومنهم، حتى رأى بعضَ ما يكره في منزل ابن رامين، فمال إلى سحيقةَ جاريةِ زُرَيق ابنِ مَنِيح مولى عيسى بن موسى[7]، وكان زُرَيْقٌ شيخًا كريمًا نبيلًا، يجتمع إليه أشرافُ أهل الكوفةِ من كل حيّ، وكان الغالبُ على منزله رجلًا من ولدِ القاسم بنِ عبدِ الغفارِ العِجْليّ كغلبةِ

(١) يجديه: يعطيه وينوّله.
(٢) الصدع: الشّق والجرح.
(٣) الصناع: الحاذق، والأتقن صنعةً.
(٤) يشعبه: يعيده إلى ما كان عليه.
(٥) الأسقام: الآلام والأمراض.
(٦) الكمد: شدّة الحزن.
(٧) عيسى بن موسى: أمير عباسي، ابن أخي أبي العباس السفاح، أول خليفة عباسي. تولّى عيسى الكوفة ومات سنة ١٦٧ هـ/ ٧٨٣ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٢٦٦.

محمدِ بنِ الأشعث[١] على منزلِ ابنِ رامين؛ فتلازما على ملازمة زُرَيق. وفي ذلك يقول محمد بن الأشعث: [من الخفيف]

يا ابنَ رامينَ بُحتُ بالتصريح ... في هوايَ سحيقةَ ابنِ منيحِ

قينةٌ[٢] عفّةٌ ومولًى كريمٌ ... ونديمٌ من اللُّباب الصريحِ[٣]

رَبْعِيٌّ[٤] مُهَذَّبٌ أرْيَحِيٌّ[٥] ... يشتري الحمدَ بالفَعَالِ الرّبيحِ

نحن منه في كل ما تشتهي الأنـ ... ـفسُ مِنْ لَذّةٍ وعيشٍ نجيحِ

عند قومٍ من هاشم في ذُرَاها[٦] ... وغِناءٍ مِنَ الغزالِ المليحِ

في سُرورٍ وفي نعيمٍ مُقيمٍ ... قد أمِنّا مِنْ كل أمرٍ قبيحِ

فاسلُ عنّا كما سلوناك إنّي ... غيرُ سالٍ[٧] عن ذاتِ نفسي ورُوحِي

حافظٌ منك كلُّ ما كنت قد ضـ ... ـيَعت مما عَصَيتُ فيه نَصيحِي

فالقِلَى[٨] ما حيِيتُ مني لك الدهـ ... ـرَ بودٌ لمنيّتي ممنوحِ

يا ابن رامين فالْزَمَنْ مَسْجِدَ الحـ ... ـيّ بطول الصلاة والتسبيحِ

قال عمرُ بنُ نوفلٍ وهو راوي هذه الأبيات: فلم يَدع ابنُ رامين شريفًا بالكوفة إلا تَحَمَّل به على ابنِ الأشعثِ وهو يأبى أن يرضَى عنه وأن يعاودَ زيارتَه، حتى تحمّل عليه بالجَحْوَانيّ، وهو محمدُ بنُ بشرِ بنِ جَحْوَانَ الأسديّ وكان يومئذٍ على الكوفة، فكلّمه فرضِي عنه وعاد إلى زيارته، ولم يقطع منزلَ زُرَيق. وقال في سحيقة: [من الوافر]

سحيقةُ أنتِ واحدةُ القِيانِ

فما لكِ مُشبِهٌ فيهنّ ثاني

---

(١) هو محمد بن الأشعث الكندي: قتل سنة ٦٧ هـ، في عداد جيش مصعب بن الزبير، وذلك في الفتنة بين الزبير والمختار بن أبي عبيد الثقفي. انظر: شذرات الذهب ١/ ٧٥.

(٢) القينة: المغنيّة.

(٣) اللباب الصريح: خالص كل شيء.

(٤) ربعي: نسبة إلى الربع، وهو الرجل بين القصير والطويل.

(٥) أريحي: فيه أريحية. وهو الواسع الخلق النشط إلى المعروف.

(٦) ذراها: أعاليها.

(٧) السالي: المتشاغل، الناسي.

(٨) القلى: الكراهية والبغض.

فَضَلْتِ على القِيان بفضلِ حِذْقٍ[١]
فحُزْتِ[٢] على المَدَى قَصَبَ الرِّهانِ[٣]
سجَدْنَ لكِ القِيانُ مُكَفِّراتٍ[٤]
كما سَجَد المجوسُ[٥] لِمَرْزُبان[٦]
ولا سِيَمَا إذا غنّتْ بصوتٍ
وحرّكتِ المَثالِثَ والمثاني[٧]
شَرِبتُ الخمرَ حتى خِلْتُ أني
أبو قابوسَ[٨] أو عبدُ المَدَان
فإعمالُ اليَسار على الملاوي
ومن يُمناكِ ترجمةُ البيان

ولمحمد بن الأشعث أصوات له فيها غِناء. منها: [من مجزوء الكامل]

رَحُبتْ بلادُك يا أَمامَهْ[٩] وسَلِمْتِ ما سَجَعتْ[١٠] حمامَهْ
وسَقَى دِيارَكِ كلما حَنّتْ إلى السُّقْيا غَمَامه
إنّي وإنْ أقصيتني شفِقٌ[١١] أُحِبّ لكِ الكرامه
وأرى أمورَكِ طاعةً مفروضةً حتى القيامه

وله غير ذلك من الأصوات.

ذِكْر أخبار عمرو بن بانة

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: هو عمرو بنُ محمدِ بنِ سليمانَ بنِ راشدٍ مولى ثقيف. وكان أبوه صاحبَ ديوانٍ ووجهًا مِن وجوه الكتّابِ، ونُسِب إلى أمه. وكان

---

(١) الحذق: المهارة والإتقان.
(٢) حزت: نلت.
(٣) قصب الرهان: يعطي للسابق في الحلبة. الذي يصل إليه أولًا.
(٤) مكفّرات: مشتملات.
(٥) المجوس: عبدة النيران.
(٦) المرزبان: الرئيس.
(٧) المثالث والمثاني: من أوتار العود.
(٨) أبو قابوس: كنية النعمان بن المنذر، من ملوك الحيرة.
(٩) أمامه: اسم المرأة.
(١٠) سجعت: غنّت.
(١١) الشفِق: الشفيق، وهو الحريص على الخير والإصلاح.

مغنّيًا محسنًا، وشاعرًا صالحَ الشعرِ، وصَنعتُه صَنعةٌ متوسّطةٌ، وكان مرتجلًا. قال: وكتابُه في الأغاني أصلٌ من الأصول. وكان يذهب مذهبَ إبراهيمَ بنِ المهديّ في الغناء، ويخالف إسحٰقَ ويتعصّبُ عليه تعصّبًا شديدًا ويواجهُه بنفسِه. وهو معدود في ندماءِ الخلفاء ومغنّيهم، على ما كان به من الوَضَح[1]. وفيه يقول الشاعر: [من المتقارب]

أقول لعمرٍو وقد مرّ بي ... فسلّم تسليمةً جافيَهْ[2]

لئن فَضَّلوك بفضلِ الغِنا ... ءِ فقد فضّل الله بالعافيهْ

وقال أحمدُ بنُ حمدون: كان عمرو حسنَ الحكايةِ لمن أخذ عنه الغناءَ، حتى كان من يسمعُه لو توارى[3] عن عينه عمرو لم يشكَّ في أنه هو الذي أخذ عنه، لحسن حكايتِه. وكان محظوظًا ممن يعلّمه، ما علّم أحدًا قطّ إلا خرج نادرًا مبرّزًا. وله أخبارٌ مع الخلفاءِ وإنعامٌ منهم عليه، منهم المتوكلُ على الله. رحمه الله.

ذِكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعيّ

هو أبو العباسِ عبدُ اللهِ بنُ العباسِ بنِ الفضلِ بنِ الربيع. والربيعُ، على ما يدّعيه أهلُه، ابنُ يونسَ بن أبي فَروة. وآل أبي فروةَ يدفعون[4] ذلك ويزعمون أنه لَقِيطٌ[5] وُجِدَ منبوذًا[6] كَفَله يونسُ، فلما خدَم المنصور[7] ادّعى إليه. قال أبو الفرج الأصفهاني: وكان شاعرًا مطبوعًا ومغنّيًا مُحسنًا جيّدَ الصَنعة نادرَها. قال: وهو أوّلُ مَنْ غنّى بالكنكلةِ[8] في الإسلام.

وكان سبب دخوله في الغناء على ما رواه أبو الفرج بسنده إليه قال: كان سبب دخولي في الغناء وتعلُّمي إياه أنّي كنت أهوَى جاريةً لعمّتي رُقَيّة بنتِ الفضلِ بنِ

---

(١) الوضح: البرص، وهو بياض يعتري البشرة. ويعتبر من العاهات.
(٢) جافية: نابية، فيها غلظ. (٣) توارى: احتجب واستتر.
(٤) يدفعون: يردّون.
(٥) اللقيط: المولود الذي ينبذ فيلقط، غير معروف الأبوين.
(٦) منبوذًا: مطروحًا لوحده، بلا صاحب أو كفيل.
(٧) المنصور: لقب الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر عبد الله. خلف أخاه السفّاح. قتل قائده أبا مسلم الخراساني. أخضع العلويين وقضى على ثورة النفس الزكية في المدينة وثورة إبراهيم أخي محمد في الكوفة، كما قضى على ثورة المقنّع في فارس. بنى بغداد وجعلها عاصمته. توفي محرمًا بالحجّ سنة ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٢٩٥.
(٨) الكنكلة: ضرب من الغناء أو الموسيقى على وتر فوق قرعة، تقوم مقام العود أو القنج.

الربيع، وكنت لا أقدِرُ على مُلازمتها والجلوسِ معها خوفًا من أن يظهر ما لها عندي، فيكون ذلك سببَ منعي منها؛ فأظهرت لعمّتي أني أشتهي أن أتعلّم الغناءَ ويكون ذلك في سِترٍ عن جدّي ـ وكان جدّي وعمّتي على حال من الرقّة عليّ والمحبّة لي لا نهاية وراءها، لأن أبي تُوُفّي في حياة جَدّي الفضل ـ فقالت: يا بُنَيّ، وما دعاكَ إلى ذلك؟ فقلت: شهوةٌ غَلبتْ على قلبي، إن مُنِعتُ منها مُتّ غمًّا ـ قال: وكان لي في الغناء طبعٌ قويّ ـ فقالت لي: أنت أعلمُ وما تختاره، والله ما أحبُّ منعَك من شيء، وإني كارهةٌ أن تحذِقَ في ذلك وتشتهر فتسقُط ويفتضح أبوك وجدُّك. فقلت: لا تخافي من ذلك، فإنما آخذ منه مقدارَ ما ألهو به. ولازمتُ الجاريةَ لمحبتي إياها بعلّة الغِناء، فكنتُ آخذُ عنها وعن صواحباتها حتى تقدّمتُ الجماعةَ حذْقًا وأقرّت لي بذلك، وبلغت ما كنت أريد من الجارية، وصرت ألازم مجلسَ جدّي. ثم لم يكن يمرّ لإسحٰقَ ولا لابنِ جامعَ ولا للزّبيرَ بنِ دَحْمان ولا لغيرهم صوتٌ إلا أخذتُه، وكنت سريعَ الأخذِ، إنما كنت أسمعه مرّتين أو ثلاثًا وقد صحّ لي. وأحسست في نفسي قوّة في الصناعة، فصنعت أوّلَ صوتٍ صنعتُه في شعر العَرْجيّ[1]: [من الطويل]

أماطتْ[2] كِساءَ الخَزّ[3] عن حُرّ وجهِها[4]
وأدنتْ على الخَدّينِ بُرْدًا[5] مُهَلْهَلا[6]

ثم صنعتُ: [من المنسرح]

أَقفَرَ من بعد خَلّةٍ[7] شَرَفُ[8] فالمُنْحَنَى فالعَقِيقُ فالجُرُفُ[9]

وعرضتهما على الجارية التي كنت أهواها وسألتُها عما عندها فيهما؛ فقالت: لا يجوزُ أن يكونَ في الصنعةِ فوقَ هذا. وكان جواري الحارث بن بُسْخُنَّر وجواري أبيه يدخلْنَ إلى دارِنا فَيَطْرَحْنَ على جواري عمّتي وجواري جدّي ويأخذن أيضًا ما ليس عندهن، فأَخَذْنَهما منّي، وسألن الجاريةَ عنهما فأخبرتهن أنهما من صَنعتي. ثم

---

(١) العرجي: هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، الشاعر الأموي الماجن، نسبة إلى العرج، موضع بين مكة والمدينة، وهو أقرب إلى المدينة بكثير جدًا.
(٢) أماطت: أبعدت وأذهبت وكشفت.
(٣) الخز: ضرب من الحرير.
(٤) حرّ وجهها: خالص وجهها.
(٥) البرد: الثوب.
(٦) المهلهل: الرقيق.
(٧) الخلّة: المرأة الخفيفة.
(٨) الشرف: ماء لبني كلاب. ويقال لباهلة.
(٩) المنحني والعقيق والجرف: أسماء مواضع بعينها.

اشتهرا حتى غُنِّي الرشيدُ بهما يومًا فاستظرفهما، وسأل إسحٰق: هل تعرفهما؟ فقال: لا، وإنهما لمن أحسن الصنعة وجيِّدها ومُتْقَنها. ثم سأل الجاريةَ عنهما فوقفت خوفًا من عمّتي وحَذَرًا أن يبلُغ جدّي أنها ذكرتني؛ فانتهرها الرشيدُ فأخبرته القصّةَ؛ فوجّه من وقتِه فدعا بجَدِّي فقال له: يا فضلُ، أيكونُ لك ابنٌ يغنّي ثم يبلُغ في الغِناء المبلغَ الذي يمكنُه أن يصنعَ صوتين يستحسنُهما إسحٰقُ وسائرُ المغنين ويتداولُهما جواري القِيانِ[1] فلا تُعْلِمني بذلك، كأنك رفعت قدره عن خِدمتي في هذا الشأن! فقال له جدّي: وحقِّ ولائِك يا أميرَ المؤمنين ونعمتِك وإلا فأنا بريء من بيعتك وعليّ العهدُ والميثاقُ والعِتْقُ والطلاقُ إن كنتُ علمتُ بشيء من هذا قطُ إلا منك الساعة. فمن هذا مِنْ ولدي؟ قال: عبدُ اللهِ بنُ العباسِ هو، فأحضِرْنيه الساعة. فجاء جدّي وهو يكاد أن ينشقَّ غيظًا، فدعاني؛ فلما خرجتُ إليه شتمني وقال: يا كلب بلغ من أمرك أنك تجسُرِ على أن تتعلَّم الغِناءَ بغير إذني! ثم زاد ذلك حتى صنعت، ولم تَقنَعْ بهذا حتى ألقيتَ صنعتَك على الجواري في داري، ثم تجاوزهن إلى جواري الحارثِ بنِ بُسْخُنَّر، فاشتُهِرتَ، وبلغ أميرَ المؤمنين فتنكّر لي ولامني، وفضحت آباءَك في قبورهم وسقطتَ للأبد إلا من المغنِّين! فبكيتُ مما جرى عليّ وعلمتُ أنه صدَقني؛ فرحِمني وضمّني إليه وقال: قد صارت الآن مصيبتي في أبيك مصيبتين، إحداهما به وقد مضى وفات، والأخرى بك وهي موصولة بحياتي، ومصيبة باقية العارِ عليّ وعلى أهلي بعدي، وبكى وقال: عزّ عليّ يا بُنَيّ أنّي أراك أبدًا ما بقيت على غير ما أُحبّ؛ وليست لي في هذا الأمر حيلة لأنه أمرٌ قد خرج عن يدي. وقال: جئني بعود حتى أسمعُك وأنظر كيف أنت، فإن كنت تصلُح للخدمة في هذه الفضيحة وإلا جئتُ بك منفردًا وعرّفته خبرَك واسْتعفيتُه لك[2]. فأتيتُ بعودٍ وغنّيتُه غِناءً قديمًا؛ فقال: لا، بل صوتيك اللذين صنعتَهما، فغنّيته إياهما، فاستحسنهما وبكى، ثم قال: بَطَلتَ واللهِ يا بنيّ وخاب أملي فيك. فواحزنا عليك وعلى أبيك! فقلت: ليتني مِتّ قبل ما أنكرته أو أُخرست! ومالي حيلة! لكني وحياتك يا سيِّدي ـ وإلا فعليّ عهد الله وميثاقه والعتق والطلاق وكل يمين يحلف بها حالف لازمة لي ـ لا غَنّيتُ أبدًا إلا لخليفة أو وليّ عهد. فقال: قد أحسنتَ فيما نَبهت[3] عليه من هذا. فركب وأمَر بي فأُحضِرْتُ، ووقفتُ بين يدي الرشيد وأنا أُرْعَد؛ فاستدعاني واستدناني حتى صرتُ أقربَ الجماعة إليه، ومازحني وأقبل

---

(١) القيان: المغنيات.

(٢) استعفيته: طلبت العفو عن تكليفه.

(٣) نبهت عليه: فطنت وأدركت.

عليّ وسكنّ مني، وأمر جَدّي بالانصراف؛ وأومأ إلى الجماعة فحدّثوني وسُقِيت أقداحًا وغنّى المغنون جميعًا؛ وأومأ إليّ إسحٰق بعينهِ أن أبدأ فغَنِّ إذا بلغت النوبة إليك قبل أن تُؤمرَ بذلك ليكونَ ذلك أملحَ وأجملَ بك. فلما جاءت النَّوْبةُ إليّ أخذتُ عودًا ممن كان إلى جنبي وقمتُ قائمًا واستأذنتُ في الغِناء؛ فضحِك الرشيدُ وقال: غَنّ جالسًا؛ فغنّيت لحني الأول، فطرِب واستعاده ثلاث مرّاتٍ وشرِب عليه ثلاثةَ أنصاف. ثم غنّيتُ الثاني فكانت هذه حاله، فسكِر ودعا بمسرورٍ وقال: احمل الساعةَ مع عبدِ اللهِ عشرةَ آلافِ دينارٍ وثلاثين ثوبًا مِن فاخر ثيابي وعيبةً[1] مملوءةً طِيبًا، فحُمل ذلك كله معي. قال عبدُ الله: ولم أزل كلما أراد وليُّ عهد أن يعلم مَنِ الخليفةُ بعدَ الخليفةِ هو أم غيرُه دعاني وأمرني أن أغنّي، فأُعرّفه يميني فيستأذن الخليفة في ذلك، فإن أذِن لي في الغناء علم أنه وليُّ عهدٍ وإلا عرَف أنه غيره، حتى كان آخرهم الواثق فدعاني في أيام المعتصم وسأله أن يأذَن لي في الغناء، فأذِن لي ثم دعاني من الغد فقال: ما كان غِناؤك إلاّ سببًا لظهور سِرّي وأسرار الخلفاء قبلي! والله لقد هَمَمتُ أن آمرَ بضربِ رقبتِك! لا يبلُغني أنك امتنعت من الغناء عندَ أحد، فواللهِ لئن امتنعتَ لأضربَنَّ عنقَك! فأعْتِقْ من كنتَ تملِكه يوم حلفت، وطلّق من كان عندك يومئذٍ، وأرِحنا من يمينك هذه المشؤومة. فقمت وأنا لا أعقِل جَزَعًا منه؛ فأعتقت جميعَ ما كان بقي عندي من مماليكي الذين حلفت يومئذٍ وهم في ملكي ثم تصدّقت بجملة، واستفتيت في يميني أبا يوسف القاضي[2] حتى خرجت منها؛ وغنّيت بعد ذلك إخواني جميعًا حتى اشتُهِر أمري، وبلغ المعتصمَ خبري فتخلّصتُ منه.

وروى أبو الفرج أيضًا عن الصُوليّ[3] عن الحسينِ بنِ يحيىٰ قال: قلتُ لعبدِ اللهِ بنِ العباس: إنه بلغني لك خبرٌ مع الرشيد أوّل ما شُهِرتَ بالغناء فحدّثني به؛

---

(١) العيبة: الزنبيل من أَدَم، وما تجعل فيه الثياب أو الطّيب، كالصندوق مثلًا.

(٢) أبو يوسف القاضي، يعقوب بن إبراهيم. وُلد في الكوفة ودرس على أبي حنيفة. تولّى قضاء بغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. وهو أول من أطلق عليه لقب قاضي القضاة. من مصنّفاته كتاب «الخراج» و«الردّ على سير الأوزاعي». مات سنة ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م. انظر: الفهرست، ص ٢٨٦.

(٣) ثمة صوليّان، أحدهما إبراهيم بن العباس، الشاعر والكاتب. كتب للمعتصم والواثق والمتوكل صاحب «ديوان الرسائل» و«الديوان الشعري». مات سنة ٨٥٧ م. والآخر أبو بكر، الأديب والشاعر، وصاحب «أخبار أبي تمام» و«أدب الكتاب» و«الأوراق». وليس هو المراد أعلاه، والله أعلم. مات هذا الأخير سنة ٩٤٦ م.

فقال: نعم! أوّل صوت صنعته: [من المتقارب]

أتـانـي يُـؤَامِـرنـي فـي الـصَّـبُـو ح[1] لـيـلًا فـقـلـتُ لـه غَـادِهـا[2]

فلما دار لي وضربت عليه بالكنكلة، عرضتُه على جاريةٍ لنا يقال لها راحةُ، فاستحسنَتْه، وأخذتْه عني. وكانت تختلفُ إلى إبراهيمَ الموصلي، فسمعها يومًا تغنّيه وتناغي به جاريةً مِن جواريه، فاستعادها إياه فأعادته؛ فقالت: لمن هذا الصوت؟ قالت: صوتٌ قديم. قال: كذبتِ، لو كان قديمًا لعرفتُه. وما زال يداريها ويتغاضبُ عليها حتى اعترفت له أنه من صنعتي، فعجِب من ذلك. ثم غناه يومًا بحضرة الرشيدِ ليُغْرِبَ به على المغنّين؛ فاستحسنه الرشيدُ، فقال له: لمن هذا يا إبراهيم؟ فأمسك عن الجواب وخشِي أن يكذِبه فينمِي إليه الخبر من غيره، وخاف من جدّي إن يصدُقْه؛ فقال له: ما لك لا تجيبني؟ قال: ما يمكنُني يا أميرَ المؤمنين. فاستراب[3] بالقصّة، فأقسم الرشيدُ أنه إن لم يعرّفه عاقَبَه عقوبةً تُوجعه، وتوهّم أنه لعُلَيّة بنتِ المهديّ أو لبعضِ حُرَمِهِ فأستُطِير غضبًا. فلما رأى إبراهيمُ الحدَّ منه صدَقه فيما بينه وبينه سرًّا. فدعا لوقته بالفضلِ بنِ الربيعِ وقال له: أيصنعُ ولدُك غناءً يرويه الناسُ ولا تعرّفني! فجزِع وحلف بحياتِهِ وبيعتِهِ أنه ما عرَف ذلك قطُ ولا سمع به إلا في وقته ذلك. وساق باقي الخبرِ نحوَ ما تقدّم.

قال عبدُ اللهِ بنُ العباس: دخل محمدُ بنُ عبد الملكِ الزياتُ[4] على الواثقِ وأنا بين يديه أُغنّيه وقد استعادني صوتًا فأعدته، فاستحسنه محمدُ بنُ عبد الملك وقال: هذا والله يا أميرَ المؤمنين أولى الناسِ بإقبالِك عليه وإصغائِك إليه؛ فقال: أجل! هذا واللهِ مولاي وابنُ مواليّ لا يعرِفون غير ذلك. فقال: ليس كل مولى يا أمير المؤمنين مولى لمواليه، ولا كل مولى يُتَحَمَّل بولائِهِ يجمعُ ما جمعه عبدُ اللهِ من ظَرْفٍ وأدبٍ وصحّةٍ وفضلِ علمٍ وجودةِ شعر. فقال له: صدَقتَ يا محمدُ. فلما كان من الغد جئتُ محمدَ بنَ عبد الملك شاكرًا لحسنِ مَحْضَره، فقلت في أضعاف كلامي: وأفرط الوزير، أعزّه الله تعالى، في وصفي وتقريظي[5] بكل شيء حتى وصفني بجودة

(١) الصبوح: خمرة الصباح. (٢) غادها: ائتها غدوة.
(٣) استراب: وقع في الريبة والظّنّ.
(٤) محمد بن عبد الملك الزيات: وزير الخليفة العباسي المعتصم، ثم وزير الواثق من بعده، ثم وزير المتوكل، فقتله المتوكل بعد أربعين يومًا من خلافته، وذلك سنة ٢٤٧ هـ. التنبيه والإشراف، ص ٣١٣.
(٥) تقريظي: مدحي وإظهار محاسني.

الشعر، وليس ذلك عندي، وإنما أعبثُ بالبيتين والثلاثة. ولو كان عندي أيضًا شيء من ذلك لصَغُر عن أن يصفه الوزيرُ ويحكيَه في هذا المجلس الرفيع المشهور. فقال: والله يا أخي لو عرفتَ مقدارَ قولك: [من المجتث]

يـا شـادنـا[١] رام إذ مـرّ في الشعانينِ[٢] قتلي

يقول لي: كيف أصبحـت؟ كيف يُصبِح مِثلِي

لَمَا قلتَ هذا القول. والله لو لم يكن لك شعر في عمرِك إلا قولُك: «كيف يصبحُ مثلي» لكنت شاعرًا مُجيدًا. وهذا الشعر قاله عبدُ اللهِ بنِ العباسِ في نصرانيةٍ كان يهواها ولا يصلُ إليها إلا إذا خرجت إلى البِيعة. وله معها أخبار وأشعارٌ له فيها أصوات. منها قوله: [من الرمل]

إنّ فِي القلبِ مِن الظَّبْيِ كُلومْ[٣] فـدَعِ الـلّومَ فـإنّ الـلّوْمَ لَومْ

حـبـذا يـومُ الـشـعـانِيـنِ ومـا نِلتُ فيه من نعيم لو يدوم

إن أكن أعظمتُ أنْ هِمتُ به فالذي تركب من عَذْلِي[٤] عظيمْ

لم أكن أوّل مَنْ سنّ[٥] الهوى فـدَعِ الـعَـذْل فـذا داءٌ قـدِيـمْ

وروى أبو الفرج بسنده إلى محمدِ بنِ جُبَيْرٍ قال: كنا عندَ أبي عيسى بنِ الرشيدِ في زمنِ ربيع وعندَنا مُخارق وعلّويه وعبد الله بن العباس الربيعيّ وعبد الله بن الحارث بن بُسْخُنَّر ونحن مصطبحون[٦] في طارمة[٧] مضروبةٍ على بستانِه وقد تَفَتّح فيه وردٌ وياسَمينُ وشقائقُ والسماءُ متغيّمة غيمًا مطبقًا وقد بدأت تَرُشّ رشًا ساكبًا، فنحن في أكمل نشاطٍ وأحسن يوم، إذ خرجت قَيِّمةُ دار أبي عيسى فقالت: يا سيِّدي، قد جاءت عَسَاليج؛ قال: تخرجُ إلينا فليس بحضرتنا من تحتشمه. قال: فخرجت إلينا جاريةٌ شَكِلةٌ حُلْوةٌ حسنةُ العقلِ والهيئةِ والأدبِ في يدها عودٌ فسلّمت، وأمرها أبو عيسى بالجلوسِ فجلست. وغنّى القومُ حتى انتهى الدّورُ إليها، وظننا أنها لا تصنعُ شيئًا وخِفْنا أن تهابنَا فتَحْصَر، فغنّت غناءً حسنًا مُطرِبًا مُتْقَنًا، لم تدع أحدًا ممن حضر

(١) الشادن: ولد الظبي أو هو الظبي الذي شدن واستوى.
(٢) يوم الشعانين: عيد للنصارى يسبق عيد الفصح في أوائل الربيع.
(٣) الكلوم: الجروح.
(٤) عذلي: لومي.
(٥) سنّ: شرّع.
(٦) مصطبحون: نتناول أو نعاقر خمرة الصباح.
(٧) الطارمة: خصّ من خشب كالعرزال.

إلا غنت صوتًا مِن صَنْعته فأدّته على غايةِ الإحكامِ؛ فطربنا واستحسنّا غناءها وخاطبناها بالاستحسانِ؛ وألح عبدُ اللهِ بنُ العباسِ مِن بينِنا بالاقتراحِ عليها والمِزاح معها والنظرِ إليها. فقال أبو عيسى: عَشِقْتَها وحياتي يا عبد الله! فقال: لا والله يا سيّدي وحياتِك ما عشِقتُها، ولكن استملحت كلَّ ما شاهدتُه منها من مَنْظَر وشَكْل وعقلٍ وعشرةٍ وغناء. فقال له: ويحك! فهذا واللهِ هو العشقُ وسببُه. ورُبَّ جدٍّ جرّه اللعب. قال: وشربنا؛ فلما غلب النبيذُ على عبدِ اللهِ غنّى أهزاجًا قديمة وحديثةً، وغنّى فيما بينها هزجًا في شعر قاله فيها لوقته، فما فطِن له إلا أبو عيسى، وهو: [من الرمل]

نـطـق الـمـكـتـومُ[1] مـنـي فـبَـدَا ... كم ترى المكتومَ منّي لا يَضِح[2]

سـحـرُ عـيـنـيـك إذا مـا رَنَـتَـا[3] ... لـم يـدع ذا صَبْوةٍ[4] أو يفـتـضـح

مـلـكـتْ قـلـبًـا فـأمـسـى غَـلِـقًـا[5] ... عـنـدها صبًّا[6] بـهـا لـم يـسـتـرح

بـجـمـالٍ وغـنـاءٍ حَـسَـنٍ ... جلّ عـن أن يـنـتـقـيـه الـمـقـتـرح

أوْرَثَ الـقـلـب هـمـومًـا ولـقـد ... كـنـتُ مـسـرورًا بـمـرآه فَـرِح

ولـكـم مُـغْـتَـبِـقٍ[7] هـمًّـا وقـد ... بـاكـر الـلـهـوَ بُـكُـورَ الـمُـصْـطَـبِـح

فقال له أبو عيسى: فعلتَها واللهِ يا عبدَ اللهِ، صح واللهِ قولي لك في عساليج وأنت تُكابرُ حتى فضَحَك السُّكْر. فجحد وقال: هذا غناءُ كنت أرويه. فحلف أبو عيسى أنه ما قاله وما غنّاه إلا في يومه؛ وقال له: احلف بحياتي أنّ الأمر ليس هو كذلك! فلم يفعل. فقال أبو عيسى: والله لو كانت لي لوهبتُها لك، ولكنها لآل يحيىٰ بنِ معاذٍ، ووالله إن باعوها لأُمَلّكنّك إياها ولو بكل ما أملك! ووحياتي لَتَنْصَرِفنّ قبلَك إلى منزلك. ثم دعا بحافظتِها وخادمًا مِن خدمِه فوجّه بها معهما إلى منزله. والتوى عبدُ الله قليلًا وتجلّد ثم انصرف. واتصل الأمرُ بينهما بعدَ ذلك فاشترتها عمته رُقَيّةُ بنتُ الفضلِ بنِ الربيعِ مِن آل يحيىٰ بن معاذ، وكانت عندَهم حتى ماتت. قال: وقالت بذلٌ الكبيرة لعبدِ الله بن العباس[8]: قد بلغني أنك عشِقتَ جارية اسمُها

(١) المكتوم: المستور، والمخبأ.
(٢) يضح: يظهر.
(٣) رنتا: نظرتا.
(٤) الصبوة: العشق والميل إلى الهوى.
(٥) الغلق: المغلق والمعلّق.
(٦) صبًّا: ميّالًا إلى الهوى.
(٧) المغتبق: من يعاقر خمرة المساء، وخلافه المصطبح.
(٨) هو عبد الله بن العباس بن محمد، أبو الفضل الهاشمي، الأمير العباسي الذي تولّى لأخيه=

عساليجُ، فاعرِضْها عليّ، فإما أن عذرتُك أو عَذَلتُك؛ فوجّه إليها فحضرت، وقال لبذل: هذه هي يا سيِّدتي، فاسمعي وانظري ثم مُريني بما شئتِ أُطِعْك. فأقبلت عليه عساليجُ وقالت: يا عبدَ اللهِ، أتشاورُ فيّ! فوالله ما شاورت فيك لَمّا صحِبتك. فقالت بذلٌ: أحسنتِ والله يا صبيّة! ولو لم تُحسني شيئًا ولا كانت فيك خَصلة تُحمد لوجب أن تُعْشَقي لهذه الكلمة. ثم قالت لعبدِ الله: ما ضيّعت، احتفظ بصاحبتك هذه.

وقال حمدون بنُ إسماعيلَ: دخلتُ يومًا على عبدِ اللهِ بن العباسِ الربيعيّ وخادمٌ له يسقيه، وبيده عودٌ وهو يغنّي: [من المجتث]

إذا اصطبحتُ[1] ثلاثًا ... وكان عودي نَدِيمي[2]
والكأس تضحَك ضِحكًا ... من كفّ ظبيٍ رخيمِ[3]
فما عليّ طريقٌ ... لطارقاتِ الهمومِ[4]

فما رأيتُ أحسنَ مما حكى حالَه في غنائِه ولا سمعت أحسنَ مما غنّى. ومن صنعتهِ وشعره قوله: [من مجزوء الرمل]

صدَعَ[5] البينُ الفؤادا ... إذ به الصائحُ نادَى
بينما الأحبابُ مجمو ... عون إذ صاروا فُرَادَى
فأتى بعضٌ بلادًا ... وأتى بعضٌ بِلادا
كلما قلت تَنَاهَى ... حَدَثانُ الدّهرِ[6] زادا

ذِكْرُ أخبار وجه القَرْعة

هو أبو جعفر محمدَ بنُ حمزةَ بنِ نصيرِ الوصيفِ مولى المنصورِ، ويُلَقَّب وجهَ القَرْعة، أحد المغنِّين الحُذّاق الضُّرّاب الرواة. أخذ الغناءَ عن إبراهيمَ الموصليّ وطبقته. وكان حسنَ الأداء طيّب الصَوت لا علّةَ فيه، إلا أنه كان إذا غنّى الهزجَ

= المنصور دمشق. وولي الجزيرة أيام الرشيد.
(١) اصطبحت: شربت الخمرة في الصباح. (٢) نديمي: رفيقي في الشراب.
(٣) رخيم: ناعم.
(٤) طارقات الهموم: صروف الدهر التي تأتي ليلًا.
(٥) صدع: شقّ وجرح. (٦) حدثان الدهر: صروفه وأحداثه.

خاصّة خرج لا لسببٍ يُعْرَفُ، إلا أنه إن تعرّض للحنين في جِنسٍ من الأجناس فلا يصحُّ له البتة.

وروى أبو الفرج بسنده عن محمدِ الهاشميّ أنه شهدَ إسحٰق بنَ إبراهيمَ الموصليّ عند عمّه هارونَ بنِ عيسى وعنده محمدُ بنُ الحسنِ بنِ مصعبٍ، قال: فأتانا محمد بن حمزةَ وجهُ القَرْعة، وكان شرِسَ الأخلاقِ أبيَّ النفس، وكان إذا سُئل الغناءَ أباه، فإذا أُمسِك عنه كان هو المبتدىء به؛ فأمسكنا عنه حتى طلب العود فأُتِي به فغنّى: [من مجزوء الرمل]

مَـرّ بـي سِـرْبُ ظِـبـاءِ ... رائـحـاتٍ مـن قُـبَـاءِ
زُمَـرًا نـحـو الـمُـصَـلّى ... يـتـمـشّـيـنَ حِـذَائـي
فـتـجـاسـرتُ وألـقـيـ ... ـتُ سـرابـيـلَ الـحـيـاءِ
وقـديـمًـا كـان لَهْـوِي ... وفـنـونـي بـالـنـسـاءِ(١)

قال: وكان يُحسنُه ويُجيده، فجعل إسحٰقُ يشربُ ويستعيدُه حتى شرِب ثلاثة أرطال، ثم قال: أحسنتَ يا غلام! هذا الغناء لي وأنت تتقدّمني فيه! ولا يَخْلُق الغناء ما دام مثلك ينشأ فيه.

وقال أيضًا: كنا في البستان المعروفِ ببستانِ خالصِ النصرانيّ ببغدادَ، ومعنا محمد بنُ حمزةَ وجه القَرْعة وهو يغنينا: [من مجزوء الكامل]

يـا دارُ أقـفـرَ رَسْـمُـهـا ... بين المُحَصَّب والحَجُونِ
يـا بِـشْـرُ إنـي فـاْعـلَـمِي ... والله مـجـتـهِـدًا يـمـيـنـي
مـا إن صـرمـتُ حـبـالَـكـم ... فصِلي حِبالي أو ذَرِيني(٢)

---

(١) السرب: الجماعة. ورائحات: ذاهبات مساءً. وقباء: اسم بئر في المدينة المنوّرة. وعندها كان قرية، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار. وهي على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة، وبها مسجد التقوى ومسجد ضرار. وزمرًا: جماعات. وحذائي: مقابلي. وتجاسرت: تجرّأت. وسرابيل: ثياب. والأبيات لعمر بن أبي ربيعة المخزومي. انظر الأبيات في: ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ١٤.

(٢) أقفر: خلا. ورسمها: أثرها، والمحصب: مكان التحصيب، أي الرمي بالحجارة، في منى. والحجون: جبل بأعلى مكة، عليه سقيفة آل زياد بن عبيد الله الحارثي. وبالقرب منه مسجد البيعة على شِعب الجزارين. وصرمت: قطعت وجذمت. وذريني: اتركيني.

فإذا برجل راكب على حمار يؤُمُّنا وهو يصيح: أحسنت والله! فقلنا: اصعَدْ إلينا كائنًا من كنت؛ فصعِد وقال: لو منعتموني من الصعود لما امتنعت؛ ثم سَفَر اللثامَ عن وجههِ فإذا هو مُخارق. فقال: يا أبا جعفر، أعِد عليّ صوتك فأعاده، وشرب رطلًا من شرابنا وقال: لولا أني مدعوّ الخليفة لأقمت عندكم واستمعت هذا الغناء الذي هو أحسنُ من النزْهة غِبَّ[١] المطر.

وله مع إسحٰقَ بنِ إبراهيمَ ومخارق أخبارٌ شهدا له فيها بحسنِ الصنعةِ؛ وكفاه ذلك فضلًا في صناعته.

ذِكر أخبار محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر

قال أبو الفرجِ الأصفهاني: هو مِن أهلِ الرّيّ[٢]، مولى المنصورِ، من ولدِ بَهْرامَ شوبينَ مَرْزُبانِ الريّ. قال: وهو مرتجلٌ قليلُ الصَّنعةِ حسنُ الغناءِ والنغم بقوّة وشجًا واقتدارٍ شديدٍ على الغِناء، وكان في زمانه أحدَ المعدودين في حسنِ الأدبِ وتمام المروءةِ وحُسنِ الزّيّ والآلة، وكان عظيمَ التِّيهِ رفيعَ الهمةِ، وكانت له منزلةٌ عندَ المأمون. قال محمدُ بنُ الحارث: كنتُ معَ المأمونِ وهو يريدُ بلادَ الرومِ ومعه عدّةٌ من المغنّين، فجلس يومًا والمعتصمُ والعباسُ معه من حيثُ لا نراهم وهم يسمعون غناءنا؛ فغنّى المغنُّون جميعًا وغنيتُ هَزَجًا لإسماعيلَ بنِ جامعٍ، فبعث إليّ المأمونُ بأصل شاهشفرم[٣] وقد لُفّ أصلُه بمنديلِ حريرٍ؛ فجاءني به الغلامُ وقال: أعِدِ الصوتَ؛ فأخذته وشممتُه ووثبتُ فأعدتُه قائمًا، ووضعت الأصلَ بينَ يدي وشربت رطلًا وقلتُ للمغنّين: حكم لي أميرُ المؤمنين بالحِذْق والغِناء. فقالوا: وكيف؟ قلت: دفع إليّ لواءَ الغناءِ من بينِكم. فقالوا: ليس كما ذكرتَ، ولكن حيّاك إذ أطربته، والرسولُ قائمٌ فانصرف بالخبرِ، فما لبث أن رجع إليّ فقال: هو كما ذكرت.

قال أبو العَنْبَسِ بنُ حمدون: كان محمدُ بنُ الحارثِ أحسنَ خلقِ الله شمائل[٤] وإشارةً إذا غنّى. وقال أحمد بن حمدون: صنع محمد بنُ الحارث هزجًا في هذا

(١) غبّ: بعد.

(٢) الريّ: مدينة مشهورة قديمة، من أمهات البلاد وأعلام المدن، بين قزوين ونيسابور، بإيران. خربت أيام التتار. وكان فتحها المسلمون سنة ١٩ هـ. جدّد بناءها القديم الخليفة المهدي، وبنى فيها مسجدًا جامعًا. إليها ينسب كثير من العلماء والفقهاء. انظر: معجم البلدان ٣/١١٦ ـ ١٢١.

(٣) شاهشفرم: ضرب من النبات العطري، واللفظة أعجمية.

(٤) الشمائل: جمع شميلة، وهي الطباع والأخلاق الحسنة.

الشعر: [من مجزوء الكامل]

أمسَيْتُ عبدًا مُستَرَقًا[١] أبكِي الأُلى[٢] سكنوا دِمَشْقا

أعطيتُهم قلبي فمَنْ يبقَى بلا قلبٍ فأبقى!

وطرحه على المسدود الطُّنبوريّ فوقع له موقعًا حسنًا؛ واستحسنه محمدٌ منه فقال: أتحبُّ أن أهَبَه لك؟ قال: نعم؛ قال: قد فعلت. فكان المسدود يُغَنِّيه ويدّعيه، وإنما هو لمحمدِ بنِ الحارث.

قال محمد: لمّا قدِم المأمونُ من خُراسانَ لم يَشتَقْ مغنّيًا بمدينة السلام[٣] غيري. فبعث إليّ فكنت أُنادمُه سرًّا، ولم يظهر للندماء حتى ظفِر بإبراهيمَ بنِ المهديّ؛ فلما عفا عنه ظهر للندماء.

ولمحمد بنِ الحارثِ شعرٌ، منه قوله: [من الطويل]

ومن ظنّ أنّ التِّيهَ[٤] من فضلِ قَدْرِهِ فإني رأيت التيهَ من صِغَر القَدْرِ

ولو كان ذا عزٍّ ونفسٍ أبيّةٍ لغضَّ[٥] الغنى منه وعزّ عن الفقرِ

رأى نفسَه لا تَستقِلُّ بحقِّها فتَاهَ لنقصِ النفس أو قلّةِ الشُكر

ذِكْر أخبار أحمد بن صَدَقة

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: هو أحمد بنُ صدقةَ بنِ أبي صدقة. كان أبوه حجازيًّا مغنّيًا، قدِم على الرشيد وغنّى له. وقد ذكرنا أخباره في النوادر من كتابنا هذا، فلا حاجة بنا إلى إعادتها. وكان أحمد طُنبوريًّا[٦] مُحسِنًا مُقدَّمًا حاذِقًا حسَنَ الغِناء مُحْكم الصَّنعة. قال: وله غناء كثير في الأرمال والأهزاج وما يجري مجراها من غناء الطُّنبوريّين. وكان ينزل الشأم. ووُصِف للمتوكل فأمر بإحضاره، فقدِم عليه فغنّاه، فاستحسن غناءه وأجزل صِلتَه. واشتهاه الناس وكثُر من يدعوه؛ فكسب بذلك أكثر مما كسبه مع المتوكل أضعافًا.

---

(١) مسترقًّا: مملوكًا. (٢) الأولى: الذين.

(٣) مدينة السلام، هي بغداد، أطلق عليها هذا الاسم أيام المنصور العباسي، وهو الخليفة الذي أمر ببنائها سنة ١٤٤ هـ.

(٤) التيه: الكبر. (٥) غضّ: انتقص وعاب.

(٦) طنبوريًّا: نسبةٌ إلى الطنبور، الآلة الموسيقية التي تشبه العود.

وروى أبو الفرج عن أحمدَ بنِ صدقةَ قال: اجتزت بخالدِ بنِ يزيدَ الكاتب[١]، فقلت له: أنشِدْني بيتين من شعرك حتى أغنّي فيهما. فقال: وأيّ حظٍّ لي في ذلك! تأخذ أنت الجائزةَ وأحصُل أنا على الإثم! فحلفت أني إن أخذت بشعره فائدة جعلت له فيها حظًّا، وأذكرت به الخليفةَ وسألتُه فيه. فقال: أمّا الحظُّ من جهتك فأنت أنذلُ من ذلك. ولكن عسى أن تُفلِحَ في مسألة الخليفة؛ وأنشدني: [من المتقارب]

تقول سَلَا[٢]، فَمنِ المُدْنَفُ[٣] ومَــنْ عـيـنُـه أبـدًا تـذْرِف!

ومَــنْ قـلبُـه قَـلِقٌ خـافـقٌ عـلـيـك وأحـشـاؤه تـرْجُـف!

فلما جلس المأمون للشرب دعاني، وكان قد غضِب على حظِيّةٍ[٤] له، فحضرتُ مع المغنّين. فلما طابت نفسُه وَجّهتْ إليه بتُفّاحةٍ من عَنْبَرٍ عليها مكتوبٌ بالذهب: «يا سيِّدي سلوت»، وما علِم الله أني عرفت شيئًا مِن خبرهما. وانتهى الدَّورُ إليّ فغنّيت البيتين؛ فاحمرّ وجهُ المأمونِ وانقلبت عيناه وقال: يا ابنَ الفاعلةِ، لك عليّ وعلى حُرَمي صاحب خبر! فوثبت وقلت: يا سيّدي، ما السبب؟ قال: من أين عرفتَ قِصّتي مع جاريتي حتى غنّيت في معنى ما بيننا؟ فحلفت أني لم أعرف شيئًا من ذلك، وحدّثته بحديثي مع خالد، فلما انتهيت إلى قوله: «أنت أنذل من ذلك» ضحك وقال: صدَق، وعجِب من هذا الاتّفاق؛ وأمر لي بخمسة آلاف درهم ولخالد بمثلها.

وروى عنه أيضًا قال: دخلت على المأمون في يوم الشعانين[٥] وبين يديه عشرون وصيفةً[٦] جَلَبٌ[٧] روميّات مُزَنَّرات قد تزيّنّ بالديباج[٨] الروميّ، وعلّقن في

(١) خالد بن يزيد: الكاتب المتوفى سنة ٨٧٦ م. من الكتّاب والشعراء، في غزله رقة وحلاوة. خراساني الأصل. عاش في بغداد. كان في خدمة المعتصم، وكتب في ديوان الجند. له ديوان شعر.

(٢) سلا: نسي وتلهّى.

(٣) المدنف: المريض الذي ثقل عليه مرضه ودنا من الموت. وهنا، صفة للمحب العاشق.

(٤) الحظيّة: السرّية المكرّمة من النساء، عند أمير أو ملك.

(٥) يوم الشعانين: هو اليوم الواقع في آخر نهار أحد يسبق عيد الفصح عند النصارى، وفيه يزيّنون ويفرحون ويسيرون في المواكب.

(٦) الوصيفة: الخادمة.

(٧) جلب: أُتي بهنّ من الخارج.

(٨) الديباج: الثوب الذي سداه ولحمته من الحرير الخالص. واللفظة فارسية، ثم عرّبت.

أعناقهن صُلبانًا من الذهب، وفي أيديهن الخوصُ[١] والزيتون. فقال لي المأمون: ويلك يا أحمد! قد قلتُ في هؤلاء أبياتًا فغَنِّ بها، ثم أنشدني: [من الهزج]

ظِباءٌ كالدّنانيرِ ... مِلَاحٌ في المقاصيرِ[٢]

جلاهنّ الشّعانِينُ ... علينا في الزّنانِيرِ[٣]

وقد زَرْفَنَّ[٤] أصداغًا[٥] ... كأذنابِ الزرازيرِ[٦]

وأقبلْنَ بأوساطٍ[٧] ... كأوساط الزنابيرِ[٨]

فحفظتُه وغنّيتُه؛ فلم يزل يشربُ والوصائفُ يرقُّصن بين يديه بأنواعِ الرقص من الدّسْتَبَنْدَا[٩] إلى الإيليّ[١٠] حتى سكر، وأمر لي بألف دينار، وأمر بأن ينثر على الجواري ثلاثة آلاف دينار، فقبضت الألف ونُثِرتْ ثلاثةُ آلاف الدينار فانتهبتُها معهنّ.

قال: ولم يزل أحمدُ بالعراق حتى بلغه موتُ بُنَيَّةٍ له بالشأم، فشخص نحو منزله، وخرج عليه الأعرابُ فأخذوا ما معه وقتلوه.

ذِكْر أخبار أبي حَشِيشة

قال أبو الفرج: أبو حشيشة لَقَب غلب عليه، وهو محمدُ بنُ أبي أميّةَ، ويكنّى أبا جعفر. وكان أهله جميعًا متّصلين بإبراهيم بن المهديّ، وكان هو من بينهم يغنّي بالطُّنبور أحسنَ الناس غناء. وخدم جماعةً من الخلفاءِ، أوّلهم المأمونُ ومن بعدِه إلى المعتمد[١١]. قال: وكان أكثر انقطاعه إلى أبي أحمد بن الرشيد أيامَ حياته. وكان أبوه وجَدُّه وأخواله كُتّابًا.

(١) الخوص: ورق النخل.
(٢) المقاصير: جمع مقصورة، وهي الردهة والحجرة في المنزل.
(٣) الزنانير: جمع زنّار، وهو الحزام، يزنّر به الخصر.
(٤) زرفنّ: جعلن كالزرفين، وهو حلقة الباب.
(٥) أصداغًا: جمع صدغ، وهو الشعر المتدلّي على ما بين العين والأذن من الوجه.
(٦) الزرازير: جمع زرزور، وهو طائر معروف.
(٧) الأوساط: جمع وسط، كناية عن الخصر.
(٨) الزنابير: جمع زنبور، وهو ضرب من الحشرات تشبه النّحل.
(٩) الدستبندا: ضرب من الرقص، واللفظة فارسية.
(١٠) الإيلي: ضرب من الرقص.
(١١) المعتمد على الله: أحمد بن المتوكل، الخليفة العباسي الخامس عشر. حارب البيزنطيين وانتصر=

قال أحمدُ بنُ جعفر جحظةُ[١] في ترجمة أبي حشيشة: وكان له صنعةٌ تقدّم فيها كلَّ طُنبوريٍّ لا أُحاشي أحدًا في ذلك. قال: فمنها: [من الطويل]

كأنّ همومَ الناسِ في الأرض كلِّها ... عليّ وقلبي بينهم قلبُ واحدِ

ولي شاهدَا عدلٍ سُهَادٌ[٢] وعَبْرةٌ[٣] ... وكم مُدَّعٍ للحبّ من غير شاهدِ

قال جحظة: ورأيته بين يديّ المعتمدِ على اللهِ وقد غنّاه من شعر عليّ بنِ محمد بن نصر: [من المجتث]:

حُرِمتُ بَذْل نوالِكْ[٤] ... واسَوْءتَا[٥] من فِعالِكْ!

لمّا ملكتَ وِصالي ... آيستني[٦] من وِصالِكْ

فوهب له مائتي دينار. قال: وغنّى يومًا عندَ ابنِ المدبّر بحضرة عَريب؛ فقالت له: أحسنتَ يا أبا جعفر! ولو عاش الشيخان ما قلتُ لهما هذا (تعني علّويه ومُخَارقا).

وقال أبو الفرج: إنّ أبا حشيشةَ ألّف كتابًا جمع فيه أخبارَه مع مَن عاشر وخدم من الخلفاء؛ قال: وهو تاب مشهور. قال: أوّل من سمعني من الخلفاء المأمون، وصَفَني له مُخارق، فأمر بإشخاصي إليه، وأمر لي بألف درهم أتجهّز بها. فلما وصلت إليه أدناني وأُعجب بي؛ وقال للمعتصم: هذا أثر خَدَمك وخَدَم آبائك وأجدادك يا أبا إسحٰق. وذكر ما كان يشتهيه عليه كلُّ خليفة، فقال: كان المأمون يشتهي من غِنائي: [من الرمل]

كان يَنْهَى فَنُهِي حتى سلا ... وانجلتْ عنه غَبَاياتُ[٧] الصِّبا[٨]

= على الزنج بفضل قيادة أخيه الموفق. أعاد العاصمة إلى بغداد. توفي مسمومًا سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٨.

(١) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيىٰ البرمكي، الملقب بجحظة، صاحب الألحان والغناء والنوادر، والنجومي والظريف، والشاعر صاحب الأبيات السائرة. تُوفي بواسط، ثم حمل تابوته إلى بغداد وذلك سنة ٣٢٤ هـ. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٢) السهاد: الأرق وعدم النوم.

(٣) العبرة: الدمعة.

(٤) البذل والنوال: العطاء والجود.

(٥) واسوءتا: للتعجب من كثرة سوئه.

(٦) آيستني: جعلتني أيأس.

(٧) غبايات: جمع غباية وغباوة، وهي الجهل وقلّة الفطنة.

(٨) الصبا: الشوق، وسن الفتوّة.

خَلع اللهوَ وأضحى مُسْبِلًا[١] للنُّهى[٢] فضلَ قميصٍ ورِدَا[٣]

قال: وكان المعتصم يشتهي عليّ: [من مجزوء الكامل]

أسْرَفْتَ في سُوءِ الصَّنِيعِ وفَتكْتَ[٤] بي فَتْكَ الخَليعِ[٥]

ووَلِعتَ[٦] بي متمرّدًا والعُذْرُ في طَرْق الوَلُوعِ

صَيّرتُ حبَّك شافعًا فأُتِيتُ من قِبَلِ الشَّفِيعِ

قال: وكان الواثق يختار من غِنائي: [من مجزوء الكامل]

يا تاركي مُتَلَذِّذَ الـ ـعُذَّالِ[٧] جَذْلانَ[٨] العُداةِ

انْظُرْ إليّ بعينِ را ضٍ نظرةً قبل المماتِ

خَلَّيتَني بين الوعيـ ـدِ وبين ألسِنَةِ الوُشاةِ![٩]

ماذا يُرَجِّي بالحيا ةِ مُنَغَّصٌ[١٠] رُوحَ الحياةِ!

قال: وكان المتوكل يحبّني ويستخفُّني، وكانت أغانيه التي يشتهيها عليّ كثيرة. منها: [من المتقارب]

أطعتَ الهوى وخَلَعتَ العِذَارَا[١١] وباكرتَ بعد المراح[١٢] العُقَارَا[١٣]

ونازعك الكأسَ من هاشمٍ كريمٌ يُحِبُّ عليها الوَقارا

فتًى فرّق الحمدُ أمواله يَجُرُّ القميصَ ويُرْخِي الإزارا[١٤]

رأى اللهُ جعفرَ[١٥] خيرَ الأنامِ[١٦] فملّكه ووقَاهُ الحِذارا

---

(١) مسبلًا: مرخيًا.
(٢) النهى: العقل.
(٣) الردا: الرداء، حذف منه الهمزة.
(٤) فتكت بي: بطشت بي، وقتلتني.
(٥) الخليع: المتهتّك الماجن.
(٦) ولعت: شغفت.
(٧) العذّال: جمع عاذل، وهو اللائم.
(٨) جذلان: مسرور وفرح.
(٩) الوشاة: جمع واشٍ، وهو الساعي بين الآخرين بالنميمة والكذب.
(١٠) منغّص: مكدّر.
(١١) العذار: الحياء.
(١٢) المراح: الفرح والبطر والاختيال وشدة النشاط.
(١٣) العقار: الخمرة.
(١٤) الإزار: ما يؤتزر به من الثياب وغيره.
(١٥) جعفر: اسم الخليفة المتوكل.
(١٦) الأنام: الناس.

قال: وكان المستعينُ[١] يشتهي عليّ: [من المتقارب]

وما أنسَ لا أنسَ منها الخُشوع وفَيْضَ الدّموع وغَمْزَ[٢] اليدِ
وخَدِّي مُضافٌ إلى خَدِّها قيامًا إلى الصبحِ لم نَرْقُدِ[٣]

قال: واشتهى عليّ المعتمد: [من مجزوء الكامل]

قلبي يُحِبُّكِ يا مُنَى قلبي ويُبْغِضُ مَن يُحِبُّكْ
لأكونَ فردًا في هوا كِ، فليت شعري كيفَ قلبُكْ؟

قال جحظة: وكانت وفاة أبي حشيشةَ بسُرّ مَن رأى[٤]. وسببُها أنه اصطبح عندَ قَلَم غلام الفضل بن كَاوُش في يوم بارد؛ فقال له: أنا لا آكل إلا طعامًا حارًا، فأتاه بفُجْليّة باردة وقال: تُساعدني وتأكل معي، فأكل منها فخمِد قلبُه فمات.

ذِكْر أخبار القيان وأوّل مَن غنّى من النساء ومَن اشتهر بالغناء منهنّ في الإسلام

قالوا: أوّل من غنّى الغناء العربيّ جَرَادَتا ابنِ جُدْعان. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: قال ابنُ الكلبي[٥]: كان لابنِ جُدْعانَ أمتان يُسَمَّيان الجرادتين يُغَنِّيان في الجاهليّة، وسمّاهما جرادتيّ عباد؛ ووهبهما عبدُ الله بن جُدْعان لأُمَيّة بن أبي الصَّلْت[٦] الثَّقفيّ وكان قد امتدحه. وابن جُدْعان هو عبدُ اللهِ بنُ جدعانَ بنِ عمرو بنِ كعبِ بنِ سعد بن تيم بنِ مُرّةَ بنِ كعبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالب. كان سَيِّدًا جوّادًا؛ فرأى

(١) المستعين بالله: أحمد بن محمد بن المعتصم، الخليفة العباسي الثاني عشر، تسلّم مقاليد الخلافة بعد وفاة المنتصر، ثم قتله الأتراك وولّوا المعتز بعده. وذلك في سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٥.
(٢) غمز اليد: جسّها.
(٣) نرقد: ننام.
(٤) سُرّ من رأى: هي مدينة سامرّاه بالعراق إلى الشمال من بغداد. أمر ببنائها الخليفة العباسي المعتصم، ثم نقل إليها عاصمة الخلافة. فيها مسجد الملويّة المشهور.
(٥) ابن الكلبي: هشام بن محمد بن السايب الكلبي، العالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها، وصاحب المصنّفات البديعة وأهمها: المناظرات، وبيوتات قريش، والكنى، وألقاب قريش، والأنساب، والمعمّرون، والخيل، ومنطق الطير، والأصنام، وهذا الأخير أهمها. تُوفي سنة ٧٦٣ م. انظر: الفهرست، ص ١٤٠ ـ ١٤٣.
(٦) أمية بن أبي الصلت: شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، من ثقيف خاصة، نبذ الدنيا ولبس المسوح تعبّدًا ولم يؤمن بعبادة الأوثان والأصنام. انظر ترجمة حياته مفصّلة في: الأعلام، للزركلي ١/ ٣٦٤، ط ٢، ط دمشق.

أُمَيّةَ ينظر إلى الجرادتين وهو عنده فأعطاه إياهما. وقد قيل في سبب إعطائه إياهما: إن أُمَيّة بن أبي الصَّلْت قدِم عليه؛ فقال له عبدُ الله: أمرٌ ما أتى بك! فقال أمَيّة: كلاب غرماء قد نبحتني ونهشتني. فقال له عبدُ الله: قَدِمتَ عليّ وأنا عليل وحقوقٌ لحقتني ولزمتني، فأَنْظِرْني قليلًا وقد ضَمِنتُ قضاءَ دينك فلا أسألك عن مبلغه، قال: فأقام أميّة أيامًا ثم أتاه فقال: [من الوافر]

أَأَذكرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤُك إنّ شِيمتَك[١] الحياءُ
وَعِلْمُك بالأمورِ وأنت قَرْمٌ[٢] لك الحسبُ المهذَّبُ والسَّناءُ[٣]
كريمٌ لا يُغَيِّره صباحٌ عن الخُلُقِ الكريم ولا مَساءُ
تُبارِي[٤] الريحَ مَكْرُمةً ومجدًا إذا ما الكلب أجْحره[٥] الشّتاءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يومًا كفاه مِنْ تَعَرُّضه الثناءُ
إذا خَلّفتَ عبدَ الله فاعلَمْ بأنّ القومَ ليس لهم جزاءُ
فأرْضُكَ كلّ مَكْرُمةٍ بنتها بنو تيم[٦] وأنت لهم سماءُ
وهل تخفَى السماءُ على بصيرٍ! وهل بالشمسِ طالعةً خفاءُ!

فلمّا أنشده أُمَيّةُ هذا الشعرَ كانت عنده قينتان، فقال لأميّة: خذْ أيّتَهما شئتَ، فأخذ إحداهما وانصرف؛ فمرّ بمجلس من مجالس قريشٍ فلاموه على أخذها، وقالوا له: لقد ألفيتَه[٧] عليلًا، فلو رَدَدْتها عليه، فإن الشيخَ محتاج إلى خدمتِها، كان ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كل حقّ ضمِنه. فوقع الكلامُ مِن أميّةَ موقعًا ونَدِم؛ فرجع إليه ليردَّها عليه. فلما أتاه بها، قال ابن جُدْعان: لعلك إنما رددتَها لأن قريشًا لاموك على أخذها؛ وذكر لأميّةَ ما قال القوم. فقال أميّة: والله ما أخطأتَ يا أبا زهير. قال: فما الذي قلتَ في ذلك؟ فقال: [من الطويل]

عطاؤكَ زَيْنٌ لامرئٍ إن حَبَوْتَه[٨] ببَذْلٍ وما كلُّ العطاءِ يَزِينُ
وليس بشَيْنٍ[٩] لامرئٍ بذلُ وجهِهِ إليك كما بعضُ السؤالِ يَشِينُ

(١) الشيمة: الخلق والطبع.
(٢) القرم من الرجال: السيد المطاع، والمقدام.
(٣) السناء: الرفعة والعلوّ.
(٤) تباري: تنافس.
(٥) أجحره: ضيّق عليه. كناية عن شدّة البرد والقرّ.
(٦) تيم: بطن من قريش، يقال لهم بنو تيم بن مرّة.
(٧) ألفيته: وجدته.
(٨) حبوته: أعطيته، وجدت عليه.
(٩) الشين: بخلاف الزين، وهو ما يصيب ويقبح.

فقال عبدُ الله لأمية: خذ الأخرى؛ فأخذهما جميعًا وخرج. فلما أن صار إلى القوم بهما أنشأ يقول: [من الوافر]

ومـا لـي لا أحَـيِّـيـهِ وعـنـدي	مَوَاهِبُ قد طلعنَ من النِّجادِ[١]
لأبيضَ من بني عَمْرو بنِ تَيْم	وهـم كالـمَشْرَفِيّاتِ[٢] الحِدَادِ[٣]
لِكـلّ قـبـيـلـةٍ هـادٍ[٤] ورأسٌ	وأنـتَ الـرأسُ تـقـدُم كـلَّ هـادِ
عِمادُ الخَيْفِ[٥] قد علمت مَعَدٌّ[٦]	وإنّ الـبـيـتَ يُـرْفَـع بـالـعـمـاد
لـه داعٍ بـمـكّـةَ مُـشْـمَـعِـلٌّ[٧]	وآخَـرُ فـوق دَارتـهِ يُـنـادِي
إلى رُدُحٍ[٨] من الشِّيزَى[٩] مِلَاءٍ	لُبَابَ[١٠] البُرِّ يُلْبَكُ[١١] بالشِّهادِ[١٢]

وكان سبب قول أميّة بن أبي الصلت هذا الشعرَ أنّ عبدَ اللهِ بنَ جُدْعانَ وفد على كِسْرَى[١٣] فأكل عنده الفالُوذَ[١٤]؛ فسأل عنه فقيل له: هذا الفالوذ. قال: وبِمَ يصنع؟ قيل: لُبابُ البُرِّ يُلبك مع عسل النحل. قال: أبغوني[١٥] غلامًا يصنعه؛ فأتوه بغلام يصنعه فابتاعه، ثم قدِم به مكةَ؛ فأمره أن يصنع الفالُوذ ففعل، ثم وضع الموائد من الأبطح[١٦]

---

(١) النجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض، والنجاد: حمالة السيف.
(٢) المشرفيات: صفة للرماح. (٣) الحداد: الماضية، القاطعة.
(٤) الهادي: الدليل.
(٥) الخيف: الجهة والناحية. والخيف، ناحية بمنى، قريبة من مكة.
(٦) معدّ، عرب الشمال الذين ينسبون إلى معد بن عدنان، وكان نزار بن عدنان قد ترك أربعة بنين هم مضر وربيعة وأنمار وإياد. انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه ٢/ ٤٦. دار ومكتبة الهلال. بيروت ١٩٨٦ م.
(٧) مشمعلّ: جادّ ومثابر.
(٨) ردح: جمع ردحة، وهي السترة في مؤخر البيت. وهي الشجرة الكبيرة. والجفنة العظيمة والكتيبة من الجيش.
(٩) الشيزى: ضرب من الخشب، وهو الأبنوس. وهو القصعة الكبيرة.
(١٠) لباب البرّ: خالص القمح. (١١) يلبك: يخلط.
(١٢) الشهاد: جمع شهد، وهو العسل ما دام لم يعصر من شمعه.
(١٣) كسرى: هو كسرى بن قباذ، ملك الفرس الساسانيين. اشتهر بعدله وإصلاحه.
(١٤) الفالوذ: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل، معرّبة عن الفارسية.
(١٥) أبغوني: أعطوني.
(١٦) الأبطح: كل مسيل فيه دقاق الحصى، وهو الرمل المنبسط على وجه الأرض، وهو مسيل الماء ضيّقًا أو واسعًا. وهنا، المراد به أبطح مكة، وثمة أبطح مِنًى، وقد يقصد به المحصّب أيضًا، وهو خيف بني كنانة. انظر: معجم البلدان، لياقوت ١/ ٧٤.

إلى باب المسجد[١]، ثم نادى مناديه: ألَا من أراد الفالُوذَ فليحضُرْ، فحضره الناس. وكان فيمن حضر أميّةُ بنُ أبي الصلتِ فقال الأبيات. وقال فيه أيضًا: [من مجزوء الكامل]

ذُكِـر ابـنُ جُـدْعـانٍ بـخـيـــ ـر كـلّمـا ذُكِـرَ الـكِـرامُ
مـن لا يـخـونُ ولا يَـعُـقّ[٢] ولا يُـبَـخِّـله الأنـامُ
يَـهَـبُ الـنـجـيـبـةَ[٣] والـنـجـيـ ـبَ[٤] له الرِّحـالـةَ[٥] والزِّمامُ[٦]

وابن جُدْعان ممن ترك شربَ الخمر في الجاهليّة. وقد تقدّم ذكره. وهجاه دُرَيْد بن[٧] الصّمّة بشعر؛ فلقيه بعد ذلك عبدُ الله بسُوق عكَاظ[٨]، فحيّاه وقال: هل تعرِفني يا دُرَيد؟ قال: لا. قال: فلِمَ هَجوتَني؟ قال: ومَن أنت؟ قال: عبدُ الله بن جُدْعان. قال: هجوتُك لأنك كنت أَثِرًا كريمًا فأحببتُ أن أضع شعري موضعه. فقال له عبد الله: لئن كنتَ هجوتَ لقد مدحتَ؛ وكساه وحمله على ناقة برحلها، فقال دُرَيد: [من المتقارب]

إلـيـك ابـنَ جُـدْعـانَ أعـمـلـتُـهـا مُـجَفَّفَةً للسُّري[٩] والنَّصَبْ[١٠]
فـلا خـفـضَ حـتـى تُـلاقـي امرأً جـوادَ الـرِّضـا وحـلـيـمَ الـغَـضَـبْ
وجـلـدًا[١١] إذا الـحـربُ مَـرَّتْ بـه يُعِين عليها بجَزْلِ الحطبْ[١٢]
وجُـلْـتُ الـبـلادَ فـمـا إن أرى شبيهَ ابنِ جُدْعانَ وَسْطَ العرب
سـوى مـلِـكٍ شـامـخٍ مُـلْـكـهُ له البحرُ يجري وعَيْنُ الذهب

---

(١) المسجد: المراد به المسجد المكّي الشريف، وفي وسطه الكعبة المشرّفة.
(٢) يعقّ: يعصي، والعقوق يطلق على عصيان الوالدين خاصةً.
(٣) النجيبة: الناقة الفتيّة الكريمة. (٤) النجيب: الجمل الفتيّ الكريم.
(٥) الرحالة: السرج من جلد، لا خشب فيه. (٦) الزمام: العنان تقاد به الدابة.
(٧) دريد بن الصمة بن الحارث بن معاوية... بن هوازن، من فرسان الجاهلية وشعرائها المذكورين، حارب الإسلام والمسلمين. وقتل في معركة حنين سنة ٦٣٠ م.
(٨) عكاظ: من أسواق العرب ومواسمهم السنوية في الجاهلية. فيه كانت العرب تتبارى وتتناشد الأشعار.
(٩) السُّري: السير ليلًا. (١٠) النصب: التعب والإعياء أو العياء.
(١١) جلدًا: شجاعًا. (١٢) الحطب الوافر.

وأخبار ابن جُدعان كثيرة وسيادتُه في الجاهليّة مشهورة، ليس هذا موضع إيرادِها، وأنما أوردنا ما أوردنا منها في هذا الموضع على سبيل الاستطراد، فالشيء بالشيء يذكر. فلنَرْجع إلى أخبار القِيان.

ذكر أخبار جميلة

هي جميلةُ مولاةُ بني سُلَيم، ثم مولاةُ بطنٍ منهم يقال لهم بنو بَهْز، وكان لها زوج من موالي بني الحارث بنِ الخزرج، وكان ينزل فيهم، فغلب عليها ولاءُ زوجها فقيل لها: مولاة الأنصار. وقد قيل: إنها كانت لرجل من الأنصار ينزل بالسُّنْح(١) وقيل: كانت مولاة الحجّاج بن عِلَاط السَّلَمِيّ. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وهي أصل من أصول الغناء، أخذ عنها مَعْبَد وابنُ عائشةَ وحَبَابةُ وسلّامةُ وعقيلةُ والعتيقةُ وغيرُهم. وفيها يقول عبد الرحمٰن بن أرْطاة(٢): [من المتقارب]

إنّ الـدّلالَ وحـسـنَ الـغـنـا ... ءِ وَسْطَ بُيوتِ بني الخَزْرَجِ(٣)

وتِـلكُم جـمـيـلةُ زَيـنُ الـنـساء ... إذا هـي تـزدان(٤) لـلمَـخْـرَجِ

إذا جـئـتَـهـا بـذَلـتْ وُدَّهـا ... بـوجـهٍ مُـنـيـرٍ لـهـا أبـلَجِ(٥)

قال: وكانت جميلةُ أعلمَ خلقِ الله بالغناء. وكان معبد يقول: أصل الغناء جميلةُ وفرعُه نحن، ولولا جميلةُ لم نكن نحن مغنِّين. قال: وسئلت جميلةُ: أنَّى لك هذا الغناء؟ قالت: واللهِ ما هو إلهامٌ ولا تعليم، ولكنّ أبا جعفر سائبَ خاثر كان جارَنا، وكنت أسمعُه يغنِّي ويضرب بالعود فلا أفهمُه، فأخذت تلك النغماتِ وبنيتُ عليها غِنائي، فجاءت أجودَ مِن تأليف ذلك الغناءِ، فعَلِمتُ وألقيت؛ فسمعني مَوْلَياتي(٦) يومًا وأنا أُغنِّي سرًّا، ففهِمنني ودخلْنَ عليَّ وقلن: قد عَلِمنا ما تكتمين وأقسمن عليّ؛

---

(١) السّنح: محلّة من محالّ المدينة، وفي طرف من أطرافها، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة. انظر: معجم البلدان ٣/ ٢٦٥.

(٢) هو عبد الرحمٰن بن أرطاة بن سيحان المحاربي، شاعر إسلامي أموي، وُلد بالمدينة ثم وفد على الشام، وكان مكثرًا من شعر الخمرة والمجون والغزل والفخر. تُوفي سنة ٥٠ هـ.

(٣) الخزرج: قبيلة عربية من الأزد، وهم الأنصار الذي نزل في ظهرانيهم محمد ﷺ بالمدينة.

(٤) تزدان، وتزيّن، بمعنى واحد. والزين، بخلاف الشّين.

(٥) أبلج: واضح ظاهر، فيه بياض وزُهرة.

(٦) مولياتي: جمع مولاة، وهي الجارية المملوكة.

فرفعت صوتي وغنّيتهن بشعر زُهَيْرِ بن أبي سُلْمَى[١]: [من البسيط]

وما ذَكَرْتُكِ إلا هِجْتِ لي طَرَبًا إنّ المحبَّ ببعض الأمرِ معذورُ
ليس المحبُّ كَمَنْ إنْ شَطّ[٢] غيّره هَجْرُ الحبيب، وفي الهِجرانِ تغييرُ

فحينئذٍ شاع أمري وظهر ذكري وقصدني الناسُ وجلست للتعليم؛ فكان الجواري يكثُرْنَ عندي، وربما انصرف أكثرُهن ولم يأخذن شيئًا سوى ما سمعنني أُطارح[٣] غيرهن، وقد كَسَبت لمواليّ ما لم يَخْطُر لهم ببال، وأهل ذلك كانوا وكنت. وقد أقرّ لجميلةَ كلُّ مكيٍّ ومدنيّ من المغنّين. قال: ولما قدِم ابنُ سريج والغَرِيضُ وابنُ مِسْجَح وسَلْم بن مُحْرِز المدينةَ واجتمعوا هم ومَعْبَد وابن عائشة حَكّموها بينهم؛ واجتمعوا عندها، وصنع كل منهم صوتًا وغناه بحضرتها ـ وقد ذكر الأصفهانيّ الأصوات ـ فلما سمعت الأصوات قالت: كلّكم مُحسِنٌ مجيدٌ في غِنائه ومذهبه. قال ابن عائشةَ: ليس هذا بمُقْنِع. قالت: أمّا أنت يا أبا يحيىٰ فتُضْحِك الثّكلى[٤] بحسن صوتِك ومشاكلته[٥] النفوسَ. وأمّا أنت يا أبا عَباد فنسِيجُ وَحْدِه بتأليفك وحسن نظمك وعذوبة غنائك. وأمّا أنت يا أبا عثمان فلك أوّليّةُ هذا الأمر وفضلُه. وأمّا أنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلُح. وأمّا أنت يا أبا الخَطّاب فلو قدّمتُ أحدًا على نفسي لقدّمتك. وأمّا أنت يا مولى العَبَلات فلو ابتدأتَ قدّمتُك عليهم. ثم سألوها جميعًا أن تغنّيهم لحنًا كما غَنّوْا، فغنّتهم، فكلهم أقرّوا لها وفضّلوها.

وكانت جميلة قد آلت أنها لا تغنّي أحدًا إلا في منزلها. فكان عبدُ اللهِ بنُ جعفر[٦] يأتيها في مجلسها فيجلس عندها وتغنّيه. فأرادت أن تكفِّر[٧] عن يمينها وتأتيه فتغنّيه في بيته؛ فقال: لا أكلّفك ذلك.

---

(١) شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات. شعره دقيق التعبير، متين التركيب، عمل جاهدًا على تثقيفه وتقويمه ولذا سميت قصائده بالحوليّات لأنه كان يطلعها من الحول إلى الحول. مدح وفخر وتغزّل وكانت الحكمة غالبة على شعره. وضعه ابن سلام ثالثًا في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية، بعد امرىء القيس والنابغة الذبياني، وقبل الأعشى. انظر: طبقات الشعراء، لابن سلّام. ص ٢٥. ط أوروبّا.

(٢) شطّ: نأى وابتعد.

(٣) أطارح: أساجل.

(٤) الثكلى: من فقدت ولدها.

(٥) مشاكلته: ملاءمته.

(٦) عبد الله بن جعفر: أحد الصحابة الذين ولدوا في الحبشة، وهو ابن أخي علي بن أبي طالب، كان من الأجواد والشجعان، وسمي ببحر الجود لكرمه. تُوفي سنة ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م.

(٧) تكفّر عن يمينها: تعطي كفّارة، وهي مقدار من المال وغيره يدفعه صاحب اليمين الكاذبة.

وروى الأصفهانيُّ أنّ ابنَ أبي عَتِيق وابنَ أبي ربيعةَ[١] والأحوصَ[٢] بنَ محمد الأنصاريّ أتوا منزلَ جميلةَ واستأذنوا عليها فأذِنت لهم. فلما جلسوا سألت عن عمرَ، فقال لها: إني قصدتُك من مكةَ للسلام عليك؛ فقالت: أهلُ الفضل أنت. قال: وقد أحببتُ أن تُفرّغي لنا نفسَك اليوم وتُخلِي مجلسَك؛ قالت: أفعل. فقال لها الأحوص: أحبّ ألّا تغنّي إلا بما نسألك؛ فقالت: ليس المجلس لك، القوم شركاؤك؛ فقال: أجل. قال عمر: فإني أرى أن نجعل الخيارَ إليها. قال ابنُ أبي عتيق: وفّقك الله. فدعت بعودٍ فغنّت: [المنسرح]

تَمشِي الهُوَيْنَى[٣] إذا مشتْ فُضُلًا[٤]	مَشْيَ النَّزِيفِ[٥] المخمورِ في الصُّعُدِ[٦]
تَظَلُّ من بعدِ بيتِ جارتها	واضعةً كفَّها على الكَبِدِ
يا مَنْ لِقلبٍ مُتَيَّمٍ[٧] سَدِمٍ[٨]	عانٍ[٩] رهينٍ مُكَلَّمٍ[١٠] كَمِدٍ[١١]
أزجُرُه[١٢] وهو غيرُ مُنزَجِرٍ	عنها بطَرْفٍ[١٣] مُكَحَّلِ السهَدِ[١٤]

قال راوي هذه الحكاية: فلقد سمعتُ للبيت زَلزلةً وللدار هَمْهمةً[١٥]. فقال عمر: لله دَرُّكِ يا جميلة! ماذا أُعطِيت! أنت أوّل الغناء وآخره! ثم سكتت ساعةً وأخذت العود فغنّت، فطرب القوم وصفّقوا بأيديهم وفحصوا بأرجلهم وحرّكوا رؤوسَهم، وقالوا: نحن فِداؤُك من المكروه، ما أحسنَ ما غنّيتِ وأجملَ ما قلِت!

---

(١) هو عمر بن أبي ربيعة، شاعر غزل مشهور، من بني مخزوم من قريش. شعره رقيق العبارة، جيد الأسلوب، لطيف الحاشية رقيقها. مال إلى الغزل والمجون فغلب على غزله الطابع المادي وذكر المغامرات مع النسوة الشريفات وغير الشريفات. تاب في آخر حياته، ومات سنة ٧١٢ م.

(٢) الأحوص، لقب له، واسمه عبد الله، شاعر أموي من أهل المدينة. أكثر شعره في الغزل والهجاء والمجون، وعوقب على ذلك كثيرًا. مات سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٣ م. انظر: الأعلام، للزركلي ٤/ ٢٥٧.

(٣) الهوينى: على مهل.

(٤) فضلًا: متوشحة في ثوبها الفضُل، وهو ما يلبس في البيت، ولا يبالغ في وشيه.

(٥) النزيف: السكران.

(٦) الصعد: العلوّ.

(٧) متيم: عاشق، متبول.

(٨) سدم: شديد العشق.

(٩) عانٍ: أسير مكبّل.

(١٠) مُكَلّم: مجروح.

(١١) كمد: حزين.

(١٢) أزجره: أصيح عليه كي يبتعد وينأى.

(١٣) الطرف: العين.

(١٤) السهد: الأرق وعدم النوم.

(١٥) الهمهمة: الصوت الخافت غير الواضح.

وأُحضِر الغداءُ فتغدّى القومُ بأنواع من الأطعمةِ ومن الفواكه، ثم دعتْ بأنواع الأشرِبة؛ فقال عمر: لا أشرب، وقال ابنُ أبي عَتِيق مثل ذلك؛ فقال الأحوص: لكنّي أشرَب، وما جزاء جميلةَ أن يُمتنَعَ من شرابها! فقال عمر: ليس ذاك كما ظننت. فقالت جميلة: من شاء أن يحملَني بنفسه ويخلِط رُوحه بروحي فعل، ومن أبى ذلك عذَرناه، ولم يمنعه ذلك عندنا ما يريد من قضاء حوائجه والأُنْس بمحادثته. قال ابن أبي عتيق: ما يَحسُنِ بنا إلا مساعدتُك. فقال عمر: إني لا أكون أخسَّكم[١]، افعلوا ما شئتم تجدوني سامعًا مطيعًا. فشرب القوم أجمع؛ فغنّت بشعر ابن أبي ربيعة: [من الرمل]

ولقد قالت لجاراتٍ لها ... كالمَها[٢] يلعَبْن في حُجْرتِها[٣]

خُذْنَ عني الظلَّ لا يتبَعني ... ومضتْ تسعَى إلى قُبّتِها

لم تُعَلِّقْ رَجُلًا فيما مَضى ... طَفْلةٌ[٤] غيداءُ[٥] في حُلّتها[٦]

لم يَطِشْ[٧] قطُّ لها سهمٌ ومَنْ ... تَرْمِهِ لا ينجُ من رَمْيتِها

فصاح عمرُ ثم شقّ جيبَ قيمصِه إلى أسفلِه، ثم ثاب إليه عقلُه فندِم واعتذر وقال: لم أملك من نفسي شيئًا. وقال القوم: قد أصابنا الذي أصابك وأُغْمِيَ علينا غير أننا قد فارقناك في تخريق الثّياب. فدعتْ جميلة بثياب فجعلتها على عمر فقبِلها ولبِسها، وانصرف القوم إلى منازلهم. وكان عمر نازلًا على ابن أبي عتيق[٨]، فوجّه إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب كانت معه فقبِلتها جميلة، وانصرف عمر إلى مكة جذلانَ مسرورًا.

وروى أبو الفرج بأسانيد رفعها إلى يونس الكاتب[٩] والزبير بن بَكّار[١٠] عن

---

(١) أخسّكم: أوضعكم وأدناكم.

(٢) المها: جمع مهاة، وهي بقرة الوحش، تشبّه بها المرأة لجمال عينيها.

(٣) حجرتها: مقصورتها. (٤) طفلة: الطفلة، الرخصة الناعمة من النساء.

(٥) غيداء: من فيها غيد، وهو بياض الجيد والعنق.

(٦) حلّتها: ثوبها.

(٧) يطش: من طاش السهم، إذا خاب وأخطأ هدفه.

(٨) ابن أبي عتيق: من أقرب الناس إلى عمر بن أبي ربيعة، وهو رفيقه ومغنّيه وعشيره.

(٩) يونس الكاتب، ويعرف بيونس المغني. من أهل فارس، ومن موالي الزبير بن العوام. له كتب مشهورة في الأغاني والمغنين. أشهر كتبه «كتاب القيان» و«كتاب النغم» الفهرست، ص ٢٠٧.

(١٠) الزبير بن بكار: هو أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله. . . بن عبد الله بن الزبير بن العوام. راوية ونسابة وشاعر. ولي قضاء مكة ودخل بغداد للمرة الأخيرة سنة ٢٥٣ هـ. مات=

عمه مُصْعَب قالا: حجّتْ جميلةُ فخرج معها من الرجال المغنّين والنساء والأشراف وغيرهم جماعةٌ ذكرهم أبو الفرج، منهم من المغنِّين هِنْبٌ وطُوَيْسٌ والدَّلَالُ ومَعْبَدٌ ومالكُ بنُ أبي السَّمْحِ وابنُ عائشةَ ونافعُ الخيرِ ونافعُ بنُ طُنْبورةَ وغيرُ هؤلاء ممن ذكرهم؛ ومن النساء المغنّيات جماعةٌ ذكرهنّ: منهن الفَرهةُ وعزّةُ الميلاءُ وحَبَابةُ وسلّامةُ وخُلَيْدةُ وعَقِيلةُ والشمّاسيّةُ وفرَعةُ ونَبِيلةُ ولذّةُ العيشِ وسعيدةُ والزَّرْقاءُ؛ ومن غيرِ المغنِّين من الأشراف ابنُ أبي عتيقٍ والأحوصُ وكُثَيِّرُ عَزّةَ[1] ونُصَيْبٌ[2]؛ وجماعةٌ من الأشراف الرجال والنساء. وحج معها من القِيان مُشيِّعاتٌ لها ومعظِّمات لقدرِها خمسون قينةً وجّه بهنّ مواليهنّ معها وأعطوهنّ النفقاتِ وحملوهنّ على الإبل في الهوادجِ والقِباب وغير ذلك؛ فأبت جميلةُ أن تنفقَ واحدةٌ منهنّ درهمًا فما فوقه حتى يرجِعن. قال: وتخَاير مَنْ خرج معها في اتخاذ أنواع اللِّباس العجيب والهوادج والقِباب. قال: ولما قاربوا مكةَ تلقّاهم سَعِيدُ بنُ مِسْجَحٍ وابنُ سُرَيجٍ والغَرِيضُ وابنُ مُحْرِزٍ والهُذَلِيّون وجماعة من المغنّين من أهل مكةَ وفتيانٌ كثير؛ ومن غير المغنّين عمرُ بنُ أبي ربيعةَ والحارثُ[3] بنُ خالدِ المخزوميّ والعَرْجيّ[4] وجماعةٌ من الأشراف. فدخلت جميلةُ مكةَ وما بالحجاز مغنٍّ حاذقٌ ولا مغنّية إلا وهو معها وجماعةٌ من الأشراف ممن سَمّينا وغيرهم من الرجال والنساء، وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسنِ هيئتهم. فلما قضت حجَّها سألها المكّيون أن تجعلَ لهم مَجْلِسًا؛ فقالت: للغناء أم للحديث؟ فقالوا: لهما جميعًا. قالت: ما كنت لأخلِط جِدًّا بهَزْل، وأبتْ أن تجلس للغناء. فقال عمرُ بنُ أبي

= سنة ٢٥٦ هـ وقبره في مكة. انظر: الفهرست، ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(١) كُثَيِّر: ويعرف بكُثَيِّر عَزَّة، اسم حبيبته. شاعر أموي عذري مشهور. يمتاز برقة نسيبه وغزله. عاش في المدينة، وتُوفي سنة ٧٢٣ م.

(٢) نصيب: شاعر أموي عباسي مخضرم. عاصر عبد الملك بن مروان، ومدحه، كان عبدًا أسود، مشوّه الخلقة، وله مع عبد الملك محادثات ومساجلات، انظر: الكامل في اللغة والأدب، للمبرد ١/ ٣٣٤. مكتبة المصارف، بيروت.

(٣) الحارث بن خالد المخزومي، أحد أشهر اللاهين في عصر بني أمية، تنافس وعمر بن أبي ربيعة في حب عائشة بنت طلحة. وبلغ من استهتاره ومجونه، أنه أمر ذات يوم بتأخير الصلاة، وكان واليًا على مكة من قبل عبد الملك بن مروان، حتى فرغت عائشة من طوافها، فنمي ذلك إلى عبد الملك فأنّبه على ذلك، فقال: «ما أهون، والله، غضب عبد الملك إذا رضيت عائشة». انظر الخبر في: الأغاني، لأبي الفرج الأصفاني ٣/ ١٠٣. ط بولاق وطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩ م.

(٤) العرجي: سبق التعريف به.

ربيعة: أقسمتُ على مَن كان في قلبه حبٌّ لسماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة، فإني خارج معها. فخرجتْ في جمع كثير من الأشراف وغيرهم أكثر من جمعها بالمدينة. فلما قدِمت المدينة تلقّاها الناس والأشرافُ من الرجال والنساء، فدخلت بأحسنَ مما خرجت منها، وخرج الرجالُ والنساء فوقفوا على أبوابِ دُورِهم ينظرون إلى جمعِها وإلى القادمين معها. فلما دخلت إلى منزلها وتفرّق الناسُ إلى منازلهم ونزل أهلُ مكةَ على أقاربهم وإخوانهم، أتاها الناسُ مسلّمين، وما استنكف[1] من ذلك صغير ولا كبير. فلما مضى لمَقْدَمِها عشرةُ أيام جلست للغناء، وقالت لعمرَ بنِ أبي ربيعة: إني جالسة لك ولأصحابِك، فإذا شئتَ فعِدِ الناس. فغَصّت الدارُ بالأشراف من الرجال والنساء، وابتدأت جميلةُ فغنّت بشعر لعمرَ بنِ أبي ربيعة: [من البسيط]

هيهاتَ[2] من أَمَةِ[3] الرّحمـٰنِ منزلُنا ... إذا حَلَلنا بِسيفِ البَحْرِ[4] من عَدَنِ[5]

واحتلّ أهلُك أجيادًا[6] فليس لنا ... إلا التَّذَكُّرُ أو حظٌّ من الحَزَنِ

لو أنها أبصرتْ بالجِزْعِ[7] عَبْرَته ... وقد تَغَرَّد قُمْرِيّ[8] على فَنَنِ[9]

إذًا رأتْ غيرَ ما ظنّتْ بصاحبها ... وأيقنَتْ أنّ لَحْجًا[10] ليس من وطنِي

ما أنسَ لا أنسَ يوم الخَيْفِ[11] مَوْقِفَها ... وموقفي وكِلانا ثَمّ ذو شَجَنِ[12]

وقولَها للثُّرَيّا[13] وهي باكيةٌ ... والدمعُ منها على الخَدَّينِ ذو سُنَنِ[14]

باللهِ قولي له من غيرَ مَعْتَبةٍ ... ماذا أردتَ بطول المُكْثِ[15] في اليمنِ

إن كنتَ حاولتَ دنيا أو ظفِرتَ بها ... فما أصبتَ بترك الحج من ثمنِ

---

(١) استنكف: أبطأ وامتنع.

(٢) هيهات: اسم فعل بمعنى بعُد.

(٣) الأمة: الجارية.

(٤) سيف البحر: ساحله.

(٥) عدن: اسم بلد بعينه، في جنوب اليمن.

(٦) أجياد: اسم موضع بمكة يلي الصفا.

(٧) الجزع: منقطع الوادي، ومحلّة القوم.

(٨) القمري: مذكر القمرية، وهي الحمامة البريّة.

(٩) الفنن: الغصن.

(١٠) لحج: اسم موضع بعينه جنوب اليمن، في عدن.

(١١) الخيف: اسم موضع بعينه، في منى من عرفات.

(١٢) الشجن: الحزن.

(١٣) الثريا: حبيبة عمر بن أبي ربيعة. ذكرها كثيرًا في شعره، وهي بنت علي بن عبد الله، المكية القرشية، كانت من أجمل نساء عصرها.

(١٤) ذو سنن: ذو طُرق.

(١٥) المكث: الإقامة واللّبث.

فكلُّهم استحسن الغناء، وضجّ القومُ لحسنِ ما سمعوا، وبكى عمرُ حتى جرت دموعُه على ثيابه ولِحيته. ثم أقبلت على ابنِ سريج فقالت: هاتِ، فغنّى صوته بشعر لعمر: [من مجزوء الوافر]

ألـيـسـتْ بـالّتي قـالـت   لـمـولاةٍ لـهـا ظُـهُـرَا
أشـيـري بـالـسـلامِ لـه   إذا مـا نَـحْـوَنـا نَـظَـرا
وقُـولي فـي مُـلاطَـفـةٍ   لـزيـنـبَ نَـوِّلي عُـمَـر
وهـذا سِـحـرُكَ الـنّـسـوا   نَ قد خَبَّرنني الخبرَا[1]

ثم قالت لسعيدِ بن مِسجح: هاتِ يا أبا عثمانَ، فاندفع فغنّى. ثم قالت: يا معبدُ هاتِ، فاندفع فغنّى فاستحسنته. ثم قالت: هاتِ يا ابنَ مُحرِز، فإني لم أُؤَخِّرْك لخَسَاسةٍ[2] بك ولا جهلًا بالذي يجب في الصَناعة، ولكني رأيتُك تحبّ من الأمورِ كلها أوسطَها وأعْدَلَها. فجعلتك حيث تحب واسطةً بين المَكّيين والمدنيّين. فغنّى. ثم قالت للغريض: هاتِ يا مولى العَبَلات؛ فغنّى بشعر عمرو بن شأس[3] الأبياتَ، وفي آخرها: [من الطويل]

أرادتْ عِرَارًا[4] بالهَوَانِ ومَنْ يُرِدْ   عِرَارًا لَعَمْري بالهَوانِ فقد ظَلَمْ

فقالت: أحسن عمرو بنُ شأسٍ ولم تُحسِنْ، إذ أفسدتَ غناءك بالتعريض، وواللهِ ما وضعناك إلا موضعَك ولا نقصناك من حظّك، فبماذا أهنّاك! ثم أقبلت على الجماعة فقالت: يا هؤلاءُ اصدُقوه وعَرِّفوه نفسَه ليقنَع بمكانه. فأقبل القومُ عليه وقالوا: يا أبا زيد، قد أخطأتَ إن كنتَ عرّضت. فقال: قد كان ذلك، ولست بعائد؛ وقام إلى جميلةَ فقبّل طَرَف ثوبها واعتذر، فقبِلتْ عذره وقالت: لا تعد، وأقبلت على ابنِ عائشةَ فقالت: يا أبا جعفر، هات، فغنّي، فقالت: حَسَنٌ ما قلت. ثم أقبلت على نافع وبُدَيْح فقالت: أُحِبّ أن تغنّيا جميعًا بصوت ولحنٍ واحد، فغنيا. ثم أقبلت على الهُذَليّين الثلاثة فقالت: غَنّوا صوتًا واحدًا، فاندفعوا فغنَّوْا. ثم أقبلت على نافع بن

---

(١) الأبيات أعلاه تجدها في ديوان عمر، ص ١٤٤، قالها في زينب الجمحية.
(٢) الخساسة: الدناءة.
(٣) عمرو بن شأس: شاعر أموي، والد عرار الخطيب والبليغ والفصيح.
(٤) عرار: العرار، نبت طيب الريح. وهو موضع بعينه، وهو في ديار باهلة من اليمامة. لكن هنا، عرار، هو عرار بن عمرو بن شأس الأسدي.

طُنبورةَ فقالت: هاتِ يا نَقْشَ الغَضَارة[١] ويا حَسَنَ اللسان؛ فاندفع فغنّى، فقالت: حَسَنٌ والله. ثم قالت: يا مالك هاتِ، فإني لم أُؤخِّرك لأنك في طبقة آخرهم، ولكن أردتُ أن أختِمَ بك يومَنا تَبَرُّكًا بك، وكي يكون أوّلُ مجلِسنا كآخره ووسطُه كطَرَفه؛ فإنك عندي ومَعْبَدًا في طريقةٍ واحدة ومَذْهبٍ واحد، لا يدفع ذلك إلا ظالمٌ ولا يُنكره إلا عاضِلٌ[٢] للحق، والحقّ أقول، فمن شاء أن ينكر؛ فسكت القوم كلهم إقرارًا بما قالت. فاندفع فغنّى: [من الطويل]

عَدُوٌّ لمن عادتْ وسِلْمٌ لسِلْمِها ... ومَنْ قرّبت سلْمى أُحِبَّ وقُرِّبَا
هَبِيني امرأً إمَّا بريئًا ظَلمتِهِ ... وإمّا مُسِيئًا تاب بعدُ وأَعْتَبا
أقولُ التماسَ العُذْرِ لمّا ظَلَمتِني ... وحَمَّلتِني ذنبًا وما كنتُ مُذْنِبا
لِيَهْنِكِ إشماتُ[٣] العدوِّ بهَجْرِنا ... وقَطْعُك حبلَ الودّ حتى تَقَضَّبا[٤]

فقالت جميلة: يا مالكُ، ليت صوتَك قد دام لنا ودُمنا له! وقطعت المجلس، وانصرف عامّةُ الناس وبقي خواصُّهم. قال: ولما كان في اليوم الثاني حضر القوم جميعًا. فقالت لطُوَيْس: هاتِ يا أبا عبد النّعيم، فغنّى: [من المنسرح]

قد طال ليلي وعادني طَرَبي ... من حُبِّ خَوْدٍ[٥] كريمةِ الحَسَبِ
غَرّاء[٦] مثل الهلالِ آنِسةٍ ... أو مثل تِمثالِ صُورةِ الذَّهَبِ
صادتْ فؤادي بجِيدِ مُغْزِلةٍ ... ترعَى رِياضًا مُلْتَفّةَ العُشُبِ

فقالت جميلة: حسنٌ والله يا أبا عبدَ النعيم. ثم قالت للدّلال: هاتِ يا أبا يزيدَ، فغنّى، فاستحسنت غناءه. ثم قالت لهِنب: إنا نُجِلّك اليوم لكِبَر سِنّك ورِقّةِ عظمك؛ فقال: أجل. ثم قالت لبَرْد الفؤاد ونَوْمة الضُّحَى: هاتِيَا جميعًا لحنًا واحدًا، فغنّيا، فقالت: أحسنتما. ثم قالت لفِند وزجة وهِبة الله: هاتوا جميعًا صوتًا واحدًا، إنكم متفقون في الأصوات؛ فاندفعوا فغنَّوْا. ثم غنّت جميلةُ بشعر الأعشى[٧]:

(١) الغضارة: النعمة، وطيب العيش، والرخاء. (٢) عاضل: كاره، ومضيّق.
(٣) إشمات العدو: جعله يشمت ويفرح ببليّته. (٤) تقضّب: انكسر، وانبتّ.
(٥) الخود من النساء: المرأة الشابّة.
(٦) غرّاء: مؤنث أغرّ، وهي التي في جبينها غرّة وبياض.
(٧) الأعشى: ميمون بن قيس، شاعر جاهلي معروف، من أصحاب المعلقات، يلقب بصناجة العرب. وضعه ابن سلام في المرتبة الرابعة من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية، مات سنة ٦٢٩ م. انظر: طبقات الشعراء ص ٢٥.

[من البسيط]

بانت سعادُ وأمسى حبلُها انقطعا ... واحتلّت الغَوْرَ فالجَدَّيْنِ فالفَرَعا[١]
واستنكرتني وما كان الذي نَكرتْ ... من الحوادث إلا الشَّيبَ والصَّلَعا
تقولُ بِنْتي وقد قَرّبتُ مُرْتَحِلًا ... يا رَبِّ جَنِّبْ أبي الأوصابَ[٢] والوَجَعا
وكان شيءٍ إلى شيءٍ فغَيَّره ... دهرٌ مُلِحٌّ على تفريقِ ما جمعا

قال: فلم يُسْمَع شيءٌ أحسنُ من ابتدائها بالأمس وخَتْمِها في اليوم؛ وقطعت المجلسَ وانصرف قوم وأقام آخرون. فلما كان في اليوم الثالث اجتمع الناس فضربت سِتارة وأجلست الجواري، فضربْنَ كلُّهنّ، وضربت هي فضربت على خمسين وَتَرًا فزُلْزِلت الدار. ثم غنّت على عودها وهنّ يضرِبن على ضربها: [من الطويل]

فإن خَفِيتْ كانت لعينِكَ قُرّةً[٣] ... وإن تَبْدُ يومًا لم يُعَمِّمْك عارُها
من الخَفِراتِ البِيضِ لم تَرَ غِلْظةً ... وفي الحَسَبِ الضَّخْمِ الرفيعِ نجارُها[٤]
فما رَوْضةٌ بالحَزْنِ[٥] طيّبةُ الثَّرَى ... يَمُجّ النَّدَى جَثْجَاثُها وعَرَارُها[٦]
بأطيبَ مِنْ فِيها إذا جئتَ مَوْهِنًا ... وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ[٧] الرَّطِبِ نارُها

فدَمَعتْ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بَلُّوا ثيابهم وتَنَفَّسوا الصُّعَداء، وقالوا: بأنفسنا أنتِ يا جميلة! ثم قالت للجواري: اكففن فكففْن؛ وقالت: يا عَزّ غَنّي، فغنّت بشعر لعمر: [من المتقارب]

تَذكّرتَ هِندًا وأعصارَها ... ولم تَقْضِ نفسُك أوطارَها[٨]
تَذَكّرتِ النفسُ ما قد مضى ... وهاجتْ على العينِ عُوّارَها[٩]
لتَمنَحَ رامةَ مِنّا الهوى ... وتَرْعَى لرامةَ[١٠] أسرارَها
إذا لم تَزُرْها حِذارَ العِدَا ... حَسَدنا على الزَّوْرِ زُوّارَها

---

(١) الغور والجدّان والفرع، أسماء مواضع بعينها.
(٢) الأوصاب: الأوجاع، جمع وصب.
(٣) قرّة: ما تقرّ به العين وتسرّ.
(٤) نجارها: أصلها وحسبها.
(٥) الحَزن: ما غلظ وارتفع من الأرض.
(٦) جثجاثها وعرارها: ضربان من النباتات الطيّبة الرائحة.
(٧) المندل: ضرب من النّبت الطيّب الرائحة.
(٨) هذا البيت والذي يليه تجده في ديوان عمر، ص ١٦١.
(٩) عوّارها: قذاها وما يدخل العين من الغبار.
(١٠) رامة: اسم موضع بعينه في الطريق بين مكة والبصرة.

فقالت جميلة: يا عزَّ، إنك لباقيةٌ على الدهر، فهنيئًا لك حسنُ هذا الصوت مع جودة هذا الغناء. ثم قالت لحَبَابة وسَلّامة: هاتِيا لحنًا واحدًا، فغنّتا فاستُحسِن غناؤهما. ثم أقبلت على خُلَيْدة فقالت: بنفسي أنت! غنّي فغنّت، فاستُحسِن منها ما غنّت. ثم قالت لعقِيلةَ والشَّمَّاسِيّة: هاتِيا، فغنّتا. ثم قالت لفِرعةَ ونَبِيلةَ ونَدِيمةَ ولذةِ العيشِ هَاتِينَ، فغنّين، فقالت: أحسنتُنّ. وقالت لسعيدةَ والزّرقاء: غنيا، فغنّتا. ثم قالت للجماعة فغَنّوْا، وانقضى المجلس وعاد كل إنسانٍ إلى وطنه. فما رُئي مجلسٌ ولا جمعٌ أحسنُ من هذه الأيام الثلاثة. وقد ذكر أبو الفرج ما غَنّى به كل واحد منهم فأوردنا بعضه وتركنا بعضه اختصارًا. وأخبارُ جميلَة كثيرةٌ، قد ذكر منها أبو الفرج الأصفهانيّ جملةً تدلّ على أنها كانت مُبَجّلة[1] عندَ الأشرافِ معظّمة عند المغنّين؛ يأخذون عنها ويأتمرون بأمرها، ويسعَوْن إليها، وينطقون إذا استنطقَتْهم، ويكُفّون إذا استكفَّتْهم؛ وفيما قدّمناه دلالةٌ على ذلك والله أعلم.

ذِكْر أخبار عَزَّةَ المَيْلَاء

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كانت عَزّةُ مولاةً[2] للأنصار[3]، ومسكنُها المدينة، وهي أقدمُ مَن غَنّى الغِناء المُوقَعَ من نساء الحجاز، وماتت قبل جميلة. قال: وقد أخذ عنها مَعْبَدٌ ومالك بن أبي السَّمْح وابن مُحْرِز وغيرُهم من المكّيين والمدنيّين. وكانت من أجمل النساء وجهًا وأحسنِهنّ جسمًا. وسُمِّيت الميلاء لتمايُلها في مِشْيتها.

وقال معبد: كانت من أحسن النساء ضَرْبًا بعود، مطبوعةً[4] على الغناء، لا يُعْيِيها[5] أداؤه ولا صنعته ولا تأليفه، وكانت تُغَنّي أغانيَ القِيَانِ القُدَماء مثل شِيرِين وزِرْياب وخَوْلَةَ والرَّبابِ وسلمى ورائقةَ؛ وكانت رائقة أستاذتها. فلما قَدِم نَشِيط وسائب؛ خاثر المدينةَ غَنّيا أغاني بالفارسيّة، فأخذت عَزّة عنهما نَغَمًا وألَّفتْ عليها ألحانًا عجيبة؛ فهي أوّل مَنْ فَتَنَ أهل المدينة بالغِناء وحرّض رجالَه ونساءهم عليه.

وقال الزُّبَيْريّ: وجدتُ مشايخَ أهل المدينة إذا ذكروا عَزّة قالوا: لله دَرُّها! ما كان أحسن غِناءَها، وأطَلَّ[6] صوتَها، وأندَى حَلْقَها، وأحسنَ ضَرْبَها بالمزاهر

---

(١) مبجلة: موقّرة ومحترمة.
(٢) مولاة: جارية مملوكة.
(٣) الأنصار: هم الذين نصروا النبيّ ﷺ لما جاء المدينة المنوّرة مهاجرًا من مكة.
(٤) مطبوعة: مفطورة.
(٥) يعييها: يجعلها تعيا، وتتعب.
(٦) أطلّ: أحسن وأكثر رونقًا.

والمعازف وسائر الملاهي، وأجملَ وجهَها، وأظرفَ لسانَها، وأقربَ مَجلِسَها، وأكرمَ خُلُقَها، وأسخى[١] نفسَها، وأحسنَ مُساعدتَها!. وكانت جميلةُ تقول مثل ذلك فيها.

وكان ابن سُرَيجٍ في حَداثة سنِّه يأتي المدينةَ فيأخذ عنها ويتعلّم منها؛ وكان بها مُعْجَبًا، وكان إذا سئل: مَنْ أحسنُ الناس غناء؟ قال: مولاةُ الأنصارِ المُتَفَضِّلةُ على كل مَنْ غَنّى وضرب بالمعازف والعِيدان من الرجال والنساء.

وكان ابنُ مُحْرِزٍ يُقيم بمكةَ ثلاثةَ أشهرٍ ثم يأتي المدينةَ فيقيمُ بها ثلاثةَ أشهرٍ من أجلِ عَزّةَ، وكان يأخذُ عنها. وقد تقدّم ذلك في أخباره.

وكان طُوَيْس أكثرُ ما يأوِي إلى منزل عَزّة، وكان في جِوارها، وكان إذا ذكرها يقول: هي سيِّدة من غَنّى من النساء، مع جمالٍ بارع، وخُلُقٍ فاضل، وإسلامٍ لا يشوبه[٢] دَنَس؛ تأمر بالخير وهي من أهله، وتنهى عن الشرّ وهي تُجانبه[٣]، فناهيك بها! ما كان أنبلَها وأنبل مَجْلِسَها!. ثم قال: كانت إذا جلست جلوسًا عامًّا فكأنّ الطيرَ على رؤوس أهل مجلِسها، فمن تكلّم أو تحرّك نقرَ رأسه.

وقال صالحُ بنُ حسّان الأنصاريّ: كانت عَزّة مولاةً لنا، وكانت عفيفة جميلة. وكان عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ وابنُ أبي عتيقٍ وعمرُ بنُ عبدِ اللهِ بن أبي ربيعةَ يَغْشَوْنها[٤] في منزلها فتغنّيهم. وغنّت عمرَ بنَ أبي ربيعةَ لحنًا لها في شيء من شعره، فشقّ ثيابه وصاح صيحةً عظيمةً صَعِق معها. فلما أفاق قال له القوم: لغيرِك الجهلُ يا أبا الخطّاب؛ قال: إني سمعت والله ما لم أملِك معه نفسي ولا عقلي.

وكان حسّانُ بنُ ثابتٍ[٥] مُعْجَبًا بها، وكان يقدّمُها على سائر قِيان المدينة. وقد ذكرنا خبرَها مع النعمان بن بشِير[٦] وحسّان بن ثابت، وأن كلّ واحد منهما سمع غناءها، فبكى حسّان بنُ ثابتٍ واستعاد النعمانُ بنُ بشيرٍ صوتَها مرارًا؛ وتقدّم أيضًا من

---

(١) أسخى: أجود.
(٢) يشوبه: يخالطه.
(٣) تجانبه: تفارقه.
(٤) يغشونها: يأتونها.
(٥) حسان بن ثابت: شاعر جاهلي إسلامي مخضرم، من المدينة المنوّرة. مدح الغساسنة في الجاهلية، ولما أسلم مدح النبيّ ﷺ فلقّب بشاعر النبيّ، لدفاعه عن المسلمين وهجائه المشركين.
(٦) النعمان بن بشير: شاعر إسلامي، وصحابي تولّى الكوفة لمعاوية وحمص ليزيد، ابنه. ولما قامت ثورة ابن الزبير، عبد الله، ناصره وبايعه، فكان جزاؤه الاغتيال سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م.

أخبارها في خبر عائشةَ بنتِ طلحةَ وأخبارِ جميلةَ ما يُسْتغنَى عن إعادته في هذا الموضع. فلنذكر مَنْ سِواها.

ذِكْر أخبار سَلّامة القَسّ

كانت سلّامةُ القَسّ هذه مولَّدةً مِن مولَّدات المدينةِ، وبها نشأت، وأخذت الغناءَ عن معبَد وابنِ عائشةَ وجميلةَ ومالكِ بنِ أبي السَّمْح ومن دونهم، فمهرت فيه. وإنما سُمِّيت سَلّامة القَسّ لأنّ رجلًا يُعرفُ بعبدِ الرحمٰن بنِ أبي عمّارِ بنُ جُشَم بنِ معاويةَ ـ وكان منزلهُ بمكةَ، وهو من قُرّاء أهلِ المدينة، كان يُلَقَّب بالقسّ لعبادته ـ شُغِف بها وشُهِر بحبها. وكان سبب ذلك أنه سمع غناءها على غير تَعَمُّدٍ منه فبلغ منه كلَّ مبلغ. فرآه مولاها فقال: هل لك أن تدخل فتسمع؟ فأبى. فقال له مولاها: أنا أُقعِدُها حيث تسمعُ غناءها ولا تراها. فلم يزل به حتى دخل، فأسمعه غناءها فأعجبه. فقال: هل لك أن أخرجها إليك؟ قال: لا. فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه، فغنّت فشُغِف وشُغِفت به وعرَف ذلك أهلُ مكة. فقالت له يومًا: أنا والله أحبُّك. فقال: وأنا والله الذي لا إلٰه إلا هو أُحبّك. فقالت: والله أشتهي أن أُعانقَك وأقبّلك. فقال: والله وأنا أشتهِي مثلَ ذلك. قالت: وأشتهي واللهِ أن أُضاجعَك وأضعَ بطني على بطنك وصدري على صدرك قال: وأنا واللهِ كذلك. قالت: فما يمنعُك من ذلك؟ واللهِ إنّ المكانَ لخال. قال: يمنعني منه قولُ اللهِ عزّ وجلّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: الآية ٦٧]، فأنا أكره أن تحولَ مودّتي إياكِ عداوةً يوم القيامة. ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النُّسك[١]، ولم يعد إليها بعد ذلك. وكان يُشَبَّه بعَطَاء بن أبي رَبَاح[٢]. وله فيها أشعارٌ كثيرة، منها قوله: [من الكامل]

إنّ التي طرقَتْكَ[٣] بين ركائبٍ ... تَمْشِي بِمزْهَرِها[٤] وأنت حَرامُ

لَتصِيدُ قلبَك أو جزاءَ مودّةٍ ... إنّ الرّفيق له عليك ذِمامُ[٥]

باتت تُعَلِّلنا وتحسَب أننا ... في ذاك أيقاظٌ ونحن نيامُ

---

(١) النسك: العبادة، والانقطاع عن الناس.

(٢) عطاء بن رباح: من التابعين والعابدين. تولّى الإفتاء بمكة، وكانت وفاته سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م.

(٣) طرقتك: زارتك ليلًا.

(٤) مزهرها: عودها، أو ما يشبه العود، وهو آلة موسيقية.

(٥) ذمام: عهد.

حتى إذا سطَع الضياء لناظرٍ فإذا وذلك بيننا أحلامُ
قد كنتُ أعذُل في السَّفاهةِ أهلَها فاعجَبْ لِما تأتي به الأيامُ
فاليوم أعذُرهم وأعلَمُ أنما سُبُلُ الضَّلالةِ والهُدَى أقسامُ

وقوله أيضًا فيها: [من الطويل]

ألم ترها - لا يُبعِدُ الله دارَها - إذا رَجَّعَتْ[1] في صوتِها كيف تَصْنَعُ!
تَمُدّ نِظامَ القولِ ثم تَرُدُّه إلى صَلْصَلٍ[2] من صوتها يَتَرَجَّعُ

وقوله فيها: [من الطويل]

ألَا قُلْ لهذا القلبِ هل أنت مبصرُ وهل أنت عن سَلَّامة اليوم مُقْصِرُ
ألَا ليتَ أنّي حيث صارتْ بِيَ النَّوَى جليسٌ لسَلْمَى كُلّما عَجّ[3] مِزْهَرُ

وله من قصيدة طويلة أوّلها: [من السريع]

سلَّامُ هل لي منكُم ناصِرُ أم هل لقِلبي عنكُم زاجرُ[4]
قد سَمِع الناسُ بوجدِي بكم فمنهمُ اللائمُ والعاذِرُ

في أشعار كثيرة يطول الشرحُ بذكرها. ومدحها الأحوصُ أيضًا بشعر كثير. وقال فيها أيضًا ابنُ قيسِ الرُّقَيّات[5].

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ قال: كانت سَلّامةُ وريّا أُختين، وكانتا من أجملِ النساء وأحسنِهنّ غناءً؛ فاجتمع الأحوصُ وابنُ قيسِ الرقيّات عندهما. فقال لهما ابن قيس الرقيّات: إني أريد أن أمدحكما بأبيات فأصدُقَ فيها ولا أكذِب. فإن أنتما غنّيتماني بذلك وإلّا هجوتُكما ولم أقْرَبْكما أبدًا. قالتا: فما قلت؟ قال: قلت: [من الطويل]

لقد فَتنتْ رَيَّا وسَلَّامةُ القَسَّا[6] فلم يتركا للقسِّ عقلًا ولا نَفْسا

---

(١) رجّعت: أعادت الغناء، ووقّعته.
(٢) الصلصل: أرخم الأصوات وأصفاها.
(٣) عجّ: صدح وغنّى.
(٤) زاجر: رادع.
(٥) ابن قيس الرقيات: هو عبيد الله بن قيس، من بني عامر بن لؤي، ولقّب بالرقيّات لأنه شبّب بثلاث نسوة اسم كلّ منهنّ رقيّة. مدح الأمويين، ومصعب بن الزبير. مات سنة ٧٠٥ م.
(٦) القسّ: رجل الدين النصراني.

فـتـاتـانِ أمَّـا مـنـهـمـا فـشـبـيـهـةُ الـ ـهِلالِ وأخرى منهما تُشْبه الشمسَا

تَكُنَّانِ[1] أبشارًا[2] رِقاقًا وأوجُهًا عِتاقًا وأطرافًا مُخَضَّبةً[3] مُلْسا

فغنّته سلّامةُ فاستحسنه. وقال ابنُ قيسِ الرقيّات للأحوص: يا أخا الأنصار، ما قلت؟ قال: قلت: [من الكامل]

سـلّامُ هـل لـمُـتَـيَّـمٍ تَـنْـويـلُ[4] أم قد صَرَمتِ[5] وغَالَ[6] وُدَّكِ غُولُ

لا تَـصْـرِمِـي عـنِّـي ولاءكِ إنـه حَسَنٌ لـديّ وإن بَـخِلتِ جميلُ

أزَعمتِ أنّ مودّتي وصبابتي[7] كَـذِبٌ وأنّ زيـارتـي تـقـلـيـل

فغنّت الأبيات. فقال ابنُ قيس الرقيّات: أحسنتِ والله! ما أظنك إلا عاشقةً لهذا الجِلْف[8]. فقال له الأحوص: وما الذي أخرجك إلى هذا؟ قال: حُسْنُ غِنائها بشعرك، فلولا أنّ لك في قلبها مَحَبّة مُفْرِطة[9] ما جاء هكذا حسنًا على هذه البديهة[10]. فقال الأحوص: على قدر حُسْنِ شعري على شعرك هكذا حَسُن الغناء به. وما هذا منك إلا حسدٌ، وليس ذلك إلا ما حسدت عليه. فقالت سلّامة: لولا أنّ الدخول بينكما يُوجب بِغْضةً لحكمتُ بينكما حكومةً لا يَرُدُّها أحد. قال الأحوص: فأنتِ [من ذلك] آمنة. قال ابنُ قيس الرقيّات: كلّا! قد أمِنتَ أن تكون الحكومة عليك، فلذلك سبقتَ بالأمان لها. فتفرّقا على ذلك. ثم مشى ابنُ قيس الرقيّات إلى الأحوص فاعتذر إليه فقبِل عُذْرَه. ومن شعر الأحوص فيها: [من الكامل]

سَلَامُ إنّكِ قد مَلَكتِ فأَسْجِحِي[11] قد يملكُ الحُرُّ الكريمُ فيُسْجِحُ

مُنّي على عانٍ[12] أطلْتِ عناءَه[13] في الغُلِّ[14] عندكِ والعُناةُ تُسَرَّحُ

إنّـي لأنْـصَـحُـكُـمْ وأعـلَم أنـه سِيّانِ عـنـدكِ من يَغُشُّ ويَنْصَحُ

وإذا شـكـوتُ إلـى سَـلَامـةَ حُـبَّـهـا قـالـت أجِـدٌّ مـنـك ذا أم تَـمـزَحُ

(١) تكنّان: تستران. (٢) أبشارًا: جلودًا.
(٣) مخضّبة: مصبوغة بالخضاب، وهو الحنّاء وغيره.
(٤) تنويل: عطاء. (٥) صرمت: قطعت.
(٦) غال: أهلك. (٧) صبابتي: شوقي وحبّي.
(٨) الجلف: القاسي القلب السّمج. (٩) مفرطة: زائدة.
(١٠) على البديهة: ارتجالًا، على طبيعتها وسجيّتها.
(١١) أسجحي: ردّدي صوتك. (١٢) عانٍ: أسير.
(١٣) عناءه: تعبه. (١٤) الغلّ: القيد.

وحكى أبو الفرج قال: لمّا قدِم عثمانُ بنُ حَيّان المُرّيُ المدينةَ واليًا عليها، قال له قوم من وجوه الناس: إنك قد وَليت المدينةَ على كثرةٍ من الفساد؛ فإن كنت تريد أن تُصلحَ فطَهِّرْها من الغناء والرّثاء[١]. فصاح في ذلك وأجّل أهلَه ثلاثًا يخرجون فيها من المدينة، وكان ابن أبي عتيق غائبًا، وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح. فلما كان آخر ليلة من الأجل قدِم فقال: لا أدخل منزلي حتى أدخل على سَلّامة القَسّ. فدخل عليها فقال: ما دخلتُ منزلي حتى جئتُكم لأُسَلِّم عليكم. فقالوا: ما أغفلك عن أمرنا! وأخبروه الخبر. فقال: اصبروا عليّ الليلة. فقالوا: نخاف ألّا يُمْكِنَك شيء. قال: إن خفتم شيئًا فاخرجوا في السحر[٢]. ثم خرج فاستأذن على عثمانَ بنِ حيّان فأذِن له، فسلّم عليه وذكر غيبته وأنه جاء ليقضي حقه، ثم جزاه خيرًا على ما فعل من إخراج أهل الغناء والرّثاء، وقال: أرجو ألّا تكون كمِلت عملًا هو خير لك من ذلك. قال عثمان: قد فعلتُ ذلك وأشار عليّ به أصحابك. فقال: قد أصبتَ، ولكن ما تقولُ في امرأةٍ كانت هذه صِناعتُها وكانت تُكْرَه على ذلك، ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير، وأنا رسولها إليك تقول: أتوجه إليك وأعوذُ بك أن تُخرِجني من جِوار رسول الله ﷺ ومسجده؛ قال قال: فإني أدَعُها لك ولكلامك. فقال ابن أبي عتيق: لا يدعك الناس، ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر إليها، فإن رأيت أن مثلَها ينبغي أن يُترك تركتَها؛ قال: نعم فجاءه بها. وقال: احملي معك سُبْحةً وتَخَشَّعي ففعلت. فلما دخلت على عثمان سلّمت عليه وجلست وحدّثته، فإذا هي من أعلم الناس بأمور الناس، فأُعجِب بها؛ وحدّثته عن آبائه وأمورهم ففَكِهَ لذلك فقال ابنُ أبي عتيق: اقرئي للأمير. فقرأت؛ فقال لها: احدِي[٣] ففعلت. وكثُر عَجَبُه منها. فقال: كيف لو سمعتها في صناعتها! فلم يزل يُنْزِله شيئًا فشيئًا حتى أمرها بالغناء فغنّته. فقام عثمانُ من مجلِسه وقعد بين يديها، ثم قال: لا والله ما مثل هذه تخرج. فقال ابن أبي عتيق: لا يدعك الناس تُقِرّ سلّامة وتُخرِج غيرها. قال: فدعوهم جميعًا. فتركهم جميعًا وأصبح الناس يتحدّثون بذلك.

ثم اشتري يزيدُ بنُ عبدِ الملك[٤] سلّامةَ، وكانت لمُصْعَبَ بنِ سُهَيْلِ الزُّهريّ،

---

(١) الرثاء: ولعله الرثاء، وهو الكذب والغش والخداع.

(٢) السحر: ما قبل الفجر وانبلاج النور. (٣) احدِي: غنّي حداءً.

(٤) يزيد بن عبد الملك: هو الخليفة الأموي التاسع. خلف عمر بن عبد العزيز. قضى أخوه مسلمة على ثورة يزيد بن المهلب عامله على خراسان. كان ميّالًا إلى اللهو، توفي في إربد من أعمال الأردن، ودفن بدمشق سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٤ م. انظر: تاريخ الخلفاء، أو الإمامة والسياسة، لابن قتيبة ٢/١٠٣. تحقيق: طه الزيني، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٧.

وقيل: لسهيلِ بنِ عبدِ الرحمٰنِ بنِ عوف. وكانت حَبَابة جاريةَ آل لاحِق؛ فاشتراهما جميعًا؛ فاشتري سلّامة بعشرين ألف درهم، وتسلّمها رُسُل يزيدَ فخرجوا بها وشيّعها الناس. فلما نزلتْ سِقايةَ سليمان بنِ عبدِ الملك(١) قالت للرّسل: إنّ لي قومًا كانوا يَغْشَوْنَني ويُسَلّمون عليّ، ولا بدّ لي من وَدَاعهم والسلام عليهم؛ فأذِن للناس عليها، فأتوا حتى ملئوا رَحبة القصر والفِناء؛ ووقفت هي بينهم بارزةً ومعها العودُ فغنّت: [من الخفيف]

فارَقُوني وقد علمتُ يقينًا ... ما لمن ذاق مِيتةً من إيابِ(٢)

إنّ أهلَ الحِصَابِ قد تركوني ... مُوزَعًا مُولَعًا بأهلِ الحِصَابِ

أهلِ بيتٍ تتايعوا للمنايا ... ما على الدّهرِ بعدهم من عِتابِ

كم بذاك الحَجُونِ(٣) من حَيِّ صِدْقٍ ... من كُهُولٍ أعِفّةٍ وشَبَابِ

سكنوا الجِزْعَ جِزْعَ بيت أبي مو ... سى إلى النخل من صُفِيِّ السِّبابِ(٤)

فلِيَ الويلُ بعدَهم وعليهم ... صرتُ فرْدًا ومَلّني أصحابِي(٥)

قال: فلم تزل تردّد هذا الصوتَ حتى راحت، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها؛ فما شئتَ أن ترى باكيًا نبيلًا إلا رأيته.

قالوا: وكانت حَبَابةُ عندَ يزيدَ متقدّمةً على سلّامة، وكانت حبابةُ تنظر إلى سلّامةَ بتلك العين الجليلةِ المتقدّمة وتعرف فضلَها عليها؛ فلما رأت أَثَرَة يزيد لها ومحبَّته إيّاها استخفّت بها. فقالت لها سلّامة: أي أُخَيّة، نَسِيتِ فضلي عليك! ويلك! أين تأديبُ الغناء! أين حقُّ التعليم! أنسيتِ قولَ جميلة لك وهي تطارحنا: خُذِي إحكام ما

(١) سليمان بن عبد الملك: الخليفة الأموي السابع، أسس مدينة الرملة في فلسطين. وحاصر القسطنطينية لكنه لم يقو على فتحها. توفي في دابق بالقرب من حلب سنة ٩٩ هـ/ ٧١٧ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/ ٩٢.

(٢) إياب: رجوع.

(٣) الحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها. وبحذائه مسجد البيعة على شِعب الجزارين. انظر: معجم البلدان ٢/ ٢٢٥.

(٤) صفي السباب: اسم موضع بمكة، وهو وبيت أبي موسى، والمقصود أبو موسى الأشعري، ما بين دار سعيد الحرشي التي بناها إلى بيوت أبي القاسم بن عبد الواحد التي بأصلها المسجد الذي صلّي على الخليفة المنصور عنده وكان به نخل وحائط لمعاوية يعرف بحائط خرمان. انظر: معجم البلدان ٣/ ٤١٥.

(٥) الشعر علاه لكثير بن كثير السهمي. راجع المصدر السابق ٣/ ٤١٥.

أُطارحك من أُختك سلّامة، فلا تزالين بخيرٍ ما بَقِيتُ لك وكان أمرُكما مؤتلفًا! فقالت: صَدَقْتِ والله لا عدتُ لشيء تكرهينه أبدًا. وماتت حَبَابة وعاشت سلّامة بعدها دهرًا.

ولما مات يزيدُ أحضرها ابنهُ الوليد(١) وأمرها بالغناء، فتنغصّتْ من ذلك وبكت، ثم غنّته. فقال: رحِم الله أبي وأطال عمري وأمتعني بحُسْنِ غِنائك!. يا سلّامةُ، بم كان أبي يُقَدِّم حَبَابةَ عليك؟ قالت: لا أدري والله. قال: ولكنني أدري ذلك، بما قسم الله عزّ وجلّ لها. قالت: يا سيِّدي أجَلْ. وهي إحدى من اتُّهِم بهنّ الوليدُ من جواري أبيه.

ذكر أخبار حَبَابة

كانت حَبَابة جاريةً مولَّدة من مولّدات المدينة لرجل من أهلها يُعرفُ بابنِ دبابة، وقيل: بل كانت لآلِ لاحِق المكّيين، وقيل: كانت لرجل يعرفُ بابنِ مينا. وكانت تسمّى العالية، فسماها يزيدُ بن عبدِ الملكِ لما اشتراها حَبَابة. وكانت حُلوةً جميلةَ الوجه ظريفةً حسنةَ الغناء طيِّبةَ الصوت ضاربةً بالعود. أخذت الغناءَ عن ابن سُرَيْجٍ وابن مُحْرِز ومالكِ بنِ أبي السَّمْح ومَعْبَد وعن جميلةَ وعَزّةَ الميلاء.

وكان يزيدُ بنُ عبدِ الملك يقول: ما تَقَرّ عيني بما أُوتيتُ من الخلافة حتى أشترِيَ سلّامة جاريةَ مُصْعَب بن سُلَيم وحبَابَة جارية ابن لاحِق المكيّة. فأرسل فاشتُريتا له. فلما اجتمعتا عنده قال: أنا الآن كما قال الأوّل: [من الطويل]

فألقت عصاها واستقرّ بها النَّوَى كما قَرّ عينًا بِالإيابِ المسافِرُ

وكان يزيدُ بنُ عبدِ الملك في خلافة أخيه سليمانَ قد قَدِم المدينةَ فتزوّج سَعْدةَ بنتَ عبدِ الله بنِ عمرو بن عثمانَ على عشرين ألف دينار، ورُبَيْحةَ بنت محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على مثل ذلك، واشترى العاليةَ بأربعة آلاف دينار. فبلغ ذلك سليمانَ فقال: لأحجُرَنّ(٢) عليه. فبلغ يزيدَ ذلك فاستقال مولى حَبَابة؛ ثم اشتراها بعد ذلك رجل من أهل إفريقية. فلما وَلِي يزيدُ اشترتها

---

(١) الوليد: هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الخليفة الأموي الحادي عشر. خلف عمه هشام بن عبد الملك. عاش في قصره بالبادية منصرفًا إلى الخمر والشعر والغناء. خلع وقتل سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/ ١١٠.

(٢) لأحجرنّ: لأضيقنّ.

سَعْدةُ امرأتُه وعلمت أنه لا بدّ طالبها ومشتريها. فلما حصلت عندها قالت له: هل بقي عليك شيء من الدنيا لم تنله؟ قال: نعم، العالية. قالت: أوَ رأيتها؟ قال: نعم. قالت: أفتعرفها؟ قال: نعم. فرفعت الستر فرآها، فقالت: هذه هي؟ قال: نعم؛ قالت: هي لك، وخرجت عنهما. فسمّاها حبابة وعظُم قدرُ سَعْدة عنده. ويقال: إنها أخذت عليها قبل أن تَهبَها له أن تُوَطِّىء[1] لابنها عنده في ولاية العهد.

قال: وارتفع قدرُ حَبَابَةَ عند يزيدَ وتمكّن حبُها في قلبه تمكنًا عظيمًا. وكان أوّل ذلك أنه أقبل يومًا إلى البيت الذي هي فيه فقام من وراء الستر فسمعها تترنّم وتغنّي: [من الخفيف]

كان لي يا يزيدُ حبُك حَيْنًا[2] كاد يَقْضِي عليّ لمّا التقينا

فرفع السترَ فوجدها مضطجعةً مقبلةً على الجِدار، فعلم أنها لم تعلَم به ولم يكن ذلك لمكانه؛ فألقى نفسَه عليها وحرّكت منه.

قال: وأراد يزيدُ بنُ عبد الملك أن يتشبّه بعُمرَ بنِ عبدِ العزيز[3]، وقال: بماذا صار عمرُ أرْجَى لربه مني!. وقيل: بل لَامَه مَسْلَمة بن عبد الملك[4] على الإلحاح على الغناء والشرب، وقال له: إنك وَلِيتَ بعقب عمرَ بنِ عبدِ العزيز وعَدْلِه، وقد تشاغلتَ بهذه الإماء[5] عن النظر في الأمور، والوفودُ ببابك وأصحابُ الظُّلَامات[6] يصيحون وأنت غافل! قال: صدقتَ والله، وهمّ أن يترك الشربَ، ولم يدخل على حبابةَ أيامًا، فشقّ ذلك عليها فأرسلت إلى الأحْوَص أن يقول أبياتًا في ذلك، فقال: [من الطويل]

ألَا لا تَلُمْهُ اليوم أن يَتَبَلَّدا فقد غُلِبَ المحزونُ أن يتجلّدا[7]

بكَيْتُ الصِّبَا جُهْدِي فمن شاء لَامَني ومن شاء آسَى[8] في البكاء وأسْعَدَا

---

(١) توطّىء: تمهّد.
(٢) حينًا: هلاكًا.
(٣) عمر بن عبد العزيز: الخليفة الأموي الثامن، عرف بعدله وإصلاحه تُوفي سنة ١٠١ هـ/ ٧٢٠ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/٩٦.
(٤) مسلمة بن عبد الملك: أمير أموي، قاد جيش أخيه يزيد بن عبد الملك وقضى على ثورة يزيد بن المهلب بخراسان. تُوفي سنة ١٢٠ هـ.
(٥) الإماء: الجواري.
(٦) الظلامات: جمع ظلامة، وهي ما احتمل من الظلم، وما أخذ ظلمًا.
(٧) يتجلّد: يتصبّر.
(٨) آسى: واسى.

وإنّي وإن فُنِّدْتُ[١] في طلب الصِّبَا لأعلَمُ أنّي لستُ في الحبِّ أوحدَا
إذا أنت لم تَعشَقْ ولم تَدْرِ ما الهوى فكن حَجَرًا من يابس الصَّخرِ جَلْمَدا[٢]
فما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتَشْتَهِي وإن لامَ فيه ذو الشَّنَانِ[٣] وفَنّدَا[٤]

قال: فلما كان في يوم الجمعة تعرّضتْ له حَبَابةُ عندَ خروجِه إلى الصلاة، فلقيته والعودُ في يدها، فغنّت البيتَ الأوّل، فغطى وجهَه وقال: مَهْ[٥] لا تفعلي. ثم غنّت «وما العيش إلا ما تَلَذّ وتشتهي» فعدل إليها وقال: صَدَقتِ، قبّح الله من لَامني فيكِ! يا غلام، مُرْ مَسْلَمة فلْيُصَلِّ بالناس. وأقام معها يشربُ وهي تغنّيه وعاد إلى حاله، وقال لها: من يقولُ هذا الشعر؟ قالت: الأحوص. فاستدعاه واستنشده الشعرَ فأنشده الأبياتَ. ثم أنشده قصيدتَه التي أوّلها: [من البسيط]

يا مُوقِدَ النّارِ بالعَلْياءِ من إضَمِ[٦] أَوْقِدْ فقد هِجتَ شوقًا غيرَ مُنْصَرِمِ

وهي قصيدة طويلةٌ، فقال له يزيدُ: ارفعْ حوائجَك؛ فكتب إليه في نحو أربعينَ ألف درهم من دين وغيره فأمر له بها. وقد قيل في أمر هذه الأبيات: إن حَبَابة لمّا بعثتْ إلى الأحوص في عمل الشعر قالت له: إن رددتَ أميرَ المؤمنين عن رأيه فلك ألفُ دينار، فدخل الأحوص عليه واستأذنه في الإنشاد؛ فقال: ليس هذا وقتك. فلم يزل به حتى أذِن له فأنشده الأبيات. فلما سمعها وثب حتى دخل على حَبَابَة وهو يتمثّل: [من الطويل]

وما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتشتَهِي وإن لام فيه ذو الشَّنَانِ وفنّدا

قالت: ما ذاك يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: أبيات أنشدنيها الأحوصُ، فسَلِي ما شئتِ. قالت: ألف دينار تعطيها الأحوصَ؛ فأعطاه ألف دينار.

قال: وقال يزيدُ يوما لسَلّامة وحَبَابة: أيُكما غنّتني ما في نفسي فلها حُكمها. فغنّت سلّامةُ فلم تُصِبْ ما في نفسِه؛ وغنّت حَبَابةُ بشعرِ ابنِ قيسِ

---

(١) فنّدت: كُذّبت. (٢) جلمد: يابس.
(٣) الشنان: الكراهية. (٤) فنّد: كذّب.
(٥) مه: اسم فعل، بمعنى، مهلًا.
(٦) إضم: اسم ماء بين مكة واليمامة عند السّمينة، وقيل: هو وادٍ بجبال تهامة، ويوم إضم من أيام العرب. انظر: معجم البلدان ١/ ٢١٥.

الرُّقيّات: [من الخفيف]

حِلَقٌ[١] من بني كِنانةَ حَوْلي بِفِلَسْطِين يُسْرِعون الرُّكوبَا

جَزِعتْ أنْ رأت مَشِيبيَ عِرْسِي[٢] لا تَلُومِي ذوائبي[٣] أنْ تَشِيبَا

فأصابت ما في نفسه، فقال: احتكمي. قالت: تَهَبُ لي سلّامةَ ومالَها. قال: اطلُبي غيرَها؛ فأبت غيرها؛ فقال: أنت أولَى بها ومالها، فلَقِيتْ سلّامةُ من ذلك أمرًا عظيمًا. فقالت حَبَابَة: لا تَرَيْنَ إلّا خيرًا. فجاءها يزيدُ فسألها أن تَبيعه إيّاها بحكمها. فقالت: أُشهِدك الآن أنها حُرّة، فاخْطُبْها الآن أُزَوِّجْك مولاتي.

قالت: وغنّت حَبَابة يومًا يزيد: [من المنسرح]

ما أحسَنَ الجِيدَ[٤] من مُلَيْكَةَ والـ ـلبّاتِ[٥] إذ زانها تَرائبُها[٦]

يا ليتني ليلةً - إذا هَجَع[٧] النا سُ ونام الكلابُ - صاحِبُها

في ليلةٍ لا يُرَى بها أحدٌ يسعَى علينا إلّا كَوَاكِبُها

فطرِب يزيدُ، وقال: هل رأيتِ قطُّ أطربَ مني؟ قالت: نعم، ابن الطيار مُعاوية بن عبد الرحمٰن بن جعفر. فكتب يزيدُ إلى عبد الرحمٰنِ بنِ الضحّاك فحمله إليه. فلما قدِم أرسلت إليه حَبَابة: إنما بعث إليك لكذا وكذا وأخبرته بالقصة؛ فإذا أُدخِلْتَ عليه وتَغَنّيتُ فلا تُظهِرنّ طَرَبًا حتى أُغَنّي الصوتَ الذي غنّيته؛ فقال: سَوْءَةٌ على كِبَر السنّ! فدعاه يزيدُ وهو على طنفسةٍ[٨] خَزٍّ، ووضع لمعاويةَ مثلَها، وجاءوا بجامَيْنِ[٩] فيهما مِسْكٌ، فوُضِع أحدُهما بين يدي يزيد والآخَرُ بين يدي مُعاوية. قال معاوية: فلم أدر كيف أصنَع، فقلتُ: أنْظُرُ كيف يصنع فأصنع مثلَه؛ فكان يُقَلِّبه فتفوح ريحهُ وأفعل مثلَ ذلك. فلما جيءَ بحَبَابَةَ وغنّت، فلما غنّت ذلك الصوتَ أخذ معاويةُ الوِسادةَ فوضَعها على رأسه وقام يدورُ ويقول: الدُّخنُ[١٠]

---

(١) حلق: جمع حلقة، وهي كل ما استدار من الناس والأشياء وغيرها. . .

(٢) عرسي: زوجتي. (٣) ذوائبي: جمع ذؤابة، وهي خصلة الشعر.

(٤) الجيد: العنق.

(٥) اللبات: جمع لبّة، وهي مكان أو موضع القلادة من الصدر.

(٦) ترائبها: جمع تريبة، وهي أعلى الصدر. (٧) هجع: رقد.

(٨) الطنفسة: البساط، والفراش، والحصير، والثوب، واللفظة معرّبة من الفارسية.

(٩) جامين: مثنى جام، وهي الكأس، واللفظة معرّبة من الفارسية.

(١٠) الدّخن: نبات من فصيلة النجيليات، حبّه صغير يقدم طعامًا للطيور.

بالنَّوَى[١] يعني اللُّوبيا! وأمر له يزيد بصِلَاتٍ في دَفَعات مبلغُها ثمانيةُ آلاف دينار.

وحُكي أيضًا أنها غنّتْ يومًا يزيدَ فطرِب، ثم قال: هل رأيتِ أطرَبَ منّي؟ قالت: نعم، مولاي الذي باعني. فغاظه[٢] ذلك، فكتب في حَمْله مُقَيَّدًا. فلما وصل أمر يزيدُ بإدخاله عليه فأُدخِل يَرسُفُ[٣] في قيوده، وأمر يزيدُ حَبَابةَ أن تغنّي فغنّت: [من المتقارب]

تَشِطُّ[٤] بنا دارُ جِيرَانِنا ... ولَلدّار بعدَ غدٍ أبعدُ

فوثب حتى ألقَى نفسَه على الشمعة فاحترقتْ لِحيتُه، وجعل يصيح: الحريق يا أولادَ الزنا! فضحِك يزيدُ وقال: لَعَمْري إن هذا لأطرب الناس! وأمر بحلّ قيوده ووصله بألف دينار ووصلته حَبَابة، وردّه إلى المدينة.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ بسنده إلى غانم الأزديّ قال: نزل يزيدُ بنُ عبدِ الملك ببيتِ رأسٍ بالشأم ومعه حَبَابةُ، فقال: زعموا أنه لا يصفو لأحدٍ يومًا عيشُه إلى الليل لا يُكَدِّره شيء عليه، وسأُجَرِّب ذلك؛ ثم قال لمن معه: إذا كان غدٌ لا تُخْبِروني بشيء ولا تأتوني بكتاب. وخلا هو وحَبَابة، فأُتِيا بما يأكلانِ، فأكلت رُمّانة فشَرِقتْ بحَبّة منها فماتت، فأقام لا يدفنها ثلاثًا حتى تغيّرت وأنتنت وهو يشَمُّها ويرشِفُها. فعاتبه على ذلك ذووه وأقرباؤه وصَدِيقُه وعابوا عليه ما يصنع، وقالوا: قد صارت جيفةً بين يديك، فأَذِن لهم في غَسْلها ودفنها، فأُخرِجتْ في نِطْع[٥]، وخرج معها لا يتكلّم حتى جلس على قبرها. فلما دُفِنت قال: أصبحتُ والله كما قال كُثَيِّر: [من الطويل]

فإنْ تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَدَعِ الهَوَى ... فباليأسِ تسلُو[٦] عنكِ لا بِالتَّجَلُّدِ[٧]
وكلُّ خليلٍ راءنِي فهو قائلٌ ... مِنَ اجْلِكِ هذا هامةُ[٨] اليومِ أو غدِ

---

(١) النوى: جمع نواة، وهي البزرة داخل الثمرة.
(٢) غاظه: أزعجه وأغضبه. (٣) يرسف: يقيّد.
(٤) تشطّ: تبعد، تنأى.
(٥) نطع: النطع، بساط من جلد يوضع تحت المحكوم بالإعدام ليتلقى الرأس، وهنا: الجلد، والكساء والبساط أيًا يكن.
(٦) تسلو: تنسى. (٧) التجلّد: التصبّر.
(٨) هامة: الهامة، زعيم القوم. وهو أعلى الشيء. وهي طائر أسطوري يخرج من رأس القتيل.

فما بقي إلا خمسَ عشرةَ ليلةً ومات، فدُفِن إلى جنبها.

ورُوِيَ أيضًا عن مَسْلَمةَ بنِ عبد الملك قال: لمّا ماتت حَبَابةُ جزع[١] عليها يزيدُ، فجعلتُ أُسَكِّنه وأُعَزِّيه وهو ضاربٌ بذَقَنه على صدره ما يكلّمني حتى دفنها. فلمّا بلغ إلى بابه التفتَ إليّ وقال: فإن تَسْلُ عنك النفس... البيت، ثم دخل بيته فمكث أربعين يومًا ثم هَلَك.

قال: ورَوى المدائنيّ[٢] أنه اشتاق إليها بعد ثلاثةِ إيام من دفنِه إيّاها؛ فقال: لا بُدّ أن تُنبشَ حتى أنظرَ إليها، فنُبِشت وكُشِف له عن وجهها وقد تغيّرت تَغَيُّرًا قبيحًا، فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، اتّقِ الله تعالى! ألّا تراها كيف صارت! فقال: ما رأيتُ قطُّ أحسنَ منها اليوم، أخرِجوها. فجاء مَسْلَمةُ ووجوهُ أهله، فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودفنوها؛ وانصرف، وكمِد[٣] كَمَدًا شديدًا حتى مات، فدُفِن إلى جانبها.

ورُوِيَ عن عبدِ الله بنِ عُرْوةَ بنِ الزُّبير قال: خرجتُ مع أبي إلى الشأم زمنَ يزيدَ بنِ عبد الملك. فلما ماتت حَبَابةُ وأُخرِجتْ، لم يستطع يزيد الركوبَ من الجَزَع ولا المشيَ، فحُمِل على مِنبر على رِقاب الرجال. فلمّا دُفنت قال: لم أُصَلِّ عليها، انبشوا عنها. فقال له مَسْلَمة: نَنْشدُكَ الله يا أمير المؤمنين، إنما هي أَمَةٌ من الإماء وقد واراها[٤] الثرى[٥]. فلم يأذَنْ للناس بعد حَبَابة إلا مرّةً واحدة؛ قال: فوالله ما استتمّ دخول الناس حتى قال الحاجب: اخرجوا رحمكم الله. ولم يَنْشَبْ[٦] يزيدُ أن مات كَمَدا.

ذِكْرُ أخبار خُلَيْدة المكّيّة

قال أبو الفرج: هي مولاة لابنِ شَمّاسٍ، كانت هي وعَقِيلةُ ورُبَيْحةُ يُعْرَفْن بالشّمّاسِيّات. وقد أخذت الغناءَ عن ابنِ سُرَيْجٍ ومالكٍ ومَعْبَد.

---

(١) جزع: خاف.

(٢) المدائني: هو أبو الحسن علي بن محمد المدائني. وُلد سنة ١٣٥ هـ ومات سنة ٢١٥ هـ. متكلم، ومصنّف. له عدة كتب، أشهرها كتاب المغازي، ونسب قريش، ومناكح الأشراف وأخبار النساء، وغير ذلك كثير. انظر: الفهرست ص ١٤٧ ـ ١٥٠.

(٣) كمد: حزن شديد وهم وغمّ.

(٤) واراها: سترها وأخفاها.

(٥) الثرى: التراب.

(٦) لم ينشب: لم يفتأ، ولم يلبث.

وروى أبو الفرج بسنده إلى الفضلِ بنِ الربيع[١] أنه قال: ما رأيتُ ابنَ جامع يطرَبُ لغناءٍ كما يطرَب لغناء خُلَيْدةَ المكيّة. وكانت سوداءَ، وفيها يقول الشاعر: [من الخفيف]

فَتَنتْ كاتبَ الأميرِ رَباحِ ... يا لَقَوْمِي خُلَيْدةُ المَكِّيّة

وغنّت هشامَ بنَ عُرْوةَ يومًا، فلما سمِعها قال: اكتُبي على صَدْرِك ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] وبين يديك المُعَوِّذتينِ[٢] لا تُصيبُك العين.

وقال عُمَرُ بنُ شَبّة[٣]: بلغني أن محمدَ بنَ عبدِ الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان أرسل إلى خُلَيْدةَ المكيّةِ أبا عَوْنٍ مولاه يخطُبها عليه. فاستأذن فأذِنتُ له وعليها ثيابٌ رِقَاقٌ لا تستُرها، ثم وثبتْ فقالت: إنما ظننتُك بعضَ سُفَهائنا، ولكنّني ألبَس لك ثيابَ مثلك ففعلت. وقال: قد أرسلني إليك مولاي، وهو من تعلمين من رسول الله ﷺ ومن عثمان بن عفّان ومن عليّ وهو ابن عمّ أمير المؤمنين، يخطُبك. قالت: قد نَسَبتَ فأبلغتَ، فاسمع نسبي أنا بأبي أنت! إن أبي بِيعَ على غير عَقْد الإسلام ولا عَهْده، فعاش عبدًا ومات في رجله قيدٌ وفي عُنقه سِلْسِلةٌ عى الإباق[٤] والسَّرِقة، وولدتني أمي على غير رشْدةٍ وماتت وهي آبقة، فأنا مَنْ تعلَم. فإن أراد صاحبُك نكاحًا مباحًا أو زنًا صُرَاحًا[٥] فهَلُمّ إلينا فنحن له. فقال: إنه لا يدخل في الحرام. فقالت: لا ينبغي أن يستحي من الحلال، فأمّا نكاح السرّ فلا والله لا فعلتُه ولا كنتُ عارًا على القِيان. قال: فأتيتُ محمدًا فأخبرته؛ فقال: ويحك! أتزوّجها مغنّية وعندي بنتُ طلحة بنِ عبيدِ الله! لا! ولكن ارجِعْ إليها فقل لها: تختلف إليّ أُرَدّد بَصَري فيها لعلّي أسلو، فرجعتُ إليها فأبلغتها الرسالة فضحِكت وقالت: أمّا هذا فنعَمْ، لسنا نمنعه.

ذِكْرُ أخبار مُتيَّم الهشاميّة

قال أبو الفرج: كانت متيّم مولَّدةً صفراءَ من مولَّدات[٦] البَصْرةِ، وبها نشأت

---

(١) الفضل بن الربيع: صاحب المنصور العباسي، ووزير الرشيد. سبق التعريف به.
(٢) المعوّذتين: وهما: سورة الناس، وسورة الفلق.
(٣) عمر بن شبة: مولى بني نمير. شاعر أخباري فقيه صادق اللهجة، وابنه أحمد شاعر، مثله، تُوفي سنة ٢٦٠ هـ. له عدة مصنّفات.
(٤) الإباق: الهروب من الأسر والرّق.
(٥) صراحًا: خالصًا.
(٦) مولدات: جمع مولّدة، وهي الأعجمية التي نشأت في بيئة عربية وتأدّبت بآداب العرب.

وتدرّبت وغَنّت. وأخذت عن إسحٰق وأبيه قبلَه وعن طبقتِهما من المغنّين. وكانت من تخريج بَذْلٍ وتعليمها. واشتراها عليّ بنُ هشامٍ بعد ذلك فازدادت أخذًا ممن كان يغشاه من أكابر المغنّين. وكانت من أحسن الناسِ وجهًا وغناءً وأدبًا. وكانت تقول: الشعرَ ليس مما يُستجادُ ولكنه يُسْتَحْسَن من مثلها. وحَظِيتْ[1] عند عليّ بنِ هشام حُظْوةً شديدةً، وتقدّمت جواريَه جُمَعَ عنده، وهي أمّ ولده كلهم.

حكى أبو الفرج قال: كان عندَ عليّ بن هشام بِرذَوْنٌ[2] أشهبُ[3] قِرْطاسيٌّ في نهاية الحسنِ والفَرَاهةِ[4] وكان به مُعْجَبًا، وكان إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ يَشتهيه شهوةً شديدةً ويُعَرِّض لعليّ مرارًا في طلبه فلم يَسمَحْ به. فسار إسحٰقُ إلى عليٍّ يومًا وقد صنعتْ متيم: [من الطويل]

فلا زِلْنَ حَسْرَى[5] ظُلَّعًا[6]، لِمْ حَمَلْنها إلــى بَــلَدٍ قــليــلِ الأصــادقِ

فاحتبسه عليٌّ وبعث إلى متيّم يأمرُها أن تجعلَ صوتَها في صدرِ غنائها ففعلت، فأطربت إسحٰقَ إطرابًا شديدًا، وجعل يستعيدُه ويستوفيه ليزيدَ في طَرَبه وهو يُصغِي إليه ويتفهّمه حتى صحّ له. ثم قال لعليّ: ما فعل البِرْذَوْنُ الأشهب؟ قال: على مَا عهدتَ من حُسْنه وفَرَاهته. قال: اختر الآن منّي خَلَّةً[7] من اثنتين: إمّا أن طِبْتَ لي نفسًا به وحملَتني عليه، وإمّا أن أبيت فأدّعي والله هذا الصوت لي وقد أخذته، أفتراك تقول: إنه لمتيّم وأقول: إنه لي، فيؤخذ قولُك ويُترك قولي؟ فقال: لا والله ما أظنّ هذا ولا أراه؛ يا غلام، قُدِ[8] البرذونَ إلى منزل إسحٰق، لا بارك الله لك فيه!.

وحُكي أن عليَّ بنَ هشام مولاها كلّمها بشيء فأجابته جوابًا لم يُرضه، فدفع يده في صدرها، فغضِبتْ ونهضت وتثاقلت عن الخروج إليه. فكتب إليها: [من الطويل]

فليتَ يدي بانتْ[9] غداةَ مددتُها إليكِ ولم تَرجِعْ بكَفٍّ وساعِد

فإن يرجِعِ الرحمٰنُ ما كان بيننا فلستُ إلى يوم التَّنَادي[10] بعائد

---

(١) حظيت: نالت حظوة ومكانة.
(٢) برذون: ضرب من الجياد مهجّنة، وهو البغل.
(٣) أشهب: لونه أبيض وأسود.
(٤) الفراهة: الرونق وحسن المنظر.
(٥) حسرى: كاشفة عن رؤوسها.
(٦) ظلّعا: فيها ظلع، وهو العرج.
(٧) خلّة: صفة، وخصلة.
(٨) قد: الأمر من قاد، إذا جرّ وأخذ.
(٩) بانت: فارقت.
(١٠) يوم التنادي: يوم القيامة بحيث ينادي كل إنسان للقاء ربه ويعرض للحساب.

قال: وعتَبت عليه مرّةً فتمادَى عتبُها، فترضّاها[١] فلم ترضَ، فكتب إليها: الإدلالُ يدعو إلى الملال، وربّ هجرٍ دعا إلى صبر، وإنما سُمّي القلبُ قلبًا لتقلّبه؛ وقد صدق عندي العباسُ بنُ الأحنفِ[٢] حيث يقول: [من الخفيف]

ما أُراني إلا سأهجُرُ مَن ليـ ـس يراني أقوى على الهِجْرانِ
مَلّني واثقًا بحسن وفائي ما أضَرَّ الوفاءَ بالإنسان

قال: فخرجتْ إليه من وقتها ورضيت.

ورُوِيَ عن يحيىٰ المكيّ قال: قال لي عليّ بن هشام: لمّا قَدِمتْ جَدّتي شاهك من خُراسان، قالت: اعرِض جوارِيَك عليّ؛ فعرضتهن عليها. ثم جلسنا على الشراب وغنّتنا مُتَيّمُ، فأطالت جَدّتي الجلوسَ، فلم أنبسط إلى جواري كما كنت أفعل، فقلت هذين البيتين: [من الطويل]

أنبقَى على هذا وأنتِ قريبةٌ وقد مَنَع الزُّوّارُ بعضَ التكلُّم
سلامٌ عليكم لا سلامَ مُوَدِّعٍ ولكن سلامٌ من حبيبٍ متيَّم

وكتبت بهما في رقعة[٣] ورميتُها إلى متيّم؛ فأخذتها ونهضت لصلاةِ الظهر، ثم عادت وقد صنعت فيه لحنًا فغنّته. فقالت شاهك: ما أرانا إلا قد ثَقّلْنا عليكم اليوم؛ وأمرت الجواري فحملوا مِحَفّتها[٤]، وأمرت للجواري بجوائزَ ساوت بينهن، وأمرت لمتيّم بمائة ألف درهم.

قال: ومرّت متيّم في نسوةٍ وهي مُتَخَفِّيةٌ بقصر عليٍ بنِ هشامٍ بعدَ أن قتله المأمون. فلما رأت بابَه مُغلقًا لا أنيسَ به وقد علاه الترابُ والغُبْرة وطُرِحتْ في أفنِيته المزابلُ وقفتْ عليه وتمثلت: [من السريع]

يا مَنزِلًا لم تَبْلَ أطلالُهُ حاشى لأطلالِكَ أن تَبْلَى[٥]
لم أبكِ أطلالَك لكنني بكيتُ عيشي فيك إذ وَلّى[٦]

---

(١) ترضّاها: طلب رضاها.
(٢) العباس بن الأحنف: أبو الفضل، أحد الشعراء المجيدين، في الغزل خاصة. له أخبار مع الرشيد، وكانت وفاته سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٨ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٣٣٤.
(٣) رقعة: ورقة.
(٤) محفّتها: هودجها ومركبها.
(٥) تبلى: تفنى.
(٦) ولّى: ذهب.

قد كان لي فيك هَوًى مَرَّةً غَيَّبه التربُ وما مَلَّا
فصِرْتُ أبكي بعدَه جاهِدًا عند اذكاري[1] حيث قد حَلَّا
والعيشُ أوْلَى ما بكاه الفتى لا بُدَّ للمحزونِ أن يَسْلَى

قال: ثم بكت حتى سقطت من قامتِها، وجعل النسوةُ يناشدْنها ويقلن: الله الله في نفسك! فإنك الآن تؤخَذين. فبعد لأيٍ مّا احْتُمِلَتْ تتهادى بين امرأتين حتى جاوزت الموضع.

وحُكِيَ عنها قالت: بعث إليّ المعتصِمُ بعدَ قدومه بغدادَ؛ فلما دخلتُ أمر بالعُود فوُضِع في حجري، وأمرني بالغناء فغنّيتُ: [من المجتث]

هل مُسْعِدٌ لبكائي بعَبْرةٍ أو دِمَاءِ
وذاك شيءٌ قليلٌ لسادتي النُّجَباءِ[2]

ـ وهذا الشعر لمراد جارية عليّ بن هشام ترثيه ـ فقال: اعدِلي عن هذا الصوت؛ فغنّيتُ: [من الطويل]

* ذهبتُ عن الدنيا وقد ذهبتْ عنّي *

فدمَعتْ عيناه وقال: غَنّي غيرَ هذا؛ فغنّيت: [من الطويل]

أولئك قومي بعد عِزٍّ وثَرْوةٍ تَفَانَوا[3] فإلّا تَذْرِفِ العينُ أكمَدِ[4]

فبكى بكاء شديدًا، ثم قال: ويحكِ[5]! لا تُغَنّي في هذا المعنى شيئًا. فغنّيتُه: [من البسيط]

لا تأمَنِ الموتَ في حلٍّ وفي حَرَمِ[6] إنّ المنايا بجَنْبَيْ كلِّ إنسانِ
واسلُكْ طريقَك هَوْنًا[7] غيرَ مُكترِثٍ فسوف يأتيك ما يَمْنِي[8] لك المانِي

(١) اذكاري: انتباهي.
(٢) النجباء: الأشراف والسادة.
(٣) تفانوا: أفنى بعضهم بعضًا.
(٤) أكمد: أحزن.
(٥) ويحك: ويلك.
(٦) الحل والحرم: الحل، ما كان خارج الحرم المكي. والحرم، داخله، وفيه الكعبة.
(٧) هونًا: بتؤدة.
(٨) يمني: يقدّر ويختبر، ويبتلي.

فقال: واللهِ إني لأعلمُ أنكِ إنما أردتِ بما غنّيتِ ما في قلبك لصاحبك وأنّكِ لم تريديني، ولو أعلم أنك تُريدينني لقتلتُك، ولكن خذوها! فأخذوا بيدي فأُخْرِجتُ. وهذه متيّم هي التي كان يهواها عبدُ الصمدِ بنُ المُعَذّلِ، وأظنّ ذلك قبل اتصالِها بعليّ بن هشام، وهي إذ ذاك عند رجلٍ من وجوهِ البصرة.

قال: وكانت لا تخرُج إلا متنقّبة[١]. فحكى المبرّدُ[٢] وغيره: أنها قَدِمتْ يومًا إلى ابن عبيدِ اللهِ بنِ الحسينِ العنبريّ القاضي، فاحتاج إلى أن يُشْهِد عليها، فأمَر بها أن تَسْفِر[٣] ففعلت. فقيل لعبدِ الصمد: لو رأيتَ متيَّم وقد أسفرها القاضي لرأيت شيئًا عجيبًا! فقال: [من الطويل]

ولـمّـا سَـرَتْ عـنـهـا القِـنـاعَ مُـتَـيَّـمٌ ... تـروَّح مـنـهـا الـعَـنـبـرِيُّ مـتـيّـمـا
رأى ابـنُ عُـبَـيـدِ الله وهـو مُـحَـكَّـمٌ ... عـلـيـهـا لـهـا طَـرْفًـا عـلـيـه مـحـكَّـمـا
وكان قَدِيمًا كالحَ[٤] الوجهِ عابسًا ... فلما رأى منها السفورَ تَبَسَّما
فإن يَصْبُ قلبُ العنبريِّ فقبله ... صبا باليتامى قلبُ يحيىٰ بنِ أكثما

فبلغ قولُه يحيىٰ بنَ أكثَم[٥]؛ فكتب إليه: عليك لعنةُ الله! أيَّ شيءٍ أردتَ منّي حتى أتاني شَرُّك من البَصْرة! فقال لرسوله: قل له: متيّم أقْعَدتْك على طريق القافية.

ذِكر أخبار ساجي
جارية عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر

قال أبو الفرج: كانت ساجي إحدى المُحسنات المبرّزات المتقدّمات، وهي تخريجُ مولاها عبيدِ الله. وكان مهما صنع من الغِناء نسبه إليها، وكان قد بلغ من ذلك الغاية، ولكنه كان يترفّع عن ذكره ويكره أن يُنْسَب إليه.

---

(١) متنقبة: لابسة نقابًا.
(٢) المبرّد: واسمه محمد بن يزيد، وكنيته أبو العباس. من كبار رجال النحو. أخذ النحو عن الجرمي والمازني. وُلد سنة ٢١٠ هـ ومات سنة ٢٨٥ هـ، ودفن بمقابر الكوفة. له من الكتب «الكامل» في النحو و«معاني القرآن» وغير ذلك كثير. انظر: الفهرست، ص ٨٨.
(٣) تسفر: تظهر وجهها. (٤) كالح الوجه: عابس.
(٥) يحيىٰ بن أكثم: القاضي المشهور، سبق التعريف به.

حَكَى أبو الفرج عن أحمدَ بنِ جعفرٍ جحظة[١] قال: كتب المعتضدُ[٢] إلى عُبَيدِ الله[٣] بنِ عبد الله بقُمّ[٤] أن يأمر جاريتَه ساجِي بزيارته ففعل. قال جحظة: فحدّثني من حضر ذلك المجلسَ من المغنّيات قالت: دخلتْ علينا وما فينا إلا من تَرْفُل[٥] في الحُليّ والحُلَل وهي في أثواب ليست كأثوابنا فاحتقرناها؛ فلما غنّت احتقرنا أنفسنا؛ ولم تزل تلك حالنا حتى صارت في أعيننا كالجبل وصِرنا كلا شيء. ولمّا انصرفت أمر لها المعتضِدُ بمال وكُسوة. ودخلت إلى مولاها فجعل يسألُها عن خبرها وما رأت مما استظرفت وسمعت واستغربت؛ فقالت: ما استحسنتُ هناك شيئًا ولا استغربته من غناء ولا غيره إلّا عُودًا من عود محفورًا فإني استظرفته. قال جحظة: فما قولُك فيمن تدخل إلى دار الخليفة ولا تُمدّ عينَها إلى شيء تستظرفه وتستحسنه إلّا عودًا!

قالوا: وكان المعتَضِدُ إذا استحسن شيئًا بعث به إلى ساجي فتُغنِّي فيه. وكانت صنعتها في عصره تُسمَّى غناءَ الدار. وماتت ساجي في حياةِ مولاها وكان عليلًا، فرثاها ببيتين فقال: [من الطويل]

يَمِينًا يقينًا لو بُليتُ بفَقْدِها ... وبي نَبْضُ عِرْقٍ للحياةِ وللنُّكْسِ[٦]

لأوشكتُ قتْلَ النفسِ قبل فِرَاقِها ... ولكنها ماتت وقد ذهبَتْ نَفْسِي

ذِكْرُ أخبار دُقَاق

قال أبو الفرج: كانت دُقاق مغنِّيةً محسِنةً مُتْقِنةَ الأداء والصنعة جميلةَ الوجه. أخذت الغناءَ عن أكابرِ مغنِّي الدَّولةِ العبّاسية. وكانت ليحيىٰ بنِ الربيع[٧]، فولدت له ابنه أحمدَ. ومات يحيىٰ فتزوّجت بعده بعِدَّةٍ من القوّادِ والكتّابِ فماتوا ووَرِثْتهم، ثم

---

(١) جحظة: سبق التعريف به.

(٢) المعتضد بالله: أحمد بن الموفق، الخليفة العباسي السادس عشر. عقد صلحًا مع خمارويه الطولوني ثم اقترن بابنته. هزم جيشه أبو سعيد الجنابي. مات سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م.

(٣) عبيد الله: هو ابن عبد الله بن طاهر. أمير وأديب وشاعر، بغدادي النشأة، وُلي شرطة بغداد، قرّبه المعتضد، الخليفة العباسي. من مصنّفاته: «الإشارة في أخبار الشعراء» و«السياسة الملوكية» مات سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٣ م.

(٤) قم: إحدى مدن إيران القديمة بين طهران وإصفهان.

(٥) ترفل: تنعم.

(٦) النكس: العودة إلى المرض من بعد شفاء.

(٧) يحيىٰ بن الربيع: أخو الفضل بن الربيع البرمكي الذي كان وزيرًا لهارون الرشيد.

انقطعت إلى حَمْدونةَ بنتِ الرشيدِ ثم إلى غَضِيض. وكانت مشهورةً بالظَّرْف والمُجُون.

قال هِبةُ اللهِ بنُ إبراهيمَ بنِ المهديّ: وكانت تُواصِل جماعةً كانوا يميلون إليها وتُري كلَّ واحد منهم أنها تهواه. وكانت أحسنَ أهل عصرها وجهًا وأشأمهم على من تزوّجها أو رابطها. فقال فيها إبراهيمُ بنُ المهديّ: [من الوافر]

عَدِمْتُكِ[١] يا صَدِيقةَ كلِّ خَلْقٍ ... أكُلَّ الناسِ وَيْحَكِ تَعْشَقينا

وكيف إذا خَلَطتِ الغَثَّ[٢] منهم ... بِلَحْمِ سَمِينِهم لا تَبْشَمِينا[٣]

قال أبو هفّان: خرج يحيىٰ بنُ الربيع إلى بعض النواحي وترك جاريته دُقاقَ في داره؛ فعمِلت بعده الأوابد[٤]. فقال موسى الأعمى فيه: [من الخفيف]

قُلْ لِيحيىٰ نعمْ صَبَرْتَ على المو ... ت ولم تخشَ ريبَ[٥] سَهْمِ المَنُونِ

كيف قل لي أطَقْتَ ويحكَ يا يحـ ... ـيىٰ على الضّعْفِ منك حَمْلَ القُرون

يشير بقوله: «سهم ريب المنون» إلى شُؤمها.

ذِكْر أخبار قَلم الصالحيّة

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كانت قَلم الصالحيّةُ مُوَلَّدةً صفراءَ حُلْوةً حَسَنةَ الغِناء والضَّرْبِ حاذقةً، قد أخذت عن إبراهيمَ وابنِهِ إسحٰقَ ويحيىٰ المكيِّ وزُبَير بنِ دحمان. وكانت لصالحِ بنِ عبدِ الوهاب أخي أحمد بن عبد الوهاب كاتب صالح بن الرشيد، وقيل: بل كانت لابنهِ. قال: وكانت لها صَنْعةٌ يسيرة نحو عشرين صوتًا، فاشتراها الواثقُ[٦] بعشرة آلاف دينار.

قال أحمد بنُ الحسينِ بنِ هشام: كانت قَلم إحدى المغنّيات المُحسِنات المتقدّمات، فغُنِّي بين يدي الواثق لحنٌ لها في شعر محمد بن كناسة، وهو:

---

(١) عدمتك: فقدتك.
(٢) الغث: الهزيل.
(٣) تبشمين: تتخمين من الشبع.
(٤) الأوابد: الدواهي، جمع آبدة.
(٥) ريب المنون: صرف الدهر.
(٦) الواثق بالله: هارون بن المعتصم، الخليفة العباسي الذي ناصر المعتزلة ودافع عن القول بخلق القرآن محتذيًا حذو المأمون. مات سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٢.

[من المنسرح]

فـيّ انـقـبـاضٌ وحِـشْـمـةٌ[١] فـإذا صـادفـتُ أهـلَ الـوفـاءِ والـكـرم

أرسلتُ نفسي على سَجِيّتِها[٢] وقـلـتُ مـا قـلـتُ غـيـرَ مُـحْـتَـشِـمِ

فسأل: لمن الصَنعة؟ فقيل: لقلم الصالحيّةِ جاريةِ صالحِ بنِ عبد الوهاب. فبعث إلى محمدِ بنِ عبدِ الملك الزّيات[٣] فأحضره وسأله: مَنْ صالحُ بنُ عبدِ الوهاب؟ فأخبره. قال: وأين هو؟ قال: ببغداد. قال: ابعثْ وأشخِصْه[٤] وليُحْضِرْ معه جاريته قَلم. فكتب في إشخاصهما، فقدِما على الواثق، فدخلت عليه، فأمرها بالجلوس والغناء، فغنّت فاستحسن غِناءها وأمر بابتياعها. فقال صالح: أبيعها بمائة ألف دينار ووِلاية مصر. فغَضِب الواثقُ من ذلك وردّها إليه. ثم غنّى بعد ذلك زرزر الكبير في مجلس الواثق بشعرِ الغِناءُ فيه لها؛ فقال الواثق: لمن هذا الغناء؟ فقال: لقلم الصالحيّة؛ فبعث إلى ابنِ الزيّاتِ بإشخاصِها ففعل، فدخلتْ على الواثقِ فأمرها بالغناء، فغنّته من صنعتها فأعجبه غناؤها، وبعث إلى صالح فأحضره وقال له: إنّي قد رَغِبتُ في هذه الجارية فاسْتَمْ[٥] في ثمنها سَوْمًا يجوز أن تُعْطاه. فقال: أمّا إذ وقعت الرغبةُ فيها من أميرِ المؤمنينَ فما يجوز أن أملِكَ شيئًا له فيه رغبة، وقد أهديتُها إلى أمير المؤمنين، فإنّ من حقها عليّ إذا تَناهَيْتُ في قَضَائه أن أُصَيِّرها ملكه، فبارك الله له فيها. فقال الواثق: قد قَبِلتُها، وأمر ابنَ الزيّاتِ أن يدفعَ إليه خمسةَ آلافِ دينار، وسمّاها اعتباطًا. فلم يُعْطِه ابنُ الزيّاتِ المالَ ومَطَله[٦] به؛ فوَجّه إلى قلم مَنْ أعلمها بذلك؛ فغنّت الواثقَ صوتًا وقد اصطبح[٧]؛ فقال لها: بارك الله فيك وفيمن ربّاك. فقالت: يا سيِّدي وما نَفْعُ مَنْ ربّاني منّي إلّا التعب والغُرْم والخروج منّي صِفْرا[٨]! فقال: أوَلم نأمر له بخمسة آلاف دينار؟ قالت: بلى! ولكنّ ابنَ الزيّاتِ لم يُعْطِه شيئًا. فدعا بخادم من خاصّةِ الخدم ووَقّع إلى ابنِ الزيّات بحملِ خمسة آلاف الدينار إليه وبخمسة آلاف أخرى معها. قال صالح: فصِرْتُ مع الخادم إليه فقرّبني وقال: أمّا

---

(١) الحشمة: الوقار والاحترام.
(٢) على سجيتها: على رسلها وطبعها.
(٣) هو الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، استوزره الخليفة المعتصم، ثم الواثق، ثم المتوكل، وهذا الأخير استوزره أربعين يومًا من خلافته ثم قتله، مستوزرًا من بعده محمد بن الفضل الجرجرائي. وكان ذلك ٢٣٣ هـ. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٠ ـ ٣١٥.
(٤) أشخصه: أحضره.
(٥) استم: اطلب الثمن الذي يتم الاتفاق عليه.
(٦) مطله به: أجلّ دفعه له.
(٧) اصطبح: شرب الخمرة صبحًا.
(٨) صنوًا: خاليًا من أيّ شيء.

خمسةُ الآلاف الأولى فقد حضرتْ، وخمسةُ الآلاف الأخرى أنا أدفعها إليك بعد جمعة. قال: فقمت، ثم تناساني كأنه لم يعرفني. فكتبت إليه أقتضيه؛ فبعث إليّ: اكتُبْ لي قبضًا بها وخذها بعد جمعة. فكرِهتُ أن أكتب إليه قبضًا فلا يحصُل لي شيء. قال: فاستترت في منزل صديق لي. فلما بلغه استتاري خاف أن أشكوَه إلى الواثق، فبعث إليّ بالمال وأخذ كتابي بالقبض. قال: فابتعتُ بالمال ضَيْعةً وتعلّقت بها وجعلتها معاشي، وقَعَدتُ عن عمل السلطان، فما تعرّضْت لشيء بعدها.

ذِكر أخبار بَضْبَص جارية ابن نَفِيس

قال أبو الفرج: كانت جاريةً من مولَّدات المدينة حُلوةَ الوجهِ حسنةَ الغِناء، قد أخذت عن الطبقة الأولى من المغنّين. وكان يحيىٰ بنُ نَفِيسٍ مولاها صاحب قِيَان، يغشاه[1] الأشرافُ ويسمعون غناءَ جواريه. ثم اشتُريت للمهديّ، وهو وليُّ عهد، بسبعةَ عشَر ألف دينار. وقيل: إنها ولدت له عليّةَ بنتَ المهديّ وقيل: أمّ عليّة غيرها. قال: وكان عبدُ اللهِ بنُ مُصْعَب بنِ ثابتِ بنِ عبدِ الله بن الزُّبَير يأتيها فيسمع منها، وكان يأتيها فتيانُ قريشٍ فيسمعون منها. فقال عبدُ الله بن مُصْعَب حين قدِم المنصورُ مُنْصرِفًا إلى الحجّ ومرّ بالمدينة يذكر بَضْبَصَ: [من السريع]

أرَاحِــلٌ أنــت أبــا جَــعْــفَــرِ ... من قبلِ أن تسمَع مِنْ بَضْبَصَا
هـيـهـاتَ أن تـسـمـع مـنـهـا إذا ... جاوزتِ العِيسُ[2] بك الأعْوَصا[3]
فـخُـذْ عـلـيـهـا مَـجْـلِـسَـيْ لَذّةٍ ... ومَجلِسًا من قبلِ أن تَشْخَصا
أحـلِفُ بـالله يـمـيـنًـا ومَـنْ ... يَحـلِفُ بـالله فـقـد أخـلصا
لـو أنـهـا تـدعـو إلـى بَـيْـعـة ... بايعتُها ثم شَقَقتُ العصا[4]

فبلغ الشعرُ أبا جعفرٍ المنصورَ، فغضِب ودعاه، ثم قال: أمَا إنكم يا آل الزبير قديمًا ما قادتكم النساء وشققتم معهنّ العصا، حتى صرت أنت آخر الحَمْقَى تُبايع المغنّيات! فدونكم يا آلَ الزبيرِ هذا المرتَعَ الوخيم[5].

---

(١) يغشاه: يأتيه ويزوره.
(٢) العيس: جمع عيساء، وهي الناقة البيضاء يخالط لونها سواد خفيف.
(٣) الأعوص: اسم موضع قرب المدينة المنوّرة. وثمة أعوص آخر، هو وادٍ في ديار باهلة. انظر: معجم البلدان ١/ ٢٢٣.
(٤) شققت العصا: خالفت ولم تطع.
(٥) المرتع الوخيم: المكان الذي يرتع فيه ويلعب، لكن عاقبته وخيمة وسيئة.

وقال هارون بنُ محمدِ بنِ عبد الملك وهو ابنُ ذي الزوائد فيها: [من السريع]

بَصْبَصُ أنتِ الشمسُ مُزدانةً فإنْ تبدّلْتِ فأنتِ الهِلالُ
سبحانَك اللّهمّ ما هكذا فيما مضى كان يكون الجَمالُ
إذا دعتْ بالعودِ في مَشْهَدٍ[1] وعاونتْ يُمْنَى يديها الشِّمالُ
غنّتْ غناءً يَستفِزُّ[2] الفتى حِذْقًا[3] وزانَ الحذقَ منها الدَّلالُ

قال: وهَوِيَ محمدُ بنُ عيسى الجعفريّ بصبصَ فهام بها وطال ذلك عليه؛ فقال لصديق له: قد شغلتني هذه عن صَنْعتي وكلِّ أمري، وقد وجدتُ مَسّ السُّلُوّ عنها، فاذهبْ بنا إليها حتى أُكاشفَها ذلك وأستريح. فأتياها؛ فلما غنّتهما قال لها محمد بن عيسى: أتغنّين: [من الوافر]

وكنتُ أُحِبُّكُمْ فسلَوْتُ عَنْكُم عَلَيْكُم في ديارِكُمُ السَّلامُ

فقالت: لا، ولكني أُغَنِّي: [من الوافر]

تَحَمَّلَ أهلُها عنها فبانوا[4] على آثارِ مَنْ ذهَبَ العَفَاءُ[5]

قال: فاستحيا وازداد بها كَلَفًا ولها عِشقًا؛ فأطرق ساعةً ثم قال لها: أتغنّين: [من الطويل]

وأخضَعُ بالعُتْبَى[6] إذا كنتُ مُذْنِبًا وإن أذنبتْ كنتُ الذي أتنصَّلُ[7]

قالت: نعم، وأغنِّي أحسن منه: [من الطويل]

فإن تُقْبِلوا بالوُدّ نُقْبِلْ بمثله ونُنْزِلكم منّا بأقرب منزِلِ

فتقاطعا في بيتين وتواصلا في بيتين، وما شعر بهما أحد.

قال: وحضر أبو السائب المخزوميّ مَجلِسًا فيه بَصْبَص، فغنّت: [من المنسرح]

قلبي حبيسٌ عليكِ موقوفُ والعينُ عَبْرَى[8] والدمعُ مذروفُ[9]

---

(١) مشهد: محضر.
(٢) يستفزّ: يثير، ويدعو إلى الخفّة والطرب.
(٣) حذقًا: مهارة.
(٤) بانوا: فارقوا وارتحلوا.
(٥) العفاء: البلى والاندثار والهلاك.
(٦) العتبى: الرضا.
(٧) أتنصّل: أتراجع.
(٨) عبرى: فيها عبرات ودموع.
(٩) مذروف: سائل.

والنفسُ في حَسْرةٍ بغُصّتها قد شَفَّ[١] أرجاءَها التساويفُ[٢]
إن كنتِ بالحُسْنِ قد وُصِفْتِ لنا فإنّني بالهوى لَمَوصوفُ
يا حَسْرَتا حسرةً أموتُ بها إنْ لم يكن لي إليكِ معروفُ

قال: فطَرِب أبو السائب ونَعَر[٣] وقال: لا عَرَف الله من لا يعرِف لك معروفَك، ثم أخذ قِناعَها عن رأسِها ووضعه على رأسِه وجعل يبكي ويَلْطِم ويقول لها: بأبي أنتِ! والله إني لأرجو أن تكوني عندَ الله أفضلَ من الشُّهداء لِما تُولِينا من السرور، وجعل يصيح: واغَوْثاه![٤] ياللهِ ما يلقى العاشقون!

وقال عثمانُ بنُ محمد الليثيّ: كنت يومًا في منزل ابنِ نَفيسٍ، فخرجتْ إلينا جاريتُه بَصْبَصُ، وكان في القوم فتًى يحبُّها، فسألتْه حاجةً فقام ليأتِيَها بها، فنسِي أن يلبس نعله ومضى حافيًا. فقالت له: يا فلان، نسيتَ نعلك؛ فرجع فلبِسها وقال: أنا والله كما قال الأوّل: [من الطويل]

وحُبّكِ يُنْسِينِي عن الشيءِ في يَدِي ويَشْغَلُني عن كلّ شيءٍ أُحاوِلُهْ

فأجابته فقالت: [من الطويل]

وبي مثلُ ما تشكوه مِنّي وإنّني لأُشْفِق من حبٍّ لذاكَ تُزايِلُهْ[٥]

ذِكر أخبار جواري ابن رامين
وهنّ سلّامة الزَّرْقاء، وربيحة، وسَعْدَة

قال أبو الفرج: وابنُ رامينَ هو عبدُ الملكِ بنُ رامين مولى عبدِ الملكِ بنِ بِشْر بن مروان. وكان له جوارٍ مُغنِّيات مُجيدات، وهنّ سلّامةُ الزرقاء، وربيحةُ، وسَعْدَة. وفيهنّ يقول إسماعيلُ بنُ عمّار قصيدته التي أوّلها: [من البسيط]

هل مِن شِفاءٍ لقلبٍ لَجَّ مَحْزُونِ صَبَا[٦] وصَبّ إلى رِئْمٍ[٧] ابنِ رامين
إلى ربيحةَ إن الله فَضّلها بحُسْنِها وسماعٍ ذي أفانينِ[٨]

---

(١) شفّ: رقّ.
(٢) التساويف: المطل، والوعود الكاذبة.
(٣) نعر: هاج واضطرب.
(٤) واغوثاه: واطلبًا للغوث والمعونة.
(٥) تزايله: تفارقه.
(٦) صبا: مال.
(٧) رئم: غزال خالص البياض. كناية عن الحبيب.
(٨) أفانين: فنون، أشكال وضروب.

نَـعَـمْ شِـفـاؤكَ مـنـهـا أن تـقـولَ لـهـا قَـتَـلْتِـنـي يـومَ دَيْـرِ الـلُّجِّ[1] فـاحـيـيـنـي

أنـتِ الـطـبـيـبُ لـداءٍ قـد تَـلَبَّـس بـي من الجَوَى[2] فانْفُثِي[3] في فيّ[4] وارقِيني

نَـفْـسِـيَ تـأبَـى لـكـم إلّا طَـوَاعِـيـةً وأنـتِ تَـحْـمَـيْـنَ أنـفـا أن تُـطـيـعـيـنـي

ومنها: [من البسيط]

لم أنسَ سَعْدةَ والزَّرقاءَ يومَهما بـالـلُّجِّ شَرْقِيُّه فوقَ الـدكـاكـيـن

يُغَنِّيان ابنَ رامينِ ضُحَاءَهما[5] بالمِسْجَحِيِّ[6] وتشبيب المحبِّينِ

فما دعوت به في عيشِ مملكةٍ ولـم نَعِشْ يومَنا عيشَ المساكين

وهي أبيات طويلة، وله فيهنّ غيرها.

قال: واشترى جعفرُ بنُ سليمانَ بنِ عليٍّ سلّامةَ الزرقاءَ بثمانينَ ألف درهم؛ وقيل: إنه اشترى ربيحةَ بمائة ألف درهم، والأوّل أصح. وقيل: إنّ الذي اشترى ربيحة محمدُ بنُ سليمانَ، واشترى صالحُ بنُ عليٍّ[7] سَعْدةَ بتسعين ألف درهم. وقيل: اشترى مَعْنُ بنُ زائدةَ[8] إحداهنّ. قال: وكانت سلّامة الزرقاء عاقلةً شَكِلة[9]. قال: ولمّا اشتراها جعفرٌ ومضتْ لها مدّةٌ عنده، سألها يومًا: هل ظَفِر منك أحَدٌ قطُّ ممن كان يهواكِ بخَلْوة أو قُبْلة؟ فخشِيتْ أن يبلُغه شيء كانت فعلتْه بحضرة جماعة أو يكون قد بلغه شيء، فقالت: لا واللهِ إلا يزيد بن عَوْن العباديّ الصيرفي، فإنه قَبّلني قُبْلةً وقذف في فيَّ لؤلؤةً بعتُها بثلاثين ألف درهم. فلم يزل جعفر بن سليمان يحتال له حتى وقع به فضربه بالسِّياط حتى مات.

---

(١) دير اللّجّ: اسم موضع يقع في الحيرة، بناه النعمان بن المنذر اللخمي، جنوب العراق.

(٢) الجوى: حرقة الهوى والعشق.

(٣) انفثي: اقرئي عليه ما تودّين من الرّقى والطلاسم والعزائم.

(٤) فيّ: فمي. (٥) ضحاءهما: وقت ارتفاع النهار.

(٦) المسجحي: النغم أو اللحن المنسوب إلى ابن مسجح، المغنّي المعروف.

(٧) صالح بن علي: هو عم السفّاح أول خليفة عباسي، وعم المنصور الخليفة الثاني. تولّى مصر والشام وفلسطين. وأنشأ مدينة أدنة في الأناضول بتركيا. تُوفي في قنسرين سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م.

(٨) معن بن زائدة: من أشهر أجواد العرب وسراتهم. عمل لدى الأمويين والعباسيين. ولّاه الخليفة المنصور بلاد اليمن وسجستان حيث قتل هناك وذلك سنة ٧٦٩ م. ولقد حفلت كتب الأدب والرواية بأخباره والإطراء على جوده وكرمه. وتضمنت العديد من الأشعار التي قيلت فيه.

(٩) شكلة: فيها غنج ودلال.

وقد روى أبو الفرج الأصفهانيّ في خبر يزيدَ بنِ عون هذا بسندٍ رفعه إلى عبدِ الرحمـٰنِ بنِ مقرون أنه اجتمع هو ورَوْح بنُ حاتم[١] عندَ ابنِ رامين، وأن الزرقاء خرجتْ عليهم في إزارٍ ورداء قُهْوِيَّين مُوَرَّدين، كأنَّ الشمس طالعةٌ بين رأسها وكعبها. قال: فغنّتنا ساعة؛ ثم جاء الخادم الذي كان يأذن لها ـ وكان الإذنُ عليها دون مولاها ـ فقام على الباب وهي تغنّي، حتى إذا قطعت الغناءَ نظرتْ إليه فقالت: مه! قال: يزيد بن عَوْن العباديّ الصيرفيّ الملقّب بالماجن على الباب. قالت: ائذن له. فلما استقبلها طَفَر[٢] ثم أقعى[٣] بين يديها، فوَجِدتْ[٤] والله له، ورأيتُ أثر ذلك، وتنوّقتْ تَنَوُّقًا[٥] خلافَ ما كانت تفعل بنا. فأدخل يده في ثوبه فأخرج لؤلؤتين فقال: انظري يا زرقاءُ، جُعِلتُ فداكِ! ثم حلف أنه نَقَد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم. قالت: فما أصنعُ بك؟ قال: أردتُ أن تعلَمي. فغنّت صوتًا ثم قالت: يا ماجنُ هَبْهما لي! قال: إن شئتِ والله فعلتُ. قالت: قد شئتُ. قال: فاليمينُ التي حلفتُ بها لازمةٌ لي إن أخذتِهما إلا بشَفَتَيْكِ من شَفَتي. فقال ابنُ رامين للغلام: ضَع لي ماءً ثم خرج عنا؛ فقالت: هاتِهما. فمشى على رُكبتيه وكفّيه وهما بين شفتيه وقال: هاكِ؛ فلما ذهبتْ تتناولهما جعل يَصُدّ عنها يمينًا وشمالًا ليستكثر منها؛ فغمزتْ جاريةً على رأسها، فخرجت كأنها تريد حاجةً ثم عطفت عليه؛ فلما دنا وذهب ليروغ دفعتْ مَنْكِبيه وأمسكتهما حتى أخذت الزرقاء اللؤلؤتين بشفتيها من فمه ورَشَح جبينها عرقًا حياءً منا. ثم تجلّدت علينا فأقبلت عليه وقالت: المغبونُ في استِه عود. فقال: فأمّا أنا فلا أُبالي، والله لا يزال طيبُ هذه الرائحة في أنفي وفمي ما حَيِيت.

قال: واجتمع عندَ ابنِ رامين مَعْنُ بنُ زائدةَ ورَوْحُ بنُ حاتمٍ وابنَ المُقَفَّع[٦]. فلما تغنّت الزَّرقاءُ وسَعْدةُ بعث مَعْن فجيء ببَدْرةٍ فصَبّها بين يديها، وبعث رَوْح فجيء

---

(١) روح بن حاتم: أخو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب أبي صفرة الأزدي. وُلي بلاد السند، للسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد، وهم أوائل الخلفاء العباسيين. مات سنة ١٧٠ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/٢٧٣.

(٢) طفر: وثب.

(٣) أقعى: جلس أو قعد على استه.

(٤) وجدت: رثيت وحزنت.

(٥) تنوقت تنوقًا: تدفّق تدفقًا، وتجوّد وتأنّق.

(٦) ابن المقفع: واسمه عبد الله، من أصل فارسي. من كبار الكتاب والمبدعين في العصر الأموي ثم في أول العصر العباسي. قتله الخليفة المنصور سنة ٧٥٩ م بعد أن أوعز إلى واليه في البصرة بأن يميته شرّ ميتة، فسجره في التنوّر، وذلك بسبب ادعاء المنصور أن ابن المقفع كان مجوسيًا. له من المصنّفات، «كليلة ودمنة» و«الأدب الصغير» و«الأدب الكبير».

ببَدْرة فصبّها بين يديها، ولم تكن عند ابن المقفّع دراهم، فبعث فجاء بصَكّ ضيعةٍ، وقال: هذه عُهْدَةُ ضَيْعتي خذيها، فأمّا الدراهم فما عندي منها شيء. وشرِبت زَرْقاء دواءً فأهدى لها ابن المقفّع ألفَ دُرَّاجة[١].

وعن إسحٰق بنِ إبراهيم قال: كان رَوْحُ بنُ حاتمِ بنِ المُهَلَّب كثيرَ الغِشْيان[٢] لمنزل ابنِ رامين، وكان يختلفُ إلى الزَّرْقاء، وكان محمدُ بنُ جميلٍ يهواها وتهواه؛ فقال لها: إنّ رَوْحَ بنَ حاتم قد ثَقُل علينا. قالت: فما أصنع وقد غَمَر مولاي ببِرِّه! قال: احتالِي له. فبات عندَهم رَوْح ليلةً، فأخذت سراويلَه وهو نائم فغسلته. فلما أصبح سأل عنه، فقالت: غسلناه. فظنّ أنه أحدَثَ فيه فاحتيج إلى غَسْله فاستحيا من ذلك فانقطع عنهم؛ وخلا وجهُها لابنِ جميل.

ذِكر أخبار عِنَان جارية الناطفيّ

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كانت عِنَانُ مولَّدة من مولَّداتِ اليمامةِ، وبها نشأت وتأدّبت، واشتراها الناطفيُّ وربّاها. وكانت صفراءَ جميلةَ الوجهِ شَكِلةً مليحةَ الأدبِ والشعرِ سريعة البَديهةِ، وكان فحول الشعراء يُساجلونها ويُعارضونها فتنتصف منهم. ولها مع أبي نُواس[٣] الحسنِ بنِ هانىءٍ وغيرهِ من الشعراء والفضلاءِ مُعَاياةٌ[٤] ومُرَاجَعات، نذكر منها طَرَفًا.

قال أبو حَبَش: قال لي النّاطِفِيّ: لو جئتَ إلى عِنَان فطارحتَها! فعزمتُ على الغُدُوّ إليها، وبِتُّ ليلتي أحوك بيتين، ثم غدوتُ عليها فأنشدتها: [من الطويل]

أحَبَّ المِلَاحَ البِيضَ قلبي ورُبّما ... أحَبَّ المِلاحَ الصُّفرَ من وَلَدِ الحَبَشْ[٥]

بَكَيتُ على صفراءَ منهنّ مَرّةً ... بكاءً أصابَ العين مِنّيَ بالعَمَشْ[٦]

---

(١) الدراجة، واحدة الدرّاج، وهو ضرب من الطيور يشبه السّماني.

(٢) الغشيان: الإتيان.

(٣) أبو نواس: الحسن بن هانىء، أحد ألمع شعراء العصر العباسي الأول، وزعيم المدرسة التجديدية في الشعر العربي. لقب بشاعر الخمرة، ومال إلى اللهو والتهتك، وفي آخر حياته تاب إلى ربه وزهد الحياة الدنيا. اتصل بالبرامكة وبالأمين فكان شاعره الخاص. تُوفي سنة ٨١٤ م.

(٤) المعاياة: إلقاء الكلام الذي لا يهتدى إليه بسهولة.

(٥) الحبش: جنس من الزنوج في إفريقيا.

(٦) العمش: ضعف البصر مع سيلان الدمع في أكثر الأوقات.

فقالت عنان: [من الطويل]

بكيتُ عليها إنّ قلبي يُحِبُّها وإنّ فُؤادي كالجَنَاحَيْنِ ذو رَعَشْ[١]

تَعَيَّيْتَنا بالشعرِ لمّا أتيتَنا فدونَك خذه مُحْكَمًا يا أبا حَبَشْ

وقال مَرْوَانُ بنُ أبي حَفْصَةَ[٢]: لقيني الناطفيُّ فدعاني إلى عِنَان، فانطُلقت معه. فدخل إليها قبلي فقال: جئتكِ بأشعر الناسِ مروانَ بنِ أبي حفصةَ؛ فوجدها عليلة فقالت: إني عن مروان لفي شغل. فأهوى إليها بسوط[٣] فضربها، وقال لي: أُدخل؛ فدخلت وهي تبكي، فرأيت الدموع تتحدّر من عينيها؛ فقلت: [من السريع]

بكتْ عِنَانُ فجرى دمعُها كالدُّرّ إذ يَسْبِقُ من خَيْطِهِ

فقالت مُسرِعة: [من السريع]

فليتَ مَنْ يضربها ظالِمًا تَيْبَسُ يُمْناهُ على سَوْطِهِ

قال مروان: فقلت: أُعْتِق[٤] ما أملك إن كان في الجنّ والإنس أشعرُ منها.

وقال أحمدُ بنُ مُعَاويةَ قال لي رجل: تَصَفّحتُ كتبًا فوجدتُ فيها بيتًا جَهَدت جهدي أن أجدَ مَن يُجيزه[٥] فلم أجِد. فقال لي صديق لي: عليك بعِنَان جارية الناطفيّ؛ فأتيتُها فأنشدتُها البيتَ وهو: [من الطويل]

وما زالَ يشكو الحبَّ حتى رأيتهُ تَنَفَّس من أحشائه وتَكَلّما

فلم تلبث أن قالت: [من الطويل]

ويَبْكِي فأبكِي رحمةً لبكائِهِ إذا ما بَكَى دمعًا بكيتُ له دما

وقال موسى بنُ عبدِ الله التميميّ: دخل أبو نُوَاس على الناطفيّ وعِنانُ جالسةٌ تبكي، وقد كان الناطفيّ ضربها، فأومأ إلى أبي نُوَاس أن حَرِّكْها بشيء؛ فقال أبو

---

(١) رعش: اضطراب وارتعاد.

(٢) مروان بن أبي حفصة: شاعر مخضرم أموي عباسي، شعره رقيق، وعبارته صافية. مدح الرشيد ومن قبله المهدي، كما مدح معن بن زائدة، الجواد الكريم المشهور. مات سنة ٧٩٨ م.

(٣) السوط: الدِّرّة، يضرب بها.

(٤) أعتق: أحرّر. وعتق الملك: تحرير الإماء والعبيد من الرقّ.

(٥) يجيزه، من الإجازة، وهي أن تقول بيتًا من الشعر، أو نصف بيت أو أكثر وتطلب إلى الآخر أن يكمله على الرويّ نفسه والقافية عينها.

نُوَاس: [من المنسرح]

عِنَانُ لو جُدْتِ لي فإنّيَ مِنْ عُمْرِيَ في ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ﴾[1]

فقالت: [من المنسرح]

فإن تمادى[2] ولا تَمَاديتَ في قَطْعِكَ حَبْلي أكُنْ كمن خَتَما

فقال أبو نواس: [من المنسرح]

عَلَقتُ مَنْ لو أتى على أنفُس الـ ـماضين والغابرين[3] ما نَدِما

فقالت: [من المنسرح]

لو نَظَرتْ عينُها إلى حَجَرٍ وَلَّدَ فيه فُتُورُها[4] سَقَما[5]

وقال أبو جعفر النَّخعِيّ: كان العبَّاسُ بنُ الأَحْنَفِ[6] يهوَى عِنانَ جاريةَ الناطفيّ. فجاءني يومًا فقال لي: امضِ بنا إلى عِنان. فصِرنا إليها، فرأيتها كالمُهَاجِرة له؛ فجلسنا قليلًا؛ ثم ابتدأ العبّاس فقال: [من مجزوء الرمل]

قال عبّاسٌ وقد أُجْـ ـهِدَ من وجْدٍ شَدِيدِ
ليس لي صَبْرٌ على الهَجْـ ـرِ ولا لَذْعِ الصُّدودِ[7]
لَا ولَا يَصْبِر للهَجْـ ـرِ فؤادٌ من حَدِيدِ

فقالت عنان: [من مجزوء الرمل]

مَنْ تراه كان أغنَى منكَ عن هذا الصُّدودِ
بعدَ وَصْلٍ لك مِنِّي فيه إرغامُ الحَسُودِ!
فاتَّخِذْ للهَجْرِ إن شئـ ـتَ فؤادًا من حَدِيدِ
ما رأيناك على ما كنتَ تَجْنِي بِجَلِيدِ[8]

---

(١) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ﴾ هذا الكلام هو أول الآية ٢٨٥ من سورة البقرة، وهي قبل انتهاء آيات البقرة بآية واحدة. إشارة منه إلى دنوّ أجله. وتمام الآية هو: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾.

(٢) تمادى: تجاوز الحد. (٣) الغابرين: الماضين.

(٤) فتورها: كسلها، وهو مستملح في العين. (٥) سقمًا: مرضًا وداءً.

(٦) العباس بن الأحنف، شاعر عباسي سبق التعريف به.

(٧) الصدود: الامتناع. (٨) جليد: صبور.

فقال عبّاس: [من مجزوء الرمل]

لـو تـجُـودِيـنَ لـصَـبٍّ[١] راحَ ذا وَجْـدٍ شَـدِيـدِ
وأخِـي جَـهْـلٍ بـمـا قـد كـان يـجـنـي بـالـصُّـدودِ
لـيـس مَـنْ أحـدث هـجـرًا لِصَـديـقٍ بِـسـديـدِ[٢]
لـيـس مـنـه الـموتُ إن لـم تَـصِـلِـيـهِ بِـبَـعِـيـدِ

قال: فقلت للعبّاس: ويحَك! ما هذا الأمر؟ قال: أنا جَنَيتُ على نفسي بتتايُهي[٣] عليها. فلم أبرَحْ حتى تَرَضَّيتها له.

وقال الأصمَعيّ: بعثت إليّ أمُّ جعفرٍ أنّ أمير المؤمنين قد لَهِج بذكر هذه الجارية عِنان، فإنْ صَرَفتَه عنها فلك حكمُك. قال: فكنت أرْبَعُ[٤] لأنْ أجِد للقول فيها موضِعًا فلا أجده ولا أُقدِم عليه هيبةً له؛ إذ دخلتُ يومًا فرأيتُ في وجهه أثر الغَضَبِ فانخزلتُ[٥]. فقال: مالك يا أصمعيّ؟ قلت: رأيتُ في وجه أمير المؤمنين أثَر الغضب، فلعن الله مَن أغضبه! فقال: هذا الناطفيُّ، واللهِ لولا أنّي لم أجُرْ في حكم قطُّ متعمِّدًا لجعلتُ على كل جبل منه قِطعة! ومالي في جاريته من أَرَبٍ[٦] غيرَ الشعر. قال الأصمعيّ: فذكرتُ رسالةَ أمّ جعفر فقلت: أجَلْ، والله ما فيها غيرُ الشعر، أفيَسُرّ أميرَ المؤمنين أن يُجامع الفرزدق[٧]! فضحِك حتى استلقى. واتّصل قولي بأمّ جعفر فأجزلتْ لي الجائزة.

وقال يعقوبُ بنُ إبراهيم: طلب الرشيدُ من الناطفيّ جاريتَه، فأبى أن يَبيعها بأقلَّ من مائة ألف دينار. فقال الرشيد: أعطيك مائةَ ألف دينار على أن تأخذ الدينارَ بسبعة دراهم، فامتنع عليه، فأمر أن تحمل إليه. فذكروا أنها دخلتْ مَجْلِسَه في هيئتها؛ فقال لها الرشيدُ ويلَك! إن هذا قد اعتاص[٨] عليّ في أمرك. فقالت: ما مَنَعك أن تُوفِيه وتُرْضِيه؟ فقال: ليس يقنَع بما أُعطيه، وأمرها بالانصراف. فتصدّق الناطفيّ حين رجعت إليه بثلاثين ألف درهم. فلم تزل في قلب الرشيد حتى مات مولاها. فلما

---

(١) الصّب: العاشق.
(٢) سديد: مصيب.
(٣) التتايه: الكبر والعلوّ، من التّيه.
(٤) أربع: أحاول جاهدًا.
(٥) انخزلت: رجعت.
(٦) أرب: حاجة.
(٧) الفرزدق: هو همّام بن صعصعة بن مجاشع الدارمي التميمي. من عمالقة الشعراء الأمويين. اشتهر بالمدح والهجاء. عرف بنقائضه مع خصمه الألدّ جرير. شعره متين التركيب، قوي العبارة جزلها. مات سنة ٧٣٣ م.
(٨) اعتاص عليّ: عسر عليّ، وخفي وعسُر.

مات بعث الرشيد مسرورًا الخادم، فأخرجها إلى باب الكَرْخ[١] وأقامها على سرير وعليها رداءٌ سِنْدِيّ قد جَلّلها، فنُودي عليها فيمن يزيد بعد أن شاور الفقهاءَ فيها، فقالوا: هذه كَبِدٌ رَطْبَة وعلى الرجل دَين، فأشاروا ببيعها. وكانت تقول وهي على المصطبة: أهان الله من أهانني وأرذل من أرذلني! فوكَزَها مسرورٌ بيده. وبلغ بها مسرورٌ مائتي ألف درهم؛ فجاء رجل فقال: عليّ زيادة خمسة وعشرين ألف درهم؛ فوكزه مسرور وقال: أتَزيد على أمير المؤمنين! فبلَغ بها مائتين وخمسين ألف درهم وأخذ مالها. قال: ولم يكن فيها عيبٌ يعاب، فطلبوا لها عيبًا لا تُصيبها العينُ، فأوقعوا بخِنْصَر رِجْلها في ظُفره شيئًا. قال: وأولدها الرجل الذي اشتراها ولدين، ثم خرج بها إلى خُرَاسانَ فمات هناك وماتت بعده.

ذِكر أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهديّ

قال أبو الفرج: كانت شاريةُ مولَّدةً من مولّداتِ البَصْرة. يقال: إنّ أباها كان مِن بني سامةَ بنِ لُؤيٍّ المعروفين ببني ناجيةَ، وإنه جحدها. وكانت أمُّها أمّةً، فدخلت في الرقّ. وقيل: إن أمّها كانت تدّعي أنها بنتُ محمدِ بنِ زيدٍ من بني سامةَ بنِ لؤيّ، وقيل: إنها كانت تدّعي أنها من بني زُهْرة، وقيل: بل سُرِقت فبيعت، فاشترتها امرأةٌ من بني هاشم فأدّبتها وعلّمتها الغناءَ، ثم اشتراها إبراهيمُ بنُ المهديّ، فأخذت عنه غناءه كلَّه أوَ أكثره. وبذلك يحتجّ من يُقَدّمها على عَرِيب ويقول: إنّ إبراهيم خرّجها، وكان يأخذها بصحة الأداء لنفسه وبمعرفةِ ما يأخذها به؛ ولم تلق عَريب ذلك، لأن المراكبيّ لم يكن يُقارب إبراهيم في العلم ولا يقاس به في بعضه فضلًا عن سائره.

قال: ولما عَرَضتها مولاتُها الهاشميّةُ للبيع ببغدادَ عُرِضت على إسحٰقَ بنِ إبراهيمَ الموصليّ فأعطى فيها ثلاثمائة دينار، ثم استغلاها بذلك ولم يُردها. فجيء بها إلى إبراهيمَ بنِ المهديّ فساوم بها؛ فقالت له مولاتها: إن إسحٰقَ بنَ إبراهيمَ أعطى بها ثلاثمائة دينار وأنت أحقُّ بها. فقال: زنوا لها ما قالت فوُزِن لها. ثم دعا بقيمته[٢] فقال: خُذِي هذه الجاريةَ ولا تُزَيّنيها سنةً، وقولي للجواري يطرحن عليها. فلما كان بعدَ سنة أُخرِجَتْ إليه، فنظر إليها وسمع منها؛ فأرسل إلى إسحٰقَ بنِ إبرهيمَ؛ فلما أتاه أراه إيّاها وأسمعه غناءها، وقال: هذه جاريةٌ تباع، فبكم تأخذُها لنفسك؟ قال إسحٰقُ: آخذُها بثلاثة آلاف دينار وهي رخيصةٌ بها. فقال له إبراهيم: أتعرفها؟ قال:

---

(١) الكرخ: محلة ببغداد إلى الغرب من دجلة. (٢) القيّمة: الوصيفة والمربيّة والمشرفة.

لا. قال: هذه الجارية التي عرضتْها الهاشميّة بثلاثمائة دينار فلم تقبلها. فعجِب إسحٰقُ من حالها وما صارت إليه.

وقد حُكي عن هبةِ اللهِ بنِ إبراهيمَ بنِ المهديّ أنها عُرِضت ببغدادَ على إبراهيمَ فأُعجِبَ بها إعجابًا كبيرًا، فلم يزل يُعْطِي بها حتى بلغت ثمانية آلاف درهم. قال: ولم يكن عند أبي درهمٌ ولا دانق[1]؛ فقال لي: ويحَك! قد والله أعجبتني هذه الجاريةُ إعجابًا شديدًا، وليس عندنا شيء. فقلت له: بِع ما تملُكه حتى الخزف[2] وتجمع ثمنها. فقال لي: قد تذكّرتُ في شيء، اذهب إلى عليّ بنِ هشام فأقرئه منّي السلام، وقل له: قد عُرِضتْ عليّ جاريةٌ وقد أخذتْ بمجامع قلبي[3]، وليس عندي شيء، فأُحِبّ أن تُقْرِضَني عشرةَ آلاف درهم. فقلت: إن ثمنها ثمانية آلاف درهم، فلِمَ نُكثِر على الرجل بعشرة آلاف درهم! فقال: إذا اشتريتها بثمانية آلاف درهم فليس لنا بدٌّ من أن نكسوَها ونقيمَ لها ما تحتاجُ إليه. قال: فصِرتُ إلى عليّ بنِ هشام وأبلغته الرسالةَ؛ فدعا بوكيل له وقال: ادفعْ إلى خادمه عشرين ألفَ درهم، وقل له: أنا لا أصلُك، ولكن هي لك حلالٌ في الدنيا والآخرة. قال: فصرتُ إلى أبي بالدراهم، فلو طلعتُ عليه بالخلافة لم تكن تَعدِل عنده تلك الدراهم. قال: وكانت أمُّها خبيثةً، وكانت كلما لم يُعْطِ إبراهيم ابنتها ما تشتهي ذهبتْ إلى عبدِ الوهاب بنِ عليّ، ودفعت إليه رُقعةً يُوصلُها إلى المعتصمِ تسألُه أن تأخذَ ابنتَها من إبراهيم.

وحُكِيَ عن يوسفَ بنِ إبراهيمَ المِصريّ صاحبِ إبراهيمَ بنِ المهديّ أنّ إبراهيمَ وجّه به إلى عبدِ الوهاب بنِ عليٍّ في حاجةٍ كانت له. قال: فلقِيته وانصرفت من عنده؛ فلم أخرج من دِهليز[4] عبدِ الوهاب حتى استقبلتني امرأةٌ؛ فلما نظرتْ في وجهي سترتْ وجهها، فأخبرني شاكريٌّ أن المرأة أمُّ شارية جاريةِ إبراهيم. فبادرت إلى إبراهيمَ وقلت له: إني رأيت أمَّ شاريةَ في دار عبدِ الوهاب، وهي مَن تعلم، وما يفجَؤك إلا حِيلةٌ قد أوقعتها. فقال لي: اشهِدك أنّ جاريتي شارية صَدَقةٌ على ميمونةَ بنتِ إبراهيمَ بنِ المهديّ، ثم أشهَد ابنَه هبةَ الله على مثلِ ما أشهدني، وأمرني بالركوب إلى ابن أبي داودَ وإحضار مَن قَدَر عليه من الشهود المعدّلين عنده؛ فأحضر

(١) دانق: الدانق، لفظة فارسية، وهي ضرب من العملات يساوي الواحد سدس الدرهم.
(٢) الخزف: الفخار.
(٣) أخذت بمجامع قلبي: فتنتني وأعجبتني كثيرًا.
(٤) الدهليز: المسلك الطويل الضيّق.

أكثر من عشرين شاهدًا. وأمر بإخراج شاريةَ فأخرِجت. فقال لها: استُري وجهك؛ فجزِعتْ[١] من ذلك، فأعلمها أنما أمرها بذلك لخير يريده لها ففعلت. فقال لها: تَسَمَّيْ[٢]؛ فقالت: أما أَمَتُك[٣]. فقال لهم: تأمّلوا وجهَها ففعلوا. ثم قال: فإني أُشهِدكم أنها حرّةٌ لوجه الله تعالى، وأني قد تزوّجتُها وأصدقْتُها عشرةَ آلاف درهم؛ يا شاريةُ أرضِيتِ؟ قالت: نعم يا سيّدي، قد رضيت، والحمد لله تعالى على ما أنعم به عليّ. فأمرها بالدخول، وأطعم الشهود وطيّبهم وانصرفوا. قال: فما أحسبهم تجاوزوا دارَ ابنِ أبي داودَ حتى دخل علينا عبدُ الوهابِ بنُ عليّ، فأقرأ عمّه سلامَ المعتصم، ثم قال له: يقول لك أمير المؤمنين: مِنَ المفترَض عليّ طاعتُك وصِيانتُك عن كلّ ما يسُوءك، إذ كنت عمّي وصِنو[٤] أبي. وقد رفعت امرأة إليّ قِصّة ذكَرت فيها أن شارية ابنتُها، وأنها امرأةٌ مِن قريشٍ من بني زُهرةَ، واحتجّت بأنه لا تكون بنت امرأة من قريش أمة. فإن كانت هذه المرأة صادقةً في أنّ شاريةَ بنتُها، وأنها من بني زهرةَ، فمن المحال أن تكون شارية أمَة. والأشبهُ بك والأصلحُ إخراجُ شاريةَ مِن دارك وتُصيِّرها عندَ مَن تثقُ به من أهلك، حتى يُكْشَف عما قالته هذه المرأة. فإن ثبت ذلك أمرتَ مَنْ جعلتَها عنده بإطلاقها، وكان في ذلك الحظ لك في دِينك ومروءتك[٥]. وإن لم يصح ذلك أُعيدت الجاريةُ إليك وقد زال عنك القول الذي لا يليق بك ولا يحسن. فقال إبراهيم: فديتك، هَبْ شاريةَ بنتَ زهرة بن كلاب، أيُنكَرُ على ابن العباس بن عبد المطلب أن يكون بعلًا[٦] لها؟! فقال عبد الوهاب: لا. فقال: أبْلِغْ أميرَ المؤمنين ـ أبقاه الله ـ السلامَ، وأخبرْه أنّ شاريةَ حرّةٌ، وأني قد تزوّجتُها بشهادةِ جماعةٍ من العدول[٧]. وقد كان الشهودُ أعلموا ابن أبي داودَ بالقصة، فركب إلى المعتصم وحدّثه بالحديث معجبًا له منه؛ فقال: ضَلّ[٨] سَعْيُ عبد الوهاب. ثم دخل عبد الوهاب على المعتصم. فلما رآه يمشي في صحن الدار سدّ المعتصمُ أنفه وقال: يا عبدَ الوهاب، أنا أَشَمّ رائحةَ صُوف مُحْرَق، وأحسب عمّي لم يُقْنِعه ردُّك على أُذنك صوفةٌ حتى أحرقها، فشمَمْتُ رائحتها منك. فقال: الأمر على ما ظنّ أمير المؤمنين وأسمج[٩]. قال: ثم ابتاع

---

(١) جزعت: خفت.
(٢) تسمّي: اذكري اسمك.
(٣) أمتك: جاريتك ومملوكتك.
(٤) الصنو: المثل، والنظير.
(٥) المروءة: آداب نفسية تحمل المرء على اتباع أحسن العادات والأخلاق والطباع.
(٦) بعلًا: زوجًا.
(٧) العدول: أصحاب العدل والكفاءة والثقة والصّدق.
(٨) ضلّ: أخطأ، وخاب.
(٩) أسمج: أثقل وأبشع.

إبراهيمُ من بنته ميمونة شارية بعشرة آلاف درهم وستر ذلك عنها؛ فكان عتقه إياها وهي في ملك غيره، ثم ابتاعها من ميمونة فحلّت له، فكان يطؤها[١] بملك اليمين[٢] وهي تتوهّم أنها زوجته. فلما تُوُفّي طلبت شاريةُ مشاركةَ أمّ محمد بنت خالد زوجة إبراهيم في الثُّمن، فأظهرت خبرها؛ فأمر المعتصمُ بابتياعها من ميمونة بخمسة آلاف وخمسمائة دينار فَحُوّلت إلى داره، وكانت في مِلْكه حتى تُوفّي. وقال ابن المعتز: وقد قيل: إنّ المعتصمَ ابتاعها بثلاثمائة دينار؛ وملكها إبراهيم ولها سبع سنين وربّاها تربية الولد.

قال: وحدّثت شارية أنها كانت مع إبراهيمَ في حرّاقةٍ[٣] قد توسّط بها دجلةَ في ليلة مُقْمِرة، فاندفعتْ فغنّت: [من مجزوء الوافر]

لقد حَثُّوا[٤] الجِمالَ لِيهـ ـرُبُوا منّا فلم يَئِلُوا[٥]

فوثب إليها فأمسك فاها فقال: أنتِ والله أحسنُ من الغَرِيض وجهًا وغناءً، فما يُؤْمِنُني عليك! أمسكي.

ويقال: إنها لم تضرِبْ بالعود إلا في أيامِ المتوكِل لمّا اتّصل الشرُّ بينها وبين عَرِيب، فصارت تقعد بها عند الضرب، فضربتْ بعد ذلك.

قال ابن المعتز[٦]: وحدّث محمدُ بنُ سهلِ بنِ عبدِ الكريم المعروف بسهل الأحول، وكان قاضيَ الكتّاب في زمانه، كان يكتبُ لإبراهيمَ وكانَ ثقةً، قال: أعطى المعتصم إبراهيم بشارية سبعين ألف دينار، فامتنع من بيعها. قال: فعاتبتُه على ذلك، فلم يجبني بشيء. ثم دعاني بعد أيام وبين يديه مائدة لطيفة، فأحضر الغلام سَفُّودًا[٧] فيه ثلاثة فَرَاريجَ، فرمى إليّ بواحدة فأكلتُها وأكل اثنتين، ثم شرب رطلًا وسقاني؛ ثم أُتِي بسَفُّودٍ آخَر ففعل كما فعل وشرب كما شرب وسقاني؛ ثم ضُرِب سِتْرٌ إلى جانبه فسمعتُ حركةَ العيدان؛ ثم قال: يا شاريةُ تغَنّي، فسمعتُ شيئًا ذهب بعقلي. فقال: يا

---

(١) يطؤها: يجامعها.

(٢) ملك اليمين: إشارة إلى أنها جارية غير حرّة.

(٣) الحرّاقة: ضرب من المراكب النهرية.

(٤) حثّوا الجمال: جعلوها تمشي بسرعة.

(٥) يئلوا: من الوأل، وهو طلب النجاة والملجأ.

(٦) ابن المعتز: وكنيته أبو العباس، واسمه عبد الله. من كبار أمراء بني العباس. ولي الخلافة يومًا وبعض يوم، وذلك بعد أن خلع المقتدر ولقّب بالمرتضي بالله. لكنه مات خنقًا سنة ٩٠٨ م. كان شاعرًا وأديبًا. من كتبه «طبقات الشعراء» و«كتاب البديع». وله ديوان شعري مطبوع.

(٧) السفّود: حديدة طويلة ودقيقة يشوى بها اللحم.

سهل، هي التي عاتبَتْني في أن أبيعها بسبعين ألف دينار، لا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار!

وحُكِيَ عن عُبَيدِ اللهِ بنِ عبدِ الله بن طاهر[1] قال: أمرني المعتزُ[2] باللهِ ذاتَ يوم بالمُقام عندَه فأقمت، ومُدّت الستارةُ وخرج مَن كان يغنّي وراءَها وفيهنّ شاريةُ، ولم أكن سمعتها قبل ذلك فاستحسنتُ ما سمعتُ منها؛ وقال لي المعتز: يا عبيد الله، كيف ما تسمع منها عندك؟ فقلت: حظُّ العَجَب من هذا الغناء أكثر من حظ الطرَب؛ فاستحسن ذلك، وأخبرها به فاستحسنته.

قالوا: وكانت شارية أحسنَ الناس غِناءً منذ تُوُفّي المعتصمُ إلى آخر خلافةِ الواثق. وقيل: إن إبراهيمَ بنَ المهديّ لم يطأ شاريةَ، وإن الذي افتضّها[3] المعتصمُ. وكان إبراهيمُ يُسمّي شاريةَ بنتي.

وقال يعقوبُ بنُ بيان: كانت شاريةُ لصالحِ بنِ وصيفٍ[4]. فلما بلغه رحيلُ موسى بنِ بُغا[5] من الجبلِ يريدُه بسبب قتلِ المعتز، أودع شاريةَ جوهرَه، فظهر لها جوهرٌ كثير بعدَ ذلك. فلما أوقع موسى بصالح استترت شارية عند هارون بن شعيب العُكْبَريّ، وكان أنظف خلقِ الله طعامًا وأسراهم مائدة، وأوسخهم كلَّ شيء بعد ذلك، وكان له بسُرَّ مَنْ رأى منزل وفيه بستان كبير، وكانت شارية تُسمّيه أبي، وتزوره في منزله فتحمل معها كل شيء تحتاج إليه حتى الحصير تقعد عليه. وكانت من أكرم الناس. عاشرها أبو الحسن عليّ بن الحسين عند هارون هذا، ثم أضاق[6] في وقت فاقترض منها على غير رهن عشرة آلاف دينار فأقرضته، ومكثت أكثر من سنة ما أذكرته بها ولا طالبته بردّها.

---

(١) سبق التعريف به.

(٢) المعتزّ بالله: محمد بن المتوكل. الخليفة العباسي الثالث عشر، ولي الخلافة بعد عزل المستعين. عزله الأتراك ثم قتلوه سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م.

(٣) افتضّها: أخذ بكارتها.

(٤) صالح بن وصيف: قائد تركي، هو مملوك في الأصل، لكن منزلته ارتفعت عند العباسيين حتى أنه أقدم على قتل الخليفة المعتز بالله، وصادر أمه صبيحة واستصفى نعمتها وأخذ منها ثلاثة ملايين دينار، ثم نفاها إلى مكة، كما صادر خاصة الخليفة وكتّابه. قتل سنة ٢٥٦ هـ. انظر خبره في: شذرات الذهب ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢.

(٥) موسى بن بغا: قائد تركي كبير وشجاع، ارتفعت منزلته لدى العباسيين، حتى أنه أقدم على مهاجمة الخليفة المهتدي بالله، وانتهب رجاله القصر. مات سنة ٢٦٤ هـ. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٤٧.

(٦) أضاق: مرّ بالضيق والفقر.

قال يعقوب بن بيان: وكان الناس بسُرّ مَنْ رَأى متحازبين[١]، فقوم مع شاريةَ، وقوم مع عَرِيب، لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء، ولا أصحاب هذه في هؤلاء. وكان [أبو الصقر] إسماعيلُ بنُ بلبل[٢] عَرِيبيًّا؛ فدعا عليّ بن الحسينِ يومَ جمعة أبا الصقر وعنده عريب وجواريها. فاتصل الخبر بشارية فبعثت بجواريها إلى عليّ بن الحسين بعد يوم أو يومين، وأمرت إحداهنّ - قال: وما أدري [من] هي: مهرجان أو مطرِب أو قمرية[٣]، إلا أنها إحدى الثلاث - أن تُغنّيه: [من مجزوء الخفيف]

لا تـعـودَنّ بـعـدَهـا فـتـرى كـيـف أصْـنَـعُ

فلما سمع الغناء ضحِك وقال: لستُ أعود.

قال: وكان المعتمدُ قد وَثِق بشاريةَ فلم يكن يأكلُ إلا طعامَها؛ فمكثت دهرًا تُعِدّ له كلَّ يوم جَوْنَتين[٤]، فكان طعامه منهما في أيام المتوكل.

وقال أبو الفرج: حدّثني جحظةُ قال: كنت عندَ المعتمدِ يومًا فغنّتْ شاريةُ بشعر مولاها إبراهيمَ بنِ المهديّ ولحنِه: [من الكامل]

يـا طـولَ عِـلّةِ قـلبـيَ الـمـعـتـادِ إلْفَ الـكِرامِ وصُـحْـبَـةَ الأمـجـادِ
مـا زِلـتُ آلَفُ كـلَّ قَـرْمٍ[٥] مـاجـدٍ مـتـقـدِّم الآبـاء والأجـداد

فقال لها: أحسنتِ والله! فقالت: هذا غنائي وأنا عاريةٌ، فكيف لو كنتُ كاسيةٌ![٦] فأمَر لها بألف ثوب مِن جميع أصنافِ الثياب الخاصّة، فحُمِل ذلك إليها. فقال لي عليُّ بنُ الحسينِ بنِ يحيىٰ المنجم: اجعل انصرافَك معي، ففعلتُ. فقال لي: هل بلغك أنّ خليفةً أمر لمغنّيةٍ بمثلِ ما أمر به أميرُ المؤمنينَ اليومَ لشارية؟ قلت: لا. فأمر بإخراج سِيَر الخلفاءِ، فأقبل بها الغلمانُ في دَفَاتِرَ عِظامٍ، فتصفّحناها كلُّها فما وجدْنا أحدًا قبلَه فعَل مثلَ ذلك. انقضت أخبار شارية.

---

(١) متحازبين: كل منهما في حزب مناوىء للآخر.

(٢) أبو الصقر: كنيته، واسمه اسماعيل بن بلبل، وزير الخليفة المعتمد العباسي. وزر له بعد ابن خاقان والحسن بن مخلد بن الجراح، وسليمان بن وهب. أُلقي القبض عليه زمن الخليفة المعتضد، سنة ٢٨٠ هـ.

(٣) القمرية: الحمامة البريّة.

(٤) جونتين: مثنّى جونة، وهي القِدر.

(٥) قرم: سيّد.

(٦) كاسية، بخلاف عارية، وهي التي عليها الثياب والأكسية.

ذِكْر أخبار بَذْل

قال أبو الفرج: كانت بذل صفراءَ مولَّدةً من مولّداتِ المدينةِ ورُبِّيث بالبصرةِ، وهي إحدى المحسناتِ المتقدّماتِ الموصوفاتِ بكثرةِ الرواية. يقال: إنها كانت تغنّي ثلاثين ألف صوت. قال: ولها كتابٌ في الأغاني منسوبُ الأصوات [غير مُجنّس] يشتمل على اثنَيْ عشرَ ألف صوت، يقال: إنها عملته لعليّ بنِ هشام. قال: وكانت حُلْوةَ الوجهِ ظريفةً ضاربةً متقدّمة. وابتاعها جعفرُ بنُ موسى الهادي؛ فأخذها منه محمدُ الأمينُ وأعطاه مالًا جزيلًا. وأخذت بذل عن أبي سعيدٍ مولى فائدٍ ودحمانَ وفليحٍ وابنِ جامعٍ وإبراهيمَ وطبقتهم.

وقال جحظة عن أبي حشيشة[1]: وكانت أحسَن الناس غناءً في دهرها، وكانت أستاذةَ كل مُحْسِنٍ ومحسنةٍ، وكانت أرْوَى خلقِ اللهِ للغناء. وكانت لجعفرِ بنِ موسى الهادي؛ فوُصِفت لمحمدِ الأمين، فبعث إلى جعفر فسأله أن يُزيره إياها فأبى؛ فأتاه الأمينُ إلى منزله فسمع ما لم يسمع مثلَه قطّ؛ فقال لجعفر: يا أخي، بِعْنِي هذه الجارية. فقال له: يا سيِّدي، مثلي لا يبيع جارية. قال: هَبْها لي. قال: هي مُدَبرة[2]. فاحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بَذْلٍ إلى الحَرّاقة وانصرف بها. فلما أفاق جعفر سأل عنها، فأُخبر بالخبر، فسكت. فبعث إليه محمد من الغد، فجاء وبَذْل جالسةٌ فلم يقل شيئًا. فلما أراد جعفر أن ينصرف قال الأمين: أوْقِروا[3] حَرَّاقةَ ابنِ عمّي دراهم فأُوقِرتْ، فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم. وبقيت بذلك عند الأمين إلى أن قُتِل؛ ثم خرجت فكان ولد جعفر وولد الأمين يدّعون ولاءها؛ فلما ماتت ورثها ولد الأمين.

وقال محمد بنُ الحسن الكاتب: إن الأمين وَهَبها من الجوهر ما لم يملك أحدٌ مثلَه، فسُلِّم لها بعد مقتل الأمين، فكانت تبيع منه الشيءَ بعدَ الشيء بالمال العظيم؛ فكانت على ذلك مع ما يصل إليها من الخلفاء إلى أن ماتت وعندها منه بقيةٌ عظيمة. قال: ورغِب إليها وجوهُ القُوّاد والكُتّاب والهاشميّين في التزويج فأبَتْه، وأقامت على حالِها حتى ماتت.

---

(١) أبو حشيشة: هو محمد بن علي بن أمية، كنيته أبو جعفر من ولد أبي أمية الكاتب، وكان طنبوريًا حاذقًا في صنعته. أخذ الغناء عن جحظة. له من الكتب «المغنى المجيد». انظر: الفهرست، ص ٢٠٨.

(٢) مدبّرة: حرّة بعد موته.

(٣) أوقروا: املأوها وقرًا، أي حملًا.

وحكى أبو حشيشةَ قال: كنت يومًا عند بَذْلٍ وأنا غلام، وذلك في أيّام المأمون وهو ببغدادَ، وهي في طارمة[١] لها تمتشط؛ فخرجتُ إلى الباب فرأيتُ الموكِبَ فظننتُ أنّ الخليفة يمرّ على ذلك الموضع؛ فرجعتُ إليها فقلت: يا سيّدتي، الخليفةُ يمرّ على بابك. فقالت: انْظُروا أيّ شيء هذا، إذ دخل بوّابُها فقال: عليُّ بنُ هشام بالباب. فقالت: وما أصنعُ به! فقامت إليها جاريتُها وشيك، وكانت ترسلها إلى الخليفة وغيره في حوائجها، فأكبّت على رجلها وقالت: الله! الله! أتحتجِبين على عليِّ بنِ هشام! فدعتْ بمنديلٍ فطرَحته على رأسِها ولم تقم إليه. فقال: إني جئتك بأمر سيّدي أميرِ المؤمنين، وذلك أنه سألني عنك فقلت له: لم أرها منذ أيام؛ فقال: هي عليك غَضْبى، فبحياتي لا تدخلُ منزلك حتى تدخلَ إليها فتسترضيها!. فقالت: إن كنتَ جئتنا بأمرِ الخليفة فأنا أقوم، فقامت فقبَّلَت رأسه ويديه؛ وقعد ساعة وانصرف. فقالت: يا وَشِيك، هاتي الدواةَ وقرطاسًا[٢] ففعلت، فجعلتْ تكتب فيه يومها وليلتها حتى كتبت اثني عشر ألف صوت ـ وقيل: سبعة آلاف صوت ـ ثم كتبت إليه: يا عليّ بن هشام، تقول: استغنيتُ عن بَذْل بأربعة آلاف صوت أخذناها منها! وقد كتبتُ هذا وأنا ضَجِرة، فكيف لو فرّغتُ لك قلبي كلّه!. وختمت الكتاب وقالت لها: امضِي به إليه. فما كان أسرَعَ من أن جاء رسوله (خادم أسود يقال له مُخَارق) بالجواب يقول فيه: يا سيِّدتي، لا والله ما قلتُ الذي بلَغك، ولقد كُذِب عليّ عندك، إنما قلتُ: لا ينبغي أن يكون في الدنيا أكثر من أربعة آلاف صوت، وقد بعثتِ إليّ بديوان لا أُؤدّي شكرك عليه أبدًا؛ وبعث إليها بعشرة آلاف درهم وتخوت[٣] فيها بَز[٤] ووَشْي[٥] ومُلَح وتختًا مطبقًا فيه أنواع الطيب.

وقيل: إن إبراهيمَ بنَ المهديّ كان يعظِّمُها، ثم يرى أنه يستغني عنها بنفسه. فصارت إليه، فدعت بعود فغنّت في طريقة واحدة وانقطاعٍ واحدٍ وإصبعٍ واحدةٍ مائةَ صوتٍ لم يعرفْ إبراهيمُ منها صوتًا واحدًا، ثم وضعت العودَ وانصرفت، ولم تدخل دارَه حتى طال طلبُه لها وتضرُّعُه[٦] إليها في الرجوع إليه.

وقال أحمدُ بنُ سعيدٍ المالكيّ: إن إسحٰقَ بنَ إبراهيمَ الموصليّ خالف بَذْلًا في نسبة صوتٍ غنّته بحضرة المأمون؛ فأمسكت عنه ساعةً ثم غنّت ثلاثة أصوات في

---

(١) الطارمة: خصّ أو بيت خشبي له قبّة. (٢) قرطاسًا: ورقًا.
(٣) تخوت: جمع تخت، وهو السرير، وخزانة الثياب.
(٤) البزّ: الثياب من القطن أو الكتّان. (٥) الوشي: الثياب المنقوشة المصبوغة.
(٦) تضرّعه: خشوعه وانقياده.

الثقيل الثاني واحدًا بعد واحد، وسألت إسحٰق عن صانعها فلم يعرفه. فقالت للمأمون: هي والله لأبيه أخذتُها من فيه، فإذا كان لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره! فاشتدّ ذلك على إسحٰق حتى رُئي ذلك فيه.

وقال حمادُ بن إسحٰق: غنّت بذلُ بين يدي أبي: [من المديد]

إن تَـرَيْـنِـي نـاحـلَ الـبَـدَنِ فـلِطُـولِ الـهـمّ والـحَـزَنِ
كـان مـا أخـشَـى بـواحـدتـي لـيـتَـه واللهِ لـم يَـكُـنِ

قال: فطرِب أبي طربًا شديدًا وشرب رِطلًا وقال لها: أحسنتِ يا بنتي، والله لا تُغنّين صوتًا إلا شربتُ عليه رطلًا.

انتهت أخبارُ بذلك.

ذِكر أخبار ذَاتِ الخالِ

قال أبو الفرج الأصبهانيّ: واسمُ ذاتِ الخال خِشْفٌ[١]، وكانت لأبي الخطّاب النحاسِ المعروفِ بقرين مولى العبّاسة[٢] بنتِ المهديّ. وكانت ذاتُ الخال من أجملِ النساءِ وأكملهنّ، وكان لها خالٌ[٣] فوقَ شفتِها العُليا، وقيل: على خدّها. وكان إبراهيم الموصلي يتعشّقُها، وله فيها أشعار كثيرة كان يقولُها ويغنّي فيها حتى شَهَرها بشعره وغِنائه. واتصل خبرُها بالرشيد، فاشتراها بسبعين ألف درهم. فقال لها ذاتَ يوم: أسألك عن شيء، فإن صَدَقتِني وإلا صَدَقني غيرُك وكَذَّبتُك. قالت: أصدُقك. قال: هل كان بينك وبين إبراهيم الموصليّ شيءٌ قط؟ وأنا أُحَلّفه أن يَصْدُقَني. قال: فسكتت ساعةً ثم قالت: نعم! مرّة واحدة؛ فأبغضها. وقال يومًا في مجلسه: أيّكم لا يُبالي أن يكون كِشْخَانًا[٤] حتى أَهَبَه ذات الخال؟ فبدَر حَمويهِ الوصيفُ فقال: أنا؛ فوهَبَها له. ثم اشتاقها الرشيد يومًا فقال: ويلك يا حَمَوَيهِ! وَهَبْنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدَك! فقال: يا أمير المؤمنين، مُرْ فيها بأمرك. قال: نحن عندك غدًا. فمضى فاستعدّ لذلك واستعار لها من بعض الجوهريين بَدَنَة[٥] وعقودًا ثمنُها اثنا عشر

---

(١) الخشف، في الأصل، ولد الظبي أول ما يولد.
(٢) هي علية بنت المهدي، وأخت هارون الرشيد. شاعرة وأديبة ومغنيّة. لها ديوان شعر، ماتت سنة ٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م.
(٣) الخال: نكتة سوداء على الخد من الوجه، خاصة. وهي موضع استحسان وإعجاب.
(٤) كشخانًا: دنيًا محتقرًا فاقد الحياء. (٥) القميص بلا كمّين.

ألف دينار، فأخرجها إلى الرشيد وهي عليها. فلما رآه أنكره وقال: ويلك يا حمويهِ! من أين لك هذا؟! ما وَلّيتك عملًا تكسِب فيه مثلَه ولا وَصَل إليك منّي هذا القدر! فصدَقه عن أمره، فبعث الرشيدُ إلى أصحاب الجوهر، فأحضرهم واشترى الجوهرَ منهم ووهبه لها، وحلف ألّا تسأله في يومه ذلك حاجةً إلّا قضاها؛ فسألته أن يُوَلِّي حمَويْهِ الحربَ والخراجَ بفارس سبعَ سنين، ففعل ذلك وكتب له عهدَه بذلك، وشرط على وليّ العهد أن يتممها له إن لم تتمّ في حياته.

قال الأصفهانيّ: ولإبراهيمَ الموصليّ في ذات الخالِ شعر كثيرٌ غنّى فيه. فمنه قوله: [من مجزوء الوافر]

أذاتَ الـخـالِ قـد طـالَ ... بـمـن أشـقَـمْـتِـهِ الـوَجَـعُ
ولـيـس إلـى سـواكُـمْ فـي الّـ ... ـذي يـلقـى لـه فَـزَعُ
أمَـا يَـمْـنَـعُـكِ الإسـلا ... مُ مـن قـتـلـي ولا الـورَعُ[1]
ومـا يـنـفـكّ لـي فِـيـكِ ... هـوًى تـغـتـرُّهُ خُـدَعُ

ومنها: [من الطويل]

جزى الله خيرًا من كَلَفْتُ بحبّه ... وليس به إلا التّمَوُّهُ[2] من حُبّي
وقالوا قلوبُ الغانياتِ رقيقةٌ ... فما بالُ ذاتِ الخالِ قاسيةَ القلبِ
وقالوا لها هذا حبيبُك مُعْرِضًا ... فقالت لهم إعراضُه أيسرُ الخَطْبِ[3]
فـمـا هـي إلا نـظـرةٌ بـتَـبَـسُّـمٍ ... فتنشَب[4] رجلاه ويسقُطُ للجَنْب

وله فيها أشعارٌ كثيرة غير ما أوردناه.

ذِكْر أخبار دنانير البرمكيّة

قال أبو الفرج: كانت دَنَانِيرُ مولاةَ يحيىٰ بنِ خالدٍ البرمكيّ، وكانت صفراءَ مولّدةً، من أحسنِ الناس وجهًا، وأظرفهم وأكملهم أدبًا، وأكثرهم رِوايةً للغناء والشعر، ولها كتاب مجرّد في الأغاني مشهور. وكان اعتمادُها في غِنائها على ما أخذتْه من بَذْل، وهي خرّجتها؛ وقد أخذتْ أيضًا عن الأكابرِ الذين أخذت بَذْل عنهم

(١) الورع: التقوى.
(٢) التموّه: التدليس والتزوير.
(٣) الخطب: الرّزء والمصيبة.
(٤) كذا بالأصل، ولا معنى له؛ والصواب «فتصطكّ».

مثل فُلَيْحٍ وإبراهيمَ وابنِ جامعٍ وإسحٰقَ ونُظَرائِهم. وكانت تغنّي غناءَ إبراهيمَ فتَحْكِيه فيه حتى لا يكون بينهما فرقٌ؛ فكان يقول ليحيىٰ: متى فقدتّني ودنانيرُ باقيةٌ فما فقدتني.

وقال أحمد بنُ المكيّ: كانت دنانيرُ لرجل من أهلِ المدينة، كان قد خرّجها وأدّبها، وكانت أروَى الناس للغناء القديم، وكانت صفراءَ صادقةَ الملاحَة. فلما رآها يحيىٰ وقعت مِن قلبه مَوْقِعًا فاشتراها. وشُغِف بها الرشيدُ حتى كان يصير إلى منزل مولاها فيسمعها، فألِفها واشتدّ إعجابُه بها، ووهَب لها هِبَاتٍ سنِيّة[١]. منها أنه وهب لها في ليلة عِقدًا قيمتُه ثلاثون ألف دينار، فردّته عليه في مصادرة البرامكة بعد ذلك. وعرفت أمُّ جعفر الخبر فشكته إلى عُمومته وأهله، فصاروا جميعًا إليه فعاتبوه؛ فقال؛ مالي في هذه الجارية أرَبٌ في نفسها، وإنما أَرَبي في غِنائها؛ فاسْمعوها، فإن استحقّت أن تُؤلَف لغنائها وإلّا فقولوا ما شئتم. فلمّا سمعوها عَذَروه؛ وعادوا إلى أمّ جعفر وأشاروا عليها ألّا تُلِحّ في أمرها؛ فقبلت ذلك، وأهدت إلى الرشيد عشر جوارٍ منهنّ أمُّ المأمون وأمُّ المعتصم وأمُّ صالح.

وقال عمرُ بنُ شَبّة[٢]: إنّ دنانيرَ أصابتها العلّةُ الكلبية فكانت لا تصبرُ عن الطعام ساعةً واحدة، وكان يحيىٰ يتصدّقُ عنها في كل يومٍ من شهرِ رمضانَ بألف دينارٍ لأنها كانت لا تصومه. وبقِيت عند البرامكة مدّة طويلة.

وقال إسحٰقُ وأحمدُ بنُ الطيّب: إنّ الرشيدَ دعا بدنانيرَ بعدَ البرامكة، فأمرها أن تغنّي. فقالت: يا أميرَ المؤمنين، إني آليتُ[٣] ألّا أُغَنّي بعد سيّدي أبدًا. فغضِب وأمر بصَفْعِها[٤] فصُفِعت، وأُقيمت على رجليها وأُعطيت العودَ؛ فأخذته وهي تبكي أحرَّ بكاء، واندفعت فغنّت: [من المنسرح]

يا دارَ سَلْمَى بنازحِ السَّنَدِ[٥] ... من الثَّنايا ومَسْقَطِ اللُّبَدِ

لمّا رأيتُ الديارَ قد دَرَستْ[٦] ... أيقنتُ أنّ النعيمَ لم يَعُدِ

قال: فَرقّ لها الرشيدُ، وأمر بإطلاقها، فانصرفت.

---

(١) سنيّة: كثيرة وثمينة. (٢) عمر بن شبّة، سبق التعريف به.
(٣) آليت: أقسمت. (٤) صفعها: ضرب وجهها بجمع يده.
(٥) نازح السند: أبعده. والسند: ما قابلك من الجبل وعلا من السّفح.
(٦) درست: بليت، وصارت دارسة.

وقال أبو عبد الله بن حمدون: إنّ عَقِيدًا مولى صالح بن الرشيد خطَب دنانير وشُغِف بها فردّته؛ فاستشفع إليها بمولاه صالح بن الرشيد وبِبَذْل والحسن بن مُحْرِز فلم تُجب، وأقامت على الوفاء لمولاها. فكتب إليها عَقِيد: [من الخفيف]

يا دنانيرُ قد تَنكَّر عقلي ... وتَحَيّرتُ بين وَعْدٍ ومَطْلِ[1]
شَغَفِي شافِعِي إليكِ وإلّا ... فاقتُليني إن كنتِ تَهْوَيْنَ قتلِي
أنا باللهِ والأميرِ وما آ ... مُلُ من مَوْعِدِ الحسين وبَذْلِ
ما أُحِبّ الحياةَ يا حِبّ[2] إن لم ... يجمعِ اللهُ عاجِلًا بكِ شملِي

فلم يَعْطِفها ذلك عليه، ولم تزل على حالها حتى ماتت. ولعَقِيدٍ هذا فيها أشعار فيها غناء. وكان عقيد حسنَ الغناء؛ وله فيها أصوات؛ منها قوله: [من البسيط]

هذِي دنانيرُ تنساني وأذكُرُها ... وكيف تنسَى مُحِبًّا ليس ينساها
أعوذُ باللهِ من هِجْرانِ جاريةٍ ... أصبحتُ من حُبِّها أهذِي[3] بذكراها
قد أُكمِلَ الحُسْنُ في تركيبِ صُورتِها ... فارتَجّ[4] أسْفَلُها واهتَزّ أعلاها
قامتْ لتمشِي فليت اللهَ صوّرني ... ذاك الترابَ الذي مَسّته رِجلاها
واللهِ واللهِ لو كانت، إذا برزت، ... نفسُ المتيَّم في كَفَّيْهِ ألقاها

ذِكر أخبار عَرِيبَ المأمونيّة

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كانت عَريب مغنّية مُحسنة، وشاعرةً صالحةَ الشعر، وكانت مليحةَ الخطِّ والمذهبِ في الكلام، ونهايةً في الحسن والجمالِ والظَّرْف وحُسْن الصوت وجودةِ الضَّرْب وإتقان الصَّنْعةِ والمعرفةِ بالنَّغَم والأوتارِ والرواية للشعر؛ لم يتعلّق بها أحدٌ من نُظَرائها[5]، ولا رُئي في النساء ـ بعد القِيانِ الحجازيّات مثل جميلةَ وعزّةَ الميلاءِ وسلّامةَ الزرقاءِ ومَن جرى مجراهنّ على قِلّة عددهنّ ـ نظيرٌ لها. قال: وكان فيها من الفضائل التي وصفناها ما ليس لهنّ مما يكون في مثلها من جواري الخلفاء ومَن نشأ في قصور الخلفاء وغُذِي برقيق العيش الذي لا يُدانيه عيشُ الحجاز والمَنْشأ بين العامّة والعرب الجُفَاة[6]. قال: وقد شهِد لها مَن لا تحتاج مع شهادته

(١) المطل: التسويف وإرجاء الوعود الكاذبة.
(٢) الحِبّ: الحبيب أو الحبيبة.
(٣) أهذي: أهجر، أقول كلامًا غير صحيح.
(٤) ارتجّ: اهتزّ.
(٥) نظرائها: جمع نظير، وهو الشبيه والمثل.
(٦) الجفاة: القساة.

إلى غيره؛ فرُوِي عن حمّاد بن إسحٰق[١] قال قال أبي: ما رأيتُ امرأةً أضربَ من عريب، ولا أحسنَ صنعةً ووجهًا، ولا أخفَّ روحًا، ولا أحسنَ خطابًا بارعًا، ولا أسراعَ جوابًا، ولا ألعبَ بالشِّطْرَنْج[٢] والنَّرْد[٣]، ولا أجمعَ لخَصْلةٍ[٤] حسنةٍ لم أرَها في امرأة غيرها قطُّ. قال حماد: فذكرتُ ذلك ليحيىٰ بنِ أكثَم[٥]، فقال: صدَق أبو محمد، هي كذلك. قلت: أفسمعتَها؟ قال: نعم، هناك (يعني في دار المأمون). قلت: أفكانتْ كما ذكر أبو محمد في الحِذق؟ قال يحيىٰ: هذه مسألةٌ الجوابُ فيها على أبيك، هو أعلم منّي بها. فأخبرتُ أبي بذلك، فضحِك ثم قال: أمَا استحييتَ من قاضي القضاة أن تسأله عن مثل هذا!

وقال إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ: استدعاني المأمونُ يومًا فدخلت عليه، فسألني عن صوت وقال لي: أتدري لمن هو؟ فقلت: أسمعه ثم أُخبرُ أميرَ المؤمنين إن شاء الله بذلك. فأمر جاريةً من وراء السِّتارة أن تُغنّيه، فضربت فإذا هي قد شبّهته بالقديم؛ فقلت: زِدْني معها عودًا آخر، فإنه أثبَتُ لي؛ فزادني عودًا آخر. فقلت: يا أميرَ المؤمنين، هذا صوتٌ مُحْدَثٌ لامرأةٍ ضاربة. قال: من أين قلت ذلك؟ فقلت: إني لمّا سمعتُ لِينَه عرفتُ أنه مُحْدَث من غناء النساء، ولمّا رأيت جودة مَقَاطعه علمتُ أنّ صاحبته ضاربة حفِظتْ مقاطعَه وأجزاءه، ثم طلبتُ عودًا آخر فلم أشكّ. قال: صدَقت، الغناءُ لِعَريبَ.

وقال ابن المعتزّ[٦]: قال عليّ بنُ يحيىٰ: أمرني المعتمدُ[٧] على اللهِ أن أجمع غِناء عريب الذي صنعته، فأخذتُ منها دفاترَها وصُحُفَها التي كانت قد جمعتْ فيها غِناءها، فكتبتُه فكان ألَف صوت، وقد قيل أكثر من ذلك. وقد وصفها أبو الفرج الأصفهانيّ وأطنب في وصفها وتفضيلها، واستدلّ على ذلك وبسط القولَ فيه.

---

(١) حماد بن إسحٰق: هو أديب وراوية شارك أباه إسحٰق الموصلي الغناء والسماع. ألّف كتبًا في الأدب وغيره أشهرها: كتاب «الأشربة»، وكتاب «أخبار ذي الرّمّة» وكتاب «أخبار عروة بن أذينة» و«أخبار الندامى». انظر: الفهرست، ص ٢٠٤.

(٢) الشطرنج: لعبة مشهورة، فارسية الأصل، ثم عرّبت، ومعناه: ستة ألوان، أو ستة أصناف، تمثل: الشاه، والفرزان، والفيل، والفرس، والرّخ، والبيذق.

(٣) النرد: لعبة وضعها أحد ملوك الفرس، وتعرف بـ «لعبة الطاولة».

(٤) الخصلة: الصفة الحسنة.

(٥) القاضي المشهور، سبق التعريف به.

(٦) الأمير العباسي والأديب والشاعر، سبق التعريف به.

(٧) الخليفة العباسي، سبق التعريف به.

وأمّا ما قيل في نسبها وسنّها وكيف تنقّلت بها الحال إلى أن اتصلت بالمأمون، فقد رُوِي عن إسماعيلَ بنِ الحسين خالِ المعتصم أنها ابنةُ جعفر بن يحيىٰ[١]، وأنّ البرامكةَ لما نُهِبوا سُرِقتْ وهي صغيرة فبِيعتْ. قال أحمدُ بنُ عبدِ الله بنِ إسماعيلَ المَرَاكبيّ: إن أمّ عريب كانت تُسَمّى فاطمةَ، وكانت يتيمةً؛ فتزوّجها جعفرُ بنُ يحيىٰ بن خالد؛ فأنكر عليه أبوه، وقال له: تتزوّج بمن لا يُعرف لها أمّ ولا أب! اشْترِ مكانها ألفَ جارية. فأخرجها جعفرٌ وأسكنها في دار في ناحية بابِ الأنبار[٢] سِرًّا من أبيه، ووكّل بها من يحفَظُها، وكان يتردّد إليها؛ فولدت عريب في سنة إحدى وثمانين ومائة. وكانت سِنُوها إلى أن ماتت ستًّا وتسعين سنة. قال: وماتت أمّ عريب في حياة جعفر، فدفعها إلى امرأةٍ نَصْرانيّة وجعلها[٣] دايةً لها. فلما حدثت بالبرامكة تلك الحادثةُ باعتها من سنبس النخّاس، فباعها من المراكبيّ.

قال ابن المعتزّ: وأخبرني يوسفُ بنُ يعقوبُ قال: كنت إذا نظرتُ قَدَمَيْ عَرِيب شَبّهتُهما بقدمي جعفر بن يحيىٰ. قال: وسمعت من يحكي أنّ بلاغتها في كتبها ذُكِرتْ لبعض الكتّاب، فقال: وما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر بن يحيىٰ! هذا ملخص ما حكاه أبو الفرج في نسبها.

وأمّا أخبارُها مع مَنْ مَلَكها وكيف تنقّلت بها الحال، فقد حكَى ابنُ المعتزّ عن الهشاميّ أنّ مولاها خرج بها إلى البَصْرة فأدّبها وخرّجها وعلّمها الخطّ والنحو والشعر والغِناء، فبَرَعت في ذلك أجمع، وتزايدت حتى قالت الشعر. وكان لمولاها صديقٌ يقال له حاتمُ بنُ عديّ من قوّاد خُرَاسانَ، وقد قيل: إنه كان يكتب لعجيف على ديوان[٤] العَرْض؛ فكان مولاها يدعوه كثيرًا ويُخالطه. فركِبه دَيْن فاستتر عنده؛ فمدّ عينَه إلى عَرِيب وكاتبها فأجابته، ودامت المواصلة بينهما وعَشِقته؛ ثم انتقل من منزل مولاها. فلم تزل تحتال حتى اتّخذت سُلّما من سِبّ[٥]، وقيل: من خيوط غِلاظ، وكان قد اتخذ لها موضعًا، ثم لفّت ثيابها وجعلتها في فِراشها بالليل ودَثّرتها[٦]

(١) هو جعفر بن يحيىٰ البرمكي، قرّبه الرشيد ثم انقلب عليه لأسباب غير واضحة، وقتله في نكبة مشهورة تعرف بنكبة البرامكة، وذلك في سنة ٨٠٣ م.

(٢) باب الأنبار: أحد الأبواب التي كانت لبغداد. وهذا الباب أضيف إلى الأنبار، المدينة العراقية الواقعة على الفرات غربي بغداد. جدّد بناءها أبو العباس السفاح وبنى بها قصورًا كثيرة. انظر: معجم البلدان ١/٢٥٧.

(٣) دايةً: مرضعة ومربّية وظئرًا.

(٤) ديوان العرض: ديوان الشكاوى.

(٥) السّبّ: ضرب من الكتّان.

(٦) دثّرتها: غطّتها بالدّثار، وهو الغطاء أو اللحاف وغيره.

بدِثارها، ثم تسوّرت[١] الحائطَ وهرَبت، وأتته فمكثت عنده؛ ومولاها لا يتهمه بشيء من أمرها. فقال عيسى بنُ عبدِ الله بنِ إسماعيلَ المراكبيّ يهجو أباه ويعيِّره بها ـ وكان كثيرًا ما يهجوه: [من مجزوء الرمل]

قاتل الله عَريبَا فعلتْ فِعلًا عَجيبا
رَكِبتْ والليلُ داجٍ مَرْكَبًا صَعْبًا مَهيبا
فارتقتْ مُتَّصِلًا بالنَّـ ـجم أو مِنه قريبا
صَبَرَتْ حتى إذا ما أقصَدَ[٢] النومُ الرَّقيبا
مَثّلتْ بين حَشَايا ها، لِكَيْ لَا تَسْتريبا
خَلَفًا منها إذا نُو دِي لم يُلْفَ[٣] مُجيبا
ومضتْ يحمِلها الخَوْ فُ قَضِيبًا وكَثِيبا[٤]
مُحّةٌ[٥] لو حُرّكتْ خِفْـ ـتَ عليها أو تَذُوبا
فتدلّتْ لِمُحِبٍّ فتلَقّاها حَبِيبا
جَذِلًا[٦] قد نال في الدُّنْـ ـيَا من الدُّنيا نَصِيبا
أيها الظبيُ الذي تَسْـ ـحَرُ عيناه القلوبا
والذي يأكُلُ بعضًا بعضُه حُسْنًا وطِيبا
كنتَ نَهْبًا لِذِئابٍ فلقد أطمعتَ ذِيبا
وكذا الشاةُ إذا لم يَكُ راعِيها لبيبا[٧]
لا يُبالِي وَبَأَ المَرْ عَى إذا كان خَصِيبا
ولقد أصبح عبد اللّـ ـهِ كَشْخَانًا[٨] جَرِيبا
قَدْ لَعَمْري لَطَم الخَدْ وقد شَقَّ الجيوبا[٩]
وجرت منه دموعٌ بَلَّتِ الذَّقْنَ الخَضِيبا[١٠]

---

(١) تسوّرت: صعدت إلى السور، وهو الحائط. (٢) أقصد: أصاب، ومسّ.
(٣) لم يُلف: لم يلق.
(٤) القضيب، كناية عن قدّها وخصرها. والكثيب، كناية عن عجيزتها وأردافها.
(٥) محّة: خالصة، رخوة لدنة. (٦) جذلًا: مسرورًا.
(٧) لبيبًا: عاقلًا. (٨) كشخانًا: محتقرًا ذليلًا وناقصًا.
(٩) الجيوب: جمع جيب، وهو الثوب في أعلى الصدر.
(١٠) الخضيب: المصبوغ بالخضاب، وهو الحنّاء.

قال ابن المعتزّ: وحدّثني محمدُ بنُ موسى بنِ يونس: أنها ملّته بعد ذلك فهرَبت منه، فكانت تغنّي عند أقوام عرفتهم ببغدادَ وهي مستترةٌ متخفّية. فلمّا كان يومٌ من الأيام اجتاز ابنُ أخي المَرَاكبيّ ببُستانٍ كانت فيه مع قوم تغنّي، فسمع غِناءها فعرفه؛ فبعث إلى عمّه وأقام هو مكانه، فلم يبرَح حتى جاء عمّه وكَبَسها، فأخذها وضربها مائةَ مِقْرَعة[1] وهي تصيح: يا هذا، لِم تقتلني! لست أصبِر عليك، أنا امرأة حُرّة، فإن كنتُ مملوكةً فبِعْني، لستُ أصبِر على الضّيق. فلما كان من الغد نَدِم على فعله وصار إليها فقبّل رأسَها ويدها ورجلها ووَهَب لها عشرةَ آلاف درهم. ثم بلغ محمدًا الأمينَ خبرُها فأخذها. قال: وكان الأمينُ في حياة أبيه طلبها منه فلم يُجِبه إلى ذلك. فلما أفضتْ إليه الخلافةُ جاء المراكبيّ ومحمدٌ راكب ليقبّل يده؛ فأمر بمنعِهِ ودفعه، ففعل ذلك الشاكريّ؛ فضربه المراكبيّ وقال: أتمنعني من تقبيل يد مولاي! فجاء الشاكريّ لمّا نزل محمدُ الأمين فشكاه؛ فأمر بإحضار المراكبيّ فأمر بضرب عنقِهِ، فسئل في أمره فعفا عنه وحبسه، وطالبه بخمسمائة ألف درهم مما اقتطعه من نفقات الكراع[2]؛ وبعث فأخذ عريب من منزله مع خَدَم كانوا له. فلمّا قُتل محمد الأمين هَربتْ عريب إلى المراكبيّ فكانت عنده.

قال ابن المعتزّ: وأمّا روايةُ إسماعيلَ بنِ الحسن خالِ المعتصم فإنها تخالفُ هذا، وذكر أنها إنما هربت من دارِ مولاها المراكبيّ إلى محمدِ بنِ حامدِ الخاقانيّ المعروفِ بالخَشِن أحد قوّاد خُراسان، وكان أشقرَ أصهبَ[3] أزرقَ العين. وفيه تقول عَرِيب ولها فيه غناء: [من مجزوء الخفيف]

بــأبـي كــلُّ أصْــهَــبِ أزرقِ الــعــيــنِ أشــقــرِ
جُــنَّ قــلبـي بــه ولـيــ ــس جُـنُـونـي بِـمُـنْـكَـرِ

وقال إسحٰقُ بنُ إبراهيم: لمّا نُمي إلى الأمينِ خبرُ عَرِيب بعث في إحضارها وإحضار مولاها فأُحضرا، فغنّت بحضرة إبراهيم بن المهديّ، فطَرِب الأمينُ واستعادها، وقال لإبراهيمَ: كيف سمعت؟ قال: سمعت يا سيِّدي حسنًا، وإن تطاولتْ بها الأيام وسَكَن رَوْعُها ازداد غِناؤها حُسْنًا وطِيبًا. فقال للفضل بن الربيع:

---

(١) مقرعة: درّة أو سوط.
(٢) الكراع: الماشية، وثمة ديوان كان يطلق عليه اسم ديوان الكراع.
(٣) الأصهب: الذي في شعره أو لون بشرته حمرة وشقرة.

خذْها إليك وسَاوِمْ بها ففعل، فاشتطّ[١] مولاها في السَّوْم ثم أوجبها له بمائة ألف درهم. وانتقض أمر الأمين وشُغِل عنها فلم يأمُرْ لمولاها بشيء حتى قُتل بعد أن افتضّها[٢]؛ فرجعت إلى مولاها، ثم هَربت منه إلى ابنِ حامدٍ؛ فلم تزل عنده حتى قدِم المأمونُ بغدادَ فتظلم المراكبيّ من محمد بن حامد، فأمر المأمون بإحضاره وسُئل عنها فأنكرها. فقال له المأمون: كذَبتَ، وقد سَقط إليَّ خبرُك، وأمر صاحبَ الشُّرَط أن يجرّده في مجلس الشُّرط ويضع عليه السِّياطَ حتى يردّها فأخذه. فبلغها الخبرُ، فركبت حمار مُكَارٍ[٣] وجاءت وقد جُرِّد ليُضرَب، وهي مكشوفة الوجه وهي تصيح: إن كنتُ مملوكةً فليبِعْني، وإن كنتُ حُرّةً فلا سبيلَ عليّ. فرُفع خبرُها إلى المأمون، فأمر بتعديلها عند قُتَيبةَ بنِ زيادٍ القاضي فعُدِّلت عنده. وتقدّم إليه المَرَاكبيّ مطالبًا بها، فسأله البيّنَة على ملكه إياها فعاد متظلّمًا إلى المأمون وقال: قد طولبتُ بما لم يُطالَبْ به أحدٌ في رقيق. وتظلمت زُبيدة بنتُ جعفر إليه وقالت: مِنّ أغلظِ ما جَرَى عليّ، بعد قتل ابني، هجومُ المَرَاكبيّ على داري وأخذُ عَريب منها. فقال المراكبيّ: إنما أخذتُ مِلْكي، لأنه لم يَنْقُدْني الثمن. فأمر المأمون بدفعها إلى محمد بن عمر الواقديّ، وكان قد ولّاه القضاء بالجانب الشرقيّ، فأخذها من قُتَيبةَ بنِ زيادٍ وأمر ببيعها ساذَجةً؛ فاشتراها المأمونُ بخمسين ألف درهم، وقيل: اشتراها بخمسة آلاف درهم. ودعا عبدَ الله بنَ إسماعيلَ وقال له: لولا أنّي حلفتُ ألّا أشتري مملوكًا بأكثر من هذا لزدتك، ولكني سأُوَلِّيك عملًا تَكسِب فيه أضعافَ هذا الثمن، ورمى إليه بخاتمين من ياقوت أحمر قيمتُهما ألف دينار، وخلع عليه خِلَعًا[٤] سنيّة. فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ينتفع بهذا الأحياءُ، وأمّا أنا فإني لا محالة ميّتٌ؛ لأن هذه الجاريَة كانت حياتي. وخرج فاختلط[٥] وتغيّر عقلُه ومات بعدَ أربعين يومًا. وذهبت بالمأمون كلَّ مذهب ميلًا إليه ومحبّةً لها، حتى قيل: إن المأمون قبّل رجلَها في بعض الأيام وإنها قالت أثر ذلك: واللهِ يا أميرَ المؤمنين، لولا ما شرّفها الله به من وضعَ فمك الكريم عليها لقطعتها! ولكن للهِ عليّ ألّا أغسِلها لغيرِ وضوء أو طُهْر إلا بماء الوردِ ما عِشْتُ. فكانت تفعلُ ذلك إلى أن ماتت.

---

(١) اشتطّ: بالغ.
(٢) افتضّها: أخذ بكارتها.
(٣) المكاري: من يكري دوابه لحمل الناس أو أمتعتهم.
(٤) خلعًا: ثيابًا.
(٥) اختلط: خالطه شيء ما في عقله.

وحَكى عليُّ بنُ يحيىٰ المنجّم أنّ المأمونَ لمّا مات بِيعتْ في ميراثه[١] ـ ولم يُبْغَ له عبدٌ ولا أمةٌ غيرُها ـ فاشتراها المعتصمُ بمائة ألف وأعتقها فهي مولاته. وقيل: إنه لمّا مات محمدُ الأمين تدلّت عَرِيب من قصر الخُلْد بحبل إلى طريق وهَربت إلى حاتم بن عديّ.

وحكى إبراهيمُ بنُ رَباح قال: كنت أتولّى نفقاتِ المأمون، فوَصَف له إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ عَرِيب، فأمره أن يشتريَها له، فاشتراها بمائة ألف درهم؛ فأمرني المأمونُ بحملها، وأن أحمل إلى إسحٰقَ مائةَ ألف درهم، ففعلت ذلك؛ فلم أدر كيف أثبِتها، فكتبتُ في الدِّيوان أنّ مائة الألف خرجتْ في ثمن جوهرة، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودَلّالها. فجاء الفضلُ بنُ مروانَ إلى المأمون وقد رأى ذلك وأنكره، وسألني عنه فقلت: نعم، هو ما رأيت. فسأل المأمونَ عن ذلك فقال: وهبتَ لدلّال وصائغ مائةَ ألف درهم! وغلّظ القِصّة؛ فأنكرها المأمون، ودعاني فدنوتُ وأخبرته أنّ المال الذي خرج في ثمن عَرِيب وصِلَةِ إسحٰق، وقلت: أيّما أصْوَبُ يا أمير المؤمنين: ما فعلتُ، أم أُثْبت في الديوان أنها خرجتْ ثَمَنَ مُغَنِّية وصلةَ مُغَنّ. فضحِك المأمون وقال: الذي فعلتَ أصوَبُ. ثم قال للفضل بن مروان: يا نَبَطِيّ، لا تعترض على كاتبي هذا في شيء.

ولعَرِيب أخبارٌ قد بسَط أبو الفرج الأصبهانيّ القولَ بها في كتابه الذي تَرْجَمه «تحف الوسائد في أخبار الولائد»، وذكر أيضًا نُتَفًا من أخبارها في كتابه المترجم «بالأغاني». منها خبرها مع محمد بن حامد المعروف بابن الخَشِن، وأخبار لها مع المأمون، وأخبار مع صالح المنذريّ الخادم، وإبراهيم بن المدبّر، وغير ذلك من أخبارها. وقد رأينا أن نُثْبِت لُمَعًا[٢] من ذلك.

* * *

أما أخبارها مع محمد بن حامد ـ وهو أحد من كانت تعشقه وتهواه وتخاطر بنفسها في الاجتماع به ـ فمنها ما رُوي عن ابن عبد الملك الضرير أنها لمّا صارت في دار المأمونِ احتالت حتى وصلت إليه، وكانت تلقاه في الوقت بعد الوقت حتى حَمَلتْ منه وولَدتْ بنتًا؛ فبلغ ذلك المأمون فزوّجه إياها. وقال محمد بن موسى: اصطبح[٣]

(١) ميراثه: تركته. (٢) لمعًا: نتفًا.
(٣) اصطبح: شرب الصَّبُوح، وهو شراب الصباح.

المأمونُ يومًا ومعه نُدَماؤه وفيهم محمدُ بنُ حامدٍ وجماعةٌ من المغنّين وعَرِيب معه على مصلاة؛ فأومأ إليها محمدُ بن حامد بقُبْلة؛ فاندفعت فغنّت ابتداء: [من الطويل]

رَمَى ضَرْعَ نابٍ فاستمرّ بطَعْنةٍ　　　كحاشية البُرْدِ اليَمَاني المُسَهمِ

تريد بغنائها جوابَ محمد بن حامد بأن تقول له: طعنة. فقال المأمون للندماء: أيُّكم أومأ إلى عَرِيب بقُبْلة؟ والله لئن لم يَصْدُقني لأضربنّ عُنُقَه! فقال محمد بن حامد: أنا يا أمير المؤمنين أومأتُ إليها، والعفوُ أقرب للتقوى. فقال: قد عفوتُ عنك. فقال: كيف استدلّ أميرُ المؤمنين على ذلك؟ فقال: ابتدأتْ صوتًا، وهي لا تغنّي ابتداء إلا لمعنًى، فعلمتُ أنها لم تبتدىء هذا الصوتَ إلا لشيء أُومِىء إليها به، ولم يكن من شرط هذا الموضع إلا إيماءٌ بقُبلة، فعلمتُ أنها أجابته بطعنة. وقد حُكي أنّ المأمونَ قال في هذه الواقعةِ عن محمدِ بنِ حامد: نُكَشْخِنه قبل أن يُكَشْخِننا[1]؛ فزوّجه إياها، واشترط عليه أن يُحْضِرَها إلى مجلسه في أوقات عيّنها له المأمون.

وقال حمدون: كنت ليلةً في مجلس المأمونِ ببلاد الروم بعدَ العشاءِ الآخرة في ليلةٍ ظلماءَ ذاتِ رُعُودٍ وبُروق؛ فقال لي المأمون: اركَبِ الساعةَ فرسَ النَّوبة وسِرْ إلى عسكر أبي إسحٰقَ، (يعني المعتصم)، فأدِّ إليه رسالتي وهي كيت وكيت. فركبت فلم تَثْبُت معي شمعة، وسمعتُ وقْع حافر دابّةٍ فرَهِبتُ ذلك فجعلت أتوقّاه حتى صَكّ[2] ركابي[3] تلك الدابّة، وبرقت بارقةٌ فأبصرتُ وجهَ الراكبِ فإذا عَرِيب؛ فقلت: عَرِيب؟ قالت: نعم، حمدون؟ قلت: نعم. ثم قلت لها: مِنْ أين أقبلتِ في هذا الوقت؟ قالت: من عندِ محمدِ بنِ حامد. قلت: وما صنعتِ عنده؟ قالت: يا نِكْس[4]، عَرِيب تجيء في هذا الوقت من عندِ محمد بن حامد خارجةً من مَضْرب الخليفة راجعةً إليه تقول لها: أيّ شي عملتِ معه! صَلّيتُ معه التراويح[5]، أو قرأتُ عليه أجزاء من القرآن، أو دارسته شيئًا من الفقه! يا أحمقُ، تحادثنا وتعاتبنا واصطلحنا ولعبنا وشربنا وغنّينا وانصرفنا. قال: فأخجلتني وغاظتني وافترقنا.

---

(١) نكشخنه: نعيّره وننسبه إلى الدناءة والصّغار.
(٢) صكّ: ضرب، وقرع.
(٣) ركابي: موضع قدم الفارس من ظهر الدابة.
(٤) نكس: ناقص، لئيم.
(٥) التراويح: صلاة التراويح، صلاة نافلة يؤتى بها في المساجد ليالي شهر رمضان.

ومضيتُ فأدّيت الرسالةَ؛ ثم عدت إلى المأمون وأخذنا في الحديث وتناشدنا الأشعارَ، فهممتُ أن أُحدّثه بحديثها ثم هِبْتُه، فقلت: أُقَدّم قبل ذلك تعريضًا بشيء من الشعر فأنشدته: [من الطويل]

أَلَا حَيِّ أطلالًا لقاطعة الحَبْلِ ... أَلُوفٍ[١] تُساوِي صالحَ القوم بالرَّذْلِ
فلو أنّ من أمسَى بجانب تَلْعَةٍ[٢] ... إلى جَبَلَيْ طيٍّ[٣] فساقطةِ النعلِ
جُلُوسٌ إلى أن يَقْصُرَ الظِّلُّ عندها ... لراحوا وكلّ القومِ منها على وَصْلِ

فقال لي المأمون: اخفِضْ صوتَك لا تسمع عريب فتغضَب وتظنّ أنّا في حديثها؛ فأمسكت عما أردت أن أُخبره به، وخار[٤] الله لي في ذلك.

وقال محمد بن عيسى الواثقيّ: قال لي محمد بن حامد ليلةً: أُحِبّ أن تُفَرِّغَ لي مَضْرِبك[٥]، فإني أريد أن أجيئك فأُقيم عندك؛ ففَعلت وأتاني. فلما جلس جاءت عَريب فدخلتْ وجلسنا؛ فجلس محمد يعاتبها ويقول: فعلتِ كذا وفعلتِ كذا! فقالت لي: يا محمدُ، هذا عندك رأي! ثم أقبلتْ عليه فقالت: يا عاجزُ، خُذْ بنا فيما نحن فيه، واجعل سراويلي مِخْنَقَتي[٦] وأَلْصِقْ خَلْخالِي[٧] بقُرْطي[٨]، فإذا كان غدٌ فاكتب بعتابك في طُومار[٩] حتى أكتب إليك بعُذْري في مثله، ودع عنك هذا الفضول؛ فقد قال الشاعر: [من الوافر]

دعِي عَدَّ الذنوبِ إذا التقينا ... تَعَالَيْ لا نَعُدُّ ولا تَعُدِّي
فأُقسمُ لو هَمَمْتِ بمدّ شَعْرِي ... إلى باب الجحيم لقلتُ مُدِّي

وقال أحمد بنُ حمدون: وقع بين عريب وبين محمد بن حامد شرٌّ حتى كادا يخرجان إلى القطيعة، وكان في قلبها منه أكثر مما في قلبه منها. فلقيته يومًا فقالت: كيف قلبك يا محمد؟ قال: أشقَى ما كان وأقرحَه. فقالت: استَبْدِلْ تَسْلُ. فقال لها: لو كانت البلوَى باختيار لفعلتُ! فقالت: لقد طال إذًا تَعَبُك. فقال: وما يكون! أصبِر

(١) ألوف: شديدة الألفة والمعاشرة. (٢) تلعة: تلّة صغيرة.
(٣) جبلي طيّ: وهما: أجأ وسلمى، بنجد.
(٤) خار لله: استخار الله في الإقدام على عمل ما. وجعل له في الخير.
(٥) مضربك: موضع إقامتك. (٦) مخنقتي: قلادتي.
(٧) خلخالي: الحلية من فضّة وغير ذلك توضع في رجل المرأة.
(٨) القرط: ما يعلّق في شحمة الأذن من لؤلؤ أو درّ أو حجر كريم.
(٩) الطومار: الصحيفة.

مُكْرَها! أمَا سمعتِ قولَ العبّاسِ بنِ الأحنف: [من الكامل]

تَعَبٌ يطولُ مع الرَّجاءِ لِذِي الهوى   خيرٌ له من راحةٍ في اليأس
لولا كرامتُكم لَمَا عاتبتُكمْ   ولكنتُمُ عندي كبعض النّاس

قال: فذَرَفَت عيناها، واعتذرت إليه واعتنقته، واصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه.

وحكى أحمدُ بنُ جعفرِ بنِ حامد قال: لمّا تُوُفِّي عمّي محمدُ بنُ حامدٍ، صار جَدِّي إلى منزله، فنظر إلى تركته وجعل يقلِّب ما خَلَّف، ويُخْرَج إليه منها الشيءُ بعد الشيء، إلى أن أخرِج إليه سَفَطٌ[1] مختوم؛ ففَضّ[2] الخاتَم وفتحه، فإذا فيه رِقاعُ عَرِيب إليه؛ فجعل يتصفّحها ويبتسمُ، فوقعتْ في يده رُقْعةٌ فقرأها ووضعها بين يديه، وقام لحاجته؛ فقرأتها فإذا فيها: [من المجتث]

وَيْلِي عليكَ ومنكا!   أوقعتَ في الحقّ شكّا
زعمتَ أنّي خَؤونٌ   جَوْرًا عليّ وإفكا[3]
إن كان ما قلتَ حَقًّا   أو كنتُ أزمعتُ تَرْكا
فأبدل الله ما بي   من ذِلّة الحُبّ نُسْكا[4]

قال: وهذا الشعر لعَرِيب.

* * *

وأمّا أخبارها مع المأمون وإخوته وغير ذلك من أخبارها ـ قال صالح بنُ عليِّ بنِ الرشيد المعروف بزعفرانة: تمارَى[5] خالي أبو عليّ والمأمونُ في صوت، فقال المأمون: أين عَرِيب؟ فجاءت وهي محمومة[6]، فسألها عن الصوت؛ فقالت فيه بعلمها. فقال لها: غَنِّيه. فولّت لتجيء بالعود؛ فقال: غَنِّيه بلا عُود. فاعتمدتْ من الحُمّى على الحائط وغنّت، وأقبلت عقربٌ فرأيتها وقد لَسَبَتْ يدَها مرّتين أو ثلاثًا، فما نحّت[7] يدها ولا سكتت حتى فرغت من الصوت؛ ثم سقطت وقد غُشي[8] عليها.

(١) السفط: وعاء من قضبان الشجر وغير ذلك. (٢) فضّ: فتح.
(٣) الإفك: الكذب والإثم. (٤) النسك: الانقطاع إلى العبادة.
(٥) تماری: تجادل وتنافس. (٦) محمومة: أصابتها الحمّى.
(٧) نحّت: أبعدت. (٨) غشي عليها: أغمي عليها.

قال عثمان بنُ العَلَاء عن أبيه: عَتَب المأمونُ على عَرِيب فهجرها أيامًا؛ ثم اعتلّت فعادها فقال: كيف وجدتِ طعمَ الهجر؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، لولا مرارةُ الهجر ما عُرِفتْ حلاوةُ الوصل، ومن ذمّ بدءَ الغضب حَمِد عاقبةَ الرضا. فخرج المأمون إلى جلسائه فحدّثهم بالقِصة؛ ثم قال: أتُرَى لو كان هذا من كلام النَّظّام[1] لم يكن كثيرًا!

وقال أحمدُ بنُ أبي دُوادَ[2]: جرى بين المأمونِ وبينَ عريب كلام، فكلّمها المأمون بشيء غضِبت منه فهجرته أيامًا. فدخلتُ على المأمون، فقال: يا أحمدُ، اقضِ بيننا. فقال عريب: لا حاجةَ لي في قضائه ودخوله بيننا، وأنشأت تقول: [من المنسرح]

ونخلِط الهجرَ بالوصال ولا يدخل في الصُّلْح بيننا أَحَدُ

وكانت قد تمكّنتْ من المأمون وأخذت بمجامع قلبه، وذهب به حبُّها كل مَذْهَب؛ وقد قدّمنا أنه قبّلَ رجلها.

وكانت عريب تهوَى أبا عيسى بنَ الرشيد أخا المأمون، وكان المثلُ يُضرب بحسنه وحسنِ غنائه، وكانت تزعم أنها ما عشِقتْ أحدًا من بني هاشم وأصْفَتْه من الخلفاء وأولادهم سواه. ولم تزل عَرِيب مبجَّلة[3] عند الخلفاء محبوبة إليهم مُكَرَّمَةً لديهم إلى أن غضب عليها المعتصمُ والواثقُ وانحرفا عنها. وكان سبب ذلك أن المعتصمَ وجد لها كتابًا إلى العبّاسِ بنِ المأمونِ ببلدِ الرومِ تقول فيه: أُقتلْ أنت العِلْجَ[4] حتى أقتلَ أنا الأعورَ الليليّ هٰهنا (تعني الواثق، وكان المعتصم استخلفه ببغداد). ولَعَمْري إنّ هذا من الأمور العظيمة التي لا تُحْتَمَل من الأولاد والإخوة فكيف من أمَة مغنّية! ولو لم تكن لها عندهم المكانة العظمى والمحلّ الكبير لما أبَقوْها بعد الاطّلاع من باطن حالها على هذه الطّوِيّة[5]. وكانت عَريب تُكايد

(١) النظام: هو إبراهيم بن سيّار، تلميذ أبي الهذيل العلّاف، من ألمع رجال المعتزلة. نشأ في البصرة وأقام في بغداد. له آثار شعرية ومباحث كلامية. كان أستاذًا للجاحظ. انتقد الجبرية والمرجئة، وإليه تنسب الفرقة الكلامية المعروفة بالنظامية. مات سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ م. انظر: الحيوان ٢/ ١٦٧. دار ومدرسة الهلال. بيروت ١٩٨٦.

(٢) هو أحمد بن أبي دؤاد القاضي المشهور. كان على مذهب المعتزلة. ولد في البصرة، وكان مقرّبًا من المأمون، أسماه المعتصم قاضي القضاة. التنبيه والإشراف، ص ٣٠٨.

(٣) مبجّلة: مكرّمة.

(٤) العلج: الكافر من رجالات العجم.

(٥) الطويّة: الحظوة والمكانة.

الواثقَ فيما يصوغه من الألحان، وتصوغ في ذلك الشعرَ تغنّيه لحنًا فيكون أجودَ مِن لحنه.

قال: وكانت عَرِيب تتعشّق صالحًا المنذريّ الخادم، فتزوّجته سرًّا. فحُكِي عنها أنّ بعض الجواري دخلتْ عليها يومًا؛ فقالت لها عريب: ويحك! تعالَيْ إليّ! فجاءت؛ فقالت: قَبّلي هذا الموضع منّي، فإنك تَجِدين ريح الجنّة، وأومأت إلى سالفتها[١]، ففعلت ثم قالت لها: ما السبب في هذا؟ قالت: قَبَّلني الساعةَ صالح المنذريّ في هذا الموضع. قال: ووجّهه المتوكل إلى مكان بعيد في حاجةٍ؛ فقالت عريب فيه: [من مجزوء الكامل]

أمّا الحبيبُ فقد مَضَى ... بالرَّغْم منّي لا الرِّضا

أخطأتُ في تَرْكِي لِمَنْ ... لم أَلْقَ منه عِوَضا

وكانت عَرِيب تهوَى إبراهيمَ بنَ المدبّر ويهواها، ولها معه أخبار وحكاياتٌ، وبينهما أشعار وفُكاهات. فمن مُكاتباتها إليه ما رُوِي عن ابن المعتز قال: كتبتْ إليه تدعو له في شهر رمضان: أفديك بسمعي وبصري، وأهَلّ الله عليك هذا الشهرَ باليُمن والمغفِرة، وأعانك على المُفْتَرَض[٢] منه والمُتَنفَّل[٣]، وبلّغك مثلَه أعوامًا، وفرّج عنك وعنّي فيه. وكتبتْ في شيء بلَغها عنه: وَهَب الله لنا بقاءك مُمَتَّعًا بالنِّعَم. ما زلتُ أمسِ في ذكرك، فمرّةً بمدحك، ومرّةً بأكلك وبذكرك بما فيك لَوْنًا لونًا. اجْحَدْ ذنبَك الآن، وهاتِ حُجَج الكُتّاب ونِفاقَهم. فأمّا خبرُنا أمسِ فإنا شَرِبنا من فضل نبيذك على تَذْكارك رِطْلًا، وقد رفعنا حسابنا إليك، فارفَعْ حسابك إلينا، وخَبِّرنا مَنْ زارك أمسِ وألهاك، وأيّ شيء كانت القِصّة على جهتها. ولا تُخَطْرِب[٤] فتُحْوِجَنا إلى كَشْفك والبحث عليك وعن حالك، وقل الحق، فمن صدق نجا. وما أحوجك إلى تأديب، فإنك لا تُحْسِن أن تودّ. والحقّ أقول إنه يعتريك كُزَاز[٥] شديد يجوز حدّ البَرْد. وكفاك بهذا من قولي عقوبةً. وإن عُدْتَ سمعتَ أكثر منه. والسلام.

---

(١) السالفة: الخصلة من الشعر على جانب الوجه.

(٢) المفترض: ما كان مفروض الأداء كالصلاة اليومية مثلًا.

(٣) المتنفل: ما كان نافلة ومستحبًا، غير واجب، لكنّه حسن كالصيام في غير شهر رمضان مثلًا.

(٤) التَّخَطْرُب: هو الذي يفتري على الناس ويتقوّل عليهم مختلف الأقاويل.

(٥) الكزاز: تشنّج يصيب المرء.

ولما نَكَب عبدُ اللهِ بنُ يحيىٰ بنِ خاقانَ[١] ابنَ المدبّر وحبسه، كتبتْ إليه كتابًا تتشوّقه وتُخبره استيحاشَها له واهتمامَها بأمره، وأنها قد سألت الخليفةَ في أمره فوعدها ما تحبّ. فأجابها عن كتابها، وكتب في آخر الجواب: [من الطويل]

لَعَمْرُكَ ما صوتٌ بديعٌ لِمَعْبَدٍ ... بأحسنَ عندي من كتاب عَرِيبِ
تأمّلتُ في أثنائه خطَّ كاتبٍ ... ورِقَّةَ مُشتاقٍ ولفظَ خَطِيب
وراجعني من وَصْلها ما استفزّني[٢] ... وزهّدني في وصل كلِّ حبيب
فصِرتُ لها عبدًا مُقِرًّا بملْكِها ... ومُسْتَمْسكًا من وُدّها بنصيب

وقال أبو عبد الله بن حمدون: اجتمعتُ أنا وإبراهيمُ بنُ المدبّر وابنُ مَيّادةَ[٣] والقاسمُ بنُ زرزر في بستان بالمَطِيرة في يوم غَيْم ورَذَاذٌ يقطرُ أحسنَ قَطْر ونحن في أطيب عيشٍ وأحسن يوم، فلم نشعُر إلا بعَرِيب قد أقبلتْ من بعِيد؛ فوثب إبراهيمُ مِن بيننا فخرج حافيًا حتى تلقاها، وأخذ بِركابها حتى نزلت، وقبّل الأرضَ بين يديها. وكانت قد هجرته مدّةً لشيء أنكَرْته عليه. فجاءت وجلستْ وأقبلت عليه متبسمة، ثم قالت: إنما جئتُ إلى مَنْ هٰهنا لا إليك. فاعتذر وشفَعنا له فرضِيت. وأقامت عندنا يومئذ وباتت، واصطبحنا من غد وأقامت عندنا. فقال إبراهيم: [من الرمل]

بِأبِي مَنْ حَقَّق الظنَّ به ... وأتانا زائرًا مُبْتَدِيَا
كان كالغيث تَراخَى مُدّةً ... وأتى بعد قُنُوط[٤] مُرْوِيَا
طاب يومانِ لنا في قُرْبِهِ ... بعد شهرينِ لهجرٍ مَضَيَا
فأقرّ الله عيني وشفى ... سَقَمًا كان لجسمي مُبْلِيا

وقال فيها أيضًا: [من المتقارب]

أَلَا يا عَرِيبُ وُقِيتِ الرَّدَى[٥] ... وجَنَّبكِ اللهُ صَرْفَ[٦] الزَّمَنْ

---

(١) عبيد الله بن يحيىٰ بن خاقان: هو وزير المعتمد على الله، الخليفة العباسي. وكان ولده محمد الملقب بدقّ صدره وزيرًا للمقتدر.
(٢) استفزّني: أثار حفيظتي.
(٣) ابن ميّادة: هو الرماح بن أبرد المرّي، شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مات سنة ١٤٩ هـ. انظر ترجمته كاملة في: معجم الأدباء، لياقوت ١١/١٤٣. ط دار المأمون القاهرة.
(٤) قنوط: يأس. (٥) الردى: الهلاك.
(٦) صرف الزمن: حوادثه.

فإنّكِ أصبحتِ زَيْنَ النساء ... وواحدةَ النّاسِ في كلّ فَنّ

فقُرْبُكِ يُدْنِي لذيذَ الحياةِ ... وبُعْدُكِ يَنْفِي لذيذَ الوَسَنْ[1]

فنِعْمَ الأنيسُ ونعم الجليسُ ... ونعم السميرُ ونعم السَّكَنْ[2]

وقال أيضًا فيها وفي جاريَتَيْنَ بِدْعة وتُحْفة: [من السريع]

إنّ عَرِيبًا خُلِقتْ وَحْدَها ... في كلّ ما يَحْسُنُ من أمْرِها

ونعمةٌ لله في خَلْقِهِ ... يُقَصِّرُ العالَمُ في شُكرِها

أشْهَدَني جاريتاها على ... أنّهما مُحسنتَا دهرِها

فبِدْعةٌ تُبْدِعُ في شَجْوِها ... وتُحْفةٌ تُتْحِف في زَمْرِها[3]

يا ربُّ أمْتِعْها بما خُوّلتْ ... وامدُدْ لها يا ربُّ في عُمرِها

وقال عليّ بن العباس بن أبي طلحةَ الكاتبُ: كنت عندَ إبراهيمَ بنِ المدبّر، فزارته بِدْعة وتُحْفة، وأخرجتا رقعةً من عَرِيب؛ فقرأها فإذا فيها: بنفسي أنت وسمعي وبصري، وقَلّ ذلك لك. أصبح يومنا هذا طيبًا - طيّب الله عيشَك - قد احتجبت سماؤه، ورق هواؤه، وتكامل صفاؤه، وكأنه أنت في رِقّة شمائلك وطِيب مَخْضرك ومَخْبَرِك، لا فقدت ذلك أبدًا منك! ولم يُصادِف حسنُه وطِيبُه منّا نشاطًا ولا طَرَبًا لأمور صدّتني عن ذلك، أكره تنغيصَ[4] ما أشتهيه لك من السرور بشرحها. وقد بعثتُ إليكَ بِبِدْعة وتُحْفة ليؤنِساك وتُسَرّ بهما، سرّك الله وسرّني بك! فكتب إليها: [من الكامل]

كيفَ السرورُ وأنتِ نازحةٌ[5] ... عَنّي! وكيف يسوغُ لي الطربُ!

إن غبتِ غاب العيشُ وانقطعتْ ... أسبابُه وألَحّتِ[6] الكُرَبُ[7]

وأنفذ الجواب إليها. فلم تلبث أن جاءت على حمار مِصْريّ، فبادر إليها وتلقاها حافيًا حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطأ[8] الحمارُ بِساطَه وما عليه، حتى

(١) الوسن: النعاس.
(٢) السكن: كناية عن الزوجة.
(٣) زمرها: غنائها.
(٤) تنغيص: تكدير.
(٥) نازحة: بعيدة.
(٦) ألحّت: أقبلت مسرعة.
(٧) الكرب: الهموم والأحزان، جمع كربة.
(٨) يطأ: يدوس.

أخذ بِركابها فأجلسها في مَجْلِسه وجلس بين يديها. ثم قال: [من الطويل]

أَلَا رُبَّ يــومٍ قَــصّــرَ اللهُ طُــولَهُ   بقُرْبِ عَرِيب، حَبّذا هو من قُرْبِ
بها تحسُن الدّنيا ويَنْعَمُ عيشُها   وتجتمع السّرَّاء[1] للعينِ والقلبِ

وقال إبراهيم بنُ اليزيديّ: كنتُ مع المأمون في بلد الروم. فبينما أنا أسير في ليلة مظلمة شاتية ذاتِ غَيْم وريحٍ وإلى جانبي قُبّة، إذ بَرَقتْ بَرْقةٌ فإذا في القُبّة عَرِيب. فقالت: يا إبراهيم بن اليزيديّ. فقلت: لَبّيكِ[2]! قالت: قل في هذا البرق أبياتًا مِلَاحًا لأغنّي فيها. فقلت: [من الرجز]

مـاذا بـقـلـبـي مـن ألـيـم الـخَـفْـقِ   إذا رأيـــتُ لَمَـــعـــانَ الـــبَـــرْقِ
مـــن قِـــبَـــلِ الأُرْدُنِّ أو دِمَـــشْـــقِ   لأن مَـــنْ أهـــوَى بـــذاك الأُفْـــقِ
فـــارقـــتُـــه وهـــو أعـــزُّ الـــخَـــلْقِ   عـلـيّ والـزُّورُ[3] خِـلافُ الـحـقِّ
ذاك الـــذي يَـــمـــلِكُ مِـــنّـــى رِقّـــي   ولستُ أبغِي ما حَيِيتُ عِتْقي[4]

فتنفَّسْت نَفَسًا ظننتُه قد قطَع حَيَازِيمَها[5]؛ فقلت: وَيْحَكِ! على مَنْ هذا التنفس؟ فضحِكت ثم قالت: على الوطن. فقلت: هيهات! ليس هذا كله على الوطن. فقالت: ويلك! أظننتَ أنك تَسْتَفِزّني! والله لقد نظرتُ نظرةً مُرِيبةً في مجلسٍ فادّعاها أكثرُ من ثلاثين رئيسًا، والله ما علم أحدٌ منهم لمن كانت إلى هذا الوقت.

وقال أبو العُبَيْس بن حمدون: غضِبتْ عريب على بعض جواريها، فجئتُ إليها وسألتها أن تعفو عنها؛ فقالتْ - في بعض ما تقوله مما تعتدّ به عليها من ذنوبها -: يا أبا العباس، إن كنتَ تشتهي أن ترى زِنَايَ وصَفَاقةَ[6] وجهي وجُرْأتي على كلّ عظيمةٍ أيّام شبابي، فانظُرْ إليها واعرِفْ أخبارها. قال: وكانت في شبابها يُقَدَّم إليها البرذونُ فتَطْفِر[7] عليه بلا رِكاب.

---

(١) السّراء، بخلاف الضراء، وهي البهجة والسرور.
(٢) لبيك: إجابةً بعد إجابة. (٣) الزور: الباطل.
(٤) عتقي: تحريري من الرّق والعبودية.
(٥) حيازيمها، جمع حيزوم، وهو المرتفع من الأرض، ووسط الصدر. وهو مكان الحزام من الدّابّة.
(٦) صفاقة: وقاحة. (٧) تطفر: تثب وتقفز.

وقال أبو العبّاس بن الفُرات: حدّثتني بِدْعة جاريةُ عريب: أنّ عريبَ كانت تجد في رأسها بَرْدًا وكانت تُغَلِّف رأسها بستين مِثقالًا[١] مِسكًا وعنبرًا، وتغسِله من جمعة إلى جمعة، فإذا غسلته جدّدت غيره، وتقتسم الجواري غُسَالةَ رأسها.

وقال عليّ بن المنجّم: دخلت يومًا على عريبَ مُسَلِّمًا عليها، فلما جلستُ هطلت السماءُ بمطر عظيم. فقالت: أقِمْ عندي اليوم حتى أُغَنِّيك أنا وجواريّ، وابعَثْ إلى مَن أحببتَ من إخوانك، فأمرتُ بدوابّي فرُدّت، وجلسنا نتحدّث. فسألتني عن خبرنا بالأمس في مجلس الخليفة ومن كان يُغَنِّينا، وأيّ شيء استحسنّاه من الغناء. فأخبرتها أنّ صوت الخليفة كان لَحْنًا صنعه بنان من الماخوريّ. فقالت: وما هو؟ فقلت: [من مجزوء الوافر]

تَـجَـافَـى[٢] ثـم تَـنْـطـبِـقُ جُـفُـونٌ حَـشْـوُهـا الأرَق
وذِي كَـلَـفٍ[٣] بـكـى جَـزَعًـا وسَـفْـرُ الـقـوم مُـنْـطَـلِق
بـــه قَـــلَقٌ يُـــمَـــلْمِـــلُهُ وكـــانَ ومـــا بـــه قَـــلَق
جـوانِـحُـه عـلـى خَـطَـرٍ بـنـار الـشَّـوقِ تَـحْـتَـرِقُ

فوجّهت رسولًا إلى بنان، فحضر وقد بلّته السماءُ؛ فأمرت بِخَلِع فاخرة فخُلِعتْ عليه، وقُدِّم له طعامٌ فأكل، وجلس يشرب معنا. فسألته عن الصوت فغنّاها إياه. فأخذتْ دواةً ورُقْعةً وكتبت: [من مجزوء الوافر]

أجـابَ الـوابـلُ[٤] الـغَـدِقُ[٥] وصـاح الـنَّـرْجِـسُ[٦] الـغَـرِقُ
وقـد غَـنّـى بَـنـانُ لـنـا: «جُـفُـونٌ حَـشْـوُهـا الأرَقُ»
فـهـاك[٧] الـكـأسَ مُـتْـرَعـةً[٨] كـأنّ خِـتَـامَـهـا حَـدَقُ[٩]

قال: فما شرِبنا بقيّة يومِنا إلا على هذه الأبيات.

وأخبار عريبَ كثيرةٌ، وقد وضع عبدُ اللهِ بنُ المعتز فيها ديوانًا. وفيما أوردناه من أخبارها كفايةٌ لا تحتمل المختصراتُ أكثرَ منها. والله تعالى أعلم.

(١) المثقال: ما يوزن به قليلًا كان أو كثيرًا. وكان يساوي قديمًا درهمًا ونصف درهم.
(٢) تجافى، والأصل تتجافى: تمتنع.
(٣) كلف: مولع.
(٤) الوابل: المطر.
(٥) الغدق: الغزير الكثير.
(٦) النرجس: ضرب من النوريّات.
(٧) هاك: خذ، اسم فعل.
(٨) مترعة: ملأى.
(٩) حدق: جمع حدقة، وهي حدقة العين وسوادها.

ذِكر أخبار محبوبة

قال أبو الفرج: كانت مولَّدةً من مولدات البَصْرةِ، شاعرةً، سريعةَ الخاطر، مطبوعةً، لا تكاد فَضْلُ الشاعرة اليمانية تتقدّمها، وكانت أجمل من فضل وأعفّ، وكانت تغنّي غناءً غير فاخر.

وقال عليّ بن الجَهْم[١]: كانت محبوبةُ لعبدِ الله بن طاهر أهداها إلى المتوكّل في جملةِ أربعمائة جارية. وكانت بارعةَ الحسن والظَّرْف والأدب، مغنّيةً محسنة، فحَظِيتْ عندَ المتوكل حتى كان يُجْلِسَها خلفَ السِّتارة وراء ظهرِه إذا جلس للشُّرب، فيُدْخِل رأسَه إليها فيراها ويحدِّثُها في كل ساعة.

وقال عليّ بن يحيىٰ المنجِّم: كان عليّ بن الجهم يقرب من أنس المتوكل جدًّا، فلا يكتُمه شيئًا من سِرّه مع حُرَمه وأحاديث خَلَواته. فقال له يومًا: إنّي دخلتُ على قبيحةَ فوجدتُها قد كتبت اسمي على خدّها بغالية[٢]، فلا والله ما رأيت شيئًا أحسنَ من سواد تلك الغاليةِ على بياض ذاك الخدّ؛ فقل في هذا شيئًا ـ قال: وكانت محبوبة حاضرة الكلام من وراء الستارة ـ فدعا عليّ بن الجَهْم بدواة، فإلى أن أُتِي بها وابتدأ يفكّر قالت محبوبة على البَدِيهة[٣] من غير فِكرة ولا رَوِيّة: [من الطويل]

وكاتبةٍ في الخدّ بالمِسْكِ جعفرًا	بنفسي مَخَطّ[٤] المِسك من حيثُ أثّرا
لئن كتبتْ في الخدّ سَطْرًا بكَفِّها	لقد أودعتْ قلبي من الحبّ أسطُرا
فيا مَنْ لمملوكٍ لِملْكِ يَمينِهِ	مُطيعٍ له فيما أسرَّ وأظهرا!
ويا مَنْ هواها في السريرة[٥] جعفرٌ	سَقَى اللهُ من سُقْيَا ثَنَاياكِ جعفرا

قال: فبقي عليُّ بنُ الجَهْم واجمًا لا ينطق بحرف، وأمر المتوكّل بالأبيات فبُعِثتْ إلى عَرِيبَ وأمرها أن تغنّي فيها. قال عليّ بن الجهم: فتحيّرتُ واللهِ وتقلبت خواطري، فوالله ما قَدَرتُ على حَرْف واحدٍ أقوله.

---

(١) علي بن الجهم: شاعر عباسي عاش في بغداد، عرف بهجائه وخبث لسانه فنفاه المتوكل إلى خراسان وهناك حبسه طاهر بن عبد الله وصلبه مجردًا من ثيابه مدة يوم واحد. قتل في طريق الغزو على أيدي جماعة من أعراب كلب، وذلك سنة ٨٦٣ م.

(٢) الغالية: الطِّيب والمسك. (٣) على البديهة: ارتجالًا.

(٤) مخطّ: موضع الخط، اسم المكان من خطّ. (٥) السريرة: الطويّة، والسرّ.

وقال أيضًا: غاضب[١] المتوكلُ يومًا محبوبةَ وهجرها ومنع جواريَها جميعًا من كلامِها؛ ثم نازعته نفسُه إليها وأراد ذلك، ثم نازعته العِزّةُ منها وامتنع من ابتدائها، وامتنعت من ابتدائه دَلَالًا عليها لمَحَلِّها منه. قال عليّ: فبكّرت إليه يومًا؛ فقال لي: يا عليّ، إني رأيت البارحةَ في نومي كأنّي صالحتُ محبوبة. فقلت: أقرّ الله عينَك يا أميرَ المؤمنين وأنامك على خيرٍ وأيقظك على سرور! أرجو أن يكون هذا الصلح في اليقظة. فبينا هو يحدّثني وأحدّثه إذا بوصيفةٍ قد جاءت فأسرّت إليه شيئًا، فقال: أتدري ما أسرّت إليّ هذه؟ قلت: لا. قال: حدّثتني أنها اجتازت بمحبوبةَ الساعةَ وهي في حجرتها تغنّي، أفلا تعجب من هذا؟ أنا مُغَاضِبُها وهي متهاونةٌ بذلك، لا تبدؤني بصلح ثم لا ترضى حتى تغنّي في حُجرتها؛ فقُمْ بنا حتى نسمع ما تغنّي. ثم قام وتبعته حتى انتهى إلى حجرتها. وإذا هي تغنّي: [من المنسرح]

أدورُ في القَصْر لا أرى أحدًا ... أشكو إليه ولا يكلمني

حتى كأنّي أتيتُ مَعْصِيةً ... ليست لها توبةٌ تُخَلِّصني

فهل لنا شافعٌ لي مَلِكٍ ... قد زارني في الكَرَى[٢] وصالحني

حتى إذا ما الصَّباحُ لاح لنا ... عاد إلى هجره فصارَمني[٣]

فعجِب المتوكلُ، وأحسّتْ بمكانه فأمرَتْ بخدمها فخرجوا وتَنَحّينا، وخرجت إليه فحدّثته أنها رأته في منامها فانتبهت وقالت هذه الأبيات وغنّت فيها؛ فحدّثها هو أيضًا رؤياه واصطلحا. فلما قُتل المتوكلُ سَلَاه جميعُ جواريه غيرَها؛ فإنها لم تزل حزينةً هاجرة لكل لذّة حتى ماتت. ولها فيه مَراثٍ[٤].

حكى أبو الفرج: أنّ وَصِيفًا بعد قتلِ المتوكل أحضرها يومًا وأحضر الجواري، فجئن وعليهن الثياب الملوّنة المُذْهَبة[٥] والحليّ وقد تَزَيَّنّ وتعطّرن، وجاءت محبوبةُ وعليها ثيابٌ بِيض غير فاخرة حزنًا على المتوكل. فغنّى الجواري جميعًا وشَرِبن، وطَرِب وصيف وشَرِب. ثم قال: يا محبوبةُ، غَنّي؛ فأخذت العودَ وغنّت وهي تبكي: [من مجزوء الخفيف]

أيّ عيشٍ يَطِيبُ لي ... لا أرى فيه جعفرا

---

(١) غاضب: غضب عليها. (٢) الكرى: النوم.

(٣) صارمني: هجرني المرّة بعد المرّة، وجفاني.

(٤) مراث، جمع مرثاة، وهي أبيات الشعر في الرثاء.

(٥) مذهبة: مزدانة بالذهب.

مـلِكًـا قـد رأتـه عـيــ ـنـي قَـتِـيـلًا مُـعَـفَّـرا[١]
كـلُّ مـن كـان ذا هُـيـا مِ[٢] وحُزن فقد بَـرَا[٣]
غـيـر مـحـبـوبـة الـتـي لو ترى الموتَ يُشتَرى
لاشـتـرتـه بـمـلـكِـهـا كـلّ هـذا لِتُـقـبَـرَا
إنّ مـوت الـكـئـيـبِ أصــ ـلحُ مِـنْ أن يُـعَـمَّـرا

فاشتدّ ذلك على وصيف وأمر بقتلها؛ فاستوهبها بُغَا منه فوهبها له. فأعتقها وأمر بإخراجها وأن تكون حيث تختار من البلاد. فخرجت إلى بغدادَ من سُرَّ مَنْ رَأَى، وأخملت ذكرها طول عمرها؛ وما طمِع فيها أحد. رحمها الله تعالى.

ذِكر أخبار عُبَيْدة الطُّنبوريّة

قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت عُبَيدة الطُّنْبوريّةُ من المحسنات المتقدّمات في الصَّنْعة والأدبِ، شهد لها بذلك إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ؛ قال: وحسْبُها بشهادته. قال: وكان أبو حشيشةَ[٤] يعظِّمها ويعترف لها بالرياسة والأستاذيّة. وكانت من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم صوتًا، وكانت لا تخلو من عشق. قال: ولم يُعْرَف في الدنيا امرأةٌ أعظم صنعةً منها في الطُّنبور[٥]. وكانت لها صنعة عجيبة. فمنها: [من المجتث]

كُـنْ لـي شـفـيـعًـا إلـيـكـا إن خَـفَّ ذاك عـلـيـكـا
وأغْـنِـنـي مـن سُـؤالـي سـواك مـا فـي يـديـكـا
يـا مَـنْ أُعِـزُّ وأهـوَى مـا لِي أهـونُ[٦] لـديـكـا

قال: وحضرت يومًا عندَ عليّ بن الهيثم اليزيديّ وعنده عمرو بن مَسْعَدةَ[٧] وهارونُ بنُ أحمدَ بنِ هشام؛ فجاءه إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصلي فأخبره خبرهم. فقال له إسحٰق: إني كنتُ أشتهي أن أسمع عُبَيْدة، ولكنها إن عرفتْني وسألتموني أن أغنّي

---

(١) معفّرًا: ممرّغًا بالثرى وغيره، ومغبّرًا أشعث.
(٢) الهيام: شدة الوجد والحب والعشق.
(٣) برا، أصلها برىء، شفي.
(٤) أبو حشيشة، سبق التعريف به.
(٥) الطنبور: آلة من آلات الطرب.
(٦) أهون: أكون بلا قيمة ومكانة.
(٧) عمرو بن مسعدة: وزير الخليفة العباسي المأمون. كاتب بليغ، في أسلوبه طلاوة وجزالة وإيجاز. مات سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م.

بحضرتها انقطعت ولم تصنع شيئًا، فدعوها على جِبِلتها[١]؛ فوافقوه على ذلك، ودخل وكتموها أمره، وكانت لا تعرف إسحٰق. وقُدِّم النبيذ، فغنَّت لحنًا لها: [من مجزوء الوافر]

قـريـبٌ غـيـر مُـقْـتـرِبِ ومُـؤْتَـلِـفٌ كَـمُـجْـتَـنِـبِ[٢]
لـه ودّي ولِي مـنـه دَوَاعـي الـهَـمِّ والـكـربِ
أُواصـلهُ عـلى سَـبَـبِ ويـهـجُـرنـي بِـلا سـبـبِ
ويـظـلـمـنـي عـلى ثـقـةٍ بـأنّ إلـيـه مُـنْـقَـلَـبـي[٣]

قال: فطرِب إسحٰقُ وشرب نِصْفًا، ثم تغنّت وشرب، حتى وَالَى بين عشرة أنصاف؛ قال عليّ بن الهيثم: وشربنا معه. وقام إسحٰقُ ليصلّي؛ فقال لها هارون: ويحك يا عُبَيدة! ما تُبالين والله مَتَى مُتِّ! قالت: ولِم؟ قال: أتدرين مَن المستحسِنُ غناءَك والشاربُ عليه ما شرِب؟ قالت: لا والله. قال: إسحٰق بن إبراهيم، فلا تُعَرِّفيه أنك قد عَرَفتيه. فلما جاء إسحٰقُ ابتدأت تغنّي فلَحِقتها هيبةٌ له واختلاط، فنقصتْ نقصانًا بَيِّنًا. قال: أعرّفتموها من أنا؟ فقلت: نعم، عرّفها هارون. فقال إسحٰق: نقوم إذًا فننصرف؛ فإنه لا خير في عِشرتكم الليلة ولا فائدةَ لي ولا لكم؛ وقام فانصرف.

وقال مُلَاحظ غلامُ أبي العبّاس: اجتمع الطُّنبوريّون عندَ أبي العباس بن الرشيد يومًا وفيهم المَسْدُودُ وعبيدةُ. فقالوا للمسدود: غَنِّ؛ فقال: لا واللهِ، لا تقدّمتُ على عبيدةَ وهي الأستاذُ، فما غنّى حتى غنّت. وقال محمدُ بنُ عبدِ الله بن مالك الخُزَاعيّ: سمعتُ إسحٰقَ يقول: الطنبورُ إذا تجاوز عُبَيدةَ هَذَيان[٤].

هذا ما أمكن إيرادُه في هذا الباب من أخبارِ مَن اشتهر بالغناء، وأخبار القيان، وهو مختصرٌ مما أورده أبو الفرج الأصفهاني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه المترجم بالأغاني من أخبارهم. ولم نلتزم استيعابَهم بل ذكرنا أكثرهم وأشهرهم بالغناء، وذكرنا مِن أخبارِهم ما فيه كفاية. فلنذكرْ خلافَ ذلك.

---

(١) جبلّتها: فطرتها. (٢) مجتنب: مختلف ومزايل ومفارق.
(٣) المنقلب: المصدر الميمي من انقلب، إذا رجع.
(٤) هذيان: كلام غير معقول لعلّة أو لغير علّة.

الباب السابع

من القسم الثالث من الفنّ الثاني

فيما يحتاج إليه المغنّي ويُضطرّ إلى معرفته، وما قيل في الغناء، وما وُصفت به القِيان، ووصف آلات الطَّرَب

ذكر ما يحتاج إليه المغنّي ويضطرّ إلى معرفته
وما قيل في الغناء والقيان من جيّد الشعر

قال مالكُ بنُ أبي السَّمْح: سألت ابنَ أبي إسرائيلَ عن المُحْسِن المصيبِ من المغنّين، فقال: هو الذي يُشبع الألحانَ، ويملأ الأنفاسَ، ويُعَدّل الأوزانَ، ويفخّم الألفاظَ، ويعرِف الصوابَ، ويُقيم الإعرابَ، ويستوفي النَّغم الطِّوالَ، ويُحسنُ مقاطعَ النّغَم القصارَ، ويُصيب أجناسَ الإيقاع، ويختلس[١] مواضعَ النَّبَرات، ويستوفي ما يشاكلها[٢] من النَّقَرات. فعرضتُ ما قال على مَعْبَد، فاستحسنه وقال: ما يقال فيه أكثرُ من هذا. وقد رُوِيتْ هذه المقالةُ عن ابنِ سُرَيج. وقال إبراهيمُ الموصليّ: الغناءُ على ثلاثة أضرب: فضربٌ مُلْهٍ مطربٌ يحرِّك ويَستخِفُّ، وضربٌ ثانٍ له شجًى[٣] ورقّة، وضربٌ ثالث حكمة وإتقانُ صنعة. وقال: كان هذا كله مجموعًا في غناء ابن سُرَيج. وقال أبو عثمانَ الناجم: بُحُوحةُ الحَلْق الطيِّب تُشبه مَرَض الأجفان الفاترة[٤].

* * *

وأمّا ما قيل في الغناء وما وصفت به القِيان.

حُكِيَ أنّ بعض المُحْدَثين سمع غناءَ بخُرَاسانَ بالفارسيّة، فلم يَدْرِ ما هو غير أنه شوقه لشجاه وحُسْنه؛ فقال في ذلك، وقيل: إنه لأبي تَمّام[٥]: [من الوافر]

حَمِدْتُكِ ليلةً شَرُفتْ وطابت ... أقام سُهادُها[٦] ومضى كَرَاها[٧]

---

(١) يختلس: يسترق.
(٢) يشاكلها: يجانسها ويماثلها.
(٣) شجى: حزن.
(٤) الفاترة: الناعسة.
(٥) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي. من أشهر شعراء بني العباس. نشأ في بلاد الشام وعاش في بغداد فمدح الخلفاء العباسيين، والمعتصم خاصةً. جيّد النظم والأسلوب. صاحب صناعة مميزة في الشعر. مات سنة ٨٤٥ م.
(٦) سهادها: عدم نومها.
(٧) كراها: رقادها ونومها.

سمعتُ بها غِناءً كان أولَى بأن يقتادَ نفسي مِن عَنَاها[١]
ومُسمِعةٍ يحارُ السَّمْعُ فيها ولم تُصْمِمْهُ[٢]، لا يَصْمَمْ صَدَاها
مَرَتْ[٣] أوتارَها فشفَتْ وشاقتْ فلو يَستطِيع حاسدُها فَدَاها
ولم أفهمْ مَعَانِيَها ولكن ورتْ[٤] كَبِدي فلم أجهَل شجاها[٥]
فكنتُ كأنني أعمَى مُعَنًّى[٦] بِحبّ الغانياتِ وما رآها

وقال كُشَاجم[٧] في بُحّة حَلْق المغنّي: [من الخفيف]

أشتهي في الغناء بُحّةَ حَلْقٍ ناعِم الصوتِ مُتْعَبٍ مَكدودِ[٨]
كأنين المُحِبّ أضعفَه الشو قُ فضاهَى[٩] به أنينَ العُودِ
لا أُحِبُّ الأوتار تعلو كما لا أشتهِي الضربَ لازمًا لِلعمودِ
وأُحِبّ المحنبات[١٠] كحبّي للمبادِي موصولةً بالنّشِيدِ
كهُبوب الصَّبا[١١] توسّط حالًا بين حالَينِ شِدّةٍ وركُود

وقال الناجم: [من مجزوء الكامل]

شَدْوٌ ألذُّ من ابتدا ء العَيْنِ في إغفائها
أحلَى وأشهَى من مُنَى نَفْسٍ وصِدْقِ رجائها

وقال محمد بنُ بشير: [من الهزج]

وصوتٍ لبني الأحرا رِ أهلِ السِّيرةِ الحُسْنَى
شَجٍ يستغرق الأوتا رَ حتى كلُّها تفنَى
فما أدري اليدُ اليُسْرَى به أشقَى أم اليُمْنَى؟
وقلنا لمغنّيه وقد غنَّى على المَثْنَى[١٢]

(١) عناها: أتعبها.
(٢) تصممه: تجعله أصمّ لا يسمع.
(٣) مرت: جسّت وملست.
(٤) ورت: أشعلت.
(٥) شجاها: حزنها.
(٦) معنّى: متعب.
(٧) كشاجم: هو أبو الفتح محمود، الشاعر والأديب والكاتب المنشيء. أصله فارسي، زار مصر والشام وأقام في حلب وراح يمدح الحمدانيين. له من الكتب «أدب النديم» كما أن له ديوان شعر مطبوع. مات سنة ٩٦٠ م.
(٨) مكدود: متعب ومجهد.
(٩) ضاهى: شاكل وماثل.
(١٠) المحنبات: اللينات المائلات.
(١١) الصبا: ريح شرقية ناعمة.
(١٢) المثنى: أحد أوتار العود، والغناء.

أَلَا يـا لـيـتَ هـذا الـصـو تَ حتى الصُّبْحِ لا يَفْنَى
فـقـد أيـقـظَـتِ الـلذّا تُ عينًا لم تزلْ وَسْنَى(١)
ومـا أفـهـم مـا يـعـنِـي مُـغَـنِّـيـهِ إذا غَـنّـى
ولـكـنّـيَ مـن حُـبِّـي لـه أستحسن المعنَى

وقال الثّعالبيّ(٢): [من المتقارب]

غِنـاؤك يَهْزِم جيشَ الكُرُوبِ وعيناك للناس عُذْرُ الذنوبِ
فـويلُ القُلوبِ إذا ما رَنَوْت(٣) وإمّا شَدَوْتَ فويلُ الجُيوب

وقال أيضًا: [من الوافر]

وسـائـلةٍ تـسـائـل عـنـكِ قـلـنـا لها في وصفكِ العَجَبَ العَجِيبَا
رَنَا ظَبْيًا وغَنّى عَنْدَلِيبًا(٤) ولاحَ شَقَائِقًا ومَشَى قَضِيبا

وقال عُكاشةُ يصف قَيْنة: [من الكامل]

مِنْ كَفِّ جاريةٍ كأنّ بَنانَها(٥) من فِضّةٍ قد طُرِّفتْ عُنّابا(٦)
وكأنّ يُمْناها إذا نطقتْ به تُلْقِي على يدها الشِّمالِ حِسَابا

وقال ابنُ الروميّ(٧): [من الخفيف]

وقِيانٍ كأنها أمّهاتٌ عاطفاتٌ على بَنِيها حَوَانِي
مُطْفِلاتٌ(٨) وما حَمَلن جَنِينًا مُرْضِعاتٌ ولسْنَ ذاتَ لِبَانِ(٩)

---

(١) وسنى: ناعسة.

(٢) الثعالبي: هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي. وُلد في نيسابور سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م. مؤلف وأديب وكاتب وشاعر. لقب بالثعالبي لأنه كان فرّاء يخيط جلود الثعالب ويعملها. مات سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٨ م. انظر: حياته في مقدمة كتابه «فقه اللغة» ص ٥ ـ ٦. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٣.

(٣) رنوت: نظرت.

(٤) العندليب: البلبل ذو الصوت الحسن من الطيور، وهو الهزار أيضًا.

(٥) بنانها: طرف إصبعها.

(٦) العنّاب: ضرب من الثمار يعرف بلونه المسمى «العنّابي».

(٧) ابن الرومي، علي بن العباس، الشاعر البغدادي الذائع الصيت. من شعراء العصر العباسي. وُلد في بغداد من أب رومي وأم فارسية. شعره يتميز بالغرابة. غلب عليه التطير والتشاؤم. شهر بالهجاء والوصف، وصف الطبيعة خاصةً. مات سنة ٨٩٦ م.

(٨) مطفلات: ذوات أطفال.

(٩) اللبان: الحليب.

كلُّ طِفْلٍ يُدْعَى بأسماء شَتَّى بين عُودٍ ومِزْهَرٍ وكِران[1]
أُمُّهُ دهرَها تُتَرْجِمُ عنه وهو بادي الغِنَى عن التَّرْجُمانِ

وقال أيضًا: [من السريع]

كأنما رِقّةُ مسموعِها رِقّةُ شكوَى سبقتْ دَمْعَهْ
غنّتْ فلم تَحْتَجْ إلى زامرٍ هل تُحْوِجُ الشمسُ إلى شَمْعَهْ
كأنما غنّت لشمسِ الضُّحَى فألبستها حُسْنَها خلْعَه[2]

وقال الناجم: [من المنسرح]

ما صدحتْ[3] عاتبٌ ومِزْهَرُها إلّا وثِقْنا باللّهو والفَرَحِ
لها غِناءٌ كالبُرْءِ[4] في جَسَدٍ أضناه[5] طولُ السَّقَام والتَّرَحِ[6]
تعبُدها الرّاحُ[7] فهي ما صَدَحتْ إبريقُنا ساجدٌ على القَدَحِ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

ما تغنّت إلّا تكشَّفَ همٌّ عن فُؤادٍ وأقشَعَتْ[8] أحزانُ
تفضُلُ المُسْمِعِين طِيبًا وحُسْنًا مثلَ ما يفضُلُ السَّماعَ العِيانُ

وقال أبو عُبَادةَ البُحْتُرِيّ[9]: [من الخفيف]

وأشارتْ على الغِناءِ بألحا ظٍ مِرَاضٍ من التَّصابي[10]، صِحَاحِ
فطَرِبْنا لهنّ قبلَ المَثَانِي وسَكرنا لهنّ قبل الراح

وقال كشاجم وهو أبو الفتح محمود: [من مجزوء الكامل]

أفدِي التي أهدتْ لنا شمسَ الضُّحَى والليلُ حَالِكْ[11]

---

(١) كران: اسم آلة طرب.
(٢) الخلعة: الثوب والرداء.
(٣) صدحت: غنت.
(٤) البِرء: الشفاء.
(٥) أضناه: أضعفه وأهزله.
(٦) الترح: الحزن.
(٧) الراح: الخمرة.
(٨) أقشعت: أزالت.
(٩) البحتري: أبو عبادة، شاعر عربي طائي عباسي. وُلد في منبج قرب حلب، وقصد بغداد فمدح المتوكل الخليفة العباسي ووزيره الفتح بن خاقان. شعره رقيق العبارة والديباجة كأنه سلاسل الذهب. له مدائح ومراثٍ وأوصاف بديعة. له ديوان شعر مطبوع. كما أن له كتاب «الحماسة» على شاكلة حماسة أبي تمام. مات سنة ٨٩٧ م.
(١٠) التصابي: الميل إلى اللهو واللعب والجهل.
(١١) حالك: شديد السواد.

مــمــلوكــةٌ جــلّتْ فــلــيـــ ـــس تَـفِـي بـقِـيـمـتِـهـا الـمَـمَـالِك
عــرضــتْ فــأعــطــتْ عُــودَهــا ضَــرْبًــا يُــعَــرّض لــلـمــهــالِك
وتَــبِــعــتُــهــا فــتــصــرّفــتْ بــالــضَّـرْبِ فــي كــلّ الــمــسـالِك
ويــئــســتُ مــن إدراكِــهــا فــجــعــلــتُ صَــوْتــي عــنــد ذلــك
قَــصُــرَتْ يــدِي عــنــك الــغــدا ةَ، فــكــيــف لــي بِــيَــدٍ تــنــالــكْ

وقال أيضًا: [من الهزج]

بــدتْ فــي نِــســوةٍ مــثــل الـــ ـــمَــهَــا أُدْمِــجْــنَ[1] إدمــاجــا
يــجَــاذِبْــنَ مــن الأردا ف[2] كُــثْــبــانًــا وأمــواجــا
ويــســتــرن مــن الأبــشــا رِ[3] فــي الــدِّيــبــاج[4] دِيــبــاجــا
وقُــضْــبــانًــا مــن الــفِــضّـ ـــةِ قــد أثــمــرَتِ الــعــاجــا
وقــد لاثــتْ[5] مــن الــنّـ ـــور عــلــى مَــفْــرِقــهــا تــاجــا
فــلــمــا طُــفْــنَ بــالــمــجــلـ ـــس أفــــرادًا وأزواجــــا
تــجــاوَبــن فــغَــنّــيــنـ ـــكِ أزمــــالًا وأهــــزاجــــا
وحــــرّكــــن مــن الأوتــا رِ إمــــســــاكــــا وإدمــــاجــــا
فــلا لــــومَ عــــلــى قــــلــبـ ـــك إن هُــيِّــج فــاهــتــاجــا

وقال عليّ بنُ عبدِ الرحمٰن بنِ يونسَ المنجّم في عوّادة[6]: [من الكامل]

غنّتْ فأخفتْ صوتَها في عُودِها فكأنما الصوتانِ صوتُ العود
غيداءُ تأمر عودَها فيُطِيعُها أبدًا ويَتْبَعُها اتّباعَ وَدُودِ[7]
أنْدَى من النُّوّارِ[8] صُبْحًا صوتُها وأرَقُّ من نَشْرِ الثَّنا المعهودِ
فكأنما الصوتانِ حين تَمَازَجا ماءُ الغمامةِ وابنةُ العُنْقُودِ[9]

---

(١) أدمجن: كنّ مدملجات مفتولات فتلًا.
(٢) الأرداف، جمع ردف، وهو الكفل والعجز.
(٣) الأبشار: الأجساد وجلودهنّ.
(٤) الديباج: الحرير.
(٥) لاثت: عصبت ولفّت.
(٦) العوّادة: ضاربة العود.
(٧) ودود: محبّ.
(٨) النّوّار: النور والزهر والضياء.
(٩) ابنة العنقود، كناية عن الخمرة تعصر من عناقيد العنب.

وقال أبو عَوْنٍ الكاتبُ: [من مجزوء الكامل]

تـشـدو فـيُـرَقّـصُ بـالـرؤو ... سِ لـهـا ويُـزْمَـرُ بـالـكـؤوس

وقال الناجِم: [من الكامل]

طفِقتْ تُغنِّينا فخِلْنا أنّها ... لسرورنا بغِنائها تَغنِينا

وقال أبو هِلالٍ العسكريّ[1]: [من البسيط]

وهَيَّجَتْ لِيَ من شَجْوٍ ومن فَرَحٍ ... أيْدٍ نَثَرْنَ على الأوتارِ عُنّابا

لا عيبَ في العيش إلّا خَوْف غَيْبَتِكم ... إنّ السرورَ إذا ما غِبْتُمُ غابا

وقال هارونُ بنُ عليّ[2] المنجّم: [من الرجز]

غُصْنٌ على دِعْصٍ[3] نَقًا[4] مُنْهالِ[5] ... سعَى بكأسٍ مثل لَمعِ الآلِ[6]

وفاتناتِ الطَّرْفِ والدَّلالِ ... هِيْفِ الخُصورِ[7] رُجَّح الأكفالِ[8]

يأخُذْنَ من طرائف الأرْمالِ ... ومُحْكَمِ الخِفافِ والثِّقالِ

تجري مع النّاس بلا انفصالِ ... مثلَ اختلاط الخمر بالزُّلالِ[9]

تدعو إلى الصَّبْوةِ[10] كلَّ سالِ[11] ... تَصْرَعُ كلَّ فاتِكٍ بَطّالِ[12]

بين حَرامِ اللّهوِ والحلالِ ... أكرمُ من مَصارعِ الأبطالِ

وقال شاعرٌ يذمُّ مُغَنِّيًا: [من مجزوء الرمل]

ومُغَنٍّ باردِ النَّغْـ ... ـمةِ مُختَلِّ اليَدَيْنِ

ما رآه أحدٌ في ... دار قوم مَرَّتَيْنِ

صوتُه أقطعُ لِلَّـ ... ـذّاتِ من سَطْوةِ بَيْنِ[13]

---

(١) أبو هلال العسكري، الحسن، أديب وشاعر ومؤلف عدة كتب منها: «النظم والنثر» و«كتاب الصناعتين» و«جمهرة الأمثال». كما أن له ديوان شعر مطبوع. مات سنة ١٠٠٠ م.

(٢) هو هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم، كنيته أبو عبد الله. كان منجمًا، وشاعرًا، امتاز بالورع والفضل. تُوفي سنة ٢٨٩ هـ.

(٣) دعص: تلّ.

(٤) نقا: صفة للرمل.

(٥) منهال: ليّن.

(٦) الآل: السراب.

(٧) هيف الخصور: خصورهن ضامرة.

(٨) رجّح الأكفال: أعجازهنّ ثقيلة وكبيرة.

(٩) الزلال: صفة للماء.

(١٠) الصبوة: الجهل والميل إلى اللهو.

(١١) السيالي: الخالي من الهم والحب.

(١٢) الفاتك البطّال: المتهتك الماجن بشجاعة.

(١٣) البين: الفراق.

وقال ابنُ الروميّ: [من البسيط]

فظِلْتُ أشربُ بالأرطالِ لا طَرَبًا عليه بل طَلَبًا للسُّكر والنَّوْمِ

ذكر ما قيل في وصف آلات الطرب

فمن ذلك ما وُصِف به العود. نظم أبو الفتح محمودٌ المعروفُ بكُشاجَم قولَ الحكماء: إنّ العودَ مُركّب على الطبائع الأربع، فقال: [من الطويل]

شَدَتْ فجَلَتْ أسماعَنا بمُخَفَّفٍ يُحَدِّثها عن سرِّها وتُحَدِّثُهْ

مُشاكِلةٌ[1] أوتارُه في طِباعها عَناصِرَ منها أحدث الخَلْقَ مُحْدِثُهْ

فللنار منه الزِّيرُ[2] والبَمّ[3] أرضُه وللريح مَثْناه[4] ولِلماءِ مَثْلَثُهْ[5]

وكلُّ امرىء يرتاح منه لِنَغْمةٍ على حَسَب الطَّبْع الذي منه يبعثُهْ

شكا ضَرْبَ يُمْنَاها فظَلَّتْ يَسارُها تُطَوِّقه طورًا وطورًا تُرَعِّثُهْ[6]

فما بَرِحتْ حتى أرَتْنا مُخارِقًا يُجَاوِبُه في أحسن النَّقْر عَثْعَثُهْ[7]

وحتى حسبت البابِلِيَّيْنِ[8] ألقَيا على لَفْظِها السِّحْرَ الذي فيه تَنفُثُهْ

وقال آخر: [من البسيط]

جاءتْ بعُودٍ تُنَاغِيهِ فيُسْعِدُها انظُرْ بدائعَ ما تأتي به الشَّجَرُ

غَنَّتْ على عُودِهِ الأطيارُ من طَرَبٍ رَطْبًا، فلمّا ذَوَى غنّت به البَشَرُ

فلا يزال عليه أو بِهِ طَرَبٌ يَهيجُه الأعجمانِ[9]: الطيرُ والوَتَرُ

وقال آخر: [من الطويل]

سقى الله أرضًا أنبتت عودَك الذي ذَكَتْ منه أنفاسٌ وطابَتْ مَغَارِسُ

تغنّت عليه الوُرْقُ[10] والعُودُ أخضر وغنّت عليه الغِيدُ والعودُ يابسُ

---

(١) مشاكلة: مماثلة.
(٢) الزير: أحد أوتار العود.
(٣) البمّ: أحد أوتار العود.
(٤) المثنى: أحد أوتار العود.
(٥) المثلث: أحد أوتار العود.
(٦) ترعثه: تلبسه.
(٧) مخارق: اسم مغنّ مشهور. وعثعثه: ترنيمه.
(٨) البابليان: ماروت وهاروت اللذان ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وهما ملكان كانا يعلّمان الناس السحر.
(٩) الأعجمان: الساكتان اللذان لا ينطقان.
(١٠) الورق: الحمائم، جمع ورقاء.

وقال آخر: [من البسيط]

لا تحسَبِ العودَ إن غنتك شادنةٌ[١] جاءتك بالطَّيْفِ[٢] فيه نَغْمةُ الوَتَرِ

وإنما الطيرُ ألقتْ عنده خَبَرًا فعذّبوه فنَمّ[٣] العودُ بالخبَرِ

وقال آخر: [من الكامل]

فكأنه في حِجْرِها[٤] ولدٌ لها ضَمّته بين تَرائبٍ[٥] ولَبانِ[٦]

طَوْرًا تُدَغْدِغُ بطنَه فإذا هفا[٧] عَرَكَتْ[٨] له أُذُنًا من الآذان

وقال الناجم: [من المتقارب]

إذا احتضنت عودَها عابث وناغته أحسنَ أن يُغربا

تُدَغْدِغُ في مَهَلٍ بطنَهُ فيُسْمِعُنا مُضحِكًا مُعْجِبا

وقال الحمدونيّ: [من البسيط]

وناطقٍ بلسانٍ لا ضميرَ له كأنه فَخِذٌ نِيطتْ[٩] إلى قَدَم

يُبْدِي ضميرَ سواه في الحديث كما يُبْدِي ضمير سواه الخطُّ بالقلم

وقال كشاجم: [من المنسرح]

جاءت بعودٍ كأنَّ نَغْمَتَهُ صوتُ فتاةٍ تشكو فِراقَ فَتَى

مُخَفَّفٌ خَفّتِ النفوسُ بِهِ كأنما الزَّهْرُ حولَه نَبتَا

دارتْ مَلَاوِيهِ[١٠] فيه واختلفت مثلَ اختلاف الكَفَّيْنِ شُبِّكتا

لو حَرّكتْه وراءَ مُنْهَزِمٍ على بَرِيدٍ لَعَاجَ[١١] والتفتا

يا حُسْنَ صَوْتَيْهما كأنّهما أُختان في صَنْعةٍ تَراسلتا

وهو على ذا ينوبُ إن سَكَتَتْ عنها، وعنه تنوب إن سكتا

---

(١) الشادنة، مؤنث الشادن، وهو الظبي أول ما يطرّ.
(٢) الطيف: المنام.
(٣) نمّ: أعلن وباح.
(٤) حجرها: حضنها.
(٥) الترائب: أعلى الصدر، جمع تريبة.
(٦) اللبان: النّحر.
(٧) هفا: أخطأ وزلّ.
(٨) عركت: فركت.
(٩) نيطت: علّقت.
(١٠) ملاويه: طرقه المختلفة، وهنا كناية عن أوتاره.
(١١) عاج: مال.

وقال أيضًا: [من المتقارب]

وجاريةٍ مثلِ شمسِ النهارِ ... أو البَدْرِ بين النجوم الدَّراري[1]
أَتَتْكَ تَميسُ[2] بقَدّ القَضيبِ[3] ... وترنو[4] بعينِ مَهاةِ[5] القِفَار
وتَرْفُلُ[6] في مُصْمَتٍ أبيضٍ ... تلوّن من خَدّها الجُلَّنَاري[7]
وتحملُ عودًا فصيحَ الجواب ... يُشارِكُ أرواحَنا في المَجَاري
لهُ عُنُقٌ كذراع الفتاةِ ... ودَستانةٌ[8] بمكان السِّوَارِ[9]
فجادتْ عليه وجادتْ له ... بعَسْفِ[10] اليمين ولُطْفِ اليَسَارِ
فما أمهلَتْه ولا نَهْنَهتْه[11] ... من الظُّهْر حتى تَقَضّي النهار
ولمّا تغنّتْ غِناءَ الوَدَاع ... بكيتُ وقلتُ لبعض الجواري:
لئن عِشْتُ عند هزار[12] اللِّقاء ... لقد مُتُّ عند هزار الإزار

وقال أيضًا: [من الكامل]

وكثيرةِ النَّغَماتِ تحسَبُها ... في كلّ عُضْوٍ أوتيَتْ حَلقا
غنّتْ فظِلْتُ إخالُني طَرِبًا ... أسمو[13] إلى الأملاك أو أرقى
وتكلّمتْ أوتارُها فأنا ... فيها أُخَبِّرُ بالذي ألقى
تحكِي أنيني وهي شاكيةٌ ... مما أُجِنّ[14] وتشتكي عِشقا
وترى لها عودًا تُعانِقُهُ ... وكلامُه وكلامُها وَفْقا
لو لم تُحَرّكْهُ أنامِلُها ... كان الهواء يُفيده نُطْقا
جَسّته عالمةً بحالته ... جَسَّ الطبيب لمُدْنَفٍ[15] عِرْقا[16]
فحسِبتُ يمناها تحرّكه ... رَغْدًا، وخلتُ يسارَها بَرْقا

---

(١) الدراري: المضيئة كالدّرّ.
(٢) تميس: تتمايل وتختال.
(٣) قد القضيب: كناية عن الجسم الفارع الطويل والنحيل.
(٤) ترنو: تنظر.
(٥) المهاة: البقرة الوحشية، كناية عن المرأة.
(٦) ترفل: تنعم.
(٧) الجلناري: المنسوب إلى الجلنار، وهو زهر الرّمان الأحمر.
(٨) دستانة: الوتر أو الأوتار في العود.
(٩) السوار: ما يوضع في المعصم من الحلي.
(١٠) عسف: خبط وضرب.
(١١) نهنهته: كفّته وزجرته.
(١٢) الهزار: العندليب، ضرب من الطيور الصادحة.
(١٣) أسمو: أرقى.
(١٤) أجنّ: أخفي وأستر.
(١٥) المدنف: المريض المشرف على الموت.
(١٦) العرق: الوريد أو الشريان.

وقال أيضًا: [من المتقارب]

تَميسُ من الوَشْي[١] في حُلَّةٍ[٢] تُجرر من فضلِ أذيالها
وتحمل عودًا فصيحَ الجواب يُضاهي[٣] اللُّحونَ بأشكالها
له عُنُقٌ مثلُ ساق الفتاةِ ودَستانةٌ مثلُ خَلْخالِها[٤]
فظلَّتْ تُطارح أوتارَهُ بأهزاجها وبأرمالها
وتعمَل جَسًّا لجس العروق وتلوي المَلَاوِي بأمثالِها

وقال آخرُ يصفُ الطُّنبور: [من مجزوء الخفيف]

مُخْطَفُ[٥] الخَصْرِ أجوفُ جِيدُه نصفُ سائرِهْ
أنطقته يَدَا فتًى فاتِر اللَّحْظِ ساحرِهْ
فجَلَا عن ضميره ما حَوَى في خواطرِهْ

وقال سيفُ الدين المشدّ في دُفّ: [من المتقارب]

وطاريّةٍ[٦] قَرَعتْ طارَها[٧] وغنّت عليه بصوتٍ عجيبِ
فعاينتُ شمس الضُّحَى أقبلتْ وبَدْرٌ تَقَدّمها عن قريبِ

وقال أيضًا يصفُ شبّابة: [من الطويل]

وعاريةٍ من كلّ عيب، حبيبةٍ إلى كل قلب بات بالبين مجروحا
لها جسدٌ مَيْتٌ يعيش بنفخةٍ متى داخلتْه الريحُ صارت به رُوحا
تُعيد الذي يُلْقَى عليها بلذّةٍ تَزيد فؤادَ الصبّ وجدًا وتبريحا[٨]
وتنطق بالسحر الحلال عن الهوى وتُوحي إلى الأسماع أطيَبَ ما يُوحَى

(١) الوشي: الثوب المزيّن.
(٢) الحلّة: الثوب الجديد.
(٣) يضاهي: يماثل ويحاكي.
(٤) الخلخال: ما يوضع في القدم للزينة، من فضّة وغيرها.
(٥) مخطف الخصر: ضامره.
(٦) الطاريّة: صاحبة الطار، والضاربة عليه.
(٧) طارها: دفّها.
(٨) تبريحًا: عذابًا وإيلامًا.

القسم الرابع
من الفنّ الثاني في التهاني والبشائر والمراثي والنّوادب والزهد والتوكّل والأدعية

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأوّل
من هذا القسم في التهاني والبشائر

والتهاني تنقسمُ إلى قسمين وتنحاز في جهتين: خصوص وعموم. فالخصوصُ هو ما يتعلّق بالرجل من مَنْصِبٍ يليه، ونعمةٍ تواليهِ؛ وولد رُزِقَه، وشفاء من مرض أقلقه وأرّقه؛ وقدوم من سَفَر، وزواج قضى به الأرَبَ والوَطَر[1]. والعموم هو ما يتعلّق بالجمهور، ويتساوى فيه الملك والمملوك والآمر والمأمور: من انصباب غيث[2] عمّ الرُبا والوِهادَ[3]، وجَرَيانِ نِيل شمِلَ بريِّه البلاد وآمنَ العباد؛ وهزيمةِ عدوٍّ زاد في عُدْوانه وتمادى في طُغْيانه، وفتوح حِصْن أمِن أهلُه بتشييد أركانِه وإتقانِ بنيانه.

ذِكر شيء مما هُنِّيء به وُلاة المناصب

كتب بعض الفضلاء تهنئة بخلافة فقال:

أمّا بعدُ، فإن أولى النعم بالدوام، وأرجاها للبقاء والتمام، وأجْدَرها بالخلود، وأقربَها إلى المزيد، وأحراها بالسلامة على نُوَبِ الأيام[4] وتصاريف الأحداث، نعمةٌ نشأت بفِنائه، وسكنت ذَرَاه فحمِدتْ مثواه، وساسها أولياؤها بحسن المجاورة وكرم المصاحبة سياسةَ الحاني الشفيق، وكَفَلوها كفالةَ الحَدِب[5] الرفيق؛ فنَمَتْ وتمّتْ، وخَصّتْ وعَمّتْ؛ ثم اعترضها من ريب الزمان ما هاج سَوَاكِنَها، وأزعج كَوَامنَها؛

---

(١) الأرب: الوطر، والحاجة.
(٢) الغيث: المطر.
(٣) الوهاد: المنخفضات.
(٤) نوب الأيام: صروفها وحوادثها المهلكة.
(٥) الحدب: العطوف.

وأصارها إلى الوحشة بعد الأنس، والنُّفْرة بعد الإلف، تتقلقل تقلقلَ العوادِي، وتَشْرُد شرودَ الضوالِّ، لافظةً لها الأقطار ونابيةً بها المحالّ؛ إلى أن أعادها الله تعالى بلُطفه إلى مَغْناها المعروف، ورَبْعِها المألوف؛ واستقرّت بعد الاضطراب، وفاءت[1] بعد الاغتراب. وتلك نعمة الله عند سيِّدنا أمير المؤمنين، لما جدّد له من كرامته، واصطفاه له من خِلافته، وطوّقه إياه من إمامته؛ وردّه إليه من تدبير الملك، واعتمد عليه من سياسة الأنام؛ فأحيا به السُّنَنَ القاصرة، وأزال به الرسومَ الجائرة؛ ونهَج به سبيلَ العدل، وأقام به منار الفضل.

وقال طُرَيحُ بنُ إسماعيلَ الثَّقَفيّ في المنصور لمّا أفضت الخلافة إليه: [من المنسرح]

لـمّـا أتـى الـنـاسَ أنّ مُـلْـكَـهُـمُ ... إلـيـك قـد صـار أمـرُه سـجـدوا
واستبشروا بالرضا تَبَاشُرَهم ... بالخُلْد لو قيل إنهم خَلَدوا
كنتُ أرى أنّ ما وجدتُ من الفَرْ ... حةِ لم يلقَ مثلَه أحَدُ
حتى رأيتُ العبادَ كلَّهُم ... قد وجدوا فيك مثلَ ما أجِد
قد طلب الناسُ ما بلغتَ فما ... نالوا ولا قاربوا ولو جَهَدوا
يرفعك الله بالتَّكَرُّم والتقـ ... ـوى فتعلو وأنت تقتصد

وقال زيدٌ السِّنْدِيُّ يهنىء الوزيرَ يعقوبَ بنَ كِلِّس بوزارة العزيز[2] بمصر: [من الكامل]

إنّ الوزارةَ لم تَزَلْ بك صَبَّةً ... تهواك لم يخطُر سواك ببالها
خُطِبتْ فلم تُعْطِ القِيادَ لطالبٍ ... وأبَتْ على طُلّابها بِوِصالها

وقال ابن بشر الصِّقِلّيّ الكاتب يهنّيء الحسن بن إبراهيم التُّسْتَرِيّ بوزارة مصر، وقد وَزَر للمستنصر[3] في سنة أربع وخمسين وأربعمائة: [من الطويل]

بيومِك طارتْ في البلاد البشائرُ ... وطابتْ بمرجوع الحديثِ المحَاضِرُ

---

(١) فاءت: رجعت.

(٢) هو العزيز بالله: نزار بن المعزّ، خامس الخلفاء الفاطميين في مصر. قتل في حلب سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م.

(٣) هو المستنصر بالله: معدّ بن الظاهر، ثامن الخلفاء الفاطميين، استقل عنه المعزّ بن باديس الزيري أمير إفريقيا فوجّه إليه أعراب بني هلال وبني سليم الذين غزوا إفريقيا. من وزرائه الجمالي، بدر، وابنه الأفضل. مات سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م.

وأصبحتِ الأمصارُ[1] أمْنًا وغِبْطةً ... أسِـرّتـهـا مُـهْـتـزَّة والـمـنـابـرُ
وقام خطيبُ الحمدِ في كل مَوْقِفٍ ... يُـعَـدّد مـا تُـمْـلِي عـلـيـه الـمـآثـرُ

ومنها:

لقد عاشرتْ منك الوزارةُ ماجدًا ... له كَنَفٌ[2] لا يَجتويه[3] المُعَاشِرُ
فسيحُ امتدادِ الظِّلِّ بين رِحَابهِ ... وبين المعالي آهلُ الرَّبْعِ عامرُ
«فألقتْ عَصَاها واستقرّ بها النَّوَى ... كما قَرّ عَيْنًا بالإيابِ المسافرُ»[4]
وما زلتَ ملحوظًا لها ومُؤَهَّلًا ... لِذا الأمرِ مذ شُدّتْ عليك المآزِرُ[5]

وقال آخر: [من الخفيف]

كُـلَّـمـا رمْـتُ أن أُهَـنِّـيـك وقـتًـا ... بـمَـحَـلٍّ مـن الـعُـلَا تـرتَـقـيـهِ
شِمتُ[6] مقدارَك الذي أعجز الوا ... صفَ أعلى من الذي أنت فيهِ

وكتب الحمدونيُّ أخو صاحبِ التَّذكِرة يُهَنِّىءُ بالسلامة من حريقٍ وقع في دار الخلافة:

الدّنيا - أعزَّ الله أنصارَ الخدمة الشريفة - دارُ الامتحان والاختبار، ومجاز الابتلاء والاعتبارِ؛ ولله فيما نَزَّله فيها إلى عباده من نِعَمه، وتخوّلهم من مَوَاهبه وقِسَمه، عاداتٌ يقتضيها بالغُ حِكمتِه، وماضي إرادته ومشيئته؛ ليستيقظ الذاهلُ، ويعترف الجاهلُ؛ ويزدادَ العالمُ اللبيب اعتبارًا، ويستفيد العاقلُ الأريب تفكُّرًا واستبصارًا؛ فلا يغفُل عن واجب الشكر إذا سِيقتْ النعمةُ إليه، ولا يلهو عن استدعاء المزيد منها بالاعتراف إذا أُسْبِغتْ[7] عليه؛ وهو أن الباري سبحانه إذا تابع آلاءه إلى عبد ووالاها، وجرّدها له من الشوائب وأخلاها؛ وأماط عن مَشَاربها أكدارَ الدنيا المطبوعة على الكَدَر، وغَمَر مساربها بالأمن من طوارق الغِيَر؛ خِيْفَ عليها الانتقاض[8] والزوال، وتُوُقِّع لها الانتهاء والانتقال. ومن ذلك الخبرُ المرويّ: أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: الآية

---

(١) الأمصار: جمع مصر، وهو القطر والبلد.
(٢) الكنف: الجانب والظلّ والحرز.
(٣) يجتويه: يملّه ويبغضه.
(٤) البيت بكامله مستعار، وقد ضمنه شعره هذا.
(٥) المآزر: جمع مئزر، وهو الثوب الذي يؤتزر به.
(٦) شمت: نظرت إليه.
(٧) أسبغت عليه: منّ بها عليه.
(٨) الانتقاض: الهدم.

٣] ابتهج الصحابةُ رضي الله تعالى عنهم إلا عمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه فإنه بكى. فقالوا: ما يُبْكيك وقد أكمل الله لنا ديننا برحمته، وأتمّ لنا سابغَ نعمته[١]؟ فقال: يُبكيني أنه ما تمّ أمرٌ إلا بدا نقصُه. فقُبِض[٢] رسولُ الله ﷺ عن قريب. وإذا كانت مشوبة[٣] برائعِ يتخلّل صَفْوَها، وطارقٍ[٤] يَجْهَم[٥] في بعض الأوقات عَفْوَها[٦]؛ كان ذلك صارفًا عنها عين الكمال، مُؤذِنًا بطول الآجال؛ حاكمًا لها بتراخي عمر البقاء، دالّاً على الصعود بها إلى دَرَج المُكْث الطويل والارتقاء؛ وحكمه حكمُ المرض الذي تَصِح به الأجساد، وتُمَحِّص[٧] ذنوبَ من يُسَلَّط عليه من العباد: [من الطويل]

فلا يُبْهِجِ الأعداءَ سوءُ ظنونهم ... فلِلَّه صُنْعٌ في الذي ساء ظاهرُ
فكم طالبِ شيئًا به الشرُّ كامنٌ ... وكم كارهٍ أمرًا به الخيرُ وافرُ

فالحمد لله الذي جعل ما جرت به الأقدار من الألم الواقع ظاهرُه، الوجِل لوقعِهِ ناظرُه؛ لعنايته جلّت عظمته عُنْوانًا، وعلى دوام نعمته دليلًا واضحًا وبرهانًا. وإليه الرغبة في أن يجعل الديارَ وساكنيها، والناس في أقاصي الدّنيا وأدانيها؛ لشريف الحوزة[٨] التي بها صلاحُ العالم فداء، وعنها للمكروه وِقاء. فكل حادثٍ مع دوام هذه الأيام الزاهرة جَلَل[٩]، وكل غمرٍ[١٠] من نوائبِ الدهر ما دافع لطفُ الله عنها وَشَل[١١].

وقال أبو عُبَادة البُحْتُريُّ يهنّىء الفتحَ بن خَاقَان[١٢] بسلامته من الغَرَق: [من الكامل]

بعَدُوّك الحَدَثُ الجليلُ الواقعُ ... ولمن يُكايدك الحِمامُ[١٣] الفاجِعُ
قلنا: لعًا[١٤] لمّا عَثَرْتَ ولا تزلْ ... نُوَبُ الليالي وهي عنك رواجعُ

---

(١) سابغ نعمته: وافرها.
(٢) قبض: انتقل إلى الرفيق الأعلى.
(٣) مشوبة: مخلوطة.
(٤) الطارق: ما يطرق ويأتي ليلًا من الحوادث.
(٥) يجهم: يعبس.
(٦) عفوها: جودها.
(٧) تمحص: تطهر، وتذهب.
(٨) الحوزة: الملك.
(٩) جلل: فادح.
(١٠) الغمر: الماء الكثير.
(١١) الوشل: الماء القليل.
(١٢) الفتح بن خاقان: وزير عباسي مشهور. اتخذه المتوكل رفيقًا ونديمًا ثم استوزره، وبتحريض من المنتصر ابن المتوكل قتل المتوكل ووزيره الفتح معًا. وذلك سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م.
(١٣) الحمام: الموت.
(١٤) لعًا: دعاء بالنجاة.

ولـربـمـا عَـثَـر الـجـوادُ وشـأْوُه متقدِّمٌ ونبا الحُسَامُ[١] القاطعُ
لـن تـظـفـرَ الأعـداءُ مـنـك بـزَلَّةٍ واللهُ دونـك حـاجـزٌ ومُـدَافِـعُ
إحدى الحوادثِ شارفتْك فردَّها صُنْعُ الإلـه ولـطفُه المـتـتـابـع
حتى برزتَ لنا وجأشُك[٢] ساكنٌ من نجدة وضياءُ وجهِك ساطعُ
ما حَالَ لونٌ عند ذاك ولا هَفَا عـزمٌ ولا راع[٣] الجوانح[٤] رائع

وقال المتنبّي[٥] يهنّىء بعافية: [من البسيط]

المجدُ عُوفِيَ إذ عُوفِيتَ والكَرَمُ وزال عـنـك إلـى أعـدائـك الألَمُ
وما أخُصُّك في بُرْءٍ بتهنئةٍ إذا سَلِمتَ فكلُّ الناس قد سَلِموا

ومما هنِّىء به مَنِ اتّصل بزوجة ذات جمال وحسب، وأصالة وأدب. وقلما تقع التهنئة بذلك إلا بين صديقين صَحّ بينهما الالتئام[٦]، وسقَطت بينهما مؤونة الاحتشام؛ وتساويا في الرتبة، واتّحدا في الصحبة.

فمن ذلك ما كتب به الوزير أبو الحسن العامريّ إلى بعض إخوانه وقد ابتنى بأهْل[٧]: [من الوافر]

بـأيْـمَـنِ طـائـرِ وأتَـمِّ سَـعْـدِ يكون من الكريمينِ اجتماعُ

أمَا إنّه المجد اليَفَاع[٨]، والحسنُ المُطاع، تعارفت الطباعُ، فالتأمت الأنفس الشَّعَاعُ[٩]؛ كما التقى الثُّريّان، واقترن النيِّرانِ؛ كما حاصر الرئم[١٠] الضيغمُ[١١]، وهاصر[١٢] النسيمُ الغصنَ المُنَعّم؛ كما راق فوق المعْطَف الصارم العَضْب[١٣]، كما

(١) الحسام: السيف.
(٢) الجأش: الصدر والقلب.
(٣) راع: أفزع.
(٤) الجوانح: الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر، جمع جانحة.
(٥) المتنبي: أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، من كبار شعراء العهد العباسي. وُلد في كندة بالكوفة. أقام في الشام وفي مصر وفي فارس. مدح سيف الدولة الحمداني، وكافورًا الإخشيدي، وعضد الدولة البويهي وبدر بن عمار وغيرهم كثير. شعره متين النسج، شائع الحكمة، له ديوان مشهور مطبوع. مات سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م.
(٦) الالتئام: الالتحام والتوافق.
(٧) الأهل: كناية عن الزوجة.
(٨) اليفاع: العالي، واليفع واليفاع: التلّ المشرف العالي.
(٩) الشعاع: المتفرقة.
(١٠) الرئم: الظبي.
(١١) الضيغم: الأسد.
(١٢) هاصر: هزّ وكسر.
(١٣) العضب: السيف القاطع.

التقت الصهباء والبارد العَذْب؛ بل كما فازت القِدَاح[١]، ونُظِم الوِشاح؛ واعتنق شَنٌّ طَبَقه[٢]، واعتلق الرَّوض عَبَقه. فحبّذا النَّسَبُ شابَكه الصِّهْر، والحَسَب عاقَده التُّقى والبِرّ؛ على حين جرت الأيامِنُ، واكتُنِف الحَرَمُ الآمن. وبالبنين والرِّفاء، والنعيم والصَّفاءِ، والثروة والنماء والزمن الرَّغْد والعِزّة القعساء[٣] الشمّاء[٤]؛ على الوِفاق، والوِئام والاتّساق؛ والحظوظ والجدود، والفُسْطاط[٥] الممدود، وهَصْر العيش الأملود[٦]، والالتئام وتتابُع البشرى بالفارس المولود. وما لي تأوّدت[٧] أعطافًا، وتأنّقتُ أوصافًا! وتهلّلت جَذْلًا، وبسطتُ في الدعاء بَذِلا! أهَنأني الأرَب، أم صَفَا لي المَشْرَب! وقد غِبت عن اليوم المشهود، وعَطَّلْت سُدَّةَ الإذن للوفود، ولم أَقُمْ في السِّماط، سافرًا عن وجه الاغتباط؛ أتلقّى الوالج[٨] بمبرور التحيّة، وأُفدّي الخارج بحكم السرور والأريحيّة[٩]؛ وأتخدّم رفعَ الوحي والإيماء، وأتقدّم من المصافاة والموالاة في الغفير الجَمّاء[١٠]، كلا! ولا شهدت ليلةَ الزِّفافِ، وما حلت من محاسنها الأفواف[١١]؛ حيث دارت المنى سُلَافًا[١٢]؛ وصارت العُلَا دَوْحةً ألفافًا[١٣]؛ وأبدى رَوْنَق السيف جِلَاء، وأبرز عقيلةَ[١٤] الحيّ هِدَاء؛ هنالك حلّت النعماء، ونهلت الأظماء؛ فيا له منظرًا، ووعدًا منتظرًا؛ لو ناجيته من كثَب، وكرعت منه في المنهل الأعذب! بلى! إنه وَقَع، فشفى ونَفَع؛ والرّكب سَنَح، فنعم ما منح؛ أهداها حَمَلا، فكأنما أسداها أمَلًا؛ أثلج الفؤادَ، وأورَى الزِّنادَ، وَفَى بالنفس أو كاد؛ وقلت عن قِراه، نفس جذِلت بسراه، وأرجت لذكراه. ولله ما

(١) القداح: السهام التي كانوا يضربونها عند أصنامهم في الجاهلية لمعرفة الغيب والاستقسام بها.

(٢) شن وطبقة: الأول من دهاة العرب وعقلائهم، والثاني اسم فتاة كانت أجابت شنًا عن جميع أسئلته، فتزوجها فضرب المثل بهما في الوفاق والمجانسة فقيل: «وافق شن طبقة». انظر قصة المثل في: مجمع الأمثال، للميداني ٢/٣٥٩. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٥ م.

(٣) القعساء: الثابتة.

(٤) الشماء: العالية.

(٥) الفسطاط: الخيمة الكبيرة.

(٦) الأملود: الناعم اللين، وهو صفة للغصن.

(٧) تأودت: تمايلت وتثنت، والتوت.

(٨) الوالج: الداخل.

(٩) الأريحية: الشمائل الحسنة، والاندفاع لكل ما هو خير، والارتياح له.

(١٠) الغفير الجماء: الكثير العدد.

(١١) الأفواف: جمع فوفة، وهي الأثواب أو البرود اليمانية البيض الجميلة.

(١٢) سلافًا: خمرةً.

(١٣) دوحة ألفافًا: روضة وأشجارًا ملتفة.

(١٤) العقيلة: كناية عن الزوجة الكريمة.

أحظاه مَقْدَمًا وأعلاه في الإحسان قَدَمًا، لو وهبت لمقتضاه من الكرامة دمًا. وقد كان في الحق أن أهاجر، وأعصِي الناهيَ والزاجرَ؛ فابْسُطْ لي عُذْرًا، وأعِدَّني لك ذخرًا، وطِبْ مَدَى الدهر خَبَرًا وخُبْرًا.

ومما هنيء به مَنْ رزقه الله ولدًا وزاده به قوّة وعددًا. فمن ذلك ما كتب به الأستاذ ابنُ العميدِ[١] في فصل يهنيءُ عضدَ الدولةِ[٢] بنِ بُوَيْهِ وقد وُلد له ابنان توأمان:

وصل كتابُ الأمير بالبشرى التي أبت النعمةُ بها أن تقع مُفردةً، وامتنعت العارفة فيها أن تَسْنَح مُوحدةً، حتى تيسّرت مِنْحَتانِ في وَطَن، وانتظمت مَوْهِبتانِ في قَرَن، وطلع من النجيبينِ أبي القاسم وأبي كاليجار ـ أدام الله عِزَّهما ـ طالعَا مُلْك، ونجما سعد، وشهابا عِزٍّ، وكوكبا مجدٍ؛ فتأهلت بهما رِباعُ المحاسن، ووُطِّئت لهما أكنافُ المكارم، واستشرفت إليهما صدورُ الأسِرّة والمنابر. وفهمته وشكرت الله تعالى شُكْرَ مَنْ نادى الآمالَ فأجابته مُكَتِّبةً[٣]، ودعا الأماني فجاءته مُصْحِبةً[٤]، وحمِدته حمدًا مكافِئًا جسيمَ ما أتاح وعظيمَ ما أفاد؛ واكتنفني من السرور ما فَسَح مناهج الغِبطة، وسهّل مواردَ البهجة؛ وأشعْتُ ما ورد إشاعةً شرحتْ صدور الأولياء بمَسَارّها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مَقَارّها؛ وسألت الله إتمامَ ما آذن به الأميران السيِّدانِ من سعادة لا يهتدى إليها الاختيار علوًّا، ولا ترتقي إليها الأفكارُ سموًّا؛ وسلطانٍ تضيق البحارُ عن اتساعهِ، وتنخفض الأفلاكُ عن ارتفاعهِ؛ ويُبَلِّغهما أفضلَ ما تقسِمه السعودُ، وتعلو به الجدودُ[٥]، حتى يستغرقا مع السابقين إخوتهما مساعِي الفضل، ويَشِيدا قواعدَ الفخر، ويَزْجُما صروفَ الدهر، ويَضْبِطَا أطرافَ الأرض، وهو تعالى قريبٌ مجيب.

---

(١) ابن العميد: هو أبو الفضل محمد، الكاتب المشهور، والشاعر والأديب. وُلي الوزارة لركن الدولة اليويهي. له عدة مؤلفات وأشعار، وأهم كتبه: «الرسائل» مات سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٧٠ م.

(٢) هو فنّا خسرو، الملقب بعضد الدولة، من أعظم ملوك بني بويه. رعى العلماء والشعراء والأدباء. من الشعراء الذين وفدوا عليه فمدحوه، أبو الطيب المتنبي، والصاحب بن عباد، من الكتاب الوزراء، مات سنة ٣٧٢ هـ/ ٩٨٣ م.

(٣) مكتِّبة: مجموعة كتائب كتائب، أي طائعة. (٤) مصحبة: منقادة.

(٥) الجدود: الحظوظ.

ومن كلام الوزير الفقيه أبي القاسم محمد بن الجدّ الأندلسيّ:

إنّ أحقّ ما انبسط فيه للتهنئةِ لسانٌ، وتصرّف في ميادين معانيه بيانٌ وبنان؛ أملٌ رُجّي فتأبّى[١] زمانًا، واستُدْعِي فلَوَى عِنَانًا[٢]؛ وطاردته الأمانيّ فأتعبها حِينًا، وغازلته الهممُ فأشعرها حنينًا؛ ثم طلع غيرَ مُرْتَقب، ووَرَد من صحبة المناجح في عسكر لَجِب[٣]؛ وكان كالمشير إلى ما بعده من مواكب الآمال، والدليلِ على ما وراءه من كواكب الإقبال؛ أو كالصُّبح افترّتْ[٤] عن أنوار الشمس مَبَاسمُه، والبَرْقِ تتابعت إثرَ ومِيضِه[٥] غمائمُه. وفي هذه الجملة ما دلّ على المولود، المؤذِن بترادفِ الحظوظ وتضاعفِ السعود. فيا له نجمَ سعادة، طلع في أُفق سِيادة؛ وغُصْنَ سَنَاء[٦]، تفرّع عن دَوْحَة[٧] عَلَاء. لقد تهلّلت وجوهُ المحاسن باستهلالِه، وأقبلت وفودُ الميامن لاستقبالِه؛ ونُظمت له قلائدُ التّمائم[٨]، من جواهر المكارم؛ وخُصّ بالثُّدِيّ[٩] الحَوَافل، بلِبان[١٠] الفضائل. وما كان مَنْبِت الشرف بإفراد تلك الأرومة[١١] الكريمة إلا مُقْشَعِرّ الرُّبا، مُغْبَرّ الثرى، متهافت أغصان الرضا. فأمّا وقد اهتزّ في أيكة[١٢] السِّيادة قضِيبٌ، ونشأ من نِبْتَةِ النَّجابة نجِيبٌ؛ فأَخْلِقْ بذلك المَنْبِت أن تعاودَه نَضْرتُه[١٣]، وتَرِفّ عليه حَبْرته[١٤]؛ ويُراجعه رَوْنَقُه وبهاؤه، وتضاحكه أرضه وسماؤه. فالحمد لله على ما أتاحه من انثناءِ الأمل من جِمَاحه، واختيال الجَذَل في حَلْبَة[١٥] غُرَره وأوضاحه. وهو المسؤول أن يهبَك منه صَنَعًا يحسُنُ في مثله الحسد، ويُتَمنّى لفضله النسلُ والولدُ، بعزّته.

وقال أبو هِلَال العسكريّ[١٦]: [من الكامل]

قـد زاد فـي عـدد الـكـرام كـريـمُ مَحْضٌ صريحٌ في الكرامِ صَمِيمُ

(١) تأبّى: امتنع.
(٢) العنان: الرّسن.
(٣) لجب: كثير العدد.
(٤) افترّت: تفتّحت.
(٥) وميضه: لمعانه.
(٦) سناء: رفعة.
(٧) الدوحة: الشجرة الملتفّة الأغصان.
(٨) التمائم: جمع تميمة، وهي ما يعلّق على الجسم من كتابات وطلاسم على سبيل الحفظ من الأذى.
(٩) الثدي: جمع ثدي، وهو الضرع.
(١٠) اللبان: الحليب.
(١١) الأرومة: الأصل، ومنبت الشيء وجذره.
(١٢) الأيكة: الروضة الغنّاء.
(١٣) نضرته: رونقه وبهجته وحسنه.
(١٤) الحبرة: السرور والنعمة.
(١٥) الحلبة: الميدان للسباق.
(١٦) سبق التعريف به.

عَالِي المَحَلَّةِ لا يزال كأنه لِلفَرْقَدينِ[١] ولِلسِّماكِ[٢] نديمُ
فلأمره التتميمُ كيف تَصَرَّفتْ حالاته، ولشأنه التفخيمُ
فابشِرْ فقد وافاك يومَ رُزِقْتَهُ حظٌّ بتخليد السرور زعيمُ
فَرْعٌ تكفَّلَ دهرُه بتمامِه حتى يكرّ الدهرُ وهو أرُومُ
إنّ الهلال يصير بدرًا كاملًا ويَهُدُّ سدَّ اللّيل وهو بهيمُ
وهو الوجيه إذا تبدّى وجهُهُ وغدًا إذا نزل العظيمُ عظيم
فلأهله شَرَفٌ به مُتَوَطِّدٌ ولهم به شرفٌ أشمُّ عميم
فاقْرَرْ به عينًا فإنّ خِلالَه تصفو وتَسْلَسُ أو يُقال نسيم
ولجَدّه التصميمُ حيث تَلاحقتْ أقرانُه ولشأوِهِ[٣] التَّقْدِيم

ومن كلام الصاحب بن عَبّاد[٤] تهنئة ببنت:

أهلًا وسهلًا بعَقِيلةِ النساء، وأُمّ الأبناء؛ وجالبة الأصهار، وأولاد الأطهارِ؛ والمبشِّرة بإخوةٍ يتنافسون، ونُجَباءَ يتلاحقون: [من الوافر]

فلو كان النِّساءُ كمثلِ هذي لفُضِّلَت النِّساءُ على الرِّجالِ
وما التأنيثُ لاسم الشمسِ عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهِلالِ

فادَّرِعْ[٥] يا سيِّدي اغتباطًا، واستأنف نشاطًا؛ فالدنيا مؤنّثةٌ والرجالُ يخدِمُونها، والذكورُ يعبدونها؛ والأرضُ مؤنّثةٌ ومنها خُلِقت البريةُ؛ وفيها كثُرت الذُّرِّيَّةُ؛ والسماء مؤنّثة وقد تَزَيّنتْ بالكواكب، وحَلِيَتْ بالنجم الثّاقبِ؛ والنّفسُ مؤنّثة وهي قِوامُ الأبدان، ومِلاكُ الحيوان؛ والجنّة مؤنّثة وبها وُعِد المتّقون، وفيها ينعَم المرسلون. فهنيئًا هنيئًا ما أُولِيت، وأوزعك الله شكرَ ما أُعْطِيت؛ وأطال بقاءك ما عُرِف النسلُ والولدُ، وما بَقِي الأبد، وكما عُمِّر لُبَد[٦].

---

(١) الفرقدان: نجمان متلازمان يقعان بين نجم القطب وبنات نعش الكبرى.
(٢) السماك: نجم معروف، وهما اثنان: أحدهما يقال له السماك الرامح، والآخر السماك الأعزل.
(٣) شأوه: الأمد والسبق.
(٤) الصاحب بن عباد: واسمه إسماعيل، هو الكاتب الأديب واللغوي والوزير. من كبار وزراء الدولة البويهية. وزر لمؤيد الدولة ثم لفخر الدولة البويهيين. قرّب إليه الشعراء والعلماء والأدباء. كتاباته غلب عليها السجع والصنعة والإيجاز. من كتبه: «المحيط» وهو معجم لغوي و«كتاب الوزراء» و«الكشف عن مساوىء شعر المتنبي» و«الرسائل». مات سنة ٣٦٠ هـ/ ٩٩٥ م.
(٥) ادرع: اتخذ درعًا.
(٦) لبد: اسم أحد نسور لقمان السبعة. قيل إنها عمّرت طويلًا، وذكرها الشاعر النابغة الذبياني في=

ومن كلام أبي المكارم بنِ عبدِ السلام من شعراء الخريدة[١]:

هذا شُعَيبٌ[٢] النبيّ بابنتهِ صَفُوراءَ استأجر موسى كليم الله. وهذا سيّدُ المرسلين، أبقى اللهُ بفاطمةَ ابنتِه نسلَه إلى يوم الدِّين. وهذه أُمّ الكِتاب سُمِّيت الفاتحةَ، وهي لأبوابِ مُناجاة الرحمٰن فاتحة. وهذه مُحْكَمات[٣] القرآن، بها ثبتت شرائعُ الإيمان. وهذه سورة النساءِ وسُمِّيت بهنّ وهي من الطِّوال، ولا سورةَ من القِصار سُمِّيت بالرجال. على أنّ الدّنيا بأسْرها مؤنّثةٌ والملوكُ من خُدّامها، والشّمسُ مؤنّثة والضِّياءُ والبهاءُ من تَمامِها؛ والنفسُ تؤنّث وبها فُضِّل الناس، والحياة تؤنّث وهي أساس الحواس؛ والعين تؤنّث وبها يُتَوسّل إلى علم الدقائق؛ واليدُ تؤنّث وهي المتصدّية لتحبيرِ الأشياء، والعَضُد تؤنّث وبها استعانةُ سائر الأعضاء؛ والسماء تؤنّث وهي تُزْجِي[٤] الأمطارَ، والأرض تؤنّث وهي مَجمعُ أطايبُ الثّمار، والجنّة تؤنّث وبها وُعِد الأبرارُ الأخيار؛ والعين (أعني الذهب) تؤنّث وبها يُدْفَع الهُلْك، والقَوْسُ تؤنّث وبها عِزُّ المُلْك.

ومما هُنِّىء به في المَوَاسم والقدوم ـ قال ابنُ الرومي[٥] تهنئةً بعيدِ الفطر: [من الخفيف]

قد مضى الصَّوْمُ صاحبًا محمودا ... وأتى الفِطْرُ صاحبًا مَوْدُودا[٦]

ذهب الصَّوْمُ وهو يَحْكِيك[٧] نُسْكًا[٨] ... وأتى الفطرُ وهو يَحكيك جودا[٩]

وقال آخر: [من المتقارب]

رأى العِيدُ وجهَك عِيدًا له ... وإن كنتَ زدتَ عليه جَمَالَا

وكَبَّر حين رآك الهلالُ ... كفِعْلِكَ حين رأيتَ الهِلَالَا

رأى منكَ ما منه أبصرتَه ... هِلالًا أضاء ووجهًا تَلَالَا[١٠]

= شعره فقال: «أخنى عليها الذي أخنى على لبد». انظر: ديوان النابغة، ص ٣٧. ط دار صادر. بيروت.

(١) هي «خريدة الدهر في محاسن أهل العصر».

(٢) شعيب: نبي أرسله الله في أرض مدين من جزيرة العرب. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم.

(٣) هنّ الآيات التي لا تحتاج إلى تأويل. ويطلق عليها اسم «أم الكتاب».

(٤) تزجي: ترسل.

(٥) شاعر عباسي سبق التعريف به.

(٦) مودودًا: محبوبًا.

(٧) يحكيك: يماثلك.

(٨) نسكًا: انقطاعًا إلى العبادة.

(٩) جودًا: كرمًا.

(١٠) تلالا: شعّ وأضاء.

وقال ابن الروميّ يُهَنِّىءُ بعيد أضحى وهو يوم نَوْرُوز[١]: [من البسيط]

عِيدَانِ: أضحى ونَوْرُوزٌ كأنهما ... يومَا فِعَالِك من بُؤْسٍ وإنعامِ
كذاك يَوْمَاكَ: يومٌ سَيْبُهُ[٢] دِيَمٌ[٣] ... على العُفَاةِ[٤]، ويومٌ سيفُه دامِي

وقال أبو إسحٰق[٥] الصّابي: [من مجزوء الكامل]

يا سيِّدًا أضحى الزما ... نُ بأُنْسِه منه رَبيعا
أيّامُ دَهْرِكَ لم تَزَلْ ... للنّاس أعيادًا جميعا
حتى لأوشك بينها ... عِيدُ الحقيقة أن يضيعا

وقال الشّريفُ الرَّضِيّ تهنئةً بقُدوم: [من الكامل]

قَدِم السرورُ بقَدْمةٍ لك بَشَّرتْ ... غُرَرَ العلا وعَوَالِيَ التِّيجانِ
قَلِقَتْ ظُبَا[٦] الأسيافِ منك بفرحةٍ ... فتكاد تُنْهِضُها من الأجفانِ
قد كان هذا الدهرُ يَلْحَظ جانبي ... عن طَرْفِ لَيْثٍ[٧] ساغِبٍ[٨] ظمآنِ
فالآن حين قَدِمتَ عُذْنَ صُروفُهُ ... يَرمُقْنَني[٩] بنواظر الغِزْلانِ

ومما قيل من شَوَاذّ التهاني وهي الجمعُ بين التهنئة والتعزية، والبِشارة والتسلية ـ فمن ذلك ما قاله عبدُ الملكِ بنُ[١٠] صالح للرشيد، وكان من يحسُده قد قال للرشيد عنه: إنه يُعِدّ كلامه. فأنكر الرشيد ذلك. وقال: بل هو طبع. وجلس في بعض الأيام

(١) النوروز: لفظة فارسية وتعني: اليوم الجديد. وهو يوم عيد يحتفل به حتى الآن في بلاد العجم. ويقع في أول الربيع من كل عام.
(٢) سيبه: عطاؤه.
(٣) ديم، جمع ديمة، وهي المطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق.
(٤) العفاة: طالبو المعروف، جمع عافٍ.
(٥) أبو إسحٰق الصابىء: واسمه إبراهيم، من طائفة الصابئة الحرنانية في العصر العباسي. خدم أسرة البويهيين، وكان كاتبًا وعالمًا بالفلك، وشاعرًا. له «رسائل الصابىء» والديوان الشعري. تُوفي سنة ٩٩٤ م.
(٦) الظّبا: جمع ظُبة وظباة، وهي حدّ السيف. (٧) الليث: الأسد.
(٨) الساغب: الجوعان. (٩) يرمقنني: ينظرن إليّ.
(١٠) عبد الملك بن صالح، الأمير العباسي، ابن عم المنصور والسّفاح، الخليفتين العباسيين. بليغ وفصيح وخطيب. ولّاه الهادي إمرة الموصل. ولما تسلم الرشيد مقاليد الخلافة عزله ثم ولّاه المدينة ومصر ودمشق. لكن سرعان ما سجنه، ولما جاء الأمين أطلق سراحه. مات سنة ١٩٦ هـ/ ٨١١ م.

ودخل عبدُ الملكِ؛ فقال الرشيدُ للفضل[1]: قلْ له: وُلِد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابنٌ ومات له ابن. فقال الفضلُ له ذلك. فدنا عبد الملك وقال: يا أميرَ المؤمنين، سَرّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سَرّك، وجعلها واحدةً بواحدة، ثوابَ الشاكر وأجرَ الصابر. فقال الرشيد: أهذا الذي زعموا أنه يتصنّع الكلام! ما رأى الناس أطبعَ مِن عبدِ الملك في الفصاحة.

ومن ذلك ما حكاه ثُمَامةُ بنُ أشْرَسَ[2] قال: لمّا دخل المأمونُ بغدادَ بعد قتل الأمين دخلت عليه زُبَيْدةُ[3] ابنةُ جعفرٍ أمّ الأمين، فجلست بين يديه وقالت: الحمد لله! أُهَنّئك بالخلافة فقد هَنّأتُ بها نفسي قبل أن أراك، وإن كنتُ فقدتُ ابنًا خليفةً لقد اعتضتُ ابنًا خليفة. وما خَسِر من اعتاضَ مثلك، ولا ثَكِلتْ أُمٌّ ملأتْ عينَها منك. وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ، وإمتاعًا بما وَهَب. فقال المأمون: ما تَلِد النساءُ مثلَ هذه، ما تراها أبقت في الكلام لبلغاء الرجال!

وقال عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ الجعفريّ السمرقنديّ يُهَنّىء العزيزَ بخلافةِ مصرَ ويرثي أباه المُعِزّ[4]: [من البسيط]

قد أصبح الجَوْهَرُ العُلْوِيّ منتقِلا	في خيرِ مَنْ كان مِنْ خير الوَرَى[5] بَدَلَا
يا مِنْحةً كملتْ في مِحْنةٍ عَظُمتْ	لولاكَ في الدّهر ما نال امرؤٌ أمَلَا
صُنْعٌ من الله في خَطْبٍ أُتِيحَ لنا	عمّ البلادَ وعمّ السَّهْلَ والجَبَلا
كان الزمانُ بمن أبقى ومَنْ أخذتْ	صُروفُهُ مُذْنِبًا طورًا ومُنْتَصِلا[6]
قام العزيزُ بما أفضى المُعِزُّ به	إليه مُضْطَلِعًا بالعِبْء مُحْتَمِلا

---

(١) هو الفضل بن الربيع، وزير الرشيد بعد نكبة البرامكة، ساعد الأمين ضدّ المأمون، ولما انتصر المأمون أبعده من الوزارة. مات سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٤ م.

(٢) ثمامة بن أشرس: وكنيته أبو بشر، من بني نمير. متكلم من المعتزلة. بلغ من المأمون منزلة رفيعة. عرض عليه الوزارة فامتنع. إليه تنسب الفرقة الكلامية المعروفة بـ «الثمامية». مات سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م. انظر ترجمة حياته في: الفهرست، التكملة، ص ٢.

(٣) هي زبيدة بنت جعفر، أم الأمين، زوجة هارون الرشيد، وابنة عمه، اشتهرت بإحسانها. قبرها في بغداد معروف. توفيت سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م.

(٤) المعز لدين الله، معدّ بن المنصور، رابع الخلفاء الفاطميين. خلف أباه سنة ٣٤١ هـ/ ٩٥٣ م. احتلّ جوهر، قائده، الفسطاط، وأسّس القاهرة فصارت عاصمة الفاطميين. استولى على طرابلس وبيروت، وهزم الامبراطور البيزنطي يوحنا بن شمشقيق. أنشأ الأزهر، وشجع العلماء والأدباء. مات سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م.

(٥) الورى: الخلق والأنام.

(٦) منتصلًا: خارجًا نصله.

فقام أحفظَ مُسْتَرْعًى رَعَى فكَفَى — مِن بعد خيرِ إمَامٍ قَوَّم المَيَلا

كالسيف مُنْصَلِتًا[1] والبحرِ مُنْدَفقًا — والبَدْرِ مُؤْتَلِقًا والغَيْثِ مُحْتَفِلا

ومنها:

في طلعة البدرِ من شمس الضُّحَى عِوَضٌ — وظُلْمَةُ اللَّيلِ يجلو جُنْحَها ابنُ جَلَا

وما الأئمّةُ إلا أنجمٌ زُهُرٌ — يبدو لنا كوكبٌ إنْ كوكبٌ أَفَلا[2]

إنّ المُعِزَّ الذي لا خَلْقَ يُشْبِهُه — إلّا العزيز ابنه إنْ قال أو فعلا

مَلْكٌ وجدنا التُّقَى والعَدْلَ عُدَّتَه — إذا الملوكُ استعدّوا الكيدَ والحِيَلا

سَمَتْ إلى العالَم النُّوريّ هِمَّتُهُ — ففارَق القَتَمَ[3] الأرضيَّ وانتقلا

راجعت نفسُه في القُدْس عُنْصُرَها — ولم يزل بحبال الله مُتَّصِلا

لم يَرْضَ خَلْقًا من الدُّنيا يُجاوِرُه — إلّا الملائكَ في الفِرْدَوْسِ والرُّسُلا

لولا نِزَارٌ[4] وعينُ الله تحرُسُهُ — كنّا بفقد مَعَدٍّ أُمّةً هَمَلا[5]

فإنْ مَضَى كافِلُ الدُّنيا وما ضَمِنَت — فَذَا ابنُه كافلٌ عنه بما كَفَلا

وإن هَوَى الجبلُ الراسي فذا جَبَلٌ — رَاسٍ لنا بعده، أَعْظِمْ به جَبَلا!

عمّتْ خِلافتُه الدُّنيا برونَقِها — كأنه الشَّمسُ فيها حَلّتِ الحَمَلا[6]

مُلْكٌ أغَرُّ[7] وأيّامٌ مُحَجَّلةٌ[8] — ودولةٌ كلَّ وقتٍ تَقْهَرُ الدُّوَلا

أضحتْ ملوك بني الدُّنيا له خَوَلًا[9] — وما حَوَتْ كلُّ دارٍ منهمُ نَفَلا[10]

يا أيّها الملك المأمولُ نائلُه — ومَنْ هو الغاية القُصْوَى لنا أملا

كان السريرُ سريرُ الملِك منخفضًا — حتى ارتقيتَ ذُرَاه فارتقى وعَلَا

---

(١) منصلتًا: خارجًا من غمده. (٢) أفل: غاب وغرب.

(٣) القتم: ما كان على الأرض من غبار وغيره. (٤) نزار: ولد المعز لدين الله.

(٥) هملًا: شاردة، لا راعي لها.

(٦) الحمل: برج في السماء معروف، تنزله الشمس في أول الربيع، وهو من البروج التي يتفاءل بها خيرًا.

(٧) أغرّ: في جبينه بياض.

(٨) محجّلة: فيها بياض. وفي الأصل التحجيل يكون في قوائم الفرس.

(٩) خولًا: خدمًا وعبيدًا. (١٠) النفل: الزيادة.

ومن ذلك ما كتب به عامل إلى المصروف به:

قد قُلِّدتُ العملَ بناحيتِك، فهنأك الله بتجدّدِ ولايتكِ، فأنفذتُ خليفتي لخلافتِك، فلا تُخْلِهِ من هِدَايتك، إلى أن يَمُنّ الله بزيارتِك.

فأجابه: ما انتقلت عنّي نعمةٌ صارت إليك، ولا خلوتُ من كرامة اشتملت عليك. وإني لأجد صَرْفي بك ولايةً ثانية وصِلة وافية؛ لما أرجو لمكانك من حسن الخاتمة ومحمودِ العاقبة. والسلام.

وكتب إبراهيمُ بن عيسى الكاتب يُهَنِّىء إبراهيمَ بنَ المدبِّر بالعَزْل عن عمل: [من الطويل]

لِيَهْنِىءْ أبا إسحٰق أسبابُ نِعْمةٍ ... مُجَدَّدةٍ بالعَزْلِ، والعزلُ أنبلُ

شَهِدتُ لقد مَنُّوا عليك وأحسنوا ... لأنك بعد العَزْلِ أعلى وأفضل

آخر: [من مجزوء الكامل]

إنّ الأمــيــرَ هــو الّذي ... يُضحِي أميرًا عند عَزْلِهْ

إن زال ســلطــانُ الــوِلا ... يَةِ فهو في سُلطان فَضْلِهْ

وكتب أبو إسحٰقَ الصّابيُ إلى رجل زوّج أمّه:

قد جعلك الله ـ وله الحمدُ ـ من أهل التحصيلِ، والرأيِ الأصيل؛ وصِحّة الدِّين، وخُلُق ذي اليقين. فكما أنّك لا تتّبعُ الشهوةَ في محظور تُحِلُّه، فكذلك لا تُطيع الأنَفَة في مُباح تحظُره. وتأدّى إليّ من اتّصال الوالدة ـ يسّر الله لها في مُدّتك، وأحسن بالبقيّة منها إمتاعَك ـ بأبي فلان، أعزّه الله، ما علمتُ فيه أنّك بينَ طاعةٍ للدِّيانة تَوخّيْتَها، ومَشَقّةٍ تَجَشَّمْتَها؛ وأنّك جَدَعتَ[1] أنفَ الغَيْرةِ[2] بها، وأضْرعتَ[3] خَدّ الحَمِيّة فيها، وأسخطت نفسَك بإرضائها، وعَصَيت هواك لرأيها. فنحن نُهَنِّيك بعزيمة صبرِك، ونُعَزِّيك عن فائت مُرادك؛ ونسأل الله الخِيَرَةَ لك فيه، وأن يجعلَها أبدًا معك فيما شِئتَ وأبيتَ، وتَجنَّبت وأتيتَ.

(١) جدعت: قطعت.
(٢) الغيرة: الحميّة.
(٣) أضرعت: أخضعت وأنزلت.

وقال كاتب مُتَقَدِّم في مثل ذلك:

الرِضا بما يُبيحه حكمُ اللهِ أولى من الامتعاض فيما تحظُره أَنَفَةُ الحَمِيّة. ولا قُبْحَ فيما أحلّ الله، كما لا جمالَ فيما حرّم الله. فعرّفك الله الخِيَرَةَ فيما اختارته من طهارة العَفَاف ونُبْل الحَصَانة، وعطفك من بِرِّها على ما تُؤَدِّي به حقَّها، وما لزمك من المعروف في مُصاحبتها.

وكتب الصّاحبُ بنُ عَبّادٍ تهنئةً بزواج أُمٍّ وتعزيةً بموتِ أبٍ، فقال:

الأيّامُ ـ أطال الله بقاءك ـ تجري على أنحاء مختلفةٍ، وشُعَبٍ متفرّقة؛ وأحكامُها تتفاوتُ بيننا بما يسوء ويَسُرّ، وينفع ويَضُرّ. وبلغني من نفوذ قضاء الله في شيخِك ـ رحمه الله ـ ما أزعجني، وأبْهم طُرُقَ السلوةِ دوني، وإن كان مَنْ خَلَّفك غيرَ خارج عن مَزِيّة الأحياء، ولا حاصلٍ في زُمْرة الأموات. والله يأسو[1] كَلْمَك[2]، ويَسُدّ ثَلْمَك[3]. وقد فعل ذلك بأن أتاح الله لك بعدَ أبيك أبًا لا يَقْصُر عنه شفقةً عليك وحُنُوًّا، وإيثارًا لك وبِرًّا. وقد لعمري وُفِّقتَ حين وصلتَ بحبلك حبلَه، وأسكنت الكبيرةَ ـ حَرَسها الله تعالى ـ ظلَّه؛ لئِلا تَفْقِد من الماضي ـ عفا الله عنه ـ إلّا شخصَه. فالحمد لله الذي أرشدك لما يُعيد الشَّمْلَ مُجْتمِعًا بعد فِراقه، والعَدَدَ موفورًا بعد انتقاصه؛ حمدًا يقضِي لك بالمَسَرّة، ويَحْسم دونك مَرَادَ الوَحْشة، ويُلَقِّيك ثوابَ ما قَضيتَه من الحق، وتحمّلتَه فيه من الأَوْق[4]؛ إنه فَعّال لما يريد.

فهذه نبذةٌ كافيةٌ في التهاني الخاصة؛ فلنذكر العامّة.

ذكر نبذة من التهاني العامّة والبشائر التامّة

ولْنبدأ من ذلك بما قيل في البشارة بوفاء النيلِ، لما فيه من عموم المنافع الشاملة، وشُمول النِّعمِ الكاملة، والخِصْب الذي يتساوَى في الانتفاع به الغَنِيّ والفقيرُ، والمأمورُ والأمير.

فمن ذلك ما كتب به المولى الفاضلُ، الصدرُ الكبيرُ الكاملُ، ذو المناقبِ والمآثرِ، والفضائلِ والمفاخرِ، شهابُ الدين محمودُ الحلبيّ:

---

(١) يأسو: يشفي.
(٢) كلمك: جرحك.
(٣) ثلمك: ما ثلم وتصدّع منك.
(٤) الأوق: الثقل.

وسَرّه بنبأ النيلِ الذي عَمّ نَيْلًا، وجرّ على وجه الأرضِ مُلَاءة مِلأته، فشمّر[١] المَحَل للرِّحْلة ذَيْلًا، وجَرَّد[٢] على الجدب سيفَ خِصْبِه فسال مُحْمَرُّ دَمِه على وجه الصَّعِيدِ[٣] سَيْلًا، وجَرَى وسَرَى في ضياء إشراقه وظُلْمةِ تَرَاكُمه إلى الأرض التي بارك به حولَها، فجَلَّ من أجراه نهارًا وسبحانَ من أسْرَى به ليلًا. صَدَرتْ هذه المكاتبةُ إليه - أعزّه الله تعالى - ونِعَمُ الله قد عَمّتْ، وآلاؤه مع تَحَقُّق المزيدِ قد تَمّتْ، ومَوَادّ فضلِهِ قد أمّت الأقطارَ فقامت صَلاة الصِّلات إذ أمّتْ[٤]؛ وكلمة الخِصب قد نَمَتْ في الآفاق، فوَشَتْ بمكنون حديثها للأرض ونَمّتْ؛ والخِصْبُ قد أقبل على الجَدْب فلم يكن له بمقاومته قِبَل، وطُوفان الرَّحْمة قد طَبق الوِهَاد[٥]، فلم يُغْنِ المَحْلَ[٦] أن قال: سآوي منه إلى جبل. والسيلُ قد بلغ في تَتَبُّع بقايا القَحْطِ الزُّبَى[٧]، والنِّيل قد عمّ بنَيْله الأرضَ حتى كَلَّل مَفَارِقَ الآكام[٨] وعَمّم رؤوسَ الرُّبَا؛ وحَمَى الأرضَ من تَطَرُّق المُحولِ إليها فأصبحت منه في حَرَم، وظهرت به عجائبُ القدرةِ، ومنها أنّ ابنَ الستةَ عشرَ بلغ إلى الهرَمَ[٩]، وبثّ جُودَه في الوجود فلو صوّر نفسَه لم يزِدها على ما فيه من كَرَم؛ وتَلَقّت منه النفوسُ أبهج محبوبٍ طَرَدَ ممقوتًا، ووَثِقت من حُمْرته بالغِنَى والمُنَى إذ لم تَدْرِ أياقوتًا تُشاهد منه أم قُوتًا. وجرى في الوفاء على أكمل ما أَلِف من عادته، وظهر بإشراقه وعموم نَفْعه ظهورَ الشَّمس فألقَى على الأرض أشِعَّةَ سعادته؛ وأقبلَتْ به على الخَلْق بوادرُ الإقبال، وركِب الناسُ منه في سُفن النجاح والنجاةِ فهي تجرِي بهم في مَوْج كالجبالِ. وبَلَّغ الله به المنافع فزعزعَ الشُّمّ ولم يتجاسر على الجسور، وأَمِنَ الناس به طروقَ المَحَلْ المطرود به عنهم فضُرِب بينهم بِسُور، وأقطع الخِصْب الأرض كلها فله في كل بُقْعة مِثالٌ مَرْئِيّ ومنشور منشور، وبعث إلى كل عمل من سَرَايا جُوده عارضًا[١٠] مُغْضَبًا على المَحَلْ ما يخطر إلّا وسيفُه مشهور؛ وأودع بطن الثَّرَى مَوَادَّ ثَرائه، واستقبل الورَى بوجه ما تأمّله امرؤٌ صادي[١١] الجوانح إلا ارتَوَى من مائه، وأظهر الله به مثالَ ما سَلَف من كرامة أصفيائِه؛ إذ جعل تحتَ كل نخلةٍ من سراه سريّا[١٢]، وجَلَا به عن الأمّة ظُلَمَ الغُمَّة إذ أطلع منه في أوّل مَطَالعه

(١) شمّر: رفع ثوبه. (٢) جرّد: أخرج.
(٣) الصعيد: الأرض التي هي في أعالي مصر. (٤) أمّت: قصدت.
(٥) الوهاد: الأراضي المنخفضة. (٦) المحل: بخلاف الخصب.
(٧) الزبى: جمع زبية، وهي التلّة التي لا يصل إليها السيل، والمعنى أنه جاوز الحد.
(٨) الآكام: جمع أكمة، وهي التل الصغير. (٩) الهرم: أحد أهرامات مصر المشهورة.
(١٠) العارض: السيل. (١١) صادي: عطشان.
(١٢) سريّا: جدول ماء.

المرتَقَبة مُحَيًّا(١) بَدْرِيًّا. وذلك أنه لما كان في اليوم الفلانيّ وَفَى النِّيلُ المباركُ ستة عشر ذراعًا، ومدّ بحُسْن صُنْع الله إلى مَصَالح البلاد يدًا صَنَاعًا؛ وركبنا إلى المِقياس الذي تُعْلَم به مواقعُ الرحمة في كلّ يوم، وتُهْدَى منه وارداتُ السرور إلى كلّ قوم؛ ووقفنا به لابسين من رحمةِ الله تعالى أحسنَ لِباس، آنسين من أنوار رحمة الله التي أزالت اليأْسَ وأذهبت الباسَ، ناظرين إلى أثر رحمة الله التي أحيت الأرضَ بعد موتها، ذلك من فضلِ الله علينا وعلى الناس. وجرى الأمرُ في التخليق على أجمل عاداتِ البدور، وعُلِّقت سِتارةُ المِقْيَاس لا للإخفاء على عادة الأستار، بل للإشاعة والظهور؛ واستقرّ حُكم المَسَرّة على السَّنَن(٢) المعهود، وعاد للناس عيدُ سرورِهم إذ ذاك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود. وركب مولانا السلطانُ إلى سدِّ الخليج والماءُ قد استطال عليه، وسَرَتْ سرايا أمواجِه إليه، وصَدَمه بقوّةٍ فاندفع منكسرًا بين يديه؛ فانجبرت القلوبُ بكَسره، واستوفت الأنفُس السُّرورَ بأسره، وأيقن كل ذي عُسْر بحصول يُسْره؛ وساق الله به الماءَ إلى الأرض الجُرُز(٣) فأحياها وحيّاها، ورقّ لوجهها المُغْبَرّ فستر بردائه المحمرّ صفحةَ مُحَيّاها. كل ذلك وهو - بحمد الله تعالى - آخذٌ في الازدياد، جارٍ على وَفْق المُراد إلى حَدّه المعتاد، سالكٌ بَبلاغه سبيلَ أهل البلاغة إذ يَهيمون في كلّ واد. وها هو الآن يرتفع إلى كلّ رَبْوة على جَنَاح النَّجاح، ويُخِيفُ السُّبُلَ وما عليه حَرَجٌ ويَقْطَع الطُّرُقَ وليس عليه جُنَاح. فليأخذْ مولانا حظَّه من هذه البُشْرَى التي عَمّ بِشْرُها، ووجب على كل مؤمن شُكْرُها؛ ويتحقق أنّ هذه بوادرُ خير تَسْري إليه على ركائب السّحائب، وطلائعُ خِصْب هذه لديه أقربُ غائبٍ وأسرعُ آئب(٤). والله تعالى يُعِزّ أنصارَه، ويُوَالي مَبَارّه، بمحمدٍ وآله.

وكتب أيضًا في مثل ذلك:

ضاعف الله نعمةَ المجلس العالي، وبَشّره بما أجرى الأُمّةَ عليه من عوائد كَرَمِهِ، وسَره بما يَسّره من خصوص برّه وعموم نِعَمه، وهنّاه بما سَنّاه(٥) من هَرَب جيش المَحْل بعد قِدَم وثَباتِه وثَبَاتِ قَدَمه، وأورد على سمعه من أنباء نُصْرة الخِصْب ما يتحقّق به أنْ لم يبقَ في الأرض عَلَمٌ إلا تحت عَلَمِه، وأنه ذَبح الجَدْبَ بسيفِ مَدَده الذي أنبأ بحُمرة عَنْدمِه(٦) عن دمه، وبَثّ

(١) المحيّا: الطلعة والوجه.
(٢) السنن: الطريق.
(٣) الجرز: المجدبة، لا ماء فيها.
(٤) آئب: راجع.
(٥) سنّاه: يسّره وسهّله.
(٦) العندم: ضرب من النبات يصبغ به.

سَراياه[١] في الأقطار، على مُتون القِطَار[٢]، مُرهِفًا على بقايا المَحْل سيوفَ بُرُوقه ونِبالَ دِيَمه[٣]؛ وضرب قِبابَ موجه على المسالك، فلو هَبَّت بينها عاصفةُ جَدْبٍ تَعَثّرتْ بأطناب خِيَمه، ولَعِب على ما شَمَخ من الرُّبا، فعَجَبٌ له من كاملٍ يلعَب وقد بلَغ إلى هَرَمِه! صدرتْ هذه المكاتبةُ تَقُصُّ عليه من نِعَم الله أحسنَ القَصَص، وتُهْدِي إليه من مَوَادّ فَضْله ما يَخُصّ الشأم وأهلَه منه بأوفى الأقسام وأوفر الحِصَص، وتَحُثّه على شكر الله تعالى الذي به ينتهزُ من مزيدِ بِرّه أعظمَ الحظوظ وأفضلَ الفُرَص، وتُعْلِم أن الله نصرَ جيشَ الرخاء بمَدَد لُطْفِهِ على اليأس الذي تولّى الشيطانُ أمرَه فلمّا تراءتِ الفِئتانِ نَكَص[٤]، وأنعم على خَلْقه بما أرخَصتْه عزائم كَرَمه بهم، فوجب أن تُقَابَلَ نِعَمُه بعزائم الشكر دون الرُّخَصِ؛ وذلك أن الله تعالى أجاب دعوةَ المضطرِّ، وأفاض بِرّه العميمَ على الغنيّ والفقير والقانع والمعترّ؛ وأحيا الأرضَ بعد موتِها، وتداركَ برحمته دنيا الدَّهْماء[٥] بعد أن أشرفت على فَوْتها؛ وأجرى الخَلْقَ على عوائد كَرَمه، وأجرى لهم بقدرته من حُجُب الغيب مَوَادّ نِعَمه، وأعلى لديهم مواردَ نِيلهم حتى كاد ما يَشْرَب بفرُوق ساقِه يتناول الماءَ بفَمِه؛ وأمَرَ البحرَ فأقبل بالفَرَج القريب من الأمد البعيد، وأذِن له في الترفُّع من مَحَلّه فسجَد على التُّرْب شكرًا وتَيَمّم الصعيدَ[٦] وإن لم يبقَ به الآن على وجه الأرض صعيد؛ وأسرى منه ركائبَ السرور إلى الأقطار ففي كلّ نادٍ من هَدِيره حادٍ وفي كل بَرٍّ من برُوره بَرِيد، وذَكّر بإحياء الأرض بعد موتِها إحياءَ أمواتها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: الآية ٣٧]، ونشر ألويته[٧] على الثَّرَى لأهلِ الأرض بُشْرًا بين يَدَيْ رَحْمته، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٨]؛ وأقبل بعد نقص عامه الماضي بوجه عليه حُمرةُ الخَجَل، وعَزْمٍ سَبَق سَيفُه إلى المَحْل العَذَلَ بل الأجَل، وحَزْمٍ أدرك الجَدْبَ بوجه قبل أن يقول: سآوِي إلى جبل، واستظهارٍ على كلّ ما عَلَا من الأرض حتى إن الهَرَمَيْن باتا منه على وَجَل؛ ومَهّد الأرضَ التي كانت تَرْقُبه فهو لها المنتظَر على الحقيقة، ووَطِىء بطنَ القُرى فنتج الخِصْبُ بينهما وذُبح المَحْلُ في العَقِيقة[٨]؛ وقَطَع الطُّرُق فآمن بذلك كلَّ حاضر وباد ورائح وغاد، واتَّبعه الرِّيّ

(١) سراياه: كتائبه، جمع سريّة، وهي المجموعة من الجند.
(٢) القطار: القطعة من الإبل يلي بعضها بعضًا على نسق واحد.
(٣) ديمه: مطره الذي لا برق فيه ولا رعد.
(٤) نكص: أحجم وتراجع.
(٥) الدهماء: جماعة الناس غير السّراة.
(٦) الصعيد: التراب.
(٧) ألويته: أعلامه.
(٨) العقيقة: النهر.

لا الرَّوِيّ حتى أضحى كالشعراء يهيم في كل واد؛ وعمت بركاتُه على الأرض «فتركن كلَّ قَرَارةٍ كالدرهم»[١] من الخصب مرتعًا، وأربى على رِيّه فيما سلف من السنين، فأضحى كهوى ابن أبي ربيعة[٢] «يقيس ذراعًا كلما قسْنَ إصبعًا»[٣] وتجعّد على الآكام فخُيِّل للعيون أنها تسيلُ، وشَيَّب مفارقَ الرُّبا ببياض زَبَده، وعادةُ بياض الشيب أن يُخْضَب بورق النيل. وكأنّ ما بقي من المَحْل قد جعل بينه وبينه سَدًّا؛ وتستَّر منه وراَه وهو يُمْلي ويَعُدّ له عَدًّا؛ فصدَمه بقلبه وجعله دكًا إذ جاء أمرُ ربه وأدركه ومَلكه، وسفَك دمَه فجرى مستطيلًا إذ سفكه؛ ووفَى بما وَعَد من ظَفَرِه، وأتى لنُضْرة الخِصْب من مكانٍ بعيدٍ فأسفر عن النُّجْح وجهُ سَفَرِه، وأسبل على مقياسه ستر السرور لإخفاره ذمّةَ الجَدْب لا لِخَفَره، وبَشّر مصره سَرَايا السحائب[٤] في أقطار الممالك لأنها من أشياعه ونَفَره. ولما كان اليومُ الفلانيُ عُلِّق السترُ وخُلِّق المقياسُ، وكُسِر الخليجُ فكان في كَسْره جَبْرٌ للخليقة ومنافعُ للناس؛ وذلك بعد أن وفَى النيل المبارك ستةَ عَشر ذراعًا، وصرف في مصالح البلاد يدًا تَضِنّ[٥] بالبذل خُرْقًا[٦] وتكفي بحُسْن التدبير ضِياعًا، [وبَثّ في أرجاء الأعمال بحارًا تحسب بتلاطم الأمواج ركامًا وبمضاعفة الفجاج سراعًا]. وهو بحمد الله آخذٌ في ازديادِه إلى حَدّه، جارٍ على اعتياده في المشي على وجه الثرى وخدّه؛ يتتبّع أدواء المَحْل تتَبُّعَ طبيبٍ خبير، ويعكس بيتَ أبي الطَّيِّب فتُمْسِي وبُسطُها ترابٌ، ويُصَبِّحها وبُسطُها حرير. وقد وثِقت الأنفسُ بفضل الله العَميم، وأصبح الناسُ بعدَ قطوبِ اليأس تعرفُ في وجوههم نَضْرةَ النَّعيم[٧]؛ تَيَمُّنًا ببركةِ أيّامنا التي أعادت إليهم الهجوعَ[٨]، وأعاذتهم مما ابْتُلِي به غيرُهم من الخوف والجوع. فَلْيأخذ المجلس العالي حظّه من هذه

---

(١) مأخوذ من شعر عنترة في قوله:

«جادت عليه كلّ عين ثرّة ... فتركن كل حديقة كالدرهم»

انظر: ديوان عنترة بن شداد، ص ١٤٥. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠ م.

(٢) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي، شاعر الغزل الإباحي وزعيم المدرسة الغزلية الحضرية في العصر الأموي.

(٣) وقول عمر بن أبي ربيعة هو التالي:

«وقرّبن أسباب الهوى لمتيّم ... يقيس ذراعًا كلّما قِسْن إصبعا»

انظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٧٨: الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ١٩٦٨ م.

(٤) السحائب: الغيم الممطر، جمع سحابة. (٥) تضنّ: تبخل.

(٦) خرقًا: حمقًا وجهلًا.

(٧) هذا القول هو الآية ٢٤ من سورة المطففين. ضمّنه كلامه بتمامه.

(٨) الهجوع: الرقاد.

البشرى التي خَصّت وعَمّت، ووَثِقت النفوس بمزيد النعمة إذ قيل: تَمّت؛ ويُذيعها في الأقطار، ويعرّفهم قدر ما منح الله جيوشَ الإسلام من فضله الذي يُعْجِب الزُّرَّاعَ ليغِيظَ بهم الكُفّارَ؛ ويستقبل نعمَ الله التي سَيَسِم الأرضَ وَسْمِيُّها[١] ويُولي النعم وَليُّها[٢] ويأتي بالبركات أَتِيُّها[٣] حتى تَغَصّ بالنعم تلك الرّحاب، ويُظَنّ لعموم رِيّ البلاد الشاميّة أنّ نيلَ مصر وصل إليها على السَّحاب؛ ويقيم منارَ العَدْل الذي هو خير بالأرض من أن تُمْطَر، ويُعْفِي[٤] آثارَ الظلم حتى لا تكاد تَظْهَر.

ومما قيل في التهاني بالفتوحات، وهزيمة جيوش الأعداء.

فمن ذلك ما كتب به المُهَلَّب بن أبي صُفْرة[٥] إلى الحجّاج بنِ يوسفَ[٦] الثقفيِّ في حرب الأزارقة[٧]:

أمّا بعدُ، فالحمد لله الذي لا تنقطع مَوادُّ نعمتهِ من خلقه حتى تنقطعَ مَوَادُّ الشكر. وإنّا وعدوّنا كنا على حالتين: يَسُرُّنا منهم أكثرُ مما يسوءنا، ويَسوءهم منّا أكثرُ مما يَسُرُّهم؛ فلم يزل الله عزّ وجلّ يزيدنا ويَنْقُصهم، ويُعِزُّنا ويُذِلُّهم، ويُؤَيِّدنا ويخذُلهم، ويمحَصُنا[٨] ويمحَقُهم[٩]؛ حتى بلغ الكتابُ أجلَه، فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وكتب الحارثُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي ربيعةَ حين وُلِّي العراقَ من قِبَل عبدِ الله بنِ الزبير[١٠] إليه يُخْبِرُه بهزيمةِ الخوارج: أمّا بعدُ، فإنا مذ خرجْنا نؤمّ هذا العدوّ في نعمٍ

(١) وسميّها: الوسمي، اسم مطر بعينه. (٢) الوليّ: اسم مطر بعينه يأتي بعد الوسمي.
(٣) الأتيّ: السيل المندفع من المياه. (٤) يعفّي: يزيل.
(٥) هو المهلب بن أبي صفرة، ظالم بن سراق الأزدي العتكي. كنيته أبو سعيد من الفرسان والأجواد والولاة المشهورين. وُلي البصرة ثم خراسان وفيها مات سنة ٨٣ هـ.
(٦) الحجاج بن يوسف الثقفي. قائد وخطيب ووالٍ معروف. وُلد بالطائف. ولاّه عبد الملك بن مروان إمرة الجيش فقضى على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز. ثم تولى مكة والمدينة والطائف والعراق. قضى على ثورة ابن الأشعث في معركة وادي الجماجم. أسّس مدينة واسط بالعراق. عرف عنه حبّه للدماء والبطش بلا حرمة. خطيب بليغ، له خطب معدودة. مات سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م.
(٧) الأزارقة: فرقة من الخوارج ينسبون إلى نافع بن الأزرق. استولوا على الأهواز، وكان من أبرز زعمائهم قطري بن الفجاءة. قضى على ثورتهم المهلب بن أبي صفرة. انظر خبرهم ومصرعهم في: الكامل في اللغة والأدب، للمبرّد ص ٢٠٢ ـ ٣١٤.
(٨) يمحصنا: يخلّصنا. (٩) يمحقهم: يهلكهم.
(١٠) عبد الله بن الزبير: أحد أبرز القوّاد والمشاركين في الفتوحات. ثار على ولاة بني أمية في=

من الله متّصلةٍ علينا، ونقمةٍ من الله متتابعةٍ عليهم؛ نُقْدِم ويُحْجمون، ونَجِدُّ ويرحَلون، إلى أن حللنا بسوقِ الأهواز[١]. والحمدُ لله رب العالمين.

ثم كتب إليه بعد هذا الكتاب: أمّا بعد، فإنا لقينا الأزارقَة بجِدٍّ وحَدٍّ، وكانت في الناس جولةٌ ثم ثاب أهلُ الحِفاظ والصبر بنيّاتٍ صادقة وأبدانٍ شدادٍ وسيوف حِداد؛ فأعقب الله خيرَ عاقبةٍ، وجاوز بالنعمةِ مقدارَ الأمل، فصاروا دَرِيئةَ[٢] رماحِنا وضَرِيبةَ[٣] سيوفِنا، وقتل اللهُ أميرَهم ابنَ الماحُوز؛ وأرجو أن يكونَ آخرُ هذه النعمة كأوّلِها. والسلام.

وكتب طاهرُ بنُ الحسينِ[٤] إلى المأمون لمّا فتح بغدادَ وقتلَ محمدًا الأمين: أمّا بعدُ، فإن المخلوعَ وإن كان قسيمَ أميرِ المؤمنين في النسب واللُّحمة، لقد فرّق الله بينهما في الولاية والحُرْمة؛ لمفارقتِه عصمةَ الدين، وخروجِه عن الأمر الجامع للمسلمين. قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هُود: الآية ٤٦]. ولا صلةَ لأحدٍ في معصيةِ اللهِ، ولا قطيعةَ في ذات الله. وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وقد قُتِل المخلوعُ وردّاه الله رداءَ نَكْبة، وأحمدَ لأمير المؤمنين أمرَه، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده. والحمد لله المتولّي لأمير المؤمنين بنعمته، والراجع إليه بمعلوم حقِّه، والكائد له ممن ختَرَ[٥] عهده ونكَث عقده؛ حتى ردّ له الألفة بعد تفريقِها، وأحيا الأعلامَ بعد دروس أثرِها، ومكّن له في الأرض بعد شتاتِ أهلها.

ولمّا فتح المعتصمُ عَمُّورِيّةَ[٦] أكثرَ الشعراءُ من ذكر هذا الفتحِ؛ فمن ذلك قول أبي تمامٍ حبيبِ بنِ أوسٍ الطائي من قصيدته التي يقول في أوّلها: [من

= الحجاز وأعلن نفسه خليفة بعد موت يزيد بن معاوية، متخذًا من المدينة المنوّرة عاصمة له. حكم تسع سنوات، قضى عليه الحجاج بن يوسف الثقفي في مكة، سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢ م.

(١) الأهواز: مدينة فارسية في مقاطعة خوزستان.

(٢) الدريئة: ما يتخذ من حديد وغيره ليردّ ضرب السهام.

(٣) الضريبة: موقع الضرب من الجسد، والمضروب بالسيف.

(٤) طاهر بن الحسين: من كبار قواد المأمون. زحف على بغداد وظفر بالأمين وقتله وأعلن البيعة للمأمون. قضى على ثورة الخوارج في خراسان واستقل بحكمها. كان من مؤسسي الدولية الطاهرية. قتل سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م.

(٥) ختر: نقض.

(٦) عمورية: مدينة بيزنطية في آسيا الصغرى. فتحها الأفشين قائد المعتصم، الخليفة العباسي في معركة مشهورة سنة ٨٣٨ م.

البسيط]

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ
في حَدّه الحدُّ بين الجِدّ واللَّعِبِ

بِيضُ الصفائح[١] لا سود الصحائف[٢] في
متونهنّ جَلَاءُ الشكّ والرِّيَبِ

والعلمُ في شُهُبِ الأرماح لامعةً
بين الخَمِيسَيْنِ[٣] لا في السبعة الشُّهُبِ[٤]

جاء منها:

فتحُ الفتوح تعالى أن يُحِيطَ به
نظمٌ من الشِّعر أو نثرٌ من الخُطَبِ

فتحٌ تَفَتَّح أبوابُ السماء له
وتبرُزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ[٥]

ومنها:

وبرزةُ الوجه قد أعيَتْ رياضتُها
كسرى وصدّت صدودًا عن أبي كَرِبِ[٦]

بِكرٌ فما افترعتها[٧] كفُّ حادثة
ولا تَرَقَّتْ إليها هِمَّةُ النُّوَبِ[٨]

من عهد إسكَندرٍ أو قبل ذاك فقد
شابت نواصِي[٩] اللَّيالي وَهْيَ لم تَشِبِ

---

(١) كناية عن السيوف والسلاح، وتاليًا عن القوة.

(٢) كناية عن الكتب والأقلام، وتاليًا عن الفكر والذكاء والعقل وأقوال المنجمين.

(٣) مثنى خميس، وهو الجيش العرمرم ذو الفرق الخمس: الميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة والقلب.

(٤) كناية عن الكواكب السبعة التي عليها كان يقول أصحاب التنجيم في الاطلاع على الغيب، وهي الشمس والقمر والزهرة وعطارد والمريخ والمشتري وزحل.

(٥) القشب: النضرة الجميلة والجديدة.

(٦) أبو كرب: أحد ملوك عرب الجنوب قبل الإسلام.

(٧) افترعتها: افتضّتها وأخذت بكارتها.

(٨) النوب: صروف الدهر ونوائبه.

(٩) جمع ناصية: وهي خصلة الشعر في مقدمته.

حتى إذا مَخَضَ[١] اللهُ السنين لها
مَخْضَ الحليبة كانت زُبْدةَ الحِقَب

أتتهُمُ الكُرْبَةُ السوداءُ سادرةً[٢]
منها وكان اسمُها فَرّاجةَ الكُرَبِ

لمّا رأت أُختَها بالأمس قد خَرِبَتْ
كان الخرابُ لها أعْدَى من الجَرَبِ

أشار في هذا البيت إلى فتح أنقِرة.

ومنها:

لَبَّيْتَ صوتًا زِبَطْرِيًا[٣] هَرَقتَ[٤] له
كأسَ الكَرَى[٥] ورُضَابَ[٦] الخُرَّدِ[٧] العُرُبِ[٨]

قيل: كانت الرومُ لمّا فتحت زِبَطْرة صاحت امرأةٌ من المسلمين: وامحمداه! وامعتصماه! فلما بلغه الخبرُ ركب لوقتهِ يؤمُّ الشأمَ، وصاح: لبَّيْكِ! لبّيكِ! ولم يرجِع إلى أن فتح أنْقِرةَ وعمُّوريّة. ومنها:

خليفةَ الله جازى الله سَعْيَكَ عن
جُرثومة الدِّين والإسلام والحَسَبِ

إن كان بين صُروف الدهر مِن رَحِمٍ
موصولةٍ أو ذِمَامٍ[٩] غير مُنْقَضِبِ[١٠]

فبين أيّامِكَ اللاتي نُصِرتَ بها
وبين أيام بَدْرٍ[١١] أقْربُ النّسب

---

(١) مخض: هزّ. (٢) سادرة: متحيّرة.
(٣) زبطريًا: نسبة إلى زبطرة، البلدة الرومية. والصوت هو صوت المرأة المسلمة التي استغاثت بالمعتصم لما هاجمها الروم فقالت: وامعتصماه؟
(٤) هرقت: أسلت. (٥) الكرى: النوم.
(٦) رضاب: ريق. (٧) الخرد: الحسان من النساء العذارى.
(٨) العرب: الخالصة البياض والحسن والأصل. (٩) ذمام: عهد.
(١٠) منقضب: منقطع.
(١١) بدر: واقعة بدر الكبرى التي انتصر فيها المسلمون بقيادة النبيّ ﷺ على المشركين.

وكتب أبو عبيد عبد الله البكري إلى المعتمدِ على الله المؤيَّدِ بنصرِ الله يهنّئه بالفتح الذي كان في سنة سبعٍ وسبعينَ وأربعمائة:

أطال الله بقاءَ سيّدي ومولاي الجليل القدر، الجميل الذكر، ذي الأيادي الغرّ، والنِّعَم الزُّهْر؛ وهنأه ما مُنِحَه من فتح ونصر، واعتلاءٍ وقهر. بطالع السعدِ يا مولاي أُبْتَ، وبسانح(١) اليُمن عُذْتَ، وبكَنَف الحرزِ(٢) عُذْتَ، وفي سبيل الظَّفَر سِرْتَ، وبقدم البرّ سَعَيْتَ، وبجُنَّة(٣) العصمة أتَيْتَ، وبسهم السَّدادِ رميتَ فأصميتَ(٤). صَدَر(٥) عن أكرم المقاصد وأشرف المشاهد، وعودٌ بأجلّ ما ناله عائدٌ وآبَ به واردٌ؛ فتوحٌ أضحكت مَبْسِمَ الدهر، وسَفَرت عن صفحةِ البشر، وردّت ماضيَ العُمْر، وأكْبَتْ(٦) واريَ الكُفْر؛ وهزّت أعطافَ الأيام طربًا، وسقت أقداحَ السرور نَخبًا، وثَنَتْ آمال الشرك كَذِبًا، وطوت أحشاءَ الطاغية رَهَبًا؛ فذكرُها زادُ الراكب، وراحة اللّاغب(٧)؛ ومُتْعة الحاضر، ونُقْلة المسافر: [من الطويل]

بها تُنْقَضُ الأحلاسُ(٨) في كلِّ منزل   وتُعْقَد أطرافُ الحبال وتُطْلَقُ

شمِلت النعمة وجَبرت الأمة، وجَلَت الغُمَّة؛ وشفَت المِلّة، وبرّدت الغُلّة(٩)، وكشفت العِلّة: [من الخفيف]

كان داءَ الإشراك سيفُك واشتـ   ـدّت شَكاةُ(١٠) الهُدى وكان طبيبا

فغدا الدِّينُ جديدًا، والإسلامُ سعيدًا، والزمانُ حَميدًا؛ وعَمودُ الدين قائمًا، وكتابُ اللهِ حاكمًا؛ ودعوةُ الإيمان منصورة، وعَين الملك قريرة. فهَنأ الله مولانا وهَنَأنا هذه المِنَحَ البهيّةَ مطالعُها، الشّهيّة مواقعُها؛ المشهورةَ آثارُها، المأثورةَ أخبارُها؛ ونصر الله أعلامَه ففي البرّ تُحَلّ وتُعْقَد، وعَضَد حُسَامه فبالقِسط يُسَلّ ويُغْمد؛ وأيّد مذاهبه فبالتَّحَزُّم تُسْدَى وتُلْحَم(١١)، وأمّر كتائبه ففي الله تُسْرَجُ وتُلْجم. فكم فادِحِ خَطْب كفاه، وظلامِ كَرْبٍ جَلَاه، وميّتِ حقّ أحياه، وحيٍّ باطلٍ أرداه! وكم جاحم(١٢) ضلالةٍ

(١) السانح: الطائر الذي يمر عن يمين الناظر إليه فيتفاءل به.
(٢) الحرز: الرقية والعوذة.
(٣) الجنّة: الدرع الواقية، والسترة.
(٤) أصميت: أصبت في الصميم.
(٥) صدر: رجوع عن الماء بعد الارتواء منه.
(٦) أكبت: جعله لا ينقدح.
(٧) اللاغب: الضعيف المرهق.
(٨) الأحلاس: جمع حلس، ما يبسط على الأرض تحت الثياب.
(٩) الغلّة: شدة العطش.
(١٠) الشكاة: المرض.
(١١) تسدى، من السّدى، وهو خيط النسيج. أما اللحمة، فهو الخيط الآخر المعاكس له.
(١٢) جاحم: موقد.

أطفأ نارَه، وناجم[١] فتنةٍ قلّم أظفارَه، ومفلول سُنّة أرهَفَ شِفَارَه، ومستباحِ حُرْمة حَمَى ذِمارَه[٢]. فَلِلّه هذه المساعي الكريمةُ والمنازع القويمة، المتبلِّجة عن ميمون النّقيبة ومحمود العزيمة؛ فقد تمثّل بها العهدُ الأوّل والقرنُ الأفضل الذي أُخْرِج للناس يأمرُون بالمعروف ويَنْهَون عن المنكر؛ والذي سطع هذا السّراج، وانتهج هذا المنهاج؛ فلا زالت الفتوحُ تتوالى عليه، وصنائع الله تَتّصل لديه، إدالةً من مشَاقّيه وإذالةً لمحاربيه، وإبادةً لمناوئيه. وإن أجلّ هذه النعم في الصدور، وأحقَّها بالشكر الموفور؛ ما منَّ الله به من سلامة مولاي التي هي جامعةٌ لعزّ الدِّينِ وصلاحِ كافّةِ المسلمين، بعد أن صَلِي من الحرب نِيرانَها، فكان أثبَتَ أركانها وأصبرَ أقرانها: [من الطويل]

وقفتَ وما في الموتِ شكٌّ لواقفٍ ... كأنّك في جَفْنِ الردى وَهْوَ نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمى[٣] هَزِيمةً ... ووجهُكَ وَضّاحٌ وثغرُك باسمُ
هنيئًا لضرب الهَامِ[٤] والمَجْدِ والعُلَا ... ووجهِك والإسلامِ أنّك سالمُ

فلِلّهِ الحمد والإبداعُ والإلهام، وله المِنّةُ وعلينا متابعةُ الشكر والدوام. وقد فازت الكفُّ الكليم، بأعلى قداحِ المكلوم لدى المَقَام الكريم؛ وإنها لهي التالية للإصبع الدامية في المنزلة العالية: [من البسيط]

بَصُرْتَ بالراحة العُليا فلم تَرَها ... تُنَال إلا على جِسْرٍ من التَّعب

ومن كلام القاضي الفاضل عبدِ الرحيم البيسانيّ جوابُ كتابٍ وردَ عليه يُخْبَر فيه بانتصار المسلمين. ابتدأه بقوله عزّ وجلّ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٧١﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧١]. وصلت بُشرى المجلس السامي ـ أعلاه الله وشيّده، وأسعده وأصعده، وشكر مشهَده وأنجح مقصِدَه، وملأ بالحسنات أمسَه ويومَه وغده، وأهلك وعادى أعداءه وحُسَّدَه، واجتبّ[٥] بسيفه زرع الكفّار وذَراه وحصده ـ بما منّ الله سبحانه من نُصْرة المسلمين عند لقاء عدوّهم؛ وما وَلِيهم الله من القوّة والإظهار، وما قذف في قلوب الكفر من الخوف والحِذار؛ وشرح القضيّة شرحًا شَرح الصدور، واستوى فيها الغُيّاب مع الحضور؛ فكانت البِشارةُ منه وكانت المباشَرَةُ له، وما كلّ من بَشّر باشر، ولا كلُّ من غار غاوَر؛ ولا

---

(١) ناجم: مظهر.
(٢) ذماره: حياضه.
(٣) كلمى: جرحى.
(٤) الهام: الرؤوس.
(٥) اجتبّ: قطع.

كلّ من خبّر عن السيوف لقيَها بوجهِه، ولا كلّ من حدّث عن الرماح عانقها بصدره. فنفعه الله بالإسلام كما نفع الإسلامَ به، وأتمّ النعمةَ عليه كما أتمّها فيه؛ وتقبّل جهادَه الذي جلا فيه الكُرُباتِ، وابتغى فيه القُرُبات. ويُتوقّع إن هان العدوّ في العيون، وظهر منه غيرُ ما كان في الظنون، أن يكسر الله بكم مَصَافّه، ويفتح عليكم بلاده، ويُطهّر بسيوفكم الشام، ويسرّ بنصركم الإسلام، ويشرّف بيوم نصركم الأيّام. والخير يُغْتَنَم إذا عَنَتْ[١] فُرَصُه، ويُصاد إذا أمكن الصائدَ قنصُه، والجهاد فرض على المُطِيق تقتضيه عزائمه ولا تقتضيه رُخَصُه[٢]. وقد حضر المولى وحضر كلّ خير، وحضر من رأيه ما يكفي أمرَ العدوّ ولو لم يكن إلا رأيه لا غير؛ فكيف وفي يده من العَضْب[٣]، مثل ما في صدره من القلب؛ كلاهما حديدٌ لا تَكِلّ مضاربه، ولا تخونه ضرائبه، ولا تفنَى إذا عُدِّدت عجائبه. فكم له مِن يوم أغر محجّلِ[٤] الأطراف، وليلةٍ في سبيل الله دهماء[٥] الأهوال بيضاء الأوصاف؛ والنفوسُ واثقةٌ بأن الظَّفَر على يده يجري، والمبشّر من جهته يسرّ ويَسْرِي. ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: الآية ٦٤].

وكتب أيضًا في مثل ذلك: ورد كتاب المجلس ـ نصر الله عَزْمَته، وشكر هِمّته، وأتمّ عليه نعمته، وصَرَف به وعنه صَرْفَ كلِّ دهر ومُلِمَّته ومؤلمته، وأعان أولياءه على أن يُؤَدّوا خدمته، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته، وأجزل قِسْمه من الخير الذي يُحْسِن بين محبّيه قِسْمتَه ـ سافرًا عن مثل الصباح السافر، متحدِّثًا عن روض أفعالِه بلسان النسيمِ السَّحْرِيّ الساحر، حاملًا حديثَ بِيضه[٦] وسُمْره[٧] حديث السامر[٨]. وهنّأ بالفتحِ وهو المهنّأ به، وكيف لا يُهَنّأُ بالفتح من هو فاتحُه! وكيف لا يشرح خبره من هو فاتح كلَّ صدرٍ وشارحُه! ولقد دعا له لسانَ كلّ مسلم وساعدت لسانَه جوارحُه؛ وعلم أنه باشر الحربَ وتولّى كِبرها، وأخمد جمرها، ولقي أقرانها، وافترس فُرسانَها، وجَبّن شجعانَها، وشجّع جبانَها؛ وأنفق الكريمين على النفس: النَّفْسَ والمال، وحفظ على الإسلام الطَّرَفَيْنِ: الفاتحةَ والمآل. وإذا تأمل المجلس الدنيا علم أن الذي يبقى بها أحاديث، وإذا نظر إلى المال علم أن الذي في الأيدي

(١) عنت: سنحت.
(٢) رخصه: ما كان ضعيفًا منه.
(٣) العضب: السيف.
(٤) محجّل: فيه تحجيل، وهو البياض في السواد. وفي الأصل، التحجيل في قوائم الخيل.
(٥) دهماء: سوداء.
(٦) بيضه: كناية عن السيوف.
(٧) سمره: كناية عن الرياح.
(٨) السامر: المتحدث ليلًا.

منه مَوَاريث؛ فالحازم من ورِث ماله ولم يُورثه لغيره، والسعيد من لم يرض لنفسه من الحديث إلا بخيره. وما يخفى عن أحد ما فعله، ولا ما بذّله، ولا ما هان عليه، ولا ما أهان اللهُ كرائمَ المال بيديه؛ ولقد حلّت نعمة الله في محلّها لديه، وكان كفأَها الكريمَ الذي أصدقها ما في كفَّيْه: [من البسيط]

هذا ثنائي وهاتيكم مَنَاقِبُكم[١] يا أعيُنَ النّاسِ ما أبعَدْتِ إسهَادي[٢]

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: الآية ١١٢]، بل هو سبحانه يُوفي عباده مثاقيل الذّرّ، وللصابرين عنده الأجر بغير حساب لجلالة قدْر الصبر. والمجلس صبّر نفسه على المشقّات فليُبْشِر بثوابها، وكثّر أعمال البرّ فهو يدخل الجنّة بفضل الله من جميع أبوابها. وكما يُهَنّأ المجلس بالافتتاح فهو يُهَنّأ بالجِراح؛ ولا يَغْسِل ثوبَ العمل إلا الدمُ المسفوح، وكل جُرْح إنما هو باب إلى الجنة مفتوح. والحمد لله على أن أمتع الأمّة بنفسه التي بذلها، وقد باعها له وأبقاها لنا وقبِلها. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النمل: الآية ٧٣].

وكتب المرحوم علاءُ الدين عليُّ بنُ القاضي محيي الدين بن الزكيّ إلى أخيه بهاءِ الدين مُبَشّرًا بفتحِ صَفَد[٣]، وكان هذا الفتحُ في يوم الجمعة ثامنَ عشَر شوّال سنة أربع وستين وستمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك في أيام الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس[٤]:

يقبّل اليد الكريمة، ويبُثّ ما يعالجه من لواعج الأشواق التي تركته بين الأصحاب مُدَلّهًا[٥]، وسلبت لُبّه فلا أعلم عليه مَنْ دَلّها؛ ويُنْهِي أن المملوك فارق كريمَ جنابه وتوجّه إلى صَفَد المحروسةِ فوصل إليها في تاريخ كذا، ووافها والحِصنُ قد تزعزعت أركانُه، والكفرُ قد انهدم بُنيانُه، وشمّر عن ساق الهزيمة شيطانُه؛ وحُمَاةُ الحرب قد وقفت في مراكزها، وكُماة[٦]

---

(١) مناقبكم: مآثركم الكريمة. (٢) إسهادي: جعلي محرومًا من النوم أو الرقاد.
(٣) صفد: مدينة من أعمال فلسطين، في الجزء الشمالي منها.
(٤) هو الملك الظاهر بيبرس الأول، رابع سلاطين المماليك البحريني ومؤسس دولتهم الحقيقي. حارب الصليبيين والمغول. أسر لويس التاسع في معركة المنصورة، واغتال توران شاه آخر الأيوبيين. انتصر على المغول في عين جالوت بفلسطين. دارت حوله مباحث كثيرة بلغت حدّ الأسطورة، مات سنة ١٢٧٧ م.
(٥) مدلّهًا: متحيرًا ومندهشًا. (٦) الكماة: الفرسان، جمع كميّ.

الهيجاء[١] قد استعدّت لأخذ فُرَص النصر ومناهزها؛ والرماحُ قد اهتزّت شوقًا إلى لقائهم، والسيوفُ قد آلت أنها لا توافق على مُقامهم، والمجانِيق[٢] تزور حِماهم وتلك الزيارة لشقائهم؛ وتُدَمِّر بحجارتها عليهم تدميرًا، وتُريهم من بأسها يومًا عبوسًا قَمْطرِيرًا[٣]، وتصير بهم إلى الهَلاك وتعِدُهم جهنّم وساءت مصيرًا؛ والقِسِيّ[٤] تُرسِل إليهم المنايا في أجنحة السهام، وقد أحدقت بهم كماةُ الترك كأنها ظِباءٌ بأعلى الرقمتين[٥] قِيام؛ فمِنْ نازِعٍ[٦] بقوسه وهو لِمُهَجِ[٧] الكافرين مُنازع، ومن متدرِّع بنحره نحو المنايا يسارع، ومن واردِ مَنْهَل المنيّة وآخر في إثْرة كارع، ومن متدرِّع وحاسرٍ[٨] عَلِما أن ليس لقضاء الله دافع؛ وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا، وما سلك بهم إلا صِرَاطًا مستقيمًا، وما اشترى أنفسهم وأموالهم إلا بالجنّة وأعدّ لهم أجرًا كريمًا. والسلطان ـ عزّ نصره ـ قد شحَذ شبَوَاتِ[٩] عزمه، وفوّق[١٠] سديدَ سهمِه ليفوز بجزيلِ سهمه؛ وهو يرتّبُ عساكرَه، ويُهَيِّئ ميامنَه ومياسرَه، ويُنفذ أوائلَه ويقدّمُ أواخرَه، ويَحُثّ صناديدَه[١١]، ويُثَبت رعاديده[١٢]؛ ويُسعِر هِمّةَ مَساعره، ويُذْكي نارَ الحرب في مَجَامره؛ ويقابل الأبراجَ ببروجٍ يَهدِمونها، ويَكِلُ بالنُّقوب نُقباء يحفِرونها، ويَعِد للمؤمنين مغانمَ كثيرةً يأخذونها؛ ويُعِدّ لكل مقام رجالًا، ويرتّب لكل مُقاتلٍ من المسلمين قِتالًا، ويبسُط لهم بقتل الكافرين آمالًا؛ حتى قامت الحربُ على ساق، وضاق بأهل الشقاق الخِناق؛ وبلغت الأرواح منهم التّراقي[١٣]، ودارت عليهم كؤوسُ المنايا فانتشى المَسْقِيّ والساقي؛ وأحدقت بهم الجياد تَصْهِل، وسُحُب القِسِيّ تَهْطِل، وكواذب الآمال تَعِدهم وتَمْطُل، وخرَصوا[١٤] لأنفسهم الفرَجَ فكذّبتهم أسنّة

---

(١) الهيجاء: الحرب.
(٢) المجانيق، جمع منجنيق، الآلة الحربية تشبه المدفع.
(٣) قمطرير: شديد.
(٤) القسيّ: جمع قوس، وهي التي يرمى منها السهام.
(٥) الرقمتان: تثنية الرقمة، مجتمع الماء في الوادي. والرقمتان، قريتان بين البصرة والنباج. وهما اسم موضع قرب المدينة، نهيانِ من أنهاء الحرّة. انظر: معجم البلدان ٣/٥٨.
(٦) نازع: رام.
(٧) مهج: أرواح.
(٨) المتدرع: لابس الدرع. والحاسر، بخلافه، وهو الذي ليس على رأسه بيضة.
(٩) شبوات: جمع شباة، وهي حدّ كل شيء قاطع، والشفرة.
(١٠) فوّق: سدّد.
(١١) صناديده: أبطاله الشجعان.
(١٢) الرعاديد: جمع رعديد، وهو الجبان.
(١٣) التراقي: جمع ترقوة، وهي مقدم الحلق في أعلى الصدر حيث يلتقى النفس.
(١٤) خرص: حدس وظنّ.

الخرصان[١]، ونظروا إلى الحياة بعين الطمع فكحّلتهم بنات الحَنِيّة المِرْنان؛ فلما أُشرِب العجزَ نفوسُهُم، واستوى في الشُّورَى مرؤوسهم ورئيسُهم؛ ومُنُوا بالمنايا من كل جانب، وسمَح كلٌّ منهم بالمال والذهب مذ عَلِم أنّه ذاهب؛ وتحقّقوا أن لا ملجأ من السيف إلا إليه، ولا مُعَوّل بعد المعوّل إلا عليه، وتيقّنوا أن لا مُقامَ لهم ولا مَقَرّ، وقال الكافر يومئذٍ أينَ المَفرّ[٢]. والمسلمون مثابرون على العمل الصالح يرفعونه، ومبادرون أجَلَ عدوّهم يمزّقون منه كل ما يرقَعونه؛ وإذا بصَيْحة كالصيحة التي تأخذهم وهم ينظرونها، أو الصعقة التي ينتظرونها، إذ أُمِرّت السيوفُ على رِقابهم وهم يُبصرونها؛ فارتجّت أرْجاءُ الحِصن بالاصطخاب، ووقع الاختلافُ بينهم والاضطراب؛ وقيل: إن الكافرَ قد طلب الأمان، وإنه ركب ظهر المَذَلّة مذ ناوله الجَزَعُ العِنان، وإن الكفر قد ذلّ للإيمان، وإن شيطانه قد نكَص[٣] على عَقِبه لما تراءت الفئتان؛ فأمسكت المجانيقُ عن ضربها، وكفّت الحَنَايا عن إرسال شُهبها، وأقصرت ليوث الحرب الضارية عن وَثْبها. فما كان إلّا هُنَيهة وقد خرج رسول منهم حيث لا تنفع الرسائل، واخترق وشِيجَ القنا وشوك النّصال وظُبَا[٤] المَناصل، ورأى كثرةَ هالته فكادت تنقدُّ[٥] تحت الذعر منه المفاصل، ومشى إلى السلطان خاضعًا وأعيا على السّماطين[٦] يقوم كلما عوّجته الأفاكل[٧]: [من الطويل]

وقبّـل كُـمّـا قبـل التُّـربَ قبـلَه ... وكـلُّ كَـمِـيٍّ واقـفٌ مُـتَـضـائِلُ

وأدّى الرسالةَ وإذا هي كما قال أبو الطيبِ دروع، ورجع إلى أهله وفي قلبه من جيش الإسلام ـ كثره الله ـ صدوع[٨]: [من الطويل]

فأقبل من أصحابه وهو مُرْسَلٌ ... وعاد إلى أصحابه وهو عَاذِلُ

فأبَوْا لنصيحتهِ قَبُولًا، وقالوا: قاتلك اللهُ رسولًا؛ لقد خرجتَ عن سُنّة إخوانك، وألقيتَ إلى المسلمين فاضلَ عِنانك، ولم ترقُب رِضا أقِسَّتِك[٩] ورهبانك. والرعب قد خرج به عن قومه وآله، وهو يُناشدهم الله في أموالهم وأنفسهم ويُنشدهم بلسان

---

(١) الخرصان: الرماح.
(٢) إشارة إلى قوله تعالى في الآية ١٠ من سورة القيامة ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾.
(٣) نكص: تراجع.
(٤) ظُبا: جمع ظباة، وهي حدّ السيف وشفرته.
(٥) تنقدّ: تقطع.
(٦) السماطان: الصفّان.
(٧) الأفاكل: الجماعة من الناس، والرّعدة.
(٨) صدوع: شقوق.
(٩) الأقسّة: جمع قسّ وقسّيس، وهو رجل الدين النصراني.

حاله: [من الطويل]

أمرْتُهم أمري بمُنعَرَج اللِّوى فلم يَستبِينوا الرُّشدَ إلا ضُحَى الغدِ

فلما استحكمت مِرّةُ[1] عِصيانِهم، وأبَوْا إلا مغالاةً في طُغيانهم؛ ولم يسمَحوا بتسليم ذلك الحِصن الحصين، وقالوا: إنه على حفظ أرواحنا لقويٌّ أمين؛ أُرسِلت عليهم من المجانيق حجارةٌ كالمطر، إلا أنها ترمي بشَرَرٍ كالقصر فتهدِم قصورًا كالشرر؛ فزعزعت منها بُرُوجًا وبُدنًا، وقالت: هذا جزاؤكم وإن عُدْتم عدْنا[2]، ولنُتْبِعنّ بعدها آثارَكم ونقلعَ منكم قِلاعًا ومُدنًا. فلما أكذبهم الحِصنُ في آمالهم، وأراهم الله قُرْب آجالهم؛ وكان ذلك في اليوم الأغرّ يوم الجمعة والفتح، سلكوا في التسليم عادةً لم يسلُكوها، ورأوا من الجزَع خُطّةً ملكتهم ولم يملِكوها؛ فأجمعوا أمرهم وشركاءهم إلا أنه كان عليهم غُمّة، وطلبوا الذِّمام ومن قبلها كانوا لا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ[3] ولا ذِمّة؛ فألقَوْا إلى الإسلامِ يومئذٍ السلَم، ورأَوْا نور الله الظاهرَ أشهرَ من نار على علَم[4]؛ فخرجوا من الحصن زَرَافاتٍ وأوْزاعًا[5]، مُهْطِعين[6] إلى الداعي كيوم يخرجون من الأجداث[7] سِراعًا. فلو تراهم نحو المنايا يركُضون، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: الآيتان ٤٣، ٤٤].

جرت الرياحُ على مَقَرِّ ديارِهمْ فكأنما كانوا على مِيعادِ

وصدق الله المؤمنين وعدَه، وكان يصدق وعدِه حقيقًا، ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٦]. فلما كان يومُ السبت نادى فيهم السيفُ بالرحيل، ولم يتزوّدوا من متاع الدنيا إلا القليل؛ وقام النصرُ على منابرِ الهامات خطيبًا، وكثُر القتلُ فصار المهنّدُ[8] الصقيلُ خَضِيبًا؛ وأجرى أوديةً من دِمائهم، ولم يغادر بقيّةً من ذَمائهم[9]؛ واستوى العبيدُ منهم والأرباب، وصار فُرسانُهم فرائسَ الذئاب، واستمرءوا المَرْعَى

---

(١) المرّة: الشدّة، والطبيعة.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في الآية ٨ من سورة الإسراء: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

(٣) إلاًّ: عهدًا.

(٤) العلم: الجبل.

(٥) أوزاعًا: متفرقين.

(٦) مهطعين: خائفين ضارعين.

(٧) الأجداث: القبور، جمع جدث.

(٨) االمهند: السيف.

(٩) الذماء: بقيّة الروح.

الوخيم فرعاهم الذُّبابَ؛ ووجدوا غِبَّ البغي علينا، وقلنا: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٥]؛ وآب المسلمون بخير عميم، وفتح عظيم وأجر كريم؛ وجعل الله الجنَّةَ جزاءً للسالمين منهم والذاهبين، ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٤]. فليأخذْ حظّه من هذه البشرى فإن لها من النصر العزيز ما بعدها، ومن المغانم الكثيرة ما يُنجز للأمّة المحمديّة وعدَها؛ ويثق بأن له إن شاء الله من ثوابِ هذه الغزوة أوفرَ نصيب، وأن سهم عزمه في نحور الأعداء إن شاء الله مصيب؛ فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن بالمدينة قومًا ما سِرْتم مَسِيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم». والله لا يُخليه من أجرها، ولا يَحرِمه وافرَ بِرّها؛ ويُتحفه من مقربات التهاني بما تكون له هذه بمنزلة العنوان في الكتاب، والآحاد في الحساب؛ وركعةِ النافلة[١] بالنسبة إلى الخمس[٢]، والفجرِ الأوّل قبل طلوع طلعة الشمس؛ وأن يُديم على الإسلام والمسلمين حياةَ مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين، ويؤيّده بالملائكة المقربين، ما دامت السمٰوات والأرضونَ، إن شاء الله تعالى.

ومن إنشاء المولى المرحوم محي الدين عبدِ الله بنِ عبدِ الظاهر كتابٌ كتبه عن السلطان الملكِ الأشرفِ خليلٍ[٣] إلى الملك المظفَّرِ يوسفَ بنِ عمرَ[٤] صاحبِ اليمنِ قرين كتاب السلطان الملك المنصور المسيّر إليه بالهناء بفتح طرابلس الشأم:

أعز الله نُصرةَ المقام وأوفد عليه كلّ بشرى أحسن من أختها، وكل تهنئة لا يُجَلّيها ألا هو لوقتها، وكل مُبْهِجة يعجَز البيان والبنان عن ثبتها ونعتها، وتتبلّج فتودُّ الدُّرَر والدراري لو زُفّت هذه إلى تَرَاقيها وسَمَتْ هذه إلى سَمْتها[٥]؛ وصبحه منها بكل هاتفةٍ أسجعَ من هواتف الحمائم، وبكلّ عارفة أسرعَ من عَوَارف الزّهر عند عزائم النسائم، وبكل عاطفة أعنّةَ[٦] الإتحاف بالإيجاف[٧] الذي شكرت

(١) النافلة: الصلاة المستحبّة غير الواجبة.
(٢) الخمس: يريد الصلوات الخمس اليومية الواجبة.
(٣) هو السلطان التاسع من سلاطين المماليك.
(٤) هو ثاني ملوك الدولة الرسولية في اليمن وأشهرهم. وُلد بمكة وولي بعد مقتل أبيه بصنعاء. كان أديبًا وعالمًا بالفلك والطب. مات سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م.
(٥) سمتها: النقطة من الكرة السماوية واقعة على شاقول المكان فوق الأرض. والسمت: الرأس، والطريق والمحجّة.
(٦) الأعنّة: جمع عنان، وهو الرسن.
(٧) الإيجاف: والمقصود إيجاف الخيل، وغزوها.

الصِّفَاحُ[١] منه أعظمَ قادرٍ والصحائفُ أكرمَ قادم، والغزو الذي لا تُخَصّ تِهامةُ[٢] ببُشراه بل جميع النجود والتهائم، وذوو الصوارم والصرائم[٣]، وأولو القُوى والقوائم، وكلّ ثغر عن ابتهاج أهل الإسلام باسم، وكلّ بَرٍّ بَرٌّ بتوصيل ما ترتّب عليه من ملاحم، وكلّ بحر عَذْبٍ يَمُونُ كلّ غاز لا يحبس عن جهاد الكفار في عُقْر الدار الشكائم[٤]، وكلّ بحر مِلْح كم تغيّظ من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم. المملوك يجدّد خدمةً يقتفي فيها أثرَ والدِه، ويجري في تبليغها على أجمل عوائده، ويستفتح فيها استفتاحًا تَحُفّ به من هنا ومن هنا تُحِفُ محامده؛ ويَصِف ولاءً قد جعله أجمل عقوده وأكمل عقائده، ويشفعهما بإخلاص قد جعله ميلُه أحسن وسائله وقلبُه أزين وسائده؛ ويُطلع العِلم الكريم أن من سجايا[٥] المتعرّضين إلى الإعلان بشكر الله في كلّ ما يعرِض للمسلمين من نَصْر، ويُفْرَض لهم من أجر غزوٍ كم قعد عنه مَلِكٌ فيما مضى من عصر؛ أن يقدُروا تلك النعمةَ حقّ قدرها من التحدّث بنعمتها، والتنبيه لسماع نَغْمتها؛ وإرسال أعِنّة الأقلام في ميادين الطروس[٦]، وإدارة حِرْباء وصف خير حربٍ إلى مُواجهة خير الشموس. ولما كانت غزواتُ مولانا السلطان ملكِ البسيطةِ الوالدِ ـ خلّد الله سلطانه ـ قد أصبحت ذكرى للبشر، ومواقفُه للنصر فكم جاءت هي والقدرُ على قَدَر؛ وقد صارت سِيَرُها وسيرُها هذه شَذْو الأسمار[٧]، وهذه جادّةٌ[٨] يستطيب منها حسنَ الحَذْو السُّفّار، فكم قاتلت من يليها من الكفّار، وكم جعلت من يُواليها وهو منصورها منصورًا بالمهاجرين والأنصار. ولما أذلّ الله ببأسِها طوائفَ التتار[٩] في أقاصي بلاد العجم، وجعل حظَّ قلوبهم الوجعَ من الخوف ونصيبَ وجوههم الوجَمَ، وأخلى الله من نسورهم الأوكارَ ومن أُسودهم الأجَم[١٠]، وقصُرت بهم هممُهم حتى صاروا يخافون الصبحَ إذا هجم والظنَ إذا رجَم، وصارت رؤيةُ الدماء تُفزعُهم فلو احتاج أحدُهم لتنقيص دم لمرضٍ

---

(١) الصفاح: كناية عن السيوف والرماح وسواها من الآلات تصنع من الحديد وغيره.
(٢) تهامة: منطقة جنوب الحجاز منخفضة. وبخلافها النجد.
(٣) الصوارم: السيوف. والصرائم، جمع صريمة، وهي القطيعة، والقطعة من الليل.
(٤) الشكائم: جمع شكيمة، وهي ما يوضع في شدق الفرس، كالحديدة.
(٥) سجايا: جمع سجيّة، وهي الطبع والخلق. (٦) الطروس: جمع طرس، وهو الصحيفة.
(٧) الأسمار: أحاديث الليل. (٨) جادة: طريق واسعة.
(٩) التتار: قبائل سكنت في أواسط آسيا من أصل مغولي. عرفوا بغزواتهم الكثيرة، وقد هاجموا الدولة الإسلامية مرات كثيرة.
(١٠) الأجم: جمع أجمة، وهي الشجر الكثيف الخفيف، وفيها تكون بيوت الأسود.

لأحجم من خوفه وما احتجم[١]. وأباد الله الأرمنَ فحلّ بالنَّيْل منهم الويل، وما شمّر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعد إلا وشمّر هو من الذُّل الذَّيْل، ولا أثارت الجياد من الخيل عِثْيَرًا[٢] منعقِدًا إلا وظنّوه مساءً قد أقبل أو ليل. وانتهت نوبة القتل بهم والإسار إلى «التَّكْفُور ليفون» ملك الأرمن الذي كان يحمي سَرْحَهم[٣] ويمرّد[٤] صَرْحَهم[٥]، ويستنطق هَتْفَ التّتار ويسترجع صَدْحهم؛ وتعتزّ طرابُلس الشأم بأنه خال إبرنسها الكافر، ولسان مشورته السفير ووجه تدبيره السافر؛ وطالما غرّ وأغرى، وجرّ وأجرى، وضرّ وأضرى؛ فلما توكّل مولانا السلطانُ وعزم وعزم فتوكّل، وتحقّق أن البلاءَ به قد نزل، وما تشكّك أن ذلك في ذهن القَدَر قد تصوّر وتشكّل؛ وأنّ يومه في الفتك سيكون أعظمُ من أمسِه وأعظم منهما معاداة غدِه، وأن نصر الله لن يُخلفَه صادقُ موعده، أكل يده ندامةً على ما فرّط في جَنْب الله؛ وساق الحَتْفَ[٦] لنفسه بيده فعمَر الله بروحه الخبيثة الدّرَكَ الأسفل من النار، وسقاه الحَتْف كأسًا بعد كأس لم يكن لها غيرَ الهُلْك من خُمار. وكانت طرابلسُ هي ضالّة الإسلام الشريدة، وإحدى آبقاته[٧] من الأعوام العديدة؛ وكلما مرّت شمخت بأنفها، وتأنّقت في تحسين منازه منازهها وتزيين رَيْحانها وعَصْفها، ومرّتْ وهي لا تُغازل مَلِكًا بطرْفها وكلما تقادم عهدها تكثرت بالأفواج والأمواج من بين يديها ومن خلفها؛ إذ البحرُ لها جِلْباب[٨] والسحابُ لها خِمار[٩]، وليس بها من البَرّ إلا بمقدار ساحةِ الباب من الدار؛ كأنها في سِيف ذلك البحر جبلٌ قد انحطّ، أو مَيْل استواء قد خرج عن الخط، وما قصد أحدٌ شطَّها بنكايةٍ إلا شطّ[١٠] واشتطّ[١١]؛ قدّر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العِنانَ، وسبق جيشُه إليها كلَّ خبر وليس الخبر كالعِيان، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادةُ قد أحرسته عيونَها وتلك المخاوف

---

(١) احتجم: عمل الحجامة، وهي ضرب من العلاج الطبي كان شائعًا في القديم، وطريقتها أن يؤتى بالمحجم بشيء كالكأس يفرغ من الهواء ثم يوضع على الجلد فيحدث تهيجًا ويجذب الدم بقوّة.

(٢) عثيرًا: غبارًا.

(٣) السرح: ساحة الدار، وفناؤها، وكل شجر طال ولا شوك فيه. والسرح أيضًا، الماشية، والخيل.

(٤) يمرّد: يملّس ويسوّي.

(٥) الصرح: البناء الشاهق.

(٦) الحتف: المنية.

(٧) آبقاته: جمع آبقة، وهي الآفة والشرّ العظيم.

(٨) جلباب: ثوب طويل.

(٩) الخمار: النقاب، للرأس أو الوجه، أو الاثنين معًا.

(١٠) شطّ: بعد.

(١١) اشتطّ: بالغ في الشطط وجاوز الحدّ.

كلُّهن أمان، وقد اتخذ من إقدامه عليها خير حبائل ومن مفاجأته لها أمدّ عِنان؛ وفي خدمته جنود لا تستبعد مَفَازة، وكم راحت وغدتْ وفي نفوسها للأعداء حَزَازة[١]؛ فامتطَوْا بخيولهم من جبال لُبنان تيجانًا لها صاغتها الثّلوجُ، ومعارجَ لا تُرافق بها غير الرياح الهُوج؛ وانحطّت تلك الجيوش من تلك الجنادل[٢]، انحطاطَ الأجادل[٣]، واندفعوا في تلك الأوعارِ اندفاعَ الأوعال[٤]، ولم يَحفِلْ أحدٌ منهم بسَرَبٍ لاصق ولا بجبلٍ شاهقٍ فقال: هذا منخفضٌ أو عال؛ وشرعوا في التحصيل لما يُوهي ذلك التحصين، وابتناءِ كلّ سُور أمام أسوارها من التدبير الحسن والرأي الرصين؛ فما لبثوا إلا مقدار ما قيل لهم: دونَكم والاحتطاب، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب؛ حتى جرُّوها بأسرعَ من جرّ النَّفَس، وأجْرَوْها على الأرض سفائنَ وكم قالوا: السفينةُ لا تَجْري على يَبَس. وفي الحال نقلت إليها فرأوا من مُتَوَقَّلها[٥] من يمشي بها على رجلين ومنهم مَن يمشي على أربع، ووجّهت سهامُها وجوهَها إلى منافذها فما شوهدت منها عينٌ إلا وكان قُدّامها منها إصبع؛ وأُلقِيت العداوةُ بين الحجارةِ من المجانيق وبين الحجارةِ من الأسوار، فكم نَقبت ونقّبت من فِلْذة كَبِدِها عن أسرار؛ وأُوْقِدت نِيرانُ المكايد ثَمّ فكم حولها من صافن[٦] ومن صافر[٧]، وكم رمتهم بشرر كالقصر فوقع الحافر كما يقال على الحافر. وما برحت سُوقُ أهل الإيمان في نَفَاقٍ على أهل النِّفاق، وأكابرهم تساقُ أرواحهم الخبيثة إلى السِّياق. وكان أهل عَكّاء قد أنجدوهم من البحر بكلّ بَرّ، ورمَوْا الإسلام بكل شَرَرٍ وكل شرّ؛ فكان السهمُ الذي يخرج منها لا يخرج إلا مقترنًا بسهام. وشُرُفات ذلك الثغر[٨] كالثنايا[٩] ولكنها لكثرة من بها لا تفترّ عن ابتسام؛ وما زالت جنود الإسلام كذلك، ومولانا السلطان لا تُرَى جماعةٌ مُقْدِمَةٌ ولا متقدِّمةٌ إلا وهو يُرَى بين أولئك. واستمرّ ذلك من مُستهلّ شهر ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر، فزحف عليها في بُكْرة ذلك النهار زَحْفًا يقتحم كلَّ هَضْبة ووَهْده، وكلّ

---

(١) الحزازة: التعسّف في الكلام، وهي الغيظ أيضًا.
(٢) الجنادل: الصخر العظيم. (٣) الأجادل: صفة للنسور أو الصقور.
(٤) الأوعال: جمع وعل، وهو تيس الجبل له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدبين.
(٥) متوقلها: صعيدها، وظاهر أرضها.
(٦) الصافن من الخيل: ما كان قائمًا على ثلاث قوائم.
(٧) الصافر من الطير: كل ذي صوت منها.
(٨) الثغر: الفم. وهنا، المدينة التي يدافع عنها على تخوم الدولة بمواجهة العدو.
(٩) الثنايا: الأسنان في مقدم الفم.

صُلْبة وصَلْده، حتى أنجز الله وعدَه، وفتحها المسلمون مجازًا وفي الحقيقة فتحها وحدَه؛ وطلعت سناجقُ[١] الإسلام الصُّفْرُ على أسوارِها، ودخلت عليهم من أقطارها، وجاست الكسّابة[٢] خِلالَ ديارها؛ فاحتازها مولانا السلطانُ لنفسِه مِلْكًا، وما كان يكون له في فتحها شريك وقد نفى عنها شِرْكًا؛ وكلما قيل: هذه طرابُلُس فُتِحت قال النصر بمن قتل فيها من النُّجُد الواصلة وأكثر عكا وأهل عكا[٣]؛ وأعاد الله قوّةَ الكفر بها أنكاثًا[٤]، وكان أخذُها من مائة سنة وثمانين سنة في يوم ثلاثاء واستُرِدّتْ في يوم الثلاثاء. ولما عمّت هذه البشائر ووَكَل بها مولانا السلطان إلى كلّ من يستجلي حِسانَ هذه العرائس، ويستحلِي نفيسَ هذه النفائس[٥]؛ سيّر مولانا السلطان إلى مولانا بُشْرى فقعقع[٦] بها البريد، لتُتْلَى بأمر مولانا على كل من أُلقي السمعَ وهو شهيد، وكما عمّ السرور بذلك كلّ قريب قصد أن يُعمّ الهناءُ كل بعيد. وأصدر المملوك هذه الخدمة يتحجّب بين يدي نجواها، ويتوثّب بعد هذه المفاتحة لكلّ سانحةٍ يحسن لدى المولى مستقرّها ومثواها. لا برح المقام يستبشر لكُماة الإسلام بكل فضل وبكلّ نُعْمَى، ويفرَح لسَرْحِ الكفر إذا انْتُهِك ولسفح المُلْك إذا يُحْمَى، ولسمع الشِّرك إذا يُصَمّ ولقلبه إذا يُصْمَى.

وكتب المولى محيي الدين أيضًا عن نفسه مطالعةً إلى السلطان الملك المنصور يهنّئه بهذا الفتح: [من مجزوء الكامل]

هُنِّئتَ يا ملكَ البَسِيطة[٧] فتحًا به النُّعْمَى مُحِيطه
وبَقِيتَ يا خير الملو ك بسيفِك الدّنيا مَحُوطَه

يقبّلُ الأرضَ ويبتهلُ إلى دُعاءِ صالح يقدِّمه بين يدي بِشْره وبُشْراه، وكلّ مقام محمود من الإجابة يحوّله في سِرّه ونجواه؛ ويُهَنّيء بهذا الفتح الذي كم مضى مَلِكٌ وفي قلبه منه حَسْرة، وما ادّخر الله إلا لمولانا السلطان أجرَه وفخرَه. فالحمدُ لله على هذا النصرِ العزيزِ وهاذ الفتحِ المبين، والظفر الذي أعطاه الله إيّاه في شهر وقد أقامت جموعُ الكفر حتى حازت بعضَه في مُدّة سبع سنين. وله الشكر على أن جعل الكفرَ

(١) سناجق: جمع سنجق، وهو اللواء. واللفظة فارسية.
(٢) الكسّابة: الذين يكسبون كثيرًا. وجاست: دخلت.
(٣) عكا: ثغر إسلامي متقدم، من أعمال فلسطين، على البحر.
(٤) أنكاثًا: متفرقين، جمع نكث، وفي الأصل، النكث، ما نُقض من الأَكسية والأخبية ليُغزل ثانيةً.
(٥) النفائس: جمع نفيسة، وهي المال الكثير، والشيء الثمين جدًا.
(٦) قعقع بها البريد: ذهب بها بعيدًا. (٧) البسيطة: الأرض.

مِن بعدِ قوةٍ أنكاثًا، وجعل أخذَ مدينةِ طرابُلسَ من الكفّار في يومِ الثلاثاء وكان أخْذُها من المسلمين في يوم الثلاثاء؛ وله المِنّةُ في ردّ هذه الأخِيذةِ، وجعلها بين يدي مولانا السلطان مَنْبوذة. ثم المنّة لله على أن سطر في سيرةِ مولانا السلطانِ هذه السَّنَةَ، وجعلها ما بين نومةِ عينٍ وانتباهتِها في أقرب من سِنَة[1]، وردّ إباقها[2] على المسلمين بعد أن أقامت هاربةً عندَ الكفار مائةَ سنة وستًّا وثمانين سنة؛ والله يلحق بها في الفتح أخواتِها من المدن، ولا يلبث إن شاء الله هاديًا بها بعدها مثل عَكّاء وصُور وصَيْدَا حتى يراهنّ إلى قبضته قد عُذْن، إن شاء الله تعالى.

وكتب إلى الأمير حسام الدين طرنطاي عن الأمير بدر الدين بيدرا في ذلك:

المملوك يهنىء بهذا الفتح الذي كادت به هذه الغزوةُ تزهو على غيرها من الغزوات وتتيه، وأشرقت الأرضُ بنورِ ربِّها ابتهاجًا بما أمضاه الله منه وما سيُمضيه، وبما سيُعطيه حتى يُرضيه، وذلك أن فتح طرابُلْسَ التي طالما شمَخت بأنفها على الملوك، وكم أبتْ على مستفتِح فما قال لغيره إباؤها: لله أبوك؛ وأخّر الله مدّتَها إلى خير الأزمان، وفتحها على يدي سلطانِنا الذي حقّق الله به آمالًا تنفُذ إلا منه بسلطان. فالحمد لله الذي عضَد[3] هذا الملكَ من مولانا بخير من دبّره، وحماه منه بأقطع حُسامٍ جرّده الله لنقضِ ما أَمَرَّه؛ وما من فُتوح ولا أمر ممنوح إلا ومولانا مُنَضِّد عقودِه، ومجهِّز بَريدِه، ومطلع سعودِه؛ ورافع علمه، ومُمْضي سيفه ومُرضي قلمه. فأمْتع الله الأمةَ من مولانا السلطانِ بسلطانٍ يستردُّ لهم الحقوقَ ويتقاضى الديونَ، وأمتع الله سلطانَها مِن مولانا بمن آراؤه أقفال الممالِك وسيوفُه مفاتيحُ الحصون.

ومن إنشاء المولى شهابِ الدينِ محمود الحلبي ما كتب به عن الأمير سيفِ الدين سلّار نائب السلطنة الشريفة إلى النائب بقلعة الجبلِ عند كسرة التتارِ بمَرْج الصُّفَّر[4] في شهر رمضانَ سنة اثنتين وسبعمائة:

وبشّره بالفتح الذي أعاد الله به الأمة خَلْقًا جديدًا، والنصرِ الذي أنزل الله فيه من الملائكة أنصارًا للملّة[5] وجنودًا، والظفَرِ الذي أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن يَرْهَب خُمودًا، والغزوةِ التي زلزل الله بها جبالَ أهل الشرك وقد تدفّقت على الأرض

---

(١) السِّنة من النوم: الغفلة القصيرة جدًّا.
(٢) إباقها: هروبها من الأسر.
(٣) عضد: آزر وساعد.
(٤) مرج الصُّفَّر: موضع بين دمشق والجولان.
(٥) الملّة: الطريقة أو الشريعة في الدِّين.

أمثال البحار عددًا وعديدًا. المملوك يقبّل اليد العالية التي لها من هذه النُّصرة وإن لم تبلغها أجرُ الرامي المسدِّدِ سهمَه، المعجِّلِ من التهاني غُنْمَه[١]، الموفِّر من المحامد الجزيلة قِسمَه[٢]؛ ويهنّيء المولى بهذا الفتح الذي مدّ الله به على الأمة جناح رحمته وفضله، ومنّ على أيّامنا الزاهرة فيه بالشأم وأهله، وبَرز فيه الإسلامُ كلّه للشرك كلّه. ولله الحمد الذي أعز دينَه ونَصرَه، وحصَد بسيوف الإسلام عدوَّ دينه بعد أن حَصَره؛ وأباد جيوشَ الشِّرك وهم مائة ألف أو يزيدون، وأفنى أحزاب أهل الكفر وكانوا أمثالَ الرمال لا يُعَدّون؛ ويُنْهِي أنّ علمه الكريم قد أحاط بما كان من أمر هذا العدوّ المخذول ودخولِه إلى البلاد المحروسة بجيوشه وكتائبه وجُموعه وجُنوده من أشياع أهل الكفر وأحزاب الشرك. ولما تواصلت الأخبارُ بقُربه، واستعدادِه بحزبه، ومهاجمتِه البلاد، وإيقاعِ الرُّعب في قلوب أهلها بالتنوّع في الفساد؛ ساق الرّكابُ الشريف في طلبه يَطْوِي المَرَاحل[٣]، ويقطَع في كلّ يوم منزلتين بل منازل. ولما حَلّ الركاب الشريفُ بمَرْج الصُّفَّر على مَرْحلة من دمشقَ المحروسةِ في يوم السبت مستهلّ شهر رمضان المعظَّم زُيِّنَتِ العساكرُ المنصورة لِلقاء حال وصولها، واستعدّت للحرب دون تشاغُلٍ بأسباب نُزولها؛ فوافى العدوّ المخذولُ في مائة ألف من جيوش تسيل كالرمال، وتعلو الجبالَ بأشدَّ من الجبال؛ وحين وصلوا حَملوا على الميمنة[٤] بجُمْلتهم، وقصدوا إزاحتَها عن موقفها بجملتهم؛ فتلقّتهم الجيوشُ المنصورة بنفوس قد بايعت الله على لقاء عدوّ الله وعدوِّها، ووثِقت بما أعد الله لها من الجزاء في رواحها في سبيله وغُدُوِّها؛ وصَدَمتهم صدمةً كسرت حدَّهم، وأوهنت شِدّتهم وشَدَّهم؛ وأزالت طمَعَهم، وأبانت ظَلَعهم[٥]؛ وسالت عليهم الجيوشُ المنصورةُ من كلّ جانب، وحَمِيت الحرب بين الكتائب الإسلاميّة وبين تلك الكتائب؛ ودخل الليل ونار الحرب تشتعل، والجياد من الحوافر تَحْفى[٦] وبالجماجم تَنْتعِل؛ فأوَوْا إلى جبال اعتصموا بِهضابها، واحتَمَوْا بتوعُّر مسالكها وضِيقِ عِقَابها[٧]؛ وأحاطت بهم الجيوشُ المنصورةُ لحَوْسهم[٨] لا لحِفْظهم، وتَضُمّ أطرافَهم لا لحُبّهم بل لبُغْضهم؛ فكانوا -

---

(١) غنمه: ربحه في الحرب، والغنم بخلاف الغرم.

(٢) قسمه: نصيبه.

(٣) المراحل: جمع مرحلة، وهي المسافة التي يقطعها المسافر في يومه.

(٤) الميمنة: الفرقة من الجيش عن يمين القلب وتقابلها من الجهة الثانية الميسرة.

(٥) ظلعهم: عرجهم وغمزهم، وعدم استوائهم في مشيهم أو سيرهم.

(٦) تحفى: تصير حافية، غير منتعلة.

(٧) عقابها: جبالها.

(٨) حوسها: قتلها.

بعد كثرةِ مَن قُتِل منهم في المعركة الأولى أو فَرّ من أوّل الليل ـ جمعًا يناهز الأربعين ألف فارس، فأصبحوا يعاودون القتال، وينزلون إلى أطراف الجبال للنّزال؛ والجيوشُ المنصورة تَلْزَمهم من كل جانب، وتُحَكِّم في أبطالهم القَنا والقَوَاضب[١]. وجرت في أثناء ذلك حَمَلاتٌ ظهرَ في كل منها خَسارُهم، وشهِد عندهم بما يُكابدون قتلُهم وإسارُهم؛ وبعد ذلك نزلوا من جانب واحد يطلبون الفِرار، ويتوقّعون القتل إن تعذّر الإسار؛ فساقت خلفهم الجيوش المنصورة تتخطّفهم رِماحُها، وتتلقّفهم صِفاحُها؛ وتقاذفت بمن نجا منهم الفَلَوات، وغرّقتهم أمواج السَّراب قبل أمواج الفُرات؛ فأُخِذُوا قَنْصًا باليد من بطون الأودِية ورؤوس الشِّعاب[٢]، ولم يحصُل أحد منهم على الغنيمة بالإياب؛ وقُتل أكثر مقدّمي التمانات وفرّ كبيرهم وأنّى له الفِرار، وبين يديه مفاوز[٣] إن سلك منها تناولته بأرماح من العطش القِفار. فليأخذ المولى حظّه من هذه البُشرى التي تُنبىء عن الفتح العظيم والفضل العميم، والنُّصرة التي حفِظ الله بها على الإسلام البلادَ والثغورَ والأموالَ والحريمَ؛ ويكتُبْ إلى البلاد بمضمونها، ويَسُرّ قلوب أهل الثغور بمكنونها؛ ويَستنهض المولى الأُمّة لشكر الله عليها، ومن ذا الذي يقوم بشكر ذلك! ويعرِّفْهم مواقع هذه النُّصرة التي أنجد الله فيها الإسلام بالملائك؛ ويَتَقدّمْ أمرُه بضرب البشائر بكلّ مكان، ويَشْهَر في جميع الثغور أن عدوَّ الله وعدوَّ الإسلام دخل في خبرِ كان؛ وأن الله تعالى كسرَ جيوش التتار كسْرًا لا يُجْبَر[٤] صَدْعُه، ولا يتأتّى إن شاء الله تعالى جَمْعُه. والله تعالى يُسمعه من التهاني كلّ ما يَسُرّ الإسلامَ وأهلَه، ويشكر قولَه في مصالح الإسلام وفعلَه؛ إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني

من القسم الرابع من الفن الثاني في المراثي والنوّادب

والمراثي إنما جُعلت تسليةً لمن عضّته النوائبُ بأنيابها، وفرّقت الحوادثُ بينَ نفسه وأحبابِها؛ وتأسيةً[٥] لمن سبق إلى هذا المَصْرَع[٦]، ونهل من هذا المَشْرَع[٧]؛ ووثُوقًا باللَّحاق بالماضي، وعلمًا أنّ حادثة الموت من الديون التي لا بدّ لها من

---

(١) القواضب: الشديدة القطع، صفة للسيوف. (٢) الشعاب: جمع شعب، وهو منفرج الوادي.
(٣) مفاوز: جمع مفازة، وهي الفلاة الواسعة من الأرض.
(٤) يجبر: يُلحم. وصدعه: كسره. (٥) تأسية: تسلية.
(٦) المصرع: المهلك. (٧) المشرع: مكان الشرب.

التقاضي؛ وأنه لا سبيل إلى الخلود والبقاء، ولا بدّ لكلّ نفس من الذَّهاب ولكلّ جسد من الفناء. قال الله تعالى في محكم تنزيله مخاطبة لرسوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٣٤، ٣٥]. فليَرْضَ من فُجِع بخليله[١] وشقيقه، وصاحبه وصديقِهِ؛ وأهله وولدِه، وجمعِه وعَدَده، وماله ومدده؛ نفسَه الجامحة[٢] في ميادين أسفِها وبكائها، الجانحةَ[٣] إلى طلب دوائها من مَظَانّ[٤] أدوائها؛ بزِمام الصبر الجميل، لينال الأجرَ الكريم والثوابَ الجزيل؛ فقد أثنى الله تعالى على قوم بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: الآية ٣٥]؛ وقال تعالى إخبارًا عن لُقْمَان في وصيّته لابنه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: الآية ١٧]. وليسترجعْ مَنْ أصابته مصيبة أو نزلت به بليّة، وطَرقته حادثةٌ أو ألمّتْ به رزيّة[٥]؛ لما جعل الله تعالى للمسترجِع بفضله ومنّته، من صَلاته عليه ورحمته؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: الآيتان ١٥٦، ١٥٧]. ولْيتأسَّ[٦] الفاقدُ برسول الله ﷺ، فقد جعل الله فيه أُسوةً حسنةً لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ، وليَقْتَدِ بأصحابه رضي الله عنهم ليفوزَ بثوابِ الصابر ويحوز أجر الشاكر.

وباب الرِّثاء فهو باب فسيحُ الرِّحاب والنوادي، فصيحُ اللسان في إجابة المنادي ذي القلب الصادي[٧]؛ متباين الأُسلوب، مختلف الأطراف متباعدُ الشعوب؛ منه ما يُصْمِي[٨] القلوبَ بنِباله، ومنه ما يُسَلّيها بلطيف مَقاله؛ ومنه ما يبعثها على الأسف، ومنه ما يَصرِفُها عن موارد التّلف. وقد أكثر الشعراءُ القولَ في هذا الباب، وارتقَوْا الذِّروة العلياءَ من هذه الهِضاب؛ ووجدوا مكان القول ذا سعةٍ فقالوا، وأصابهم هجيرُ اللوعة فمالوا إلى ظِلِّهِ وقالوا. قال الأصمعيّ: قلت لأعرابيّ: ما بالُ المراثي أشرفَ أشعارِكم؟ قال: لأنا نقولُها وقلوبُنا محترقة. وعلى الجملة فالموتُ هو المصيبةُ التي لا تُدْفَع، والرزيّة التي لا تُرَدُّ بكثرة الجموع ولا تُمنع؛ والحادثةُ التي لا تنصرف بالفِداء وإن جلّ مقدارُه، والنازلةُ[٩] التي لا تتأخر عن وقتها بالدعاء

(١) خليله: صاحبه.
(٢) الجامحة: الهائجة.
(٣) الجانحة: المائلة.
(٤) مظان: جمع مظنّة، وهي الموضع.
(٥) رزيّة: مصيبة.
(٦) ليتأسّ: ليتّخذ أسوة.
(٧) الصادي: العطشان.
(٨) يصمي: يصيب في الصميم.
(٩) النازلة: المصيبة الشديدة.

وإن عظُمت في غيرها آثاره؛ وهو أحد الأربعة التي فُرِغ منها، وصُرِفت وجوهُ المطامع عنها. وقد قالت الحكماء: أعظم المصائبِ كلِّها انقطاعُ الرجاء. وقالوا: كل شيء يبدو صغيرًا ثم يعظُم إلا المصيبةَ فإنها تبدو عظيمةً ثم تصغُر. وقالوا: لا يكون البكاء إلا مِن فضل، فإذا اشتدّ الحزنُ ذهب البكاء. قال شاعر: [من الكامل]

فلئن بَكَيْناه لَحُقّ لنا ... ولئن تركنا ذاك للصَّبْرِ
فلِمثله جَرَتِ العيونُ دَمًا ... ولمثله جَمَدَت فلم تَجْرِ

وقيل: مرّ الأحنف[1] بامرأةٍ تبكي ميّتًا ورجلٌ ينهاها؛ فقال: دعها فإنها تندُب عهدًا وسفَرًا بعيدًا. قيل لأعرابيّة مات ابنُها: ما أحسنَ عزاءَك؟ قالت: إنّ فقدي إيّاه آمنني كلَّ فقدٍ سواه، وإنّ مُصيبتي به هوّنتْ عليّ المصائبَ بعده؛ ثم أنشأت تقول: [من مجزوء الكامل]

كنتَ السوادَ لمُقْلتِي ... فعَمِي عليكَ النَّاظرُ
مَنْ شاء بعدَكَ فَلْيَمُتْ ... فعليك كنتُ أحاذرُ
ليتَ المنازَل والدّيا ... رَ حفائرٌ ومَقَابِرُ
إنِّي وغيري لا محا ... لةَ حيثُ صِرتَ لَصَائرُ

وقد نقل أبو الفرج الأصفهاني: أن بعضَ هذا الشعرِ لإبراهيمَ[2] بنِ العباسِ بنِ محمدِ بنِ صُولٍ يرثي ابنًا له فقال: [من مجزوء الكامل]

أنتَ السوادُ لمقلةٍ ... تَبْكِي عليك وناظرُ
مَنْ شاء بعدكَ فليَمُتْ ... فعليكَ كنتُ أُحاذِر

ولم يزد على هذين البيتين شيئًا. أخذ الحسنُ بنُ هانيء[3] معنى البيت الأوّلِ فقال في الأمين: [من الطويل]

طوى الموتُ ما بيني وبين محمدٍ ... وليس لما تطوي المنيّةُ ناشرُ

---

(١) هو الأحنف بن قيس، الجواد المشهور، وقد سبق التعريف به.
(٢) هو إبراهيم بن العباس، أحد العراء والكتّاب والبلغاء. نشأ في بغداد وكان كاتبًا للمعتصم والواثق والمتوكل. تسلّم ديوان النفقات والضياع. شعره رقيق، وعبارته رائعة. له ديوان رسائل، وديوان شعر. تُوفي سنة ٨٥٧ م.
(٣) هو أبو نواس، الشاعر العباسي المعروف، وقد سبق التعريف به.

وكنت عليه أحذَرُ الموتَ وحدَهُ فلم يبقَ لي شيءٍ عليه أُحَاذِرُ

لئن عَمَرَتْ دورٌ بمن لا نُحِبّه لقد عَمَرت ممّن نُحِبّ المقابرُ

وقيل: من أحسن ما قيل في التعازي أن أعرابيًا مات له ثلاثة بنين في يوم واحد فدفنهم وعاد إلى مجلِسه، فجعل يتحدّثُ كأن لم يفقِدْ أحدًا؛ فَلِيم على ذلك، فقال: ليسوا في الموت ببديع، ولا أنا في المصيبة بأوحدَ، ولا جَدْوَى للجَزع[1]، فعَلَامَ تلومونني، وهذه ثلاثة الأقسام لا رابع لها!. وعزّى أعرابيّ رجلًا فقال: لا أراكَ الله بعد مصيبتك ما يُنْسِيكَها. وقيل: لمّا دفَن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فاطمةَ رضي الله عنها تمثّل على قبرِها بهذيْن البيتين: [من الطويل]

لكل اجتماعٍ من خليلين فُرْقةٌ وكلُّ الذي دون المَماتِ قليلُ

وإنَّ افتقادي واحدًا بعد واحدٍ دليلٌ على ألّا يدومَ خَليلُ

وعزّى عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه الأشعثَ بنَ قيسٍ عن ابنه فقال: إن تَحزَنْ فقد استحقَّتْ ذلك منك الرَّحِمُ، وإن تَصْبِر ففي الله خَلَفٌ من كلّ هالك، مع أنك إن صبَرت جرى عليك القدرُ وأنت مأجور، وإن جَزِعت جرى عليك القدر وأنت موزور[2]؛ سرّك الله وهو بلاءٌ وفِتنة، وحزَنَك وهو ثوابٌ ورحمة.

وعزّى أكثمُ بنُ صَيفِيّ[3] حكيمُ العرب عَمرو بنَ هندٍ[4] الملكَ عن أخيه فقال: أيها الملكُ، إنّ أهلَ هذه الدار سَفْرٌ[5] لا يحلُّون عُقَدَ الرحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردودٍ عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك مَنْ سَيَظْعَن ويدعُك؛ فما أحسنَ الشكرَ للمنعم والتسليمَ للقادر! وقد مضت لنا أصول نحن فروعُها، فما بقاء الفرعِ بعد أصلهِ! واعلمْ أنْ أعظمُ من المصيبة سوءُ الخَلَف منها، وخيرٌ من الخير مُعطيه، وشرٌّ من الشر فاعلُه.

---

(١) الجزع: الفزع مع القنوط. (٢) موزور: آثم، تحمل وزرًا.

(٣) أكثم بن صيفي: أحد حكماء العرب في الجاهلية المشهورين. من بني تميم. له حكم وأمثال. كان في جملة الوافدين على كسرى فألقى بين يديه خطبة بليغة للغاية. انظر خبر وفوده على كسرى وما قاله في: العقد الفريد ١/١٠٣ وما بعدها.

(٤) هو ملك الحيرة، ابن المنذر الثالث، وأمه هند الكنديّة ينسب إليها. كان سيّء الأخلاق والطباع، لكنه قرّب إليه الشعراء والخطباء. هو الذي أمر بقتل طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي. قتل عمرو بن هند على يدي عمرو بن كلثوم حوالي سنة ٥٧٨ م.

(٥) سفر: مسافرون.

وقال ابن السَّماك[١]: المصيبة واحدة، فإن كان فيها جَزَعٌ فهي اثنتان. وقال أبو علي الرّازي: صَحِبتُ الفُضَيْلَ بنَ عِيَاض[٢] ثلاثين سنة ما رأيتُه ضاحكًا ولا مُتبسّمًا إلا يومَ مات ابنُه عليٌّ؛ فقلت له في ذلك؛ فقال: إنّ الله أحبّ أمرًا فأحببتُ ما أحبّ الله. وقال صالح المُرّيّ: إن تكن مصيبتُك في أخيك أحدثتْ لك خشيةً فنعم المصيبةُ مصيبتُك، وإن تكن مصيبتُك بأخيك أحدثت لك جَزَعًا فبئسَت المصيبةُ مصيبتُكَ. وقال عليُّ بنُ موسى[٣] للفضلِ بن سهلٍ[٤] يعزّيه: التهنئةُ بآجل الثواب أولى من التّعزية على عاجل المُصيبة. وعَزّى الرشيدَ رجلٌ فقال: كان لك الأجرُ يا أميرَ المؤمنين لا بك، وكان العزاءُ لك لا عنك. أخذه الآخر فقال: [من السريع]

كُنِ المُعَزّى لا المُعَزَّى به إن كان لا بُدَّ من الواحدِ

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ[٥] لابنهِ عبدِ الملكِ وقد اشتدّ به الألمُ: كيف تَجِدُك يا بُنيّ؟ قال: أجدني في الموت، فاحتسِبْني، فإنّ ثواب الله خير لك مني. قال: والله يا بُنيّ لأن تكون في ميزاني أحبُّ إليّ من أن أكون في ميزانك. قال: وأنا والله لأن يكون ما تُحِبُّ أحب إليّ من أن يكون ما أُحِبُّ.

وعزّى شبيبُ بنُ شبّةَ أبا جعفرِ المنصورَ بأخيه أبي العباسِ السفّاحِ فقال: جعل الله ثوابَ ما رُزِئْتَ لك أجرًا، وأعقبك عليه صَبْرًا؛ وختم لك بعافيةٍ تامّة، ونعمة عامّة؛ فثوابُ الله خيرٌ لك منه، وأحقُّ ما صُبِر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل.

ودخل البَلَاذُريّ[٦] على عليّ بنِ موسى الرّضا يعزّيه بابنهِ فقال: أنت تَجِلُّ عن وصفنا، ونحن نقصُرُ عن عِظَتِك، وفي علمك ما كفاك، وفي ثوابِ الله ما عزّاك.

---

(١) ابن السماك: أحد الوعاظ والزهاد المعروفين. كان زمن الرشيد الخليفة العباسي، وكان يدخل عليه فيعظه. انظر شيئًا من حكمه ومن عظاته في: العقد الفريد ١/ ٣.

(٢) الفضيل بن عياض: من الناسكين الزاهدين والعابدين، عاش زمن العباسيين، وعظ الرشيد وجماعة آخرين. انظر خبر ذلك وشيئًا من مواعظه في: البيان والتبيين، للجاحظ ٣/ ٤٥٥، دار صعب. بيروت ١٩٦٨.

(٣) لعله علي بن موسى، الرضا، الإمام الثالث من الأئمة الإثني عشر. كان في زمن المأمون، فأوكل إليه هذا ولاية العهد، وسرعان ما خاف منه فعمل على دسّ السمّ له. له مرقد مشهور في طوس (مشهد) بإيران. كانت وفاته سنة ٢٠٣ هـ/ ٨١٨ م.

(٤) الفضل بن سهل: وزير المأمون، الخليفة العباسي. فارسي الأصل. والى البرامكة وعادى الفضل بن الربيع. اغتيل في الحمّام بإيعاز من الخليفة المأمون، وذلك سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٩ م.

(٥) عمر بن عبد العزيز، الخليفة الأموي، سبق التعريف به.

(٦) هو أبو جعفر أحمد بن يحيىٰ بن جابر البلاذري. مؤرخ بغدادي مشهور. من أشهر تآليفه: =

فهذه نُبذة في التعازي كافية، وجُنّة[1] لمن تحصّن بها من ذوي الفجائع واقية. فلنذكر المراثي.

ذكر شيء من المراثي والنوادب

وَلْنبدأْ مِن ذلك بما قاله رسولُ الله ﷺ، وبشيء مما قيل عند وفاة رسول الله ﷺ. فمن ذلك ما قاله رسول الله ﷺ يومُ وفاةِ ولدِهِ إبراهيمَ عليه السلام: «يا إبراهيمُ لولا أنه أمرٌ حَقٌّ ووعدٌ صِدْقٌ وأن آخِرَنا سيَلْحَقُ أوّلَنا لَحَزِنّا عليك حزنًا هو أشدّ من هذا وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون تَبْكي العينُ ويحزَن القلب ولا نقول ما يُسْخِطُ الربّ». ذكره الجوّانيّ النَسابة في شجرة الأنساب، وذكره غيره مختصرًا.

ومنه ما روي أن فاطمةَ[2] رضي الله عنها وقفت على قبرِه ﷺ وقالت: [من البسيط]

إنّا فقدناك فَقْدَ الأرضِ وابلَها[3] وغاب مذ غِبْتَ عنّا الوحي والكُتُبُ
فليت قبلك كان الموتُ صادفَنا لمّا نُعِيتَ وحالت دونك الكُثُبُ[4]

ووقف عليٌّ رضي الله عنه على قبرِهِ ﷺ ساعةَ دُفن وقال: إنّ الصبرَ لجميلٌ إلّا عنك، وإن الجَزَع لَقَبيحٌ إلا عليك؛ وإنّ المصاب بك لجليلٌ، وإنه قبلك وبعدك لجَلَل. وقد ألمّ الشعراءُ بهذا المعنى؛ فقال إبراهيمُ بنُ إسماعيلَ في عليّ بن موسى الرِّضا: [من الكامل]

إنّ الرزيّةَ يا ابن موسى لم تَدَعْ في العين بعدك للمصائب مَدْمَعا
والصبرُ يُحْمَدُ في المواطن كلّها والصبرُ أنْ نبكي عليك ونَجْزَعا

ووقف أعرابيٌ على قبر رسول اللهِ ﷺ فقال: قلتَ فقبلنا، وأمرت فحفِظنا؛ وقلتَ عن ربّك فسمعنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ

= كتاب البلدان الصغير، والكبير، ولم يكمله. كتاب الأخبار والأنساب. كتاب عهد أردشير، فتوح البلدان، وأنساب الأشراف. مات سنة ٨٩٢ م.

(١) جنّة: درع وسترة واقية.

(٢) هي فاطمة الزهراء، ابنة النبيّ ﷺ وزوجة الإمام علي بن أبي طالب، وأم الحسنين. وُلدت بمكة قبل الهجرة، وتُوفيت في السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية الشريفة.

(٣) وابلها: مطرها.

(٤) الكثب: جمع كثيب، وهو مجتمع الرمل.

وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٦٤]، وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا؛ فما بقيت عينٌ إلا سالت.

ودخل عمرُ بن الخطاب على أبي بكرٍ الصِّدّيقِ رضي الله عنهما في مرض موته، فقال: يا خليفةَ رسولِ الله ﷺ، لقد كلّفتَ القومَ بعدك تَعَبًا، وولّيتهم نَصَبًا؛ فهيهات مَنْ شقَّ غُبَارَكَ[1]! وكيف باللَّحاقِ بك!.

وقالت عائشةُ أمُّ المؤمنين رضي الله عنها وأبوها يُغَمّض: [من الطويل]

وأبيض يُسْتَسْقَى الغمَامُ بوجهه ثِمالُ[2] اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

فنظرَ إليها وقال: ذاك رسول الله ﷺ. ثم أُغْمِي عليه، فقالت: [من الطويل]

لَعَمْرُك ما يُغْنِي الثَّرَاءُ[3] عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاق بها الصدرُ[4]

فنظر إليها كالغضبان وقال: قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩﴾ [قَ: الآية ١٩]. ثم قال: انظروا مُلاءتَيّ فاغسلوهما وكفّنوني فيهما، فإن الحيَّ أحوجُ إلى الجديد من الميّت. ووقفتْ رضي الله عنها على قبره رضي الله عنه فقالت: نضّر الله وجهَكَ، وشكر لك صالح سَعيك؛ فقد كنتَ للدنيا مُذِلًّا بإدبارِك عنها، وكنتَ للآخرةِ مُعِزًّا بإقبالك عليها؛ ولئن كان أجلُّ الحوادثِ بعدَ رسول الله ﷺ رُزءك، وأعظمُ المصائب بعدَه فقدك؛ إن كتاب الله لَيَعِدُ بحسن الصبر فيك وحسن العِوَض منك؛ فإنا لنتنجّز موعودَ الله بحسن العَزَاء عليك، وأستعيضه منك بالاستغفار لك. أمَا لئن كانوا أقاموا بأمور الدنيا لقد قمتَ بأمر الدِّين حين وَهَى[5] شَعْبُه[6]، وتفاقم صَدْعُه، ورَجَفت جوانبه. فعليك السلام ورحمة الله توديعَ غير قاليةٍ[7] لك، ولا زاريةٍ على القضاء فيك. ثم انصرفت.

ولما قُبض رضي الله عنه سُجِّي عليه الثوب، فارتجّت المدينة بالبكاء ودَهِش القوم كيومَ قُبض رسولُ الله ﷺ؛ وجاء عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه باكيًا مسرعًا مُسْترجِعًا حتى وقف بالباب وهو يقول: رحمك الله أبا بكر، كنتَ والله أوّلَ القوم

(١) شق غبارك: باراك وسبقك.
(٢) ثمال اليتامى: أي يقوم بأودهم.
(٣) الثراء: كثرة المال والقوم.
(٤) أي الروح ساعة مفارقتها الجسد، فهي في حشرجة ونزاع.
(٥) وهى: تمزّق.
(٦) شعبه: صدعه.
(٧) قالية: كارهة.

إسلامًا، وأخلصَهم إيمانًا، وأشدَّهم يقينًا، وأعظمَهم غنَاء، وأحفظَهم على رسول الله ﷺ، وأحدبَهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبَهَهم برسول الله ﷺ خُلُقًا وفضلًا وهَدْيًا وسَمْتًا؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ خيرًا، صدّقتَ رسولَ الله ﷺ حين كذّبه الناس، وواسيتَه حين بَخِلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله في كتابه صِدّيقًا فقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٣]، يريد محمدًا ويريدك. كنت واللهِ للإسلام حصنًا وعلى الكافرين عذابًا، لم تُفْلَلْ[(١)] حُجّتُكَ ولم تضعُف بصيرتُك[(٢)]؛ ولم تجبُن نفسُك. كنت كالجبل الذي لا تحرّكه العواصف ولا تُزيله القواصف. كنتَ كما قال رسول الله ﷺ ضعيفًا في بدنك، قويًا في أمر الله، متواضعًا في نفسك، عظيمًا عند الله؛ جليلًا في الأرض، كبيرًا عند المؤمنين. لم يكن لأحد عندك مَطْمَعٌ ولا لأحد عندك هَوَادة؛ فالقوي عندك ضعيفٌ حتى تأخذَ الحقَّ منه، والضعيفُ عندك قويٌّ حتى تأخذ الحقَّ له. فلا حرمَنا الله أجرك، ولا أضلّنا بعدك.

فانظرْ إلى هذا الأسلوبِ العجيبِ، وتأمّلْ هذا النّمطَ الغريبَ؛ الذي جمع بينَ سلاسةِ الألفاظِ وإيجازِها، وإصابة المعاني وإعجازها. ولا يُستكثر على من أُنزِل القرآن بلغتِهم، أن يكون هذا القول من بَدِيهتهم.

* * *

ولنذكرْ لُمْعة من رسائل البلغاء والفضلاء، ولَمْحةً من أشعار الأدباء والشعراء. فمن ذلك رسالةٌ كتبها الوزيرُ الفقيهُ الكاتبُ أبو القاسم محمدُ بنُ عبدِ الله بن الجدّ، إلى الوزير الفقيه أبي القاسمِ الهُوريني يعزّيه عن أخيه، ابتدأها بأن قال: [من السريع]

لا بُـدّ مِـن فـقـدٍ ومـن فـاقِـد ... هيهات ما في الناس من خالدِ
كُـن الـمُـعَـزّى لا الـمـعـزِّي بـه ... إن كـان لا بُـدَّ مـن الـواحـد

إذا لم يكن بُدٌّ من تجرُّع الحِمام[(٣)]، وتشتُّتِ النِّظام، وانصِداع[(٤)] شَمْل الكرام؛ فمن الاتفاق السعيد والقدَر الحميد أن يرثَ أعمارَ البِنْيَةِ الكريمةِ مُشَيِّد عُلاها، وتسْلَم

(١) تفلل: تصاب بالفلّ، وهو الثلم وانثلام حدّ السّيف.
(٢) البصيرة: الحجّة والشاهد. (٣) الحمام: الموت.
(٤) انصداع: كسر.

من القِلادة[١] وُسْطاها[٢]، فمدار الكنانة[٣] على مُعَلَّاها، وفخارُ الحَلْبة بمُحْرِز مَداها. وفي هذه النُّبذة إشارةٌ إلى من فرَط من الإخوة النبلاء، ودرَج من السادة النُّجَباء؛ فإنهم وإن كانوا في رتبة الفضل صُدورًا، وغَدَوا في سماء النُّبل بدورًا؛ فإنّ شمس عَلائك أبهرُ أضواءً وأزهرُ أنوارًا، وظِلّ جنابك على بنيهم ومُخلّفيهم أندى آصالًا[٤] وأبردُ أسحارًا. نُعِي إليّ ـ أوشك الله سلوانك، ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك! ـ الوزيرُ أبو فلان، برّد الله ثراه، وكرّم مثواه؛ فكأنما طَعَن ناعِيه في كبِدي، وظَعَن باكيه بذخيرة جَلَدي[٥]. لا جَرَمَ أنّي دُفِعتُ إلى غمرة من التَّلَدُّد[٦] لو صُدِم بها النجمُ لحار، أو دُهِم بها الحَزْم لخار؛ ثم ثابتْ إليّ نفسي وقد وقَذَها[٧] الجَزَع، وعضّها الوجَعُ؛ فأطلتُ الاسترجاع[٨]، وجمعت الجَلَد الشَّعاع[٩]؛ وها أنا عند الله أحتسبه جِمَاعَ فضائل، وجمالَ محافل؛ وحديقةَ مكارم صَوَّحت[١٠]، وصحيفةَ محاسن دَرَست[١١] وانمحت. وما اقتصرت من رسم التعزية المألوف، على القليل المحذوف؛ إلا لعلمي بأن المعزِّي لا يُورد عليك غريبًا، ولا يُسمعك من مواعظه عجيبًا؛ فبك يقتدِي اللّبيب، وعلى مثالك يحتذِي الأديب، وإلى غَرَضك في كل موطن يُوفِي المُصِيب؛ وفي تجافي الأقدار عن حَوْبائك[١٢]، وسقوطها دون فِنائك؛ ما يدعو إلى حسن التعزية. لا صدَع الله جمعَك، ولا قرَع بنبأة[١٣] المكروه سمعَك.

ومن إنشاء القاضي الفاضلِ عبدِ الرحيم البيساني:

ورد الخبرُ بمصرَع فلان الذي عزّ على المعالي، وعُزِّيت به الليالي؛ وسقط به نجمُ الشرفِ وهَوَى، وجفّ به روض الكَرَم وذَوَى؛ ونقصت الأرضُ من أطرافها، ورَجَفت الجبالُ من أعرافها؛ وبكت عليه السماء فإنّ يده كانت من سُحبها، وتناثرت

---

(١) القلادة: ما يحيط بالعنق من اللآلىء والأحجار الكريمة، وهي العقد.
(٢) وسطى القلادة: أثمنها حبّةً وأكبرها. (٣) الكنانة: جعبة السهام.
(٤) آصال، جمع أصيل، وهو الوقت قبل مغيب الشمس.
(٥) جلدي: صبري وقوتي.
(٦) التلدّد: التلفّت يمينًا وشمالًا، كناية عن الحيرة والدهشة والذهول.
(٧) وقذها: صرعها.
(٨) الاسترجاع: القول: «إنا لله وإنا إليه راجعون».
(٩) الشعاع: المتفرّق والمتصدّع. (١٠) صوّحت: ذبلت ويبست.
(١١) درست: انمحت. (١٢) الحوباء: النفس.
(١٣) النبأة: الصوت الخفي.

له النجوم فإنّ عزمه كان من شُهُبها؛ واظلمت في عيني الدنيا الظالمة، وتجرّعتُ منها كأسًا لا تُسيغها[١] النفسُ كاظمة[٢]؛ وتقسّمت الأيامُ فريقين في مودّتي وعداوتي، فآهًا[٣] على السالفة[٤] ولا مرحبًا بالقادمة؛ وأصبحت أخوض الماء وأحشائي تتقطّع غليلًا، وأرى الناسَ كثيرًا بعيني وبقلبي قليلًا: [من الطويل]

وما النّاسُ في عَيْنيَّ إلّا حجارةٌ ... لـبـيـنِـك والأعـراسُ إلا مـآتِـمُ

فقد استوحشت الدنيا لفقده، وارتابت بنفسها مِنْ بعده، وعلمتْ حلاوةَ قربه بمرارة بُعده؛ وانصرف ذوو الأبواب عن بابه، واجتنبت الآمال مَغْنَى جنابه، وبكت الرياض على آثار سحابه: [من الطويل]

فـإنْ يُـمْـسِ وَحْـشًـا بابُه فَـلَرُبَّـما ... تـنـاطـح أفـواجًـا عـليـه الـمـواكـبُ

ومن إنشائه أيضًا رحمه الله تعالى: ما شككتُ ـ أطال الله بقاءك ـ حين ورد النعيُ بالمصائبِ التي قَصَمت[٥] الظهورَ بمكروهها، وحَسَرت[٦] فيها الحسراتُ عن وجوهها؛ أنّ السماءَ على الأرض قد انطبقت، وأنّ الأيّامَ ما أبْقتْ والسعادةَ قد أَبِقتْ[٧]؛ والحياةَ لم يبق في طولها طائل، والصبرَ بهجير اللوعة ظِلٌّ منسوخٌ زائل؛ وشمسَ الفضائل قد غرَبت وكيف بطلوعها، ونفسَ المكارم قد نُزِعت من بين ضلوعها؛ وغابَ الإسلامِ قد غاب منه أيُّ لَيْث، ورياضَ الآمال قد أقلع عن سُقياها أيُّ غيث. فإنّا لله وإنا إليه راجعون، رضًا بحكمه، وتجلُّدًا على ما رمى به الحادث من سهمه، وَطِبًّا[٨] للقلوب على مَضَض[٩] البلاء وكَلْمه[١٠]، وفِرارًا من الجمع بين مصيبة الفاقد وإثمه. وسقى الله ذاك الضريحَ[١١] ما شاء أن يسقيه من سحاب كصَوْب[١٢] يديه، ورحمه رحمةً تحُفّ بجانبيه. وآهًا للماء العَذْب كيف ارتشفته النوازلُ[١٣] وأبقت المِلْحَ، ثم آهًا للصباح الطَّلْق[١٤] كيف اغتالته الأصائل وأطلقت الجُنْح[١٥]؛ ووا أسفًا لتلك الذخيرة التي فذلكت[١٦] بها الأيّام ذخائري،

(١) تسيغها: تستطيبها وتشربها.
(٢) كاظمة: ساكتة وعطشى.
(٣) آهًا: للتأسّف.
(٤) السالفة: الغابرة الماضية.
(٥) قصمت: قطعت.
(٦) حسرت: كشفت.
(٧) أبقت: ولّت.
(٨) طبًا: شفاء.
(٩) مضض: وجع.
(١٠) كلمه: جرحه.
(١١) الضريح: القبر.
(١٢) الصوب: المطر.
(١٣) النوازل: المصائب الشديدة.
(١٤) الطلق: الضاحك.
(١٥) الجنح: الطائفة من الليل.
(١٦) فذلكت: لعبت، وأنهت.

والسريرةِ[١] التي طالما صُنتها أن تمرّ بسرائري؛ شَفَقًا عليها من سهام دهر بالذخائر مُولَعة، وسَتْرًا لها من عين زمان على السرائر مُوقَعة. ولئن صحب قلبي بعده أضلعي، وتحمّلتُ بعد فقده على ظَلَعي؛ فإنّا غدًا على أثره، وإن كنّا اليوم على خبره. وقَصْرُ الحياة إلى قُصور، كما أن محصول غرورها غرور. والتأدّبُ بأدب الله أولى ما خفّف به المسلوب عن مَنكِبه، وطريقُ السّلوان لا بدّ أن يُراجعه عَزْم مُنكِبِّه. فأنشُدها الله إلا جعلتْ مصيبتها مصيبةً على الشامت بما تلبَسه من صبر يَلْبِس عليه المصيبةَ فيُشبِّهها بنِعْمة، وبما تستشعره من تجلُّد في النازلة يُنْزِل عليها صلواتٍ من ربِّها ورَحْمة. ولن ترى أعجب من مُصاب لا ترى به إلا مُصابًا، وساكنِ تُربٍ لم يبق بعده إلا من سقى بدمعه تُرابًا؛ اشترك فيه الأُمَّتان العربُ والعجَم، وعُزّي به العزيزان المجدُ والكرم، واستباح الدهرُ به الصيدَ في الحَرَم:

[من الكامل]

وتَـشـابَـه الـبـاكُـون فـيـه فـلـم يَـبِـنْ دمعُ المُحقّ لنا من المُتَعَمِّلِ[٢]

وكتب أيضًا في مثل ذلك: أخّرت مكاتبة الحضرة ـ مدّ الله في عمرها وفي صبرها وفي أجرها، وألهمها التسليم لحكم من هو غالب على أمرها ـ إلى أن تنقضي نَبْوة[٣] الخَطْب، وتضعَ الأنفاسُ أوزارها للحرب، ويُخرِجَ ماءُ الجفن نارَ القلب؛ وتَراجَعَ الخواطرُ إلى عاداتها، وتنظرَ في الدنيا التي ما صُحِبت إلا على عادياتها ومُعاداتها؛ فتكون الحضرة عرفت من غير تعريف، ووقَفتْ على الحزم من غير توقيف؛ وتوفَّر عليها الثواب بغير مُشارِك، ورجعتْ إلى فهم مُدْرِكٍ وصوابِ مدارِك[٤]. وتأخير التعزية عن البادرة خلافُ ما شُرِع فيها، ولكنْ إنما يحتاج أن يُثَبِّت مَنْ صَبْرُه هاف[٥]، ويُرَمَّ[٦] مَنْ تَجلُّده عاف. وقد علم الله اهتمامي واغتمامي بفقد شيخها رحمه الله وعدَمِها منه من لا عِوَض عنه إلا ثواب الله الذي يُهَوِّن الوقائع، ويُوطِّن على الروائع. وأسباب التعزية غير واحدة، منها أنه إنما دَرَج في السنّ التي هي مُعترَك المنايا، ومنها أنه ما خرج عن الدنيا إلى أن رأى منها خَلَفًا يهوِّن الرزايا؛ ومنها أنه لقي الله بعملٍ صالح هو بمشيئة الله نجاته، ومنها أنه فارقها على الرضا عنها ويكفيها مرضاتُه، وعلى الدعاء المقبول لها ونعمت الجُنَن دعواته:

---

(١) السريرة: الطوية، وما تضمره في نفسك.
(٢) المتعمل: المتظاهر بالبكاء وغيره.
(٣) النبوة: الجفوة.
(٤) مدارك: لاحق وتابع.
(٥) هاف: نفد.
(٦) يرمّ: يقطع.

[من الطويل]

ولكنَّ للألّافِ[1] لا بدّ حسرةً إذا جعلتْ أقرانُها تنقطع

ومنها أن الحزن لو أطِيع والحزم لو أُضِيع لما أفضى[2] إلى مُرَاد، ولا أعاد ميّتًا قبل المَعاد. وأحقُّ متروك ما يأثَم طالبُه، ويُؤْجَرُ مُجانبُه[3]: [من الطويل]

عن الدهر فاصْفَحْ[4] إنه غيرُ مُعْتِب[5] وفي غيرِ مَنْ قد وارت التُّربُ فاطمَع

والحضرةُ تُعْلِمني من لاحقةِ رجوعها إلى الله بعد الاسترجاع، ومن تسليم خاطِر الحزن إلى حكم الله ما يُسرّ خاطر الاستطلاع؛ وحسبه ـ أبقاه الله تعالى ـ من كل هالك، ولا يجزَع المحاسَب مِنْ فَذَالك، ومثلُه مَنْ أخذ بعزائم الله فيما هو آخذٌ وتارك. جبرَ الله مُصابَه، وعظَّم ثوابه، وسقى الماضي وروّى ترابه، ولا تذهب النفس حسرةً لما شهدت العينُ ذَهابَه: [من الكامل]

وتخطّفته يدُ الرَّدَى[6] في غَيْبتي هَبْنِي حضرتُ فكنتُ ماذا أصنَعُ

ومن إنشاء الشيخ ضياءِ الدينِ أحمدَ بنِ محمدِ القُرْطُبيّ ما كتب به إلى الصاحب شرف الدين الفائزيّ يعزّيه في مملوك تُوفّي له، وكان الصاحب قد جزع لفقده. ابتدأ كتابه بأن قال: [من الوافر]

فِدًى لك من يُقَصِّرُ عن مَداكا فلا أحدٌ إذًا إلا فِداكا

إنا لله وإنا إليه راجعون. لقد كان لكم في رسول الله أُسْوةٌ حَسَنة، وسُنّة في الأسى مُسْتَحْسنة؛ وإنما الأنفس ودائعُ مُستودَعة، وعَوارٍ[7] مُسترجَعة، ومواهبُ بيد الفناء مُستنزَعة: [من الكامل]

فالعمر نومٌ والمنيّة يقظةٌ والمرءُ بينهما خيالٌ سارِي[8]

وما بِرح ذوو العَزمات[9] يتلَقَّون وارداتِ المصائب بصبرهم، وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمِنةٍ إذا قضى الله ورسولُه أمرًا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرِهم[10]. وإنّ يد الله

---

(١) الألّاف: جماعة الرفاق المؤتلفين.
(٢) أفضى: أدّى.
(٣) مجانبه: مفارقه وتاركه.
(٤) أصفح: أغفر وتجاوز.
(٥) معتب: مرضٍ.
(٦) الردى: الهلاك.
(٧) عوار: جمع عارية، وهي الشيء الذي يُعار.
(٨) ساري: سائر ليلًا.
(٩) ذوو العزمات: أصحاب الصبر والقوة على تحمل المشاق.
(١٠) أول الآية ٣٦ من سورة الأحزاب. والبقية ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾=

لمليّة بفيض المواهب، وفي الله عوضٌ من كل بائن وخلفٌ من كل ذاهب. وإذا سلم مولانا في نفسه وولده، فلا بأس إذا تطرّقت يد الردى إلى مِلك يده: [من البسيط]

فأنت جوهرة الأعناق، ما مَلَكت كفّاك من طارفٍ[1] أو تالد[2] عَرَضُ[3]

والحمد لله الذي جعل المصيبةَ عندك لا بك، والرزيَّةَ لك لا فيك: [من البسيط]

* إذا سَلِمتَ فكلُّ الناس قد سلموا *

وإذا تخطّتكما المنيّة فلها في سواكما الخِيار، ولنا القِدْحُ المُعَلّى[4] إذا أورى[5] زَنْد[6] هذا الاختيار. ولا بدّ في مَشْرَع[7] المنيّة من مفقودٍ وفاقد: [من السريع]

كـن الـمُـعَـزّى لا الـمـعـزَّى بـه إن كـان لا بـدّ مـن الـواحـد

وهذا فقد وهبه الله لمولانا من حيثُ إنه أخذه منه، وأبقاه له من حيث رآه ذاهبًا عنه؛ فهو بالأمس عاريَةٌ مردودة، واليوم ذخيرة موجودة؛ وكان عطيّةً مسلوبة وهو الآن نعمةٌ موهوبة؛ كنتَ له وهو الآن لك، وفزتَ به والسعيدُ من فاز بما ملك. وهذه دارٌ دواؤها دَاؤها، وبقاؤها فَناؤها؛ طالبها مطلوب، وسالبها مسلوب؛ وإنَّ لنا فيمن سَلَف لعزاء، ولنا برسول الله ﷺ اقتداء؛ ولا بدّ من ورُود هذا المشرع، ومُلاقاة هذا المصرع.

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ما كتب به عن بعض النوّاب إلى الأمير عزّ الديّن الحمويّ النائب ـ كان بدِمَشْق ـ تعزيةً بولده:

أعزّ الله أنصار المقرّ الكريم العالي، ولا هدمت له الخطوب ركنًا، ولا فجأت له الحوادث حِمًى ولا طلبت عليه إذنًا، ولا هصرت[8] أيدي الأقدار من عروشه الناضرة غُصْنًا، ولا أذاقته الأيّام بعدما مرّ أسفًا على مَن يحبّ ولا حُزنًا،

[الآية ٣٦].

(١) الطارف: المال الحديث.

(٢) التالد: المال القديم.

(٣) عرض: شيء يذهب ويعرض ولا يثبت.

(٤) القدح المعلّى: السهم الفائز. والقدح، في الأصل، السهم قبل أن ينصل ويراش.

(٥) أورى: أشعل.

(٦) زند: حجر الصّوان تورى به النار.

(٧) مشرع: مكان الشروع، أو هو المصدر الميمي من شرع في الماء، إذا دخل فيه أو شرب بكفّيه منه.

(٨) هصرت: لوت وهزّت.

ولا سلَبه الجزَع رداء الصَّبر الذي يخصّه بجزيل الأجر وإن شَرِكه في الأسى والأسف كلٌّ منا.

المملوك يقبّل اليد الكريمة، ويُنْهِي أنه اتّصل به النبأ الذي صدَع قلبَه، وشغَل بالبكاء طَرْفه وبالأسف لسانَه وبالحزن لُبّه[١]؛ وهو ما قدّره الله تعالى من وفاة المولى الأمير ركن الدين عمر ـ تغمده الله برضوانه ـ الذي اختار الله له ما لديه، وارتضى له البقاءَ الدائم على الفاني فنقله إليه؛ على أن الدين فقد منه رُكنًا شديدًا، ورأيًا سديدًا، وعزمًا وحزمًا مُعينًا مفيدًا، وأميرًا أردنا أن يعيش سعيدًا، فأبى الله إلا أن يموت شهيدًا؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون. لقد كان للرجاء في اعتضاد[٢] الدولةِ القاهرة به أيُّ مجال، وللآمال في الانتظار ببأسه ظنونٌ تُحقِّق أن الغلبة للدِّين دائمًا مع أن الحروب سِجال[٣]؛ وللمواكب بطلوع طَلْعته أيُّ إشراق، وللعيون عن مشاهدة كماله وأبهة جلاله أيُّ إغضاء[٤] وأيّ إطراق. ولله أيُّ بدرٍ هوى من أُفُق بروجه عن فَلَك، وأيُّ شمس ما رأته الجواري الكُنَّس[٥] إلا قلن: حاش لله ما هذا بَشَرًا إنْ هذا إلا ملكٌ[٦]؛ وأيّ حِصن كانت منه ثمارُ الشجاعة تُجتَنى، وأيّ أسد براثِنُه[٧] الصوارم[٨] وأجَماته[٩] القَنَا[١٠]. لقد فَتَّ في عَضُد الدين مُصابُه، وأذهب صحّةَ الأنس به وحلاوةَ وجوده أوصابُ[١١] فقده وصابه؛ وكادت الصوارمُ أن تَشُق عليه غُمودَها، والرّاياتُ أن تقطّع عليه ذوائبَها وتغيِّر بنودَها[١٢]، والرماحُ أن تَعْرِض على النار لتَقْصِف لا لتُثَقَّفَ[١٣] قدودَها؛ والجيادُ أن تتعثّر للحزن بذُيُولها، وتعتاضَ بالنَّوْح عن صهيلها. ولو أُنْصِف لأكنَّته[١٤] القلوب في ضمائرها، ولو قُبِل الفِداءُ لسمَحَتْ فيه النفوسُ بالنفائس ولو كانت الحياةُ من ذخائرها؛ أو لو كان الحتف[١٥] مما يُدَافَعُ بالجنود تحطّمت دونه القنا في دروع عساكرها، ولكنه السبيل الذي لا

(١) لبّه: عقله.
(٢) اعتضاد: احتضان واستعانة.
(٣) سجال: أي كل فريق يسجّل انتصارًا على الآخر، فلا منتصر ولا منهزم.
(٤) إغضاء: إخفاء وإطراق.
(٥) الكنّس: المستترة.
(٦) هذا الكلام، هو آخر الآية ٣١ من سورة يوسف، ولا ينقص ذلك إلا لفظة (كريم).
(٧) براثنه: أظفاره.
(٨) الصوارم: السيوف القاطعة.
(٩) أجماته: جمع أجمة، وهي المكان الذي يكون فيه بيت الأسد.
(١٠) القنا: الرماح.
(١١) أوصاب: أوجاع.
(١٢) بنودها: أعلامها وراياتها.
(١٣) تثقّف: تقوّم.
(١٤) أكنّته: سترته.
(١٥) الحتف: المنيّة.

مَجِيدَ عن طريقه، والمُعَرَّسُ[١] الذي لا بدّ لكل حيّ من النزول على فَرِيقه؛ وهو الغاية التي تستَنّ إليها النفوس استنان الجياد، والحَلْبة التي كنّا نحن وهذا الدارجُ نَركُض إليها ولكنّ السابق كان الجواد؛ على أن المتأخِّر لا بدّ له من اللَّحاق، وماذا عسى يسرّ البدر بكماله وهو يعلم أن وراءه المِحَاق[٢]! وفي رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يعلم أن كلَّ رُزءٍ بعده جَلَل[٣]، وإذا انتقل العبدُ إلى الله تعالى غيرَ مفتون في دينه ولا مُثْقَلَ الظهرِ من الأوزار[٤] حمِدَ في غَدٍ ما فعل؛ وغُبِط[٥] بقدومِه على أكرم الأكرمين مسرورًا، ولقي الله وقد جعل في قلبه نورًا وفي سمعه نورًا وفي بصره نورًا. والمولى أعزه الله تعالى أولى مَنْ تَلَقّى أمر الله بالتسليم والرضا، وقابل أقدارَه بأن الخِيَرَة فيما قدّر وقضى؛ وحمِد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم أعظمُ خَلَف، وأجملُ عوض يقال به للدّهر الذي اعتذر بدوام المسَرّة فيهم: عفا الله عمّا سلف؛ وعلم أنّ الخطب الذي هدّ ركن الدين باحترابه واجتراحه، قد صرفه إلى الأمد عن الإلمام بساحة شهابه والتعرُّض إلى حِمَى فخره والنظرِ إلى حيّ صلاحه؛ ففي بقائهم ما يُرْغم العدا، ويُعِزّ حزب الهدى؛ ويُقيم كلًّا منهم في خدمة الدولة القاهرة بين يدي المولى مقامَ الشِّبل[٦] المنتمِي للأسد، ويُنْهِضهم من مصالح الإسلام مع ما يعلمه منهم من حسن الثَّبات من الوالد وسُرعةِ الوَثَبات من الولد. والله تعالى يُجزِل له من الأجر أوفاه، ويحفظ عليه ـ وقد فعل ـ أخْراه؛ ويجعله للإسلام ذُخْرًا، ولا يُسمعه مع طول البقاء بعدها تعزيةً أخرى.

ومن أحسن الرثاء وأشجاه ما نطقت به الخَنْساء[٧] في رِثائها لأخيها صَخْرٍ، فمن ذلك قولها: [من الوافر]

أَلَا يا صخرُ إن أبكيتَ عيني ... لقد أضحكتني دهرًا طَويلَا

(١) المعرّس: الموضع يعرّس فيه القوم. والتعريس: نزول القوم من السفر للاستراحة ثم يرتحلون.
(٢) المحاق: الانطماس، وهو عبارة عن خفاء الشهر لعدة ليال في آخره.
(٣) الجلل: الهيّن واليسير. وقد يأتي بمعنى العظيم.
(٤) الأوزار: جمع وزر، وهو الخطأ والإثم. (٥) غبط: فُرح.
(٦) الشبل: ولد الأسد.
(٧) الخنساء: لقب لها لخنس في أنفها أو وجهها. واسمها تماضر بنت عمرو بن الحارث، وكنيتها أم عمرو. شاعرة جاهلية إسلامية مشهورة بكت أخويها صخرًا ومعاوية ورثتهما أجمل رثاء. كما رثت أولادها الأربعة الذين قتلوا في القادسية، في الإسلام. لها ديوان شعر مطبوع. ماتت حوالي سنة ٦٤٥ م.

دفعتُ بك الجليلَ وأنت حَيٌّ ... فمن ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجليلا[١]
إذَا قَبُح البكاءُ على قتيلٍ ... رأيتُ بكاءَك الحَسَنَ الجميلَا

وقالت أيضًا فيه: [من الطويل]

أَلَا هَبِلتْ[٢] أمُّ الذين غَدَوْا به ... إلى القبر، ماذا يحمِلون إلى القبر!
وماذا يُواري القبرُ تحت تُرابِه ... من الجُود! يا بؤسَ الحوادثِ والدهرِ!
فشأنَ المنايا إذ أصابك رَيْبُها ... لِتَغْدُ على الفِتْيانِ بعدَك أو تَسْرِي

وقالت: [من الوافر]

يُذَكّرني طلوعُ الشمسِ صَخْرًا ... وأبكِيه لكُلّ غروبِ شمسِ
ولولا كثرةُ الباكِينَ حَوْلِي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يَبْكُون مثلَ أخي ولكنْ ... أُسَلّي النفسَ عنه بالتأسّي[٣]

وقالوا: أرثي بيت قالته العربُ قولُ مُتَمِّم[٤] بنِ نُوَيرةَ في أخيه مالك، وكان قد قتله خالد بنُ الوليد[٥] في الرِّدَّة. وكان متمم قدِم العراقَ، فأقبل لا يرى قبرًا إلا بكى؛ فقيل له: يموت أخوك بالمَلَا[٦] وتبكي على قبر بالعراق! فقال: [من الطويل]

لقد لامَني عند القبور على البُكا ... رفيقي لتَذْرافِ[٧] الدموع السَّوافكِ[٨]
أمِن أجل قبرٍ بالمَلَا أنت نائحٌ ... على كلّ قبر أو على كلّ هالكِ
وقال: أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ ... لقبرٍ ثَوَى بين اللِّوى فالدَّكَادكِ[٩]
فقلت له: إن الشّجَا[١٠] يبعث الشجا ... فدعني فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

---

(١) الجليل: العظيم.
(٢) هبلت: فقدت، وثكلت.
(٣) التأسّي: إظهار الصبر والتجمّل.
(٤) متمم بن نويرة: هو أبو مالك اليربوعي، من شعراء الرثاء المقلّين. رثى أخاه مالكًا وكان هذا فارسًا وشجاعًا، أسلم ثم ارتدّ، فقتله ضرار بن الأزور بأمر من خالد بن الوليد، فجزع عليه متمم كثيرًا وقال فيه أصدق الشعر وأرقّه. مات متمم سنة ١٢ هـ/ ٦٣٤ م.
(٥) خالد بن الوليد: من قادة العرب وفرسانهم. شارك في فتوح فارس والشام. هزم الروم بأجنادين واليرموك. تُوفي في حمص أو في المدينة سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢ م.
(٦) الملا: اسم موضع ما بين نقعاء وملتقى الرمل والخرانق.
(٧) تذراف: مصدر على وزن (تفعال) من ذرف بمعنى سكب.
(٨) السوافك: المنهملة.
(٩) اللوى: منقطع الرمل. وهو اسم موضع بعينه. والدكادك: الأراضي الغليظة.
(١٠) الشجا: الحزن والأسى.

معناه قد ملأ الأرض مُصابُه عِظَمًا، فكأنه مدفونٌ بكلّ مكان. وهو أبلغ ما قيل في تعظيم ميّت. وقيل أرثى بيتٍ قالته العرب قول المُحْدَث: [من الطويل]

على قبره بين القبور مهابةٌ كما قبلها كانت على صاحب القبرِ

وقيل: بل قول الآخر: [من الطويل]

أرادوا لِيُخْفُوا قبرَه عن عدوِّهِ فطِيبُ تراب القبرِ دَلَّ على القبرِ

وقالوا: بل بيت غيره: [من الطويل]

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ ولكنه بُنيانُ قومٍ تهدَّما

وقال الأصمعي: أرثى بيت قالته العرب قول الشاعر: [من الطويل]

ومن عَجَبٍ أن بِتَّ مُستشعِرَ الثَّرَى وبِتُّ بما زوَّدتَني مُتمتِّعا
ولو أنني أنصفتُكَ الودَّ لم أبِتْ خلافَكَ حتى ننطوي في الثرى معا

ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مُطَير الأسديّ[١]: [من الطويل]

ألِمّا بمَعْنٍ ثم قُولَا لقبره: سقتْك الغوادِي[٢] مَرْبعًا ثم مَرْبعا
فَتًى عِيشَ في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
أيا قبرَ معن كنتَ أوّلَ حُفْرةٍ من الأرض خُطّتْ للسماحة مَضْجَعا[٣]
ويا قبرَ معن كيف واريتَ[٤] جُودَهُ[٥] وقد كان منه البَرُّ والبحر مُتْرَعا!
بلى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ مَيِّتٌ ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدّعا
ولمّا مضى معنٌ مضى الجُود والنَّدى وأصبح عِرْنِينُ[٦] المكارمِ أجْدَعا[٧]

قال أبو هلال العسكريّ: هذه الأبيات أرثى ما قيل في الجاهلية والإسلام.

---

(١) شاعر عباسي مولّد، رقيق العبارة، جيد الأسلوب، رثى العديد من الأعيان ومنهم معن بن زائدة الشيباني.
(٢) الغوادي: جمع غادية، وهي السحابة الممطرة في الغداة.
(٣) مضجع: موضع الاضطجاع، كناية عن القبر.
(٤) واريت: سترت وأخفيت. (٥) جوده: كرمه.
(٦) عرنين الأنف: أعلى قصبته. (٧) أجدع: مقطوع.

وقال بكر بن النطّاح[١] يَرْثي معقل بن عيسى: [من الطويل]

وحدّثني عن بعض ما قال أنه ... رأيت عينُه فيما ترى عينُ نائم

كأن الندى[٢] يبكي على قبر مَعْقلٍ ... ولم تَرهُ يبكي على قبرِ حاتم[٣]

ولا قبرِ كَعْب[٤] إذ يجود بنفسه ... ولا قبرِ حِلْف الجود قَيْسِ بن عاصمِ[٥]

فأيقنتُ أن الله فضّل معقِلًا ... على كل مذكور بفضل المكارمِ

وقال آخر: [من الطويل]

لعَمْرُك ما وارى الترابُ فَعالَه ... ولكنما وارى ثيابًا وأعظُما

ومثله لمنصور[٦] النَّمَرِيّ: [من الطويل]

فإن تَكُ أفنته الليالي وأوشكت ... فإن له ذكرًا سيَبْقَى اللياليَا

وقال التميميّ في منصور[٧] بن زياد: [من الكامل]

أمّا القبورُ فإنّهنّ أوانسٌ ... بفِناء قبرك والدّيار قبورُ

عمّت صنائعُه فعمّ مُصابُه ... فالناسُ فيه كلُّهم مأجورُ

يُثني عليك لسان من لم تُولِهِ ... خيرًا لأنك بالثناء جدير

رَدّتْ صنائعُه إليه حياتُه ... فكأنه من نشرها منشورُ

فالناس مأتمهم عليه واحدٌ ... في كل دار رَنّةٌ وزفيرُ

---

(١) بكر بن النطاح: من بني حنيفة، كنيته أبو وائل. شاعر غزل، وفارس، وجواد من الأجواد. عاش في اليمامة. انتقل إلى بغداد أيام الرشيد، وفيها مات سنة ١٩٢ هـ.

(٢) الندى: الجود والكرم.

(٣) هو حاتم الطائي، الشاعر والجواد والفارس الذي يضرب بشجاعته وجوده المثل في الجاهلية.

(٤) لعلّه كعب بن مامة الإياديّ، من أبرز الأعيان والأجواد في الجاهلية. ضرب المثل بجوده وكرمه وشجاعته.

(٥) قيس بن عاصم: من شعراء الجاهلية الأجواد. أدرك الإسلام فأسلم وكان في جملة من وفد على الرسول ﷺ مع وفد تميم.

(٦) منصور النمري: شاعر عباسي اتصل بهارون الرشيد ومدحه، كما مدح عددًا آخر من أمراء بني العباس. مات سنة ٨٠٥ م.

(٧) هو محمد بن منصور بن زياد، كاتب البرامكة.

وقال ابن القزّاز المغربيّ: [من الطويل]

سأبكيك لا أنّ البكا عَدْلُ[1] لوعتي ... ولا أنّ وجدي فيك كُفْءُ تَنَدُّمي

وقَلّ لعيني أن تَفِيضَ دموعُها ... عليك ولو أنّ الذي فاض من دمي

وقال الخُرَيْمي[2]: [من الطويل]

وأعددته ذُخْرًا لكلّ مُلِمّةٍ[3] ... وسهمُ الرزّايا بالذخائر مُولَعُ

وإني وإن أظهرتُ منّي جَلَادةً ... وصانعتُ أعدائي عليه لمُوجَعُ

ولو شئتُ أن أبكي دمًا لبكيتُه ... عليه ولكن ساحةُ الصبر أوسعُ

وقال أبو هِلال العسكريّ[4]: [من الطويل]

على الرغم من أنف المكارمِ والعُلَا ... غدتْ داره قَفْرًا ومَغْناه بَلْقعا[5]

ألم تر أنّ البأسَ أصبح بعده ... أشلّ[6] وأن الجودَ أصبح أجْدَعا[7]

فمُرّا على قبر المُسَوَّدِ وانظُرا ... إلى المجد والعلياء كيف تخشَّعا

فإن يك واراه الترابُ فكَبِّرا ... على الجودِ والمعروفِ والفضلِ أربعا

ولا تَسْأما نَوْحًا عليه مُكرَّرًا ... ونَوْحًا لفقد العارفات مُرَجَّعَا

فما كان قَيْسٌ هُلْكُه هُلْك واحدٍ ... ولكنّه بُنيانُ قوم تَضَعْضَعا[8]

ولا تحسَبا أنّي أُواريه وحدُه ... ولكنني واريتُه والنَّدَى معا

وقال أيضًا: [من الطويل]

ألستَ ترى موتَ العُلا والفضائلِ ... وكيف غروبُ النجم بين الجنادلِ![9]

فما للمنايا أغفلت كلَّ ناقصٍ ... ونقّبن في الآفاق عن كلّ فاضلِ!

على الرغم من أنف العُلا سِيقَ للرّدى ... بكل كريم الفعل حُرِّ الشمائلِ[10]

---

(١) عدل: مثل ونظير.

(٢) الخريمي: إسحٰق بن حسان. كنيته أبو يعقوب، من أصل فارسي. كان مولى ابن خريم بن عمرو من بني مرّة، مُعرف به.

(٣) ملمّة: صفة لكل أمر عظيم شديد.

(٤) أبو هلال العسكري: صاحب «الصناعتين» الكتاب المشهور. سبق التعريف به.

(٥) بلقع: قفر.

(٦) أشلّ: يده مشلولة. كناية عن النقص.

(٧) أجدع: الأجدع، من كان قطع أنفه.

(٨) تضعضع: تهدّم أو أشرف على الهدم.

(٩) الجنادل: الحجارة الكبيرة.

(١٠) الشمائل: الصفات المحمودة.

عـلى أنّ مـن أبـقـتـه لـيـس بـخـالـدٍ — ولـيـس امرؤٌ يـرجـو الـخـلودَ بـعـاقـلِ
رأيـت الـمـنـايـا بـيـن غـاد ورائـح — فـمـا لـلـبـرايـا بـيـن سـاهٍ وغـافـلِ!
ولـم أر كـالـدنـيـا حـبـيـبًـا مُـضِـرَّةً — ولـم أر مـثـل الـمـوت حـقًّـا كـبـاطـل

وقال الرَّقاشيّ[١] في البرامكة: [من الطويل]

أَلَانَ استرحْنا واستراحت ركابُنا — وقَلَّ الذي يُحْدَى ومن كان يَحْتدي[٢]
فقل للمطايا[٣]: قد أمِنْتِ من السُّرَى[٤] — وطَيِّ الفيافي[٥] فَدْفَدًا[٦] بعد فَدْفدِ
وقل للمنايا: قد ظَفِرْتِ بجعفرٍ[٧] — ولـن تـظـفَـري مـن بـعـده بـمُـسَـوَّد
وقل للعطايا بعد فَضْلٍ[٨]: تَعطَّلي — وقـل لـلرزايـا كـل يـوم: تَـجـدّدي
ودونَـكَ سـيـفًـا بَـرْمـكـيًّـا مُـهَـنّـدًا[٩] — أُصِـيـب بـسـيـفٍ هـاشـمـيٍّ مـهـنّـدِ

وقال آخر: [من الطويل]

سأبكيك للدّنيا وللدّين، إنني — رأيتُ يدَ المعروف بعدك شَلّتِ[١٠]
ربيعٌ إذا ضَنَّ[١١] الغمامُ بمائه — وليثٌ إذ ما المَشْرفيّةُ[١٢] سُلّتِ[١٣]

وقال عبد الله بن المعتزّ[١٤]: [من الطويل]

ألستَ ترى موت العُلَا والمحامدِ — وكيف دفنّا الخَلْقَ في قبر واحدِ
ولـلدّهـرِ أيّـامٌ يُـسِـئـنْ عِـوامِـدًا — ويُحسِنّ إنْ أحْسَنَّ غيرَ عوامِدِ

وقال أبو الطيّب المتنبّي: [من الكامل]

إنـي لأعـلـم - والـلـبـيـبُ خـبـيـرُ - — أن الـحـيـاة وإن حَـرصـت غُـرور

---

(١) الرقاشي: وقيل: هو أشجع السلمي الشاعر العباسي الذي مدح البرامكة ونال أعطياتهم.
(٢) وفي (مروج الذهب) تجد: (يجدي) و(يجتدي) بدلًا من (يحدي) و(يحتدي). انظر: مروج الذهب ٣/ ٣٩٠.
(٣) المطايا: جمع مطيّة، وهي كل دابّة مركوبة. (٤) السُّرَى: السير ليلًا.
(٥) الفيافي: الصحارى الواسعة. (٦) الفدفد: المكان الواسع فيه صلابة وغلظ.
(٧) هو جعفر بن يحيىٰ البرمكي، الوزير، وسبق التعريف به.
(٨) هو الفضل بن يحيىٰ البرمكي، أخو الرشيد بالرضاعة، ومؤدب الأمين.
(٩) مهندًا: صفة للسيف المنسوب إلى الهند. (١٠) شلّت: قُطعت.
(١١) ضنّ: بخل. (١٢) المشرفية: صفة للسيوف.
(١٣) سلّت: أخرجت من أغمادها.
(١٤) عبد الله بن المعتز، العباسي، الخليفة والأمير، سبق التعريف به.

ما كنتُ أعلم قبلَ دفنك في الثرى أن الكواكب في التُّراب تَغورُ[(١)]
خرجوا به ولكلّ باكٍ حوله صَعَقاتُ موسى يوم دُكّ الطُّورُ[(٢)]
حتى أتَوْا جَدَثًا[(٣)] كأنّ ضريحَه في قلب كلّ مُوَحّدٍ محفورُ
نبكي عليه وما استقرّ قراره في اللحدِ[(٤)] حتى صافحته الحُورُ[(٥)]

ومنها: [من الكامل]

صبرًا على المكروه فيه تَكَرُّما إنّ العظيم على العظيم صَبورُ
ولكلّ مفجوعٍ سواكم مُشبِهٌ ولكلّ مفقودٍ سِواهُ نظيرُ

وقال آخر: [من الطويل]

كفى حَزَنًا أنّي تخلّفتُ بعده أدورُ مع الباكين في عَرَصاتهِ[(٦)]
وصارت يميني ما حلَفتُ بقبره وكانت يميني قبلها بحياتهِ

وقال آخر: [من الطويل]

وكنتُ أخاف الدّهرَ ما كان باقيًا فلما تولّى مات خوفي على الدّهرِ

وقال آخر: [من الطويل]

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبُكا أجاب البكا طوعًا ولم يُجِبِ الصبرُ
وإن يَنقطِعْ منك الرجاءُ فإنه سيَبْقى عليك الحزنُ ما بَقِيَ الدهرُ

وقال آخر: [من الطويل]

فواللهِ لو أسطيعُ قاسمتُه الرّدَى[(٧)] فمُتْنا جميعًا أو يُقاسِمُني عمري
ولكنما أرواحُنا مِلكُ غيرنا فما لِيَ في نفسي ولا فيه من أمرِ
أحَمِّلُه ثِقْلَ التّرابِ وإنني لأخشى عليه الثقل من مَوْطِىء الذَّرّ
وما أنا بالوافي وقد عشتُ بعده وربَّ اعتراف كان أبلغَ من عُذر

---

(١) تغور: تذهب بعيدًا وتختفي.
(٢) الطور: الجبل الذي تجلّى فيه سبحانه وتعالى لموسى، النبي. ودكّ: خرّ. وفي الكلام إشارة إلى قوله تعالى: ﴿...فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا...﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣].
(٣) جدثًا: قبرًا. (٤) اللحد: جانب القبر.
(٥) الحور: أي الحور العين اللائي وعد الله بهنّ عباده الصالحين في الجنة، يتزوجون بهنّ.
(٦) عرصاته، جمع عرصة، وهي فناء الدار. (٧) الردى: الموت والهلاك.

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

يا راحلًا لم يُبْقِ لي ... من بعده في العيش نَفْعا
ضاقت عليّ الأرضُ فيـ ... ـك وضِقْت بالإخوان ذَرْعَا
ورعَيْتُ فيك النَّجمَ يا ... من كان يحفَظُني ويَرْعى
أبْكيك بالشعر الذي ... قد رقّ حتى صار دمعا

وقال تاج الملوك[1] بن أيّوب يَرثِي أخاه: [من الكامل]

لو كان يَشفِي الدمعُ غُلّة[2] واجدٍ[3] ... لشَفَى غليلي فيضُ دمعي الهامرِ
هيهاتَ لا بردَ الغليلُ وقد ثَوى ... من كان من عُدَدي وخير ذخائري
يا للرّجالِ لِنَكْبةٍ قد أذهبت ... جَلَدَ[4] الجليدِ وحُسْنَ صَبْر الصابرِ
طرَقَتْ فتى المُلْك المعظَّمِ فانثنى ... نم بعد بَهجتِه كرَبْع داثرِ

ومنها:

جَبَلٌ هوَى فارتجّت الدنيا لهُ ... فكأنما رَكِبتْ جَناحَيْ طائرِ

ومنها:

مَنْ للنّوائب[5] يوم تفترس الورى[6] ... قَسْرًا[7] بأنياب لها وأظافِرِ
أضحى وحيدًا في التراب كأنّه ... ما سار بين مواكب وعساكرِ
قد كان لا تَعْصِي البريّةُ أمرَه ... فانقاد ممتثِلًا لأمر الآمرِ
مولاي دعوةُ والهٍ[8] غاردتَه ... وَقْفًا على نُوَب[9] الزمان الغادرِ
هل من سبيل للزيارة عندها ... هيهاتَ حال الموتُ دون الزائرِ
لو كان خَصْمُك غيرَ حادثة الرّدى ... لرددتُه بذوابِلٍ[10] وبواترِ[11]

---

(١) تاج الملوك بن أيوب بن محمد ملك الأيوبيين في مصر.
(٢) الغلّة: الحرقة وشدة العطش.
(٣) الواجد: الواله الحزين.
(٤) الجلد: الصبر والثبات.
(٥) النوائب: جمع نائبة، وهي المصيبة.
(٦) الورى: الخلق والبريّة.
(٧) قسرًا: كرهًا.
(٨) الواله: المحب المحزون.
(٩) النوب والنوائب: جمع نائبة، أي مصيبة.
(١٠) الذوابل: صفة للرماح.
(١١) البواتر: القواطع، صفة للسيوف.

أو كان يُدْرَك ثأرُ من أودى[(١)] به رَيْبُ المنون لكنتُ أوّلَ ثائرِ
لكنّه الموت الذي قهَر الورَى من حيث لا تَثْنيه قدرةُ قادرِ

وقال كمال الدين بن النبيه[(٢)] يرثي الأمير علي ابن الخليفة الناصر لدين الله:
[من السريع]

الناس للموت كخيل الطِّراد فالسابقُ السابقُ منها الجوادْ
والله لا يدعو إلى داره إلا مَنْ استصلح من ذي العبادْ
والموت نَقّاد، على كفه جواهرٌ يَختار منها الجِيادْ
والمرء كالظلّ ولا بدّ أن يزولَ ذاك الظلُّ بعد امتدادْ
لا تصلُحُ الأرواحُ إلّا إذا سرى إلى الأجسام هذا الفسادْ
أرغمتَ يا موتُ أُنوفَ القنا ودُسْتَ أعناقَ السيوف الحِدادْ[(٣)]
كيف تخرّمتَ[(٤)] أميرًا وما أنجده كلُّ طويلِ النِّجادْ[(٥)]
مُصيبةٌ أذكت قلوبَ الورى كأنما في كلّ قلبٍ زِنادْ[(٦)]
نازلةٌ[(٧)] عمّت فمِنْ أجلها سنَّ بنو العباس لُبْسَ السَّوادْ
مأتمةٌ[(٨)] في الأرض لكن لها عُرْسٌ على السبع الطِّباق الشِّداد[(٩)]
طرقتَ يا موتُ كريمًا فلم يقنَعْ بغير النفس للضيفِ زَادْ
قصمتَه[(١٠)] من سِدْرة المُنْتَهى[(١١)] غُصْنًا فشلّت يَدُ أهل العنادْ
يا ثالثَ السِّبطَيْن[(١٢)] خلّفتني أهيم من همّيَ في كلّ وادْ
يا نائمًا في غَمَرات[(١٣)] الرّدَى كَحَلْتَ أجفاني بمِيلِ السُّهادْ[(١٤)]

---

(١) أودى به: أهلكه.
(٢) ابن النبيه: واسمه علي، من شعراء مصر في العهد الأيوبي. مدح ملوكهم، وله ديوان شعري مطبوع. مات سنة ١٢٢٢ م.
(٣) الحداد: الماضية، المسنونة جيدًا.
(٤) تخرّمت: أهلكت واستأصلت.
(٥) النجاد: حمّالة السيف.
(٦) الزناد: حجر القدّاحة تورى به النار.
(٧) النازلة: المصيبة الشديدة.
(٨) المأتمة: المناحة في الموت.
(٩) السبع الطباق الشداد، صفة للسمٰوات السبع.
(١٠) قصمته: قطعته وصرعته.
(١١) سدرة المنتهى، شجرة في الجنة، وقيل في السماء السابعة قريبة من العرش.
(١٢) السبطان: الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب.
(١٣) غمرات: لجج.
(١٤) السهاد: الانتباه وعدم القدرة على النوم.

ويا ضجيعَ التُّرب أسقمَتني ... كأنما فَرْشِيَ شوكُ القَتَادْ[١]
دُفِنتَ في الترب ولو أنصفُوا ... ما كنتَ إلا في صميم الفؤادْ
خليفةَ الله اصطبرْ واحتسِبْ ... فما وهى[٢] البيتُ وأنت العِمادْ
في العلم والحلم بكم يُقْتَدَى ... إذا دجا الخطبُ وضَلَّ الرشادْ
وأنت لُجُّ البحرِ ما ضرّه ... أن سال من بعض نواحيه وادْ

ولما مات الإخشيد محمدُ بنُ طُغْجٍ[٣] رثاه جماعةٌ من الشعراء منهم محمدُ بنُ الحسنِ بن زكريا فقال: [من الخفيف]

في الرزايا روائعُ الأوجالِ[٤] ... والبرايا دَريئةُ[٥] الآجال[٦]
وكذا الليلُ والنهارُ اعتبارٌ ... للورى في تفكُّر الأحوالِ
كلُّ شيء وإن تمادَى مداه ... قَصْرُهُ للفَناء أو للزَّوال
وأرى كلَّ عِيشةٍ لأناسٍ ... كونُها مُؤذِنٌ بوَشْك انتقالِ
كل ذي جِدّة ـ إذا ما الجديدا ... ن[٧] ألحّا عليه ـ مُودٍ بالِ
ما لخَلْقٍ من المنون مَفَرٌّ ... لا ولا دون بطشِها من مآلِ
كان غيث الأيّام أن أخلف[٨] الغيـ ... ـثُ أطلّتْ سحابُه بانهمال
فجَعَتْنا بواهبٍ لا نراه ... يَخْلُق الوجهُ عنده بابتذالِ
فجعتنا ببهجة الأرض في الأر ... ض وشمسِ الضُّحَى وبدرِ اللّيالي
فجعتنا بمن حَمَى حُرْمةَ الإسـ ... ـلام من حادث ومن خَتالِ[٩]
فجعتنا بالباسل البَطَل السا ... مي غداةَ الوغَى إلى الأبطالِ
فجعتنا بالواهب المُجزِلِ المر ... تاح حين السؤال للسؤّالِ
عَجبٌ إذ دنتْ إليه المنايا ... وحِمَى عِزِّه المنيعُ العالي
أين من يشتري المدائحَ والشكـ ... ـر بأسْنى[١٠] وَفْرٍ وأوفى نَوالِ

(١) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر.
(٢) وهى: سقط وخرّ. وضعف.
(٣) الإخشيد محمد بن طغج، مؤسس دولة الإخشيديين التي خلفت دولة الطولونيين في حكم مصر وسوريا.
(٤) الأوجال: المخاوف.
(٥) دريئة: جُنّة ووقاية.
(٦) الآجال: غاية الوقت، الموت.
(٧) الجديدان: الليل والنهار.
(٨) أخلف الغيث: تأخر ولم يمطر.
(٩) ختّال: مخادع.
(١٠) أسنى: أرفع.

قطع الموتُ وَصْلَنا منه كرهًا والردَى قاطعٌ لكل اتِّصالِ
رحمة الله والسلام عليه في الضُّحَى والعِشاء والآصال
وسقى الله حُفرةً ضَمَّنَتْهُ شُكرَ واهٍ من الحَيَا[1] هطّالِ

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ابنهِ فقال:

إنْ خبا[2] بدرُه فقد لاح للأمّة لمّا خَبَا طلوعُ الهلالِ
نُوره مُشرِقٌ مضيءٌ مدى الدهر منيرٌ وليس ذا اضمحلالِ

وقال أبو الطيب المتنبّي يرثيه: [من البسيط]

هو الزمانُ مُشِتٌّ[3] بالذي جمعا
في كل يوم نرى من صَرْفه[4] بِدَعا
لو كان مُمْتَنِعٌ تُغنيه مَنَعَتُه
لم يصنع الدهرُ بالإخشيد[5] ما صنَعا
ذاق الحِمام[6] فلم تَدْفَع كتائبُه[7]
عنه القضاءَ ولا أغْناه ما جمعا
لقد نَعَى من نعاه كلَّ مفتخَرٍ
وكلَّ جُود لأهل الأرض حين نعى
لله ما حلّ بالإسلام حين ثَوَى!
لقد وهى شَعْبُ هذا الدّين فانصدعا
فمن تراه يقودُ الخيلَ ساهمةً[8]
سدَّ الفضاءِ ومِلْءَ الأرض ما وَسعا
ترى الحُتُوفَ غُلُوقًا[9] في أسِنّته
لدى الوغى وشهابَ الموت قد لَمَعا

---

(١) الحيا: المطر.
(٢) خبا: ضعف نوره.
(٣) مشتّ: مفرّق.
(٤) صرفه: نُوبه.
(٥) الإخشيد، هو محمد بن طغج مؤسس الدولة الإخشيدية.
(٦) الحمام: الموت.
(٧) كتائبه: جيوشه، جمع كتيبة.
(٨) ساهمة: عابسة.
(٩) كذا بالأصل، ولم نجد معنًى مناسبًا لقوله (غلوقًا) بالمعجمة هنا. فربما كان الصواب (علوقًا)=

لو كان يستطيع قبرٌ ضمّه لسعى
إليه شوقًا ليلقاه وإن شَسَعا[١]

فليَعْجب الناسُ من لحدٍ تضمّن مَنْ
تضمّن الرزقَ بعد الله فاضطلَعا

لو يعلم اللحدُ ما قد ضَمّ من كرمٍ
ومن فخارٍ ومن نَعْماء لاتّسعا

يا لحْدَه إن تَضِقْ عنه فلا عجبٌ
فيه الحِجا[٢] والنُّهى[٣] والبأسُ قد جُمِعا

يا لحدُ طُلْ إنّ فيك البحرَ مُحتبِسًا
واللّيثَ منهصِرًا[٤] والجُودَ مجتمِعا

يا يومَهُ لم تخصّ الفجعَ أُسْرَتُه
كلُّ الورى بِرَدَى الإخشيد قد فُجِعا

يا يومه لم تَدَعْ صبرًا لمصطبرٍ
ولم تدعْ مَدْمَعًا إلا وقد دَمَعا

أردَى الرِّفاقَ رَدَى الإخشيد فانقرضُوا
فما ترى منهُمُ في الأرض منتجعا

يا أيها الملك المُخْلِي مجالسَه
أحْميتَ أعينَنا الإغماضَ فامتنعا

ومنها:

لئن مضيتَ حميدَ الأمر مُفْتَقَدًا
لقد تركتَ حميدَ الأمر مُتَّبَعا

= بالمهملة أي أن الحتوف معلّقة ومعقودة بأسنة رماحه. و(العَلوق) بالعين المهملة المفتوحة اسم من أسماء المنية فلعل معنى:

ترى الحتوف عَلوقًا في أسنته

على هذا أن الحتف والهلاك تراه موتًا مجسمًا أو منيّة مجسمة في اسنة رماحه.

(١) شسع: بعد.
(٢) الحجا: العقل.
(٣) النهى: العقل.
(٤) منهصرًا: منجذبًا منقادًا.

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ولد الإخشيد:

ثَبْتُ الجَنان[١] فلا نكْسٌ[٢] ولا وَرَعٌ[٣]
تلقاه مؤتزرًا بالحزم مُدَّرِعا

أعطت أبا القاسم الأملاكُ بيعتَها
ولو أبت أخذت أسيافُه البِيَعا[٤]

وانقاد أعداؤه ذُلًّا لهيبته
وظَلّ متبوعُهم من خوفه تَبعا

أضحت به هِمَمُ الغِلْمان عالية
كأنّ مولاهُمُ الإخشيدُ قد رَجَعا

وقال مُهَلْهِل بنُ يموتَ يَرثيه أيضًا: [من الخفيف]

أيّ عزٍّ مضى من الإسلام! أيّ ركن أضحى حديثَ انهدام!
ذاق موتًا محمد بن طُغج هو ليثُ الشّرى[٥] وغيثُ الغَمام
فَقَدَ الناسُ مُوليَ الإنعام فهُمُ سائمون[٦] كالأنعام
مات ربُّ العُلا وراعي الرعايا والسرايا[٧] وكافل الأيتام
أين ما كنتَ فيه من عزِّك البا ذخ والمُرْتقى عزيزِ المُرام!
أين ذاك الحجابُ والمُلك والهيـ ـبة أين الزِّحامُ وقت الزّحام!
من أميرٍ وقائدٍ وخطيرٍ ورئيسٍ وماجدٍ وهُمام[٨]
كلّهم مطرِقٌ لديك من الهيـ ـبة خوف الإجلال والإعظام
أين تلك الخيامُ حَوْلَك إن عرّ ست[٩] والأسدُ حول تلك الخيام
من عديد وعُدّة لك ما بيـ ـن قُعود فيها وبين قِيام
لم يُطِقْ جمعُهم دفاعَ الرّدى عنـ ـك ولم يمنعوك منعَ اعتصام
أسلمتك الخيولُ قَسْرًا[١٠] وقد كنـ ـتَ عليها سُورًا على الإسلام

---

(١) الجنان: القلب أو الفؤاد. (٢) النكس: الضعف والانكسار والانخساف.
(٣) الوَرَع: الضعف.
(٤) البيع: جمع بيعة، وهي بيت الصلاة للنصارى والنسّاك وغيرهم.
(٥) الشرى: اسم موضع تكثر فيه الأسود. (٦) سائمون: ذاهبون على وجوههم.
(٧) السرايا: جوع سريّة، وهي القطعة من الجيش.
(٨) همام: سيّد شجاع سخيّ. وهنا صفة للأسد.
(٩) عرّست: أقمت للراحة استعدادًا لمتابعة السير.
(١٠) قسرًا: كرهًا.

خانك السيف وهو يصدرُ عن أمـ ـرك مُستعدِيًا بغير احتجام
خذل الرمحُ وهو عونُك لو حا ن لقاءٌ وثار نَقْعُ[١] قَتَامِ[٢]
لم تَرُدّ القِسِيّ[٣] عنك سهامَ الـ ـحتفِ[٤] والحتفُ عندها في السهام
ما وقتك الحرابُ حربَ المنايا حين وافاك جيشُها من أمام
لم يُحَصِّنك ما اقتنيتَ من الآ لات من جَوْشَنٍ[٥] ولا من لَامِ[٦]
حكَم الموتُ فيك من بعد ما كنـ ـتَ تُرى حاكمًا على الحُكَّام
فقدَتْك الفُسطاطُ[٧] وجدًا مدى الد هر ومن بعدها بلادُ الشام
فُجِعَتْ يَثْرِبٌ[٨] ومكّةُ والبيـ ـتُ[٩] إلى زمزمٍ[١٠] أجَلْ والمَقَامِ[١١]
عمّ فيك المصابُ فاشترك العا لَمُ في الرُّزْءِ[١٢] منه والآلام
حَسْبُنَا الله عزَّ من حَكَمٍ يجـ ـري على الحاكمين بالأحكام
كلّ شيء إلى زوال، ومن ذا نال ملك الدنيا بغير اخترام[١٣]
أين أين الملوك في سالف الدّهـ ـر دَهَتهم[١٤] حوادث الأيّام
أين من قد كانوا يُخافون في البأ سِ ويُرْجَون للعطايا الجِسام
ليس يَبْقى إلا الإلـه تعالى من له الملك ثابتًا بالدّوام
أيّهذا الأمير بل يا أبا القا سم يا ابن السَّمَيْدَع[١٥] القَمْقَامِ[١٦]
ارضَ حكم الإلـه في المَلِك الما ضي وسلِّم لنافذ الأحكامِ
وهناك الذي بلغتَ من الأمـ ـر وما حزتَه بحسن انتظامِ

(١) النقع: الغبار.
(٢) القتام: الغبار.
(٣) القسيّ: جمع قوس، تطلق منه السهام.
(٤) الحتف: المنية.
(٥) الجوشن: الدّرع.
(٦) اللام: الدروع، مفرده اللّامة.
(٧) الفسطاط: أول مدينة أسسها العرب في مصر. بناها عمرو بن العاص على ضفة النيل الشرقية، ثم صارت مركزًا للحكم زمن الأمويين. ظلّت مزدهرة وعامرة حتى تأسيس القاهرة بجانبها على يد جوهر، زمن الفاطميين.
(٨) يثرب: اسم المدينة المنوّرة قبل الإسلام.
(٩) البيت، يريد البيت الحرام، أي الكعبة.
(١٠) زمزم: اسم البئر بفناء الكعبة، حفرها إسماعيل بن إبراهيم وأمّه هاجر. تولى السقاية منها بنو عبد المطّلب.
(١١) المقام: المراد به مقام إبراهيم النبيّ، بإزاء الكعبة.
(١٢) الرزء: الخطب والمصيبة.
(١٣) اخترام: هلاك وموت.
(١٤) دهتهم: أصابتهم بمصابها.
(١٥) السميدع: صفة للأسد أو للرجل الشريف المقدام.
(١٦) القمقام: الكثير البذل والجود.

مـا كـمـثـل الـذي رُزِئـت ولا مـثـ ـل الـذي قـد مَـلكـتَ فـي ذا الـعـام

أنت مثل الإخشيد فانهض بما مُلْـ ـكـتَ بـالـجـدّ مـنـك والاعـتـزام

وقال بعض الشعراء يَرْثي الوزيرَ يعقوبَ بن كِلِّس وزيرَ العزيزِ[١] بنِ المُعِزِّ خليفةِ مصر: [من الكامل]

إن الـتـصـبـر فـي الأمـور جـمـيـلُ إلا عـلـيـك فـمـا إلـيـه سـبـيـلُ

يـا حـامـلًا ثِـقْـلَ الـعُـلَا وكـأنـه لـغُـلُوّ هـمّـتِـه بـهـا مـحـمـولُ

يـا واهـبًـا فـوق الـمُـنَـى وكـأنـه لـسـخـائـه مـمـا يـجـود بـخـيـلُ

جاء منها:

يـا تُـرْبُ لا تـأكُـل لـسانًا طـالـمـا والَى بـه الـتـحـمـيـدُ والـتـهـلـيـلُ

يـا تُـرْبُ لا تَـعْـنُـفْ بـكـفٍّ طـالـمـا قـد كـان يُـؤْلِـمُ ظـهـرَهـا الـتـقـبـيـلُ

ومنها:

يا دهر تعلمُ ما جنيتَ على الورى؟! خَطْـبٌ لـعـمـرُك إنْ عـلـمـتَ جـلـيـلُ

مـا كـان ضـرَّك لـو مَـهَـلـتَ بـمـثـلـه يـا دهـرُ إنـك بـعـدَهـا لـعَـجُـولُ

ومن المراثي المشهورة التي عُني بها، واتصلت أسبابُ الشارحين بسببها، المرثيَةُ العَبْدونيّة التي نظمها الوزيرُ الكاتبُ أبو محمد عبدُ المجيد بن عبدون[٢] يرثي بها بني مسلمةَ المعروفين ببني الأفطس[٣]، وهي من أمهات القصائد ووسائط القلائد؛ فإنه ذكر فيها عدّة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جُنَّةً تقيهم من وثباته؛ ودبّت عليهم الأيام بصروفها، وسقتهم المنيّةُ بكأس حُتوفها. وها نحن نذكرها ونزيدُها تبيانًا بشرح من استبهَمَت أخبارُه، وخَفِيت على المُطالع آثارُه.

---

(١) أحد الخلفاء الفاطميين، سبق التعريف به.

(٢) هو عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري، أبو محمد، ذو الوزارتين. من الشعراء، ومن الأدباء والكتّاب الأندلسيين. استوزره بنو الأفطس. أشهر شعره مرثاته الشعرية المعروفة بـ «البسّامة» في سقوط دولة بني الأفطس. مات سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م.

(٣) بنو الأفطس: أسرة بربرية من ملوك الطوائف بالأندلس. جعلوا مركز حكمهم بطليوس ودام حكمهم من سنة ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢ م إلى ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٥ م أسسها عبد الله بن محمد المعروف بابن الأفطس وقضى عليها يوسف بن تاشفين فقتل آخر ملوكها عمر بن محمد وولديه.

وأوّل القصيدة: [من البسيط]

الدّهرُ يفجَعُ بعد العَيْن بالأثَرِ ... فما البكاءُ على الأشباح والصُّورِ
أنهاك أنهاك لا آلوك مَعْذِرَةً ... عن وقفةٍ بين ناب الليثِ والظُّفُرِ
فالدهرُ حربٌ وإن أبدى مُسالَمةً ... فالبِيضُ والسُّمْرُ مثلُ البيض والسُّمُرِ
ولا هَوادةَ بين الرأس تأخذه ... يدُ الضِّراب وبين الصارم الذَّكَرِ
فلا تغُرَّنْك من دنياك نومتُها ... فما صناعةُ عينيها سوى السَّهرِ
ما للّيالي ـ أقال الله عثرتنا[١] ... من اللّيالي وخانتها يدُ الغِيَر[٢] ـ
في كلّ حينٍ لها في كلّ جارحةٍ[٣] ... منّا جِراحٌ وإن زاغت عن البصرِ
تسُرّ بالشيء لكن كي تَغُرَّ به ... كالأيمْ[٤] ثار إلى الجاني من الثمرِ
كم دولةٍ وَلِيتْ بالنصر خدمتَها ... لم تُبْقِ منها! وسَلْ ذكراك من خَبَرِ
هوت «بدارا» وفلّت غَرْبَ[٥] قاتله ... وكان غَضْبًا[٦] على الأملاك ذا أُثُرِ

«دارا» الذي ذكره هو دارا بن دارا آخر ملوك الفرس؛ وقاتله الإسكندر. وسنذكر إن شاء الله أخبارهما في فنّ التاريخ.

واستَرْجعت من بني سَاسَانَ ما وهبت ... ولم تَدَعْ لبني يونانَ من أَثَرِ

«بنو ساسان» هم الفرسُ الأُخَر ولهم دولة مشهورة انقرضت في الإسلام. و«بنو يونان» أيضًا من الملوك أرباب الدول المشهورة، ومن مشاهير ملوكهم الإسكندر بن فيلبس. وسترد إن شاء الله أخبارهم.

وأتْبَعَتْ أُختَها طَسْمًا، وعاد على ... عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ

أخت «طسم» جَدِيس، وهما أبناء عمٍّ كثر نسلهما وهم العرب العاربة[٧]. وسنذكر أخبارهما إن شاء الله في وقائع العرب. و«عاد» هم قوم هود. و«جرهم» هو

---

(١) عثرتنا: زلّتنا. (٢) الغير: صروف الدهر ونوبه.
(٣) الجارحة: العضو في جسد الإنسان، واليد خاصةً.
(٤) الأيم: الحيّة.
(٥) الغرب: مؤخر الرأس، وأول كل شيء وحدّه. وهنا المقصود حدّ قاتله، أي سيفه. وفلّت: ثلمت.
(٦) غضبًا: صفة للسيف القاطع.
(٧) العاربة من العرب، الصرحاء الخلّص بخلاف المستعربة. ويطلق على العاربة أيضًا اسم العرب البائدة.

ابن عوف بن زُهَير بن أنس بن الهَمَيْسَع بن حِمْيَر بن سَبَأ الأكبر بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، وقيل: إن العمالقة من ولد جرهم. أراد بذكرهم أنهم كلّهم أبادهم الموت.

وما أقالت ذوي الهيئاتِ من يَمَنٍ ... ولا أجارتْ ذوي الغايات من مُضَرِ

«اليمن» كلّهم باتفاق العلماء بالأنساب من ولدِ قَحْطانَ، ومنهم ملوكٌ نذكرهم إن شاء الله في التاريخ. و«مضر» بن نزار بن معدّ بن عَدْنان. وقد تقدم ذكرهم في الأنساب.

ومزّقت سَبَأً في كلّ قاصيةٍ ... فما التقى رائحٌ منهم بمُبْتَكِرِ

«سبأ» الذي أشار إليه هو سبأُ بنُ يَشْجُبَ بنِ يعرُبَ بنِ قحطانَ، واسمُه عبدُ شمسٍ، وإنما قيل فيه سبأ لأنه أوّلُ من أدخل بلادَ اليمن السّبْي. وكان له عشرة أولاد سكن الشامَ منهم أربعةٌ وهم: لَخْم وغَسّان وجُذَام وعاملة، وسكن اليمنَ منهم ستةٌ: كِنْدةٌ ومَذْحجٌ والأزْدُ وأنْمار والأشعر وعمرو؛ وقد ذكر الله عزّ وجلّ تمزيقَهم بقوله: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سَبَأ: الآية ١٩]. وسنذكر أخبار سيل العَرِم[١] وسدّ مأْرَب[٢].

وأنفذتْ في كُلَيب حكمَها ورَمَتْ ... مُهَلْهِلًا[٣] بين سمع الأرض والبصرِ

«كليب» الذي ذكر هو كليب بنُ ربيعةَ بنِ الحارثِ الذي ضرب به المثل فقيل: «أعَزُّ من كُلَيْب وائل». وأشار ابن عبدون في هذا البيت إلى ما كان من قتل جسّاس بن مرّة كليبًا وما وقع بين بكر وتَغْلِب من الحروب التي نشرحها إن شاء الله في وقائع العرب. وقوله: «ورمت مهلهلًا بين سمع الأرض والبصر» كأنه أراد ما حكي أنه قتل في موضع لم يطّلع عليه أحد، وهو مثل؛ يقال: فعل كذا وكذا بين سمع الأرض وبصرها إذا فعله خاليًا.

ولم تَرُدّ على الضِّلّيل صِحّتَه ... ولا ثَنَت أسدًا عن ربّها حُجُرِ

---

(١) سيل العرم: السيل الذي بناه السبئيون في مأرب بين جبلين لحجز المياه. ثم تفرّق عرب الجنوب إثر انهياره في القرن الثالث الميلادي.

(٢) مأرب: بلدة يمنية إلى الشمال الشرقي من صنعاء. اشتهرت بالسّدّ القديم المعروف باسمها.

(٣) المهلهل: لقب عدي بن ربيعة، الشاعر الجاهلي، وأحد أبطال حرب البسوس. هو خال امرىء القيس الشاعر المعروف، ويعرف مهلهل أيضًا بـ «الزّير». أكثر شعره قاله في رثاء أخيه كليب الذي قتل في حرب البسوس.

«الضِّلّيل» الذي أشار إليه هو امرؤ القيس بن حُجْر بن عمرو، والحارث هو آكل المُرَار؛ وسُمِّي امرؤ القيس بالضلّيل لأنه ترك ملكه وتوجّه إلى قيصر يطلب منه جيشًا يأخذ به ثأر أبيه من بني أسد. وإشارته إلى الصحّة لقول امرىء القيس في قصيدته السينيةّ: [من الطويل]

وبُدِّلْتُ قُرْحًا[1] داميًا بعد صحّةٍ لعلّ منايانا تحوّلْنَ أبْؤُسا
لقد طمَح الطمَّاحُ من بُعد أرضه ليُلْبِسني من دائه ما تلبَّسا[2]

و«الطّماح» رجل مِن بني أسدٍ أرسله قيصرُ إلى امرىءِ القيس بحُلّةٍ مسمومة، فلما لبِسها تقطّع ومات بأنقِرة. وإشارته إلى أسد لأن بني أسد كانوا قتلوا حُجْر بن الحارث يوم ماقِط. [من البسيط]

ودوّخت آلَ ذُبْيانٍ وإخوتَهم عَبْسًا وعضّت بني بَدْر على النَّهَرِ

أشار إلى ما كان بين عبسٍ وذبيانَ من الحروب بسبب داحس والغبراء. وسيردُ ذلك في وقائع العرب إن شاء الله تعالى.

وألحقت بعَديٍّ بالعراق على يد ابنه أحْمَرَ العينين والشَّعَرِ

أراد عديَّ بنَ أيوب بن زيد منَاة بن تميم الشاعر. وأحمر العينين والشعر هو النّعمان بنُ المُنذر. وكان عديّ هذا ترجمانًا لأبَرَويز[3] وكاتبه بالعربيّة، فلما مات قابوسُ بن المنذرِ تلطّف عديّ وتحيّل على أبرويزَ حتى ولّى النعمان إمْرة العرب وقدّمه على إخوته وكان أدمّهم، ثم اتهمه النعمان أنه وشى به فاحتال عليه حتى ظفر به وحبسه ثم قتله بالعراق؛ فتلطّف ابنه زيد بن عديّ وتوصّل حتى خدَم أبرويز على عادة أبيه، وأوقع بين أبرويز والنعمان حتى قتله أبرويز، على ما يرد إن شاء الله تعالى في التاريخ. والله أعلم.

وأشرفت بخُبَيْبٍ فوق فارعةٍ وألصقت طَلْحَةَ الفيّاضَ بالعَفَرِ

أشار إلى خبيب بن عديّ الأنصاريّ وهو بَدْرِيّ وأسِر في السريّة التي خرج فيها مَرْثَد بن أبي مَرْثَد فانطلق به المشركون إلى مكّة واشتراه حجر بن إهاب التميميّ

(١) قرحًا: جرحًا.
(٢) انظر البيتين في: ديوان امرىء القيس، ص ٢٧. ط دمشق ١٩٧٣.
(٣) هو كسرى أبرويز الثاني، الملك الساساني ابن هرمزد الرابع. توصل إلى العرش بمساعدة موريق امبراطور بيزنطية. احتلّ أورشليم سنة ٦١٤، لكن هرقل انتصر عليه.

حليف بني نَوْفل لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقتله بأبيه، وكان خبيب قتل الحارثَ أبا عقبةَ يومَ بَدْر، فصلبه عقبةُ على خشبةٍ بالتَّنعيم وقتله. وطلحة الفيّاض هو طلحة بنُ عبدِ الله التميميّ أحدُ العشرةِ أصحابِ رسول الله ﷺ، قتل يوم الجَمل، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ومزّقَتْ جعفرًا بالبِيض، واختلَسَت ... من غِيلِه[1] حَمْزَةَ الظَّلَام للجُزُرِ[2]

«جعفر» الذي ذكره هو جعفرُ بن أبي طالب أخو عليّ رضي الله عنهما قُتل في غَزْوةِ مُؤْتة. «حمزة» هو ابنُ عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ وقتل يوم أُحُد قتله وحشيّ غلام جُبَيْر بن مُطْعِم؛ وجعله ظلّامًا للجزر وصَفَه بالكرم.

وبلّغَتْ يَزْدَجِرْدَ الصّينَ واختزلتْ ... عنه سوى الفُرْس جمعَ التُّرك والخَزَرِ

ولم تَرُدّ مواضي رُسْتَمٍ وَقَنَا ... ذي حاجبٍ عنه سَعْدًا في ابنة الغِيَرِ

«يزدجرد» الذي ذكر هو ابن شهريار آخر الملوك الساسانيّة. ورُستُم هو الأرمينيّ وهو الذي قاتل سعد بن أبي وقّاص وقُتِل يوم القادسيّة، عل ما يأتي شرح ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وخَضَّبت شيبَ عثمانٍ دمًا، وخَطَت ... إلى الزبير، ولم تَسْتَحْي من عُمَرِ

أشار في هذا البيت إلى مقتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والزبير بن العوّام رضي الله عنهم. وسترد إن شاء الله أخبارهم.

وما رَعَتْ لأبي اليَقْظانِ صُحْبَتَه ... ولم تُزَوِّده إلا الضَّيحَ[3] في الغُمَرِ[4]

«أبو اليقظان» هو عمّار بن ياسر العَنْسيّ قُتل بصِفّين وكان مع عليّ؛ وعنه قال رسول الله ﷺ: «تَقْتُل عمّارًا الفِئةُ الباغية». ولما قتل كانت الرايةُ يومئذٍ بيده فعطِش فدعا بشربة من الماءِ فأُتِي بضَيْحة فشربها ثم قال: أخبرني رسول الله ﷺ أن اللّبن آخِرُ شَرْبَةٍ أشربها في الدنيا؛ فقُتل يومئذٍ رضي الله عنه.

وأجْزَرت[5] سيفَ أشقاها أبا حسنٍ ... وأمكنتْ من حسين راحتَيْ شَمِرِ

---

(١) الغيل: الأجمة، والشجر الكثير الملتفّ.

(٢) الجزر: جمع جزور، وهي ما يجزر من نوق أو غنم.

(٣) الضيح: اللبن الرقيق الممزوج بالماء. (٤) الغمر: القدح الصغير.

(٥) أجزرت: جعلته يجزره، أي يقتله.

أشقاها هو عبدُ الرحمـٰن بن مُلْجَم المُرادِيّ قاتلُ عليٍّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه لقوله ﷺ: «يا عليُّ، أشقاها الذي يَخْضِب هذه من هذه» وأشار إلى لحية عليّ ورأسه. والحسينُ الذي ذكره هو الحسين بنُ عليّ. وشمر هو شمر بنُ ذي الجَوْشَنِ وهو الذي أرسله عبيدُ الله بن زياد إلى عمرَ بنِ سعدٍ يحرّضُه على قتل الحسين؛ وقيل: إن شَمِرًا لم يباشر قتلَ الحسين، والذي قتله سِنانُ بن أَنَس النَّخعي، وشَمِرٌ فهو المُجْهِز والمُحَرِّض على قتله، فلذلك ذكره.

وليتَها إذ فَدَتْ عمرًا بخارجةٍ فدَتْ عليًا بمن شاءت من البشرِ

عمرو الذي أشار إليه هو عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب، أمير مصر لمعاوية بن أبي سفيان. وخارجة رجل من سهم بن عمرو. وكان من خبره أن الخوارج كانت قد اجتمعت على قتل عليّ ومعاوية وعمرو، فكان الذي انتدب لقتل عمرٍو زادويه مولى بني العَنْبر، ورَصَده إلى ليلة المعاد التي اتفقوا على الفتك بهم فيها؛ فاشتكى عمرو تلك الليلةَ من بطنه ولم يخرج للصلاة واستخلف خارجةَ ليُصلّي بالناس؛ فلما قام في المحراب وثب عليه زادويه وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله؛ وأُخِذَ زادويه وأُدْخِل على عمرو، فسمِع الناسَ يخاطبونه بالإمرة، فقال: أوَ ما قتلتُ عمرًا؟ قيل له: [لا] إنما قتلت خارجة؛ فقال: «أردتُ عمرًا وأراد الله خارجة». فلذلك قال: [من البسيط]

* وليتها إذ فدت عمرًا بخارجة *

وفي ابن هندٍ وفي ابن المصطفى حسنٍ أتت بمُعْضِلة[١] الألبابِ والفِكَرِ
فبعضُنا قائلٌ ما اغتاله أحدٌ وبعضُنا ساكِتٌ لم يُؤتَ من حَصَرِ

ابن هند الذي أشار إليه هو معاوية بن أبي سفيان، أراد ما كان بينه وبين الحسن بن عليّ في أمر الخلافة. وأراد بالبيت الثاني ما وقع الاختلاف فيه من أن الحسن مات مسمومًا وأنّ معاوية وعدَ زوجة الحسن جَعْدة بنت قيس الكِنديّ بمائة ألف درهم ويزوّجها لابنه يزيد إن قتلت الحسن، ففعلت وسمَّتْه. ولما مات الحسن وفّى لها بالمال وقال: حبُّ حياة يزيد منعني تزويجه منك؛ وقيل: مات الحسن حَتْفَ أنفه[٢]. والله أعلم.

وعمَّمَتْ بالرَّدى فَوْدَيْ[٣] أبي أَنَسٍ ولم تَرُدّ الردى عنه قنا زُفَرِ

---

(١) المعضلة: المشكلة، والشيء العظيم. (٢) حتف أنفه: أي على فراشه.
(٣) الفودان: جانبا الرأس، والمفرد الفود.

أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفِهْري. يُشير إلى ما وقع بينه وبين مروان بن الحكم بمَرْج راهط[١]، وكان الضحاك يدعو لابن الزبير فقُتل الضحّاك، على ما نذكره إن شاء الله في أخبار مروان. وكان زُفَر بن الحارث الكلابيّ مع الضحّاك ففرّ عنه.

وأرْدَتِ ابنَ زياد بالحسين فَلَمْ ... يَبُؤْ بشِسْعٍ له قد طاح أو ظُفُرِ

أشار إلى عبيد الله بن زياد ابن أبيه عامل يزيد بن معاوية على العراق، وهو الذي جهّز عمر بن سعد لحرب الحسين بن عليّ رضي الله عنهما. وقوله: «يبؤ بشسع له» أخذه من قول مهلهل حين قتل بُجَيْر بن الحارث وقال: بُؤْ بشِسْع نعل كُلَيْب.

وأنزلتْ مُصْعبًا من رأس شاهقةٍ ... كانت به مهجةُ المُختار في وَزَرِ[٢]

أشار إلى مصعب بن الزبير بن العوّام وقتله. والشاهقةُ هي الكوفة. جعلها شاهقة لمَنْعتها وكثرة رجالها. وأراد ما كان بين مصعب وعبد الملك بن مروان من الحرب التي قُتِل فيها مصعب. والمختار الذي ذكره هو المختار بن أبي عُبَيْد بن مسعود بن عمرو الثَّقفيّ. أشار إلى ما كان بينه وبين مصعب من الحرب وقَتْل المختار. وسنُورد كلّ هذه الوقائع إن شاء الله في التاريخ.

ولم تُراقِبْ مكان ابن الزبير ولا ... راعت عِياذَتَهُ بالبيت[٣] والحَجَرِ[٤]

أراد عبدَ الله بن الزبير، وكان يُسَمّى العائذ لأنه كان يقول: أنا العائذ بالبيت، وقتله الحجّاج بن يوسف الثقفيّ لما وجّهه عبد الملك لحربه.

ولم تَدَعْ لأبي الذِّبّان قاضيَهُ ... ليس اللَّطِيمُ لها عمرٌو بمُنْتَصِرِ

أبو الذِّبّان هو عبد الملك بن مروان بن الحكم، سمّي بذلك لبَخَره[٥]. وقوله: «قاضيه» لأنه كان مُظَفَّرًا على أعدائه فإنه غلَب من كان يناوئه في سلطانه مثل عبد الله ومصعب ابنيْ الزبير، وعمرو بن سعيد، وعبد الرحمٰن بن الأشعث، ما منهم إلا من

---

(١) مرج راهط: موقع في سورية إلى الشمال من دمشق انتصر فيه مروان بن الحكم على القيسيّة وذلك سنة ٦٨٤ م.

(٢) الوزر: الملجأ.

(٣) البيت: هو البيت الحرام في مكة. ويراد به الكعبة المشرّفة.

(٤) الحجر: هو حجر إسماعيل، النبيّ، بإزاء الكعبة.

(٥) البخر: رائحة الفم الفاسدة والكريهة.

قُتِل وحكَم فيه قاضيه وهو سيفه، ولم يُغْنِ ذلك عنه لمّا أتته منيّتُه. وأما اللَّطِيم فهو عمرو بن سعيد الأشْدَق، سمّي بذلك لمَيْلٍ كان في فمه فقيل له من أجله لَطِيمُ الشيطان، وقتله عبد الملك بن مروان.

وأظْفَرْت بالوليد بن اليزيد ولم تُبْقِ الخلافةَ بين الكأس والوترِ

الوليد هذا هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهو الذي يقال له الجبّار العنيد. أشار إلى ظفر يزيد بن الوليد بن عبد الملك به وقتله. و[قوله]:

.... ولم تُبْق الخلافة بين الكأس والوترِ

أراد بذلك ما كان عليه الوليد من الاشتهار باللّهو واللّعب.

ولم تُعِدْ قُضَبَ[1] السفَّاح نابيةً[2] عن رأس مروان أو أشياعه[3] الفُجُرِ[4]

السفّاح هو أبو العباس عبدُ الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وهو أوّل خلفاء الدولة العباسيّة. يُشير إلى ظفره بمروان بن محمد وقتله، وانقراض دولة بني أميّة وقتلهم على يديه.

وأسبلتْ عَبَراتٍ للعيون على دَمٍ بفَخٍّ[5] لآل المصطفى هَدَرِ

أشار في هذا البيت إلى ذكر من قُتل بفَخّ وهم الحسين بن عليّ بن حسن بن حسن بن علي، والحسن بن محمد بن الحسن بن الحسن بن عليّ، وعبد الله بن إسحٰق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن، على ما نذكره في التاريخ إن شاء الله تعالى.

وأشرقَتْ جعفرًا والفضلُ ينظره والشيخُ يحيىٰ بِريق الصارمِ الذَّكَرِ

أشار في هذا البيت إلى قتل جعفر بن يحيىٰ بن خالد بن بَرْمَك ونكبة البرامكة في أيام الرشيد.

وأخْفَرتْ في الأمين العهدَ، وانتدبت لجعفر بابنه والأعْبُدِ الغُدُرِ

---

(١) القضب: السيوف.
(٢) نابية: خائبة.
(٣) أشياعه: زمره وأتباعه.
(٤) الفجر: الفاجرون العاهرون.
(٥) فخ: موضع قريب من مكة. حدثت عنده موقعة قتل فيها جنود الهادي، الخليفة العباسي، الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، والحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وإثر هذه الموقعة فرّ إدريس بن عبد الله بن إسحٰق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى المغرب فأسس دولة الأدارسة.

الأمين هو محمد بن هارون الرشيد. يُشير إلى ما كان بينه وبين أخيه المأمون وإلى العهد الذي كان الرشيدُ كتبه بينهما. وجعفر الذي أشار إليه هٰهنا هو المتوكل ابن المعتصم. أراد ما كان من قتل باغِر التركي له بمواطأةٍ من ابنه المُنْتَصر، على ما نُورده في أخباره.

وروَّعَتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ وأسلمت كلَّ منصور ومُنْتَصِرِ

المأمون هو عبد الله بنُ الرشيد وهو أوّل من لُقِّب بالمأمون، ولُقِّب به بعد ذلك ولَدٌ من أولاد المعتمد بن عبّاد ويحيىٰ بن ذي النون صاحبُ طُلَيْطُلة. والمؤتَمن فأوّلُ من لقب به مروان بن الحكم على قول من يقول إنه كان لبني أميّة ألقاب، ثم لُقِّب به القاسم بن الرشيد. وكان الرشيد لما كتب العهد بين الأمين والمأمون جعل ابنه المؤتَمن بعد المأمون، وجعل أمرَ المؤتمن إلى أخيه المأمون إذا أفضت الخلافة إليه إن شاء أمضاه وإن شاء خلَعه؛ فلما أفضت الخلافةُ إلى المأمون أزال المؤتَمن فارتاع لذلك. وتلقَّب بالمؤتَمَن محمدُ بنُ ياقوت مولى المُعْتَضد صاحب فارس. وتلقّب به سلامة الطُّولُوني، وعبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن أبي عامر ثم تسمَّى بالمنصور. وأما المنصور فأوّلُ من لُقِّب به هشام بن عبد الملك بن مروان على تلك الرواية، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله بن عليّ العباسي، ثم أبو طاهر إسماعيل بن القائم بن المهدي صاحب إفريقيّة، ثم محمد بن أبي عامر بالأندلس، وتلقّب به ابن زيري الصِّنْهاجي[١]، وتلقّب به سابور صاحبُ بَطَلْيُوس[٢]، وعبد الله بن محمد بن مسلمة التُّجِيبيّ[٣]، وحفيده يحيىٰ بن محمد بن عبد الله، وعبد العزيز بن أبي عامر؛ ثم تلقّب به جماعةٌ من الملوك بعد نظم هذه المَرْثِيَة. وأما المنتصر فهو محمد بن المتوكّل؛ وممّن تَلقّب بالمنتصر مِدْرار بن الْيَسَع صاحب سِجِلْماسَة[٤].

---

(١) الصنهاجي، نسبة إلى صنهاجة من قبائل البربر القديمة في المغرب. كانت بينهم وبين زناتة حروب ومنازعات. ناصروا الفاطميين، ومن دولهم دولة بني زيري، ودولة بني حماد، ودولة المرابطين.

(٢) بطليوس، مدينة أندلسية على نهر غواديانا، كانت عاصمة بني الأفطس، وتعرف اليوم باسم بداخس.

(٣) نسبة إلى بني تجيب، السلالة العربية التي خدمت الأمويين وحكمت سرقسطة سنة ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م. خلفها بنو هود، وإليهم ينتسب بنو صمادح من ملوك الطوائف.

(٤) سجلماسة، مدينة قديمة في جنوب المغرب كانت قاعدة تافيلالت، مهد دولة الأشراف العلوية. أطلالها في إقليم قصر السوق على وادي زيز.

وكلُّ هؤلاء أبادهم الموت.

وأعثرتْ آلَ عبّاسٍ - لَعًا لَهُمُ[١] - بذيْل زَباء[٢] من بِيضٍ ومن سُمُرِ

أشار في هذا البيت إلى ما كان من تَغلُّبِ الأتراك والدَّيلم على خلفاء الدولة العباسيّة حتى لم يبق لهم إلا اسم الخلافة، على ما سيَرد في أخبارهم. وقوله:

* بذيل زباء من بيض ومن سمر *

تنبيهًا على كثرة عدد المتغلِّبين على الأمر وقدرتهم على السِّلاح.

ولا وَفَتْ بعهود المُستعينِ ولا بما تأكَّد للمعتزّ من مِرَرِ[٣]

المستعين هو أحمدُ بن المعتصم العَبّاسي. أشار إلى ما كان من قيام المُعتزّ على المستعين وهرب المستعين من سَامُرّا إلى بغداد. والمعتزّ هو أبو عبد الله محمد بن المتوكّل، وستَرِد أخبارُهم إن شاء الله تعالى:

وأوثقتْ في عُرَاها كلَّ معتمدٍ وأشرقتْ بقَذَاها كلَّ مُقْتَدِرِ

المعتمد هو أبو العباس بن المتوكّل، وهو أوّل من لُقِّب بهذا اللقب، وتلقب به محمد بن عبّاد بإشبيلية. والمقتدِر هو أبو الفضل جعفر بن المعتضِد، وهو أوّل من لُقِّب بالمقتدر، ثم لُقِّب به أحمد بن سليمان بن هود الجُذاميّ بِسَرَقُسْطَة[٤]. ثم أخذ ابن عبدون في رثاء بني الأفْطَس فقال:

بَنِي المُظَفَّر والأيّامُ ما بَرِحتْ
مَراحِلًا والورى منها على سَفَرِ
سُحْقًا[٥] ليومكُم يومًا ولا حمَلتْ
بمثله ليلةٌ في مُقْبِل العُمُرِ

(١) لعًا لهم: دعاء لهم بمعنى: أنعشهم الله وأقامهم من عثرتهم.
(٢) الزباء: الداهية العظيمة. (٣) مرر، جمع مرّة، وهي القوّة.
(٤) سرقسطة: مدينة أندلسية افتتحها العرب سنة ٧١٢ م. كانت عاصمة بني تجيب وبني هود من ملوك الطوائف.
(٥) سحقًا: بُعدًا.

مَنْ للأسِرّة أو مَنْ للأعِنَّة أو
من للأسِنّة يُهديها إلى الثُّغَرِ

مَنْ للبراعة أو من لليَراعةِ[١] أو
من للسماحة أو للنفع والضَّرَرِ

أو رفعِ كارثة أو دفعِ آزفةٍ[٢]
أو قمعِ حادثةٍ تَعْيَا على القدرِ

من للظُّبَى[٣] وعوالي الخطّ[٤] قد عُقِدَتْ
أطرافُ أَلْسُنها بالعِيّ والحَصَرِ[٥]

وطُوِّقتْ بالثنايا السُّود بِيضُهم
أعْجِبْ بذاك وما منها سوى ذَكَرِ

ويح السّماح وويح الجود لو سَلِما
وحسرةَ الدّين والدّنيا على عمرِ[٦]

سقَتْ ثرى الفضل والعبّاس[٧] هاميةٌ[٨]
تُعْزَى إليهم سَماحًا لا إلى المطرِ

ثلاثةٌ ما ارتقى النَّسران حيث رقَوا
وكلّ ما طار من نَسْرٍ ولم يَطِرِ

ثلاثةٌ ما رأى العصران مثلَهُم
فضلًا ولو عُزِّزا بالشمس والقمرِ

ومرّ من كل شيءٍ فيه أطيبُه
حتى التمتع بالآصال والبُكَرِ

---

(١) اليراعة: القلم، كناية عن المجد الأدبي والفكري.
(٢) الآزفة: الكارثة الوشيك وقوعها. وهي اسم من أسماء يوم القيامة.
(٣) الظبي، جمع ظباة، وهي شفرة السيف.
(٤) عوالي الخطّ، كناية عن الرماح التي تصنع ببلدة الخطّ القديمة.
(٥) العي والحصر: العجز وعدم القدرة على النّطق.
(٦) عمر، هو آخر ملوك بني الأفطس الذي قتل ومعه ولداه.
(٧) لعل الفضل والعباس، هنا، ولدا عمر، وكانا قتلا معه.
(٨) الهامية: السحابة الممطرة.

مَـنْ لـلـجـلال الـذي عـمَّـتْ مـهـابـتُـهُ
قـلوبَـنـا وعـيـونَ الأنـجـم الـزُّهُـرِ
أيـن الإبـاءُ الـذي أرسَـوْا قـواعـدَه
عـلى دعـائـمَ مـن عـزٍّ ومـن ظَـفَـرِ
أيـن الـوفـاء الـذي أصـفَـوْا مـشـاربَـه
فـلم يَـرِدْ أحـدٌ مـنـهـا عـلى كَـدَرِ
كـانـوا رواسـيَ أرض الله مـنـذ نـأوا
عـنـهـا استـطـارت بـمـن فـيـهـا ولـم تَـقِـرِ[1]
كـانـوا مـصـابيـحَـهـا فـمـذ خَـبَـوْا[2] غَـبَـرتْ[3]
هـذي الـخـلـيـقـةُ يـا الله فـي سَـدَرِ[4]
كـانـوا شـجـا الـدهـر فـاسـتـهـوتـهـمُ خُـدَعٌ
مـنـه بـأحـلام عـادٍ فـي خُـطـا الـخَـضِـرِ
مَـنْ لـي ولا مَـنْ بـهـم إن أطـبـقَـتْ مِـحَـنٌ
ولـم يـكـن وِرْدُهـا[5] يُـفـضـي[6] إلـى صَـدَرِ[7]
مَـنْ لـي ولا مـن بـهـم إن أظـلـمـت نُـوَبٌ
ولـم يـكـن لـيـلُهـا يُـفـضـي إلـى سَـحَـرِ
مَـنْ لـي ولا مـن بـهـم إن عُـطِّـلـت سُـنَـنٌ
وأُخْـفِـتَـتْ ألـسُـن الأيـام والـسِّـيَـرِ
عـلى الـفـضـائـل إلّا الـصـبـرَ بـعـدهـمُ
سـلامُ مُـرْتَـقِـبٍ لـلأجـر مـنـتـظِـرِ
يـرجـو عـسـى، ولـه فـي أخـتـهـا طـمَـعٌ
والـدَّهـر ذو عُـقُـبٍ شـتّـى وذو غِـيَـرِ
قَـرّطْـتُ[8] آذانَ مـن فـيـهـا بـفـاضـحـةٍ
عـلى الـحـسـان حـصـى الـيـاقـوت والـدُّرَرِ

(١) تقر: تستقرّ وتهدأ.
(٢) خبوا: انطفأوا.
(٣) غبرت: مرّت.
(٤) السدر: الحيرة والدهشة.
(٥) وردها: إتيان مائها للشرب.
(٦) يفضي: يؤدّي.
(٧) الصدر: الرجوع من الماء بعد الشرب.
(٨) قرّطت: زيّنت، جعلت منها أقراطًا في آذانها من الياقوت والدرر.

ومن أجود الرثاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه مراثي أبي تمامٍ حبيبِ بنِ أوسٍ الطائي؛ فمن ذلك ما قاله يرثي به غالبَ بنَ السَّعْديّ: [من الطويل]

هو الدّهر لا يُشْوِي[1] وهنّ المصائبُ
وأكثر آمال الرّجال كواذبُ

فيا غالبًا لا غالبٌ لرزيّةٍ
بل الموتُ لا شك الذي هو غالبُ

وقلتُ: أخي، قالوا: أخٌ من قرابة؟
فقلتُ لهم إنّ الشُّكول[2] أقاربُ

نسيبيَ في رأيٍ وعزمٍ ومَنْصِبٍ
وإن باعدتنا في الأصول المناسِبُ

كأن لم يقل يومًا: كأنّ، فتنثني
إلى قوله الأسماعُ وهي رَواغِبُ

ولم يَصْدَعِ النادي بلفظة فَيْصلٍ[3]
سِنانيّةٍ في صفحتيها التَّجارِبُ

ومنها:

مضى صاحبي واستخلف البَثَّ[4] والأسى
عليّ، فلي من ذا وهذاك صاحبُ

عجِبتُ لصبري بعده وهو ميّتٌ
وكنت امرأً أبكي دمًا وهو غائبُ

على أنّها الأيام قد صِرْن كلُّها
عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ

وقال يرثي محمد بن الفضل الحِمْيَرِيّ: [من الخفيف]

ريْبُ دهر أصمّ دون العتابِ مُرْصَدٌ بالأوجال[5] والأوْصابِ[6]

(١) يشوي: يخطىء غرضه، من إشواء السهم. (٢) الشكول: جمع شكل، وهو المِثل والنظير.
(٣) الفيصل: صفة للسيف الذي يفصل بين الحق والباطل.
(٤) البث: الحزن. (٥) الأوجال: جمع وجل، وهو الخوف.
(٦) الأوصاب: جمع وصب، وهو التعب والعناء.

جفّ دَرّ الدنيا فقد أصبحت تكـ ... ـتَال أرواحَنا بغير حسابِ
لو بدَتْ سافرًا أُهِينَتْ ولكن ... شغَفَ الخلقَ أنّها في النّقابِ
إن ريب الزمان يُحْسن أن يُهـ ... ـدي الرّزايا إلى ذوي الأحسابِ
فلهذا يجِفّ بعد اخضرارٍ ... قبل روض الوِهاد روضُ الرّوابي

جاء منها:

ذهبتْ يا محمد الغُرُّ من أيّـ ... ـامك الواضِحاتِ أيَّ ذَهابِ
عبَّس اللحدُ والثرى منك وجهًا ... غيرَ ما عابسٍ ولا قطَّابِ
أطفأ اللحدُ والثرَى لُبَّك المَسْـ ... ـروجَ في وقت ظُلمة الألبابِ
وتبدّلتَ منزلًا ظاهرَ الجَدْ ... ب يُسَمَّى مُقَطِّعَ الأسبابِ
منزلًا مُوحِشًا وإن كان معمو ... رًا بجُلّ الصديق والأحبابِ
يا شِهابًا خبا لآل عبيد الله ... أعْززْ بفقد هذا الشُّهابِ

ومنها:

أنزلته الأيّامُ عن ظهرها من ... بعد إثبات رِجْلِه في الرِّكابِ
حين تمّ الشّبابُ واغتدت الدنـ ... ـيا إليه مفتوحةَ الأبوابِ
وحكى الصارمَ المُحَلّى سوى أنّ ... خُـلَاه جَواهرُ الآدابِ
قصدَتْ نحوه المنيّة حتى ... وهبَت حسنَ وجهه للترابِ

وقال يرثي إسحٰق بن أبي رِبْعيّ: [من السريع]

أيّ ندًى بين الثرى والجُيوبِ ... وسُؤدُدٍ[1] لَدْنٍ ورأيٍ صليبْ[2]
يا ابن أبي رِبْعيٍّ استُقْبِلتْ ... من يومك الدنيا بيومٍ عصيبْ[3]
شقّ جيوبًا من أناسٍ لو اسـ ... ـطاعوا لشقّوا ما وراء الجيوبِ
كنتَ على البعد قريبًا فقد ... صرتَ على قربك غيرَ القريبِ
راحت وفودُ الأرض عن قبره ... فارغةَ الأيدي مِلاءَ القلوبِ
قد علِمتْ ما رُزِئتْ، إنما ... يُعْرَف فقدُ الشّمس بعد المَغِيبِ

(١) سؤدد: مجد ورفعة.
(٢) صليب: شديد قوي.
(٣) عصيب: شديد.

إذا البعيدُ الوطن انتابه حَلّ إلى نَهْي ووادٍ خصيبِ
أدنته أيدي العيس[١] من ساحةٍ كأنها مَسْقِطُ رأس الغريبِ
أظلمتِ الآمالُ من بعده وعُرِّيتْ من كل حسن وطِيبِ
كانت خدودًا صُقِلتْ برهَةً واليوم صارت مألَفًا للشّحوبِ
كم حاجةٍ صارت رَكُوبًا به ولم تكن من قبله بالرَّكُوبِ
حلّ عِقالَيها[٢] كما أطْلقت من عُقَد المُزْنَة[٣] ريحُ الجنُوبِ
إذا تيمّمناه في مَطْلبٍ كان قَلِيبًا[٤] ورشاءً[٥] القليبْ
ونعمة منه تسربلتُها كأنها طُرّةُ[٦] بُرْدٍ[٧] قَشِيبِ[٨]
من اللّواتي إن ونَى شاكرٌ قامت لمُسْدِيها مَقامُ الخطيبِ
متى تُنَخْ تُرْحَلْ بتفضيله أو غاب يومًا حضرَتْ بالمَغِيبِ
فما لنا اليوم ولا للعُلا من بعده غيرُ الأسى والنَّحيبِ

وقال يرثي أحمد بن هارون القرشيّ: [من الخفيف]

دأبُ[٩] عيني البكاء، والحزنُ دابي فاتركيني - وُقيتِ ما بي - لما بي
سأُجَزّى بقاءَ أيامِ عمري بين بَثّي وعَبْرتي واكتئابي
فيك يا أحمد بن هارونَ خَصّت ثم عمّت رزيّتي ومُصابي
فجعتني الأيّامُ في الصادق النُّطـ ـق فتى المَكْرُمات والآدابِ
بخليلٍ دون الأخلّاءِ لا بل صاحبي المُصْطَفى على أصحابي
أفلَمَا تَسَرْبل المجدَ واجتا ب[١٠] من الحمد أيّما مُجْتابِ
وتراءته أعينُ الناظريه قمرًا باهرًا ورئبال[١١] غابِ
وعلا عارضَيْه[١٢] ماء النّدَى الجا ري وماءُ الحِجَا[١٣] وماءُ الشبابِ
أرسلتْ نحوه المنيّةُ عينًا قطّعت منه أوثَق الأسبابِ

---

(١) العيس: النّوق البيض.
(٢) عقاليها، مثنّى عقال، وهو الحبل تشدّ به الدابّة.
(٣) المزنة: الغيمة الممطرة.
(٤) قليبًا: بئرًا.
(٥) الرشاء: الحبل تشدّ به الدّلو للسّقاء.
(٦) طرّة الثوب: طرفه وحاشيته.
(٧) البرد: الثوب الموشّى.
(٨) قشيب: جديد.
(٩) الدأب: العادة.
(١٠) اجتاب: لبس وتسربل.
(١١) الرئبال: الأسد.
(١٢) عارضيه: جانبي رأسه.
(١٣) الحجا: العقل والوقار.

وقال يرثي أبا الصقر[1]: [من البسيط]

لو صُحِّح الدمعُ لي أو ناصَحَ الكمدُ[2] لقلّما صَحِبانـي الرُّوح والجسدُ
خان الصفاءَ أخٌ خان الزمانُ له أخًا فلم يتخوَّنْ جسمَه الكَمدُ
تساقُطُ الدمع أدنى ما بُلِيتُ به للوجد إذ لم تَسَاقَطْ مُهجةٌ ويدُ
فوالذي رَتَكت[3] تَطْوِي الفِجاجَ له سفائنُ البرّ[4] في خَدّ الثرى تَخِدُ[5]
لأنفَدَنَّ أسًى إن لم أمتْ أسفًا وينفَد العمر بي أو ينفَدَ الأمدُ
عنّي إليك فإني عنك في شُغُلٍ لي منه يومٌ سيُبْلِي مهجتي وغَدُ
وإن بُجْرِية[6] نابت جارتْ[7] لها إلى ذَرَى جَلَدي فاستؤهل الجَلَدُ
هي النوائبُ فاشْجَيْ أوفِعي عِظةً فإنها شجرٌ أثمارُها رَشَدُ
هُبِّي تَرَيْ قلقًا من تحته أرقٌ يحدوهما كمدٌ يَعْنو[8] له الجسدُ
صمّاءُ سمُّ العِدا في جنبها ضَرَبٌ[9] وشربُ كأس الردَى في ظلّها شَهَدُ
هناك أُمُّ النُّهى لم تُودِ من حَزَن ولم تَجُدْ لبني الدنيا بما تَجِدُ
لو يعلم الناسُ علمي بالزمان وما عانت يداه لما ربَّوْا ولا وَلَدُوا
لا يُبْعِد الله ملحودًا أقام به شخصُ الحجا وسقاه الواحِد الصَّمَدُ
يا صاحب القبر، دعوى غير مُتَّئِبٍ[10] إن قال أودى[11] النَّدى والبدرُ والأسدُ
بات الثرى بأخي جذلانَ مبتهجًا وبِتُّ يحكم في أجفانيَ السَّهَدُ[12]
لهفي عليك وما لهفي بمُجْدِيةٍ ما لم يَزُرك بنفسي حَرُّ ما أجِدُ[13]
أمسى أبو الصقر يعفو التربُ أحسنَه دوني ودَلْوُ الرَّدى في مائه يَرِدُ
ويلٌ لأُمّك أقْصِرْ إنه حَدَثٌ لم يَعْتَقِدْ مثلَه قلبٌ ولا خلدُ[14]

---

(١) أبو الصقر: ربما هو أبو الصقر، إسماعيل بن بلبل، وزير المعتمد، الخليفة العباسي.
(٢) الكمد: الحزن والغمّ الشديد.
(٣) رتكت: راحت تمشي بسرعة وتعدو.
(٤) سفائن البرّ، كناية عن الجمال.
(٥) تخد: تمشي الوخد، وهو ضرب من سير الإبل، فيه سرعة.
(٦) البجرية: النائبة والداهية والأمر العظيم.
(٧) جأرت: تضرّعت.
(٨) يعنو: يخضع ويذلّ.
(٩) الضرب: العسل الأبيض الغليظ.
(١٠) متئب: منخذل.
(١١) أودى: هلك.
(١٢) السهد، والسهاد: عدم النوم والرقاد.
(١٣) أجد: أحزن.
(١٤) خلد: نفس.

غال[١] الزمانُ شقيقَ الجود لم يَقِه أهلٌ ولم يَفْدِه مالٌ ولا ولدُ
حين ارتوى الماءَ وافترّت شبيبتُه عن مَضْحَكٍ للمعالي ثغرُه بَرَدُ
وقيل: أحمدُها، بل قيل: أمجَدُها بل قيل: أنجدُها إن فرّتِ النُّجُدُ
رُؤْدُ[٢] الشباب كنصل السيف لا جَعَدٌ في راحتيه ولا في عوده أَوَدُ[٣]
سقى الحبيسَ ومحبوسًا ببَرْزَخِه[٤] من السُّمِيّ كغيثِ الوَدِقِ[٥] يَطَّرِدُ[٦]
بحيث حلَّ أبو صقر فودَّعه صفوُ الحياة ومن لذّاتها الرَّغَدُ
بحيث حلّ فقيدُ المجد مُغْتَرِبًا ومُورِثًا حسراتٍ ليس تُفْتَقدُ

وقال يَرثي عُمَيْر بن الوليد: [من الوافر]

أعِيدي النَّوحَ مُعْوِلَةً أعِيدي وزيدي في بكائك ثم زِيدِي
وقُومِي حاسِرًا في حاسرات خَوَامِشَ للنُّحور وللخُدودِ
هو الخطبُ الذي ابتدأ الرَّزايا وقال لأعين الثَّقَلَيْنِ[٧] جُودي
ألَا رُزِئَتْ خُرَاسانٌ فتاها غَداةَ ثوى عُمَيْرُ بن الوليدِ
إلَا رُزِئتْ بمسؤول مُنيلٍ ألَا رُزِئَتْ بمِتلافٍ[٨] مُفيدِ
ألَا إنّ النَّدى والجودَ حلًّا بحيث حلَلْتَ من حُفَر الصَّعِيدِ[٩]
بنفسي أنت من ملكٍ رمتْه منيّتُه بسهمِ رَدًى سديدِ
تجلّتْ غَمْرةُ الهيجاء عنه خَضيبَ الوجه من دمه الجَسيدِ
فيا بحر المَنُون ذهبتَ منه ببحر الجود في السَّنَة الصَّلُودِ[١٠]
ويا أسدَ المنون فرَسْتَ[١١] منه غَداةَ فرستَه أسدَ الأسودِ
أبالبطل النَّجيد[١٢] فتكتَ منه نعم وبقاتل البطل النَّجِيدِ
تَراءَى للطِّعان وقد تَراءَتْ وجوه الموت من حُمْرٍ وسُودِ

(١) غال: أردى وصرع.
(٢) رؤد: حسن، ونضير.
(٣) الأود: الاعوجاج.
(٤) البرزخة: الحاجز بين الشيئين.
(٥) الودق: المطر.
(٦) يطّرد: يتسارع.
(٧) الثقلان: الإنس والجنّ.
(٨) متلاف: للمبالغة من أتلف الشيء: إذا بدّده وصرفه.
(٩) الصعيد: التراب.
(١٠) السنة الصلود: القليلة الخير والأمطار.
(١١) فرست: قتلت، وصرعت.
(١٢) النجيد: السريع النجدة.

فيا لَكِ وقعةً جَلَلًا[١] أعادت أسًى وصبابةً جلَدَ الجليدِ
ويا لكِ ساعةً أهدتْ غَليلًا[٢] إلى أكبادنا أبدَ الأبيدِ
ألا أبلغْ مقالتيَ الإمامَ الـ ـخليفة والأمينَ بنَ الرشيدِ
بأن أميرَنا لم يألُ[٣] عدلًا ونُصْحًا في الرَّعايا والجنودِ
أفاض نوالَ راحته عليهم وسامح بالطَّريف وبالتَّليدِ[٤]
وأضحى دونهم للموت حتى سقاه الموتُ من مَقِرٍ[٥] هَبيدِ[٦]
وما ظفِروا به حتى قَرَاهم قَشاعِمَ[٧] أنْسُر وضِباعَ بيدِ
بطعنٍ في نحورهُم رشيقٍ وضربٍ في رؤوسهُمُ عتيدِ
فيا يومَ الثلاثاء اصطبحنا غداةً منك هائلةَ الورودِ
ويا يوم الثلاثاء اعتَمَدْنا بفقدٍ فيك للسَّنَد العَمِيدِ
وكم أسخَنْتَ فينا من عيونٍ وكم أعثرتَ فينا من جُدودِ[٨]
فما زُجِرتْ طيورُك عن سَنِيحٍ[٩] ولا طَلعتْ نجومُك بالسُّعودِ
ألَا يا أيها الملكُ المُرَدّى رداءَ الموت في جَدَثٍ[١٠] جديدِ
حضرتُ فِناءَ بابك واعتراني شجًى بين المُخَنَّقِ[١١] والوَريدِ
رأيتُ به مطايا مُهْمَلاتٍ وأفراسًا صَوافِنَ[١٢] بالوَصِيدِ[١٣]
فكنتَ عَتَادَ إما فَكُّ عانٍ[١٤] وإما قتلِ طاغيةٍ عَنُودِ
رأيتُ مؤمِّليك عَدَتْ عليهم عوادٍ[١٥] صعَّدَتْهم في كَؤودِ[١٦]
وأضحت عند غيرك في هبوطٍ حظوظٌ كنّ عندك في صُعُودِ

---

(١) جللًا: عظيمة.
(٢) الغليل: اللوعة والحرقة وشدة العطش.
(٣) يأل: يقصّر.
(٤) التليد، من المال، القديم. والطريف: المحدث.
(٥) المقر: السمّ، والشيء الشديد المرورة.
(٦) الهبيد: الحنظل، ويعرف بمرورة طعمه.
(٧) قشاعم: صفة للنسور.
(٨) جدود: حظوظ.
(٩) السنيح من الطير، من يمرّ عن يمين الناظر إليه.
(١٠) الجدث: القبر.
(١١) المختّق: موضع الخناق من العنق.
(١٢) صوافن الخيل: التي تقف على ثلاث قوائم وتبقي الرابعة مطوية.
(١٣) الوصيد: الكهف، وفناء الدار.
(١٤) العاني: الأسير.
(١٥) العوادي: النوازل والمصائب، جمع عادية.
(١٦) الكؤود: الشاقة المصعد، الصعبة المرتقى.

وأصبحتِ الوفودُ إليك وفقًا ... على أن لا مُفادَ لمُستَفِيدِ
فكلُّهُم أعدّ اليأسَ وقْفًا ... عليك ونصّ[1] راحلةَ القُعودِ
لقد سَخِنتْ عيونُ الجود لمّا ... ثويتَ وأُقْصِدتْ[2] غُرَرُ القصيدِ

وقال يرثي محمدَ بنَ حُمَيْد الطُّوسيّ[3]: [من الطويل]

كذا فَلْيَجِل الخطبُ[4] وليَفْدحِ[5] الأمرُ ... فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذرُ
تُوُفِّيتِ الآمالُ بعد محمدٍ ... وأصبح في شغلٍ عن السَّفَر السَّفْرُ[6]
وما كان إلا مالَ من قلّ مالُه ... وذُخرًا لمن أمسى وليس له ذُخرُ
وما كان يَدري المُجتدي[7] جودَ كفّه ... إذا ما استهلّت أنه خُلِقَ العُسرُ
ألَا في سبيل الله من عُطِّلت له ... فِجاجُ سبيل الله وأثَّغَر الثغرُ[8]
فتًى كلما فاضت عيونُ قبيلةٍ ... دمًا ضَحِكت عنه الأحاديثُ والذِّكرُ
فتًى دهرُه شطران فيما يَنُوبه ... ففي بأسه شطرٌ وفي جوده شطرُ
فتًى مات بين الضرب والطعن مِيتةً ... تقوم مَقام النَّصر إذ فاته النَّصرُ

---

(١) نصّ الفرس والناقة والدابة: استحثّها شديدًا. (٢) أقصدت: طُعنت.
(٣) محمد بن حميد الطوسي، من الأعيان والقوّاد، جهّزه المأمون لقتال بابك الخرمي، فقتل في تلك الوقعة أو الحملة سنة ٢١٤ هـ.
(٤) الخطب: الرّزء. (٥) يفدح: يعظم.
(٦) السفر: جماعة المسافرين. (٧) المجتدي: طالب المعروف.
(٨) اثّغر الثغر: اثّغر: سقط السنّ، والثغر، الفم. وهنا: المقصود بالثغر: المكان المتقدم على تخوم الأعداء. فبموت محمد ثغر هذا الثغر، أي سقط في أيدي الأعداء.

وما مات حتى ماتَ مَضْرَبُ سيفه
من الشلّ[١] واعتلّت عليه القنا السُّمْرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلًا فردَّه
عليه الحِفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تَعاف العارَ حتى كأنه
هو الكفرُ يوم الرَّوع[٢] أو دونه الكُفرُ
فأثبتَ في مُسْتَنقع الموت رِجْلَه
وقال لها من تحت أخمصك[٣] الحشرُ[٤]
غدا غُدوةً والحمدُ نسجُ ردائه
فلم ينصرف إلا وأكفانُه الأجرُ
تردّى ثيابَ الموت حُمْرًا فما أتى
لها الليل إلا وهي من سندسٍ خُضْرُ
كأنّ بَني نَبْهان يوم وفاته
نجومُ سماء خرَّ من بينها البدرُ
يُعَزَّون عن ثاوٍ تُعَزَّى به العُلَا
ويَبْكي عليه الجُود والبأس والشعرُ
وأنَّى لهم صبرٌ عليه وقد مشى
إلى الموت حتى استُشهِدا هو والصَّبرُ!
فتًى كان عذبَ الروح لا عن غَضَاضةٍ[٥]
ولكنّ كِبرًا أن يكون له كِبْرُ
فتًى سلبته الخيلُ وهو حِمًى لها
وبزّته نارُ الحرب وهو لها جَمْرُ
وقد كانت البِيضُ المآثِير في الوغى
بَواترَ فهي الآن من بعده بُتْرُ[٦]

---

(١) الشل: طرد العدو.
(٢) الروع: الحرب، والفزع.
(٣) أخمص القدم أو الرجل: أسفلها.
(٤) الحشر: البعث والنشور.
(٥) الغضاضة: الذلّة.
(٦) بتر: مقطوعة. والبواتر: صفة للسيوف.

أمـن بـعـد طـيّ الـحـادثـات مـحـمـدًا
يـكـون لأثـواب الـعـلا أبـدا نَـشـرُ!
إذا شَـجَـرات الـعـرف جُـذّتْ أصـولُهـا
فـفـي أيّ فـرع يُـوجـد الـورقُ الـنَّـضـرُ!
لـئـن أبـغِـضَ الـدهـرُ الـخـؤون لـفـقـده
لَعَـهْـدي بـه مـمّـن يُـحَـبُّ لـه الـدهـرُ
لـئـن غـدرتْ فـي الـرَّوع أيـامُـه بـهِ
لَمَـا زالـت الأيـامُ شـيـمـتـهـا الـغـدرُ
لـئـن ألْبِـسَـتْ فـيـه الـمـصـيـبـةَ طـيّـئٌ
لَمَـا عُـرِّيَـتْ مـنـهـا تـمـيـمٌ ولا بَـكْـرُ[1]
كـذلـك مـا نـنـفـكّ نـفـقِـد هـالـكًـا
يُـشـاركـنـا فـي فـقـده الـبـدو والـحَـضْـرُ
سـقـى الـغـيـثُ غـيـثًـا وارتِ الأرضُ شـخْـصَـه
وإن لـم يـكـن فـيـهـا سـحـاب ولا قَـطْـرُ
وكـيـف احـتـمـالـي لـلسّـحـاب صـنـيـعـةً
بـإسـقـائِهـا قـبـرًا وفـي لـحـده الـبـحـرُ
ثـوى فـي الـثَّـرَى مـن كـان يـحـيـا بـه الـثّـرى
ويَـغْـمُـرُ صـرفَ الـدهـر نـائـلُه الـغَـمْـرُ[2]
مـضـى طـاهـرَ الأثـواب لـم تَـبْـقَ رَوضـةٌ
غَـداةَ ثـوى إلا اشـتـهـت أنـهـا قـبـرُ
عـلـيـك سـلامُ الله وقْـفًـا فـإنـنـي
رأيـتُ الـكـريـم الـحـرَّ لـيـس لـه عـمـرُ

وقال يرثي إدريس بن بدر السّاميّ: [من الطويل]

دموعٌ أجابت داعيَ الحزن هُمَّعُ[3] تَـوَصَّـلُ مـنـا عـن قـلـوب تَـقـطّـعُ
عَـفـاءٌ[4] عـلى الـدنـيا طـويـلٌ فإنـهـا تَـفَـرّقُ مـن حيث ابـتـدت تَـتَـجـمّـعُ

---

(١) طيىء وتميم وبكر، من قبائل العرب.
(٢) الغمر: الكثير الماء.
(٣) همّع: سائلة.
(٤) عفاء: زوال وانطماس.

تبدَّلَتِ الأشياءُ حتى لَخِلتُها ... ستَثْنِي غروبَ الشمس من حيث تَطْلُعُ

لها صَيْحةٌ في كل رُوح ومهجةٍ ... وليست لشيءِ ما خلا القلبَ تُسْمِعُ

أإدريسُ ضاع المجدُ بعدَك كلُّه ... ورأيُ الذي يرجوه بعدك أضيَعُ

وغُودِر وجهُ العُرْف[1] أسودَ بعد ما ... يُرَى وهو كالبِكر[2] الكَعاب[3] تَصَنَّعُ

وأصبحتِ الأحزانُ لا لمبرّةٍ ... تُسَلِّم شَزْرًا[4] والمعالي تُودِّعُ

وضلّ بك المُرْتاد[5] من حيث يَهْتدي ... وضرّتْ بك الأيامُ من حيث تنفعُ

وأضحت قَريحات القلوب من الجَوى[6] ... تَقيظ[7] ولكن المدامعَ تَرْبعُ[8]

عيونٌ حفِظن الليلَ فيك محرَّمًا ... وأعطينك الدمعَ الذي كان يُمْنعُ

وقد كان يُدعى لابسُ الصبر حازمًا ... فأصبح يُدْعَى حازمًا حين يَجْزَعُ

وقالوا عزاءً: ليس للموت مَدْفَعٌ ... فقلت: ولا للحزن للمرء مَدْفعُ

لإدريسَ يومٌ ما تزال لذكره ... دموعي وإن سكّنْتُها تتفرَّعُ

ولما نضا[9] ثوبَ الحياة وأوقَعت ... به نائباتُ الدهر ما يُتوقَّعُ

غدا ليس يَدْري كيف يَصنَع مُعْدِمٌ ... درَى دمعُه من وجده كيف يَصنعُ

وماتت نفوس الغالبيِّين كلهم ... وإلا فصبرُ الغالبيّين أجمعُ

غَدَوْا في زوايا نعشه وكأنما ... قريشٌ قريشٌ حين مات مُجَمِّعُ[10]

ولم أنْسَ سَعْيَ الجود خلفَ سريره ... بأكسفِ[11] بالٍ يَستقيم ويَظْلَعُ[12]

وتكبيرَه خَمْسًا عليه مُعالِنًا ... وإن كان تكبير المصلِّين أربَعُ

وما كنت أدري يعلم الله قبلها ... بأن النَّدى في أهله يتشيَّعُ[13]

وقمنا فقلنا بعد أن أُفْرِد الثرى ... به ما يُقال في السَّحابة تُقْلِعُ

---

(١) العرف: المعروف.
(٢) البكر من النساء: العذراء.
(٣) الكعاب من النساء، من كعب نهداها وظهرا في مقتبل العمر.
(٤) شزرًا: غضبًا.
(٥) المرتاد: طالب الورد والمعروف.
(٦) الجوى: الحزن.
(٧) تقيظ: يشتدّ حرّها.
(٨) تربع: تخصب.
(٩) نضا: خلع ونزع.
(١٠) مجمّع: هو لقب قصي بن كلاب، أحد أجداد النبي ﷺ ومن أبرز أعيان قريش.
(١١) أكسف: أضيق، وأشدّ عبوسًا.
(١٢) يظلع: يعرج.
(١٣) يتشيّع: يعلن انتماءه إلى الشيعة. وفي البيت، والبيت الذي قبله إشارة إلى أنّ الجود، أي الكرم، مشى في جنازة المرثيّ، وصلّى عليه، وكبّر خمس تكبيرات، كما هو الحال عند الشيعة لا أربع، كما عند السنّة.

هذا مأخوذ من قول مسلم[١]: [من الكامل]

فاذهبْ كما ذهبتْ غَوادي مُزْنَةٍ أثنى عليها السهلُ والأوعارُ

ألم تك تَرْعانا من الدَّهر إن سطا وتحفَظُ من أموالنا ما نُضَيِّعُ

وتبسُطُ كفًّا في الحقوق كأنما أناملُها في البأس والجود أذْرُعُ

وتَلْبَسُ أخلاقًا كِرامًا كأنها على العِرْض من فرط الحَصانة أدْرُعُ

وتربِطُ جأشًا والكُماةُ[٢] قلوبُهم تَزَعْزَع خوفًا من قَنًا تَتَزَعْزَعُ

وأمنيَّةُ المرتاد يحضُرك النَّدى فيَشْفَع في مثل الفلا فَيُشَفَّعُ

فأُنطِقَ فيه حامدٌ وهو مُفحَمٌ وأفْحِمَ[٣] فيه حاسدٌ وهو مِصْقَعُ[٤]

ألا إنّ في ظُفْر المنيّة مُهجةً تَظلّ لها عينُ العُلا وهي تدمَعُ

هي النفس إن تبْكِ المكارمُ فقدَها فمن بين أحشاء المكارِم تُنْزَعُ

ألا إنّ أنفًا لم يَعُدْ وهو أجدع[٥] لفقدك عند المكرمات لأجدَعُ

وإن امرءًا لم يُمْسِ فيك مُفجَّعًا بملحوده، في عقله لمُفجَّعُ

وقال يرثي القاسم بنَ طَوْق بن مالك: [من الطويل]

جوًى ساور الأحشاءَ والقلبَ واغلُهْ[٦] ودمعٌ يَضِيم[٧] العينَ والجفنَ هاملُهْ[٨]

وفاجعُ موت لا عدوٌّ يخافه فيُبْقِي، ولا يُبْقي صديقًا يُجَامِلُهْ

وأيُّ أخي عِزّ وذي جَبَرية يُنابذه أو أيُّ رام يناضلُهْ[٩]

إذا ما جرى مَجْرى دم المرء حُكْمُه وبُثّت على طُرق النفوس حَبَائلُهْ!

فلو شاء هذا الدهرُ أقْصَرَ شرُّه كما أقصرت عنّا لُهَاهُ[١٠] ونائلُهْ[١١]

---

(١) مسلم: هو مسلم بن الوليد، الشاعر العباسي، والملقّب بصريع الغواني. مدح الرشيد والبرامكة واتصل بالفضل بن سهل وزير المأمون فولّاه البريد في جرجان. مات سنة ٨٢٣ م.

(٢) الكماة: جمع كميّ، وهو الفارس.

(٣) أفحم: أرغم على السكوت، وعدم القدرة على الرّدّ.

(٤) مصقع: المصقع من الخطباء: البليغ المفوّه. (٥) أجدع: مقطوع الأنف.

(٦) واغله: الذاهب بعيدًا. (٧) يضيم: يقهر ويظلم.

(٨) الهامل: المنسكب. (٩) يناضله: ينافحه ويدفعه ويحاربه.

(١٠) لهاه: المفرد لهوة، والجمع اللهى، وهي العطيّة، والبدرة من المال.

(١١) النائل: المعروف والعطيّة.

سـنـشـكـوه إعـلانًـا وسـرًّا ونـيّـةً شـكـيّـةَ مـن لا يـسـتـطـيع يُـقـاتـلُهْ
فـمـن مـبـلغٌ عـنّـي ربـيـعـةَ[١] أنّـه تقشّعَ[٢] طَل[٣] الجُود عنها ووابلُهْ[٤]
وأن الحِجَا منها استطارت صُدوعه وأنّ الـنـدى مـنـهـا أصيبت مَقَاتـلُهْ
مضى للزّيالِ القاسمُ الواهبُ اللُّهى ولـو لـم يُـزَايـلنـا[٥] لـكـنّـا نُـزَايِـلُهْ
ولـم يـعـلـمـوا أنّ الـزمـان يـريـده بـفـجـع ولا أنّ الـمـنـايـا تُـراسِـلُهْ

ومنها:

طـواه الـردى طَـيَّ الـرّداء وغُـيِّـبـت فـضـائـلُه عـن قـومـه وفَـوَاضـلُهْ[٦]
طـوى شِـيَـمًـا[٧] تـروحُ وتـغـتـدِي وسـائـلَ مـن أعـيـتْ عـلـيـه وَسَـائـلُهْ
فـيـا عـارضًـا لـلعُـرْف أقـلَعَ مُـزْنُـه ويـا واديًـا لـلجُـود جَـفَّـت مَـسـايِـلُهْ

وقال يرثي محمد بن حُميد وأخاه قحطبة: [من الكامل]

بـأبـي وغـيـرِ أبـي - وذاك قـلـيـلُ - ثاوٍ[٨] عليه ثرى النُّبَاج[٩] مَهِيلُ[١٠]
خَـذَلـتْـه أسـرتـه كـأنّ سَـراتَـهـم[١١] جـهِـلـوا بـأن الـخـاذلَ الـمـخـذولُ
أكّـالُ أشـلاءِ[١٢] الـفـوارس بـالـقَـنَـا أضـحـى بـهـنّ وشِـلْـوُهُ[١٣] مـأكـولُ
كُـفِّـي، فـقـتـلُ مـحـمـدٍ لِيَ شـاهـدٌ أن الـعـزيـزَ مـع الـقـضـاء ذلـيـلُ

ومنها:

هـيـهـات لا يـأتـي الـزمـانُ بـمـثـلـه إنَّ الـزمـانَ بـمـثـلـه لـبَـخـيـلُ
ما أنـتَ بـالـمـقـتـولِ صـبـرًا[١٤] إنّـمـا أَمَـلِـي غـداةَ نَـعِـيِّـك[١٥] الـمـقـتـولُ

---

(١) ربيعة: قبيلة عربية كبيرة ينسبون إلى ربيعة بن نزار، ومن نسل ربيعة بكر ووائل وتغلب، وغيرها من البطون العربية الكثيرة العدد.
(٢) تقشع: تبدّد، وزال.
(٣) الطلّ: الندى، والمطر الضعيف، وكل حسن معجب.
(٤) الوابل: المطر القوي الشديد.
(٥) يزايلنا: يفارقنا.
(٦) الفضائل، جمع فضيلة، وهي الدرجة الرفيعة في الفضل. ومثلها الفاضلة، وجمعها فواضل.
(٧) شيمًا: صفاتٍ وأخلاقًا حسنة.
(٨) ثاوٍ: مقيم.
(٩) النباج: التراب.
(١٠) مهيل: متصبّب ومكدّس.
(١١) سراتهم: سراة القوم، أعلاهم وأشرفهم.
(١٢) أشلاء: قطع ممزّقة من اللحم.
(١٣) شلوه: القطعة من الأشلاء.
(١٤) صبرًا: ظلمًا تحت حدّ السيف، يضرب حتى يموت.
(١٥) نعيّك: خبر وفاتك وموتك.

ومنها:

مَن ذا يحدّث بالبقاء ضميره! هيهات! أنت على الفَناء دليلُ
يا ليت شعري بالمكارم كلّها ماذا، وقد فقدت نداك، تقولُ؟

ومنها:

يا يومَ قحطبةٍ لقد أبقيتَ لي حُرَقًا أرى أيّامها ستطولُ
ليثٌ لو أن الليث قام مَقامه لانصاع[1] وهو يَرَاعةٌ[2] إجْفيلُ[3]
لمّا رأى جمعًا قليلًا في الوغَى وأولو الحِفاظ من القليل قليلُ
لاقى الكريهةَ وهو مُغْمِدُ رَوْعه فيها ولكنْ بأسُه مسلولُ
ومشى إلى الموت الزُّؤام[4] كأنما هو من محبّته إليه خليلُ

ومنها:

أضحتْ عِراصُ[5] محمدٍ ومحمدٍ وأخيهما وكأنهنّ طُلولُ
ابني حُمَيدٍ ليس أوّلَ ما عفا[6] بعد الأسود من الأسود الغِيلُ[7]
ما زال ذاك الصبرُ وهو عليكُمُ بالموت في ظلّ السيوف كفيلُ
مستبسلون كأنّما مُهُجاتُهُم[8] ليست لهم إلا غداةَ تسيلُ
أَلِفوا[9] المنايا فالقتيلُ لديهمُ من لم يُخَلِّ العيشَ وهو قتيلُ
إن كان ريبُ الدهر أثكلنيكُمُ[10] فالموتُ أيضًا ميّتٌ مثكولُ

---

(١) انصاع: انقاد.
(٢) يراعة: اليراعة، القلم. واليراعة، كما هو أعلاه: الجبان.
(٣) إجفيل: الشديد الجفول، والهارب من المواجهة أو الموت.
(٤) الزؤام: السريع والكريه.
(٥) عراص: جمع عرصة، وهي الباحة، وفناء البيت.
(٦) عفا: درس.
(٧) الغيل: الأجمة، حيث الشجر الكثير الملتف، وفيها تكون بيوت الأسود.
(٨) مهجاتهم: أرواحهم. (٩) ألفوا: أنسوا بها، واتخذوها إلفًا.
(١٠) أثكلنيكم: جعلني أثكلكم، أي أفقدكم.

وقال يعزّي مالكَ بنَ طَوْق[1]: [من الطويل]

أمالكُ إنّ الحزنَ أحلام حالم ... ومهما تدُمْ فالحزنُ ليس بدائِم
أمالكُ إفراطُ الصبابة تاركٌ ... جِنًا[2] واعوجاجًا في قناة المكارم
تأمّلْ رُوَيْدًا هل تَعُدَّنَ سالمًا ... إلى آدمٍ أم هل تعدُّ ابنَ سالمِ!
متى تُرْعِ هذا الموتَ عينًا بصيرةً ... تَجِدْ عادلًا منه شبيهًا بظالِم
فإن تكُ مفجوعًا بأبيضَ لم تكن ... تشدُّ على جدواه[3] عقدَ التمائم[4]
بفارس دُغْمِيٍّ[5] وهَضْبةِ وائلٍ[6] ... وكوكبِ عتّابٍ[7] وحمزةِ[8] هاشم[9]
شَجا[10] الريحَ فازدادتْ حنينًا لفقده ... وأحدثَ شَجْوًا في بُكاء الحمائم
فمن قبله ما قد أصيب نبيُّنا ... أبو القاسم[11] النورُ المبينُ بقاسِم[12]
وخُبِّرَ قَيْسٌ بالجليّةِ في ابنه ... فلم يتغيّر وجهُ قيس بن عاصم[13]
وقال عليٌّ[14] في التعازي لأشعثٍ ... وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاءً وحِسبةً ... فتُؤجَرَ، أم تسلو سلوّ البهائم؟[15]

---

(١) هو مالك بن طوق التغلبي، من ولاة العباسيين. بنى مدينة الرّحبة على الفرات وذلك في عهد المأمون.

(٢) جنًا: انحناءً واعوجاجًا.

(٣) جدواه: عطيّته.

(٤) التمائم: جمع تميمة، وهي ما يعلّق على الجسد لدفع الأذى والشرّ من الجنّ والإنس.

(٥) لعل في هذه اللفظة تصحيفًا. والأصوب أن تكون (دعميّ) بالعين، ودعميّ هو ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ. ويؤيد هذا ذكره (وائلًا) و(حمزة) و(عتابا).

(٦) وائل، وإليه تنسب قبيلة وائل بن قاسط، القبيلة العربية العدنانية، ومن أشهر فروعها بكر وتغلب.

(٧) عتّاب: أحد أجداد العرب، تنسب إليه قبيلة.

(٨) هو حمزة بن عبد المطلب، عمّ النبيّ ﷺ استشهد في موقعة أحد إلى الشمال من المدينة المنوّرة.

(٩) هاشم، جدّ النبيّ ﷺ وأبو عبد المطلب.

(١٠) شجا: أحزن.

(١١) أبو القاسم: كنية النبيّ ﷺ.

(١٢) قاسم، ابن النبيّ ﷺ، مات في حياته وهو طفل صغير.

(١٣) قيس بن عاصم، من شعراء الجاهلية وفرسانها. أسلم في وفد من تميم.

(١٤) هو الإمام علي بن أبي طالب.

(١٥) إشارة إلى ما قاله الإمام علي للأشعث بن قيس معزّيًا إياه بفقد بعض ولده: «اصبر صبر الأكارم أو فاسْلُ سلوّ البهائم».

خُلِقنا رجالًا للتجلُّد والأسَى ... وتلك الغَوَانِي[١] للبُكا والمآتِمِ
وأيُّ فتًى في الناس أحرضُ[٢] من فتًى ... غدا في خِفَارات الدموع السَّواجِمِ
وهل من حكيم ضيّع الصبرَ بعدما ... رأى الحكماءُ الصبرَ ضربةَ لازمِ
فلا بَرِحت تسطو ربيعةُ منكم ... بأرقَمَ عطّافٍ وراء الأراقمِ
فأنت وصِنواك الشقيقانِ إخوة ... خُلقتم سَعُوطًا[٣] للأنوف الرواغمِ
ثلاثة أركان، وما انهدّ سؤدُدٌ ... إذا ثبتت فيه ثلاثُ دعائمِ

وقال يرثي عُمَيْر بنَ الوليد: [من الكامل]

كفُّ الندى أمستْ بغير بَنانِ[٤] ... وقنَاتُهُ أضحت بغير سِنانِ
جبلُ الجبال غدتْ عليه مُلمَّةٌ ... تركَتْه وهو مهدَّم الأركانِ
أَنْعَى عُمَيْرَ بن الوليد لغارةٍ ... بِكْرٍ من الغارات أو لَعَوانِ[٥]
أنعَى فتى الفِتْيانِ غيرَ مكذَّبٍ ... قولي، وأنعَى فارس الفُرسانِ
عَثَر الزمانُ ونائباتُ صروفِه ... بمُقيلنا عثراتِ كلِّ زمانِ
لم يترك الحَدَثانُ[٦] يوم سطابه ... أحَدًا نَصُول به على الحَدَثانِ
قد كنتَ حَشْوَ الدرع ثم أراك قد ... أصبحتَ حشوَ اللحد والأكفانِ
شُغِلت قلوبُ الناس ثم عيونُهم ... مذ مُتَّ بالخفَقانِ والهَمَلانِ
واستعذبوا الأحزانَ حتى إنّهم ... يتحاسدون مَضَاضةَ[٧] الأحزانِ
ما يرعَوِي[٨] أحدٌ إلى أحدٍ ولا ... يشتاق إنسانٌ إلى إنسانِ
أأصاب منك الموتُ فرصةَ ساعةٍ ... فعَدَا عليك وأنتما أخَوانِ!
فَمَن الذي أبْقَى ليومِ تكرُّمٍ ... ومن الذي أبقى ليوم طِعانِ!

وقال يرثي ابنًا له: [من مخلّع البسيط]

كان الذي خِفتُ أن يكونا ... إنّا إلى الله راجعونا
أمسى المُرَجَّى أبو عليٍّ ... مُوسَّدًا[٩] في الثرى يمينا

---

(١) الغواني: النساء.
(٢) أحرض: أطول همًّا وسقمًا.
(٣) السعوط: الدواء يصبّ في الأنف.
(٤) البنان: طرف الإصبع، أو الإصبع كلّه.
(٥) العوان: ما كان في منتصف السنّ. والعوان: الحرب الشديدة.
(٦) الحدثان: نوائب الدهر.
(٧) المضاضة: الوجع الشديد.
(٨) يرعوي: يكفّ ويرتدع.
(٩) موسّدًا: متكئًا إلى الوسادة. ممدّدًا.

حين استوى وانتهى شبابًا وحقّق الرأيَ والظنونا
أُصِبْتُ فيه وكان عندي على المصيباتِ لي مُعينا
كنتُ كثيرًا به عزيزًا وكنتُ صَبًّا به ضَنِينا[١]
دافعتُ إلا المَنُونَ عنه والمرءُ لا يدفع المنونا
آخِرُ عهدي به صريعًا للموت بالداء مُستكينا
إذا شَكا غُصّة وكَرْبًا[٢] لاحَظَ أو راجَعَ الأنينا
يُدير في رَجْعه لسانًا يمنعه الموتُ أن يُبِينا
يشخصُ طورًا بناظرَيْهِ وتارةً يُطْبِق الجُفُونا
ثم قضَى نَحْبَه وأمسَى في جَدَثٍ للثرى دفينا
باشَرَ بَرْدَ الثرى بوجهٍ قد كان من قبلِه مَصُونا
بَعِيد دارٍ قريب جارٍ قد فارق الإلف والقَرينا
بُنَيَّ يا واحدَ البنينا غادرتَني مُفْردًا حزينا
هوّن رُزْئي بك الرزايا عليّ في الناسِ أجمعينا
آليتُ أنساك ما تجَلّى صبحُ نهارٍ لمُضْبِحينا
وما دعا طائرٌ هَدِيلًا ورجَّعتْ وَالِهٌ[٣] حَنينا
تصرَّف الدهرُ بي صُروفًا وعاد لي شأنُه شُؤونا
وحزّ في اللحم بل بَراه واجتثّ[٤] من طلحتي[٥] فُنُونا
أصاب منّي صميمَ قلبي وخِفتُ أن يقطع الوَتِينا[٦]
والمرء رهنٌ بحالتيه فشدّةً مرّةً ولِينا

ومما قيل في شواذّ المراثي:

من ذلك ما قالته جَليلةُ بنتُ مُرّةَ أختُ جَسّاسٍ زوج كُلَيْب لما قتل أخوها جسّاس زوجها كليبًا؛ وكان نساء الحيّ لما اجتمعن للمأتم قلن لأخت كليب: رَحّلي

(١) ضنينًا: بخيلًا. (٢) كربًا: حزنًا وغمًّا.
(٣) الواله، والوالهة: من ذهب عقلها من شدّة الحزن والكرب.
(٤) اجتثّ: انتزع. (٥) طلحتي: جوفي وداخلي.
(٦) الوتين: عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلها.

جليلةَ عنكِ فإن قيامها فيه شماتةٌ وعار علينا عند العرب، فقالت لها: أخرجي عن مأتمنا، فأنت أخت واترنا[١] وشقيقة قاتلنا، فخرجتْ وهي تجرّ أعطافها؛ فلقيها أبوها مُرّة فقال لها: ما وراءكِ يا جليلة؟ فقالت: ثُكْل[٢] العَدَد، وحزن الأبد؛ وفقدُ حليل[٣]، وقتل أخ عن قليل؛ وبين ذلك غَرْس الأحقاد، وتفتُّت الأكباد. فقال لها: أَوَ يَكُفُّ ذلك كرمُ الصَّفح وإغلاء الدِّيَات[٤]؟ فقالت جليلة: أُمنيَّةٌ مخدوع وربِّ الكعبة، أبالبُدْن[٥] تَدَعُ لك وائل دم ربِّها! قال: ولما رحلت جليلة قالت أختُ كليب: رِحلَةَ المعتدي وفراقَ الشامت! ويلٌ غدًا لآل مُرّة، من الكَرّة بعد الكَرّة! وبلغ قولُها جليلةَ فقالت: وكيف تشمَت الحُرّة بهتك سِتْرها وترقُّب وِتْرها! أسعد الله أختي، ألا قالت: نَفْرةَ الحياء وخوفَ الأعداء ثم أنشأتْ تقول: [من الرمل]

يا ابنةَ الأقوام إن لمتِ فلا ... تَعْجَلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنتِ تبينتِ الذي ... يُوجب اللوم فلُومي واعذُلِي
إن تكن أخت امرىء لِيَمتْ على ... جَزَع منها عليه فافعلي
جلّ عندي فعلُ جَسّاس فيا ... حسرتا عما انجلت أو تنجلي
فعل جسّاس على ضَنِّي به ... قاطعٌ ظهري ومُدنٍ أَجَلي
لو بعين فقئت عينٌ سوى ... أختها وانفقأت[٦] لم أحفِلِ
تحمِلُ العينُ قَذَى[٧] العين كما ... تحملُ الأمّ أذى ما تفتلي[٨]
إنني قاتلةٌ مقتولةٌ ... فلعلّ الله أن يرتاحَ لي
يا قتيلًا قوّض[٩] الدهرُ به ... سقفَ بيتَيّ جميعًا من علِ
ورماني فقده من كَثَبٍ ... رَميةَ المُصْمَى[١٠] به المُستأصَلِ[١١]

---

(١) واترنا: الذي وترنا، أي قتل منّا واحدًا يوجب الأخذ بالثأر له.
(٢) ثكل: فقد. (٣) الحليل: الزوج.
(٤) الديات: جمع دية، وهي المبلغ من المال، أو العدد من الجمال وغيرها يدفعه ذوو القاتل لذوي القتيل.
(٥) البُدن: النّياق. (٦) انفقأت، وفقئت العين: انشقت.
(٧) قذى العين: ما يدخلها من عوار وغبار وغيره.
(٨) تفتلي: تحمل من الأولاد. (٩) قوّض: صدع.
(١٠) المصمى: الذي أصابه السهم فأصماه.
(١١) المستأصل: من رماه السهم وغيره فاستأصل جزءًا منه.

هدم البيتَ الذي استحدثتُهُ وبدا في هَدْم بيتي الأوّلِ
يا نسائي دونَكنّ اليوم قد خصّني الدهرُ برُزءٍ مُعضلِ[١]
مسّني فقدُ كُلَيْب بلظَى من ورائي ولظًى مُستَقْبِلي
ليس من يبكي ليومين كمن إنما يبكي ليوم ينجَلي
دَرَكُ الثائر شافِيه وفي دَرَكي ثارِيَ ثُكْلُ المُشْكِلِ
ليتَه كان دَمِي فاحتَلَبوا دِرَرًا[٢] منه دما من أكْحَلِي

ولما مات معاويةُ بنُ أبي سفيانَ اجتمع الناسُ بباب يزيدَ فلم يقدروا على الجمع بين التهنئةِ والتعزية، حتى أتى عبدُ الله بن هَمّام فقال: يا أميرَ المؤمنين، أجزل الله أجرك على الرزّية. وبارك لك في العطيّة، وأعانك على الرعية؛ فقد رُزئت عظيمًا، وأُعطِيتَ جسيمًا؛ فاشكر الله على ما أُعطيت، واصبر على ما رُزيت؛ فقد فقدت خليفةَ اللهِ، وأُعطيت خلافةَ الله؛ ففارقت جليلًا، وأُعطيت جزيلًا؛ إذ قضى معاويةُ نَحبه؛ ووليت الرياسةَ، وأُعطيت السياسةَ؛ فأورده الله موارد السرور، ووفّقك في جميع الأمور: [من البسيط]

فاشكر يزيدُ فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ[٣] واشكر حِباءَ[٤] الذي بالملك حَاباكَا
أصبحت تملك هذا الخلق كلَّهُم فأنت ترعاهمُ والله يرعاكا
لا رُزْءَ أعظمُ في الأقوام قد علموا مما رُزِئتَ، ولا عُقْبَى[٥] كَعُقباكَا
وفي معاوية الباقي لنا خَلَفٌ إذا نُعِيتَ ولا نسمعُ بمَنْعاكا

ففتح للناس باب الرثاء وجَرَوْا على منواله.

وقال أبو نُوَاس الحسنُ بنُ هانيء يعزّي الفضلَ بنَ الربيعِ[٦] عن الرشيد ويهنّئه بالأمين: [من الطويل]

تَعَزَّ أبا العبّاس عن خير هالكٍ بأكرمِ حيٍّ كان أو هو كائنُ

---

(١) الرزء المعضل: المصيبة التي لا خلاص منها.
(٢) دررًا: جمع درّة، وهي الدفعة من الحليب وغيره.
(٣) مقة: حبّ، وهي مصدر ومق ومقًا ومقةً. (٤) حباء: عطاء.
(٥) عقبى: العقبى: آخر كل شيء، والجزاء.
(٦) الفضل بن الربيع: حاجب المنصور العباسي ووزير الرشيد بعد نكبة البرامكة.

حـوادثُ أيـام تـدور صـروفُـهـا لـهـنّ مَـسَـاوٍ مـرَّةٍ ومَـحَـاسِـنُ
وَفى الحيّ بالميْتِ الذي غيّب الثرى فلا أنت مغبونٌ[1] ولا الموت غابِنُ[2]

وقال أبو تمام يرثي المعتصمَ ويهنىء الواثق: [من الكامل]

مـا لـلدمـوع تـرومُ كـلّ مَـرَام والجفنِ ثاكل هَجْعةٍ[3] ومَنام
يا حُفرةَ المعصوم تربُكِ مُودَعٌ مـاءَ الـحـيـاةِ وقـاتـلَ الإعـدام
إن الصفائح منكِ قد نُضِدَت على ملقى عِظام لـو عـلمتِ عـظام
فَتقَ المدامع أن لحدك[4] حلّه سكَنُ الزمان ومُمْسِكُ الأيام
ومصرِّفُ المُلْك الجَمُوح كأنه قد زُمّ[5] مُصْعَبُه[6] له بزِمام
هدمَتْ صروفُ الدهر أرفعَ حائطٍ ضُرِبَت دعائمه على الإسلام
دخلتْ على مَلِك الملوك رُواقَه[7] وتـسـرّبـتْ لـمُـقـوِّم الـقُـوَّام
مفتاحُ كلِّ مدينةٍ قد أُبْهِمت غَلَقًا ومُخْلي كلّ دارِ مُقَام
ومُعَرِّف الخلفاء أنّ حظوظها في حيِّز الإسراج[8] والإلجام[9]
أخذ الخلافةَ عن أسِنّته التي منعتْ حِمَى الآباء والأعمام
فلسُورة الأنفال[10] في مِيراثه آثارُها ولسُورة الأنعام[11]
ما دام هارونُ[12] الخليفةَ فالهُدَى في غِبْطة موصولةٍ بدوام
إنّا رحَلنا واثقين بواثقٍ[13] بالله شمس ضُحَى وبدر تَمَام
لله أيّ حـيـاةٍ انـبـعـثـت لـنـا يوم الخميس وبعد أيّ حِمام[14]
أودى بخير إمامٍ اضطربت به شُعَب الرجال وقام خيرُ إمام
تـلك الـرزيّـةُ لا رزيّـةَ مـثـلُهـا والقِسْمُ ليس كسائر الأقسام

(١) المغبون: المخدوع والمغلوب في البيع أو الشراء، وغير ذلك.
(٢) الغابن: الخادع والغالب في البيع وغيره.
(٣) ثاكل هجعة: فاقد نومة.
(٤) اللحد: جانب القبر.
(٥) زمّ: رُبط أو شُدّ بالزّمام.
(٦) المصعب: الفحل من الخيل أو الجمال لم يركب فصار صعبًا.
(٧) رواقه: سقفه في مقدم البيت.
(٨) الإسراج: جعل السّرج على ظهر الفرس.
(٩) الإلجام: جعل اللجام في فمها.
(١٠) الأنفال: سورة في القرآن الكريم.
(١١) الأنعام: سورة من سور القرآن الكريم.
(١٢) هارون: اسم الخليفة الرشيد.
(١٣) الواثق: لقب هارون بن المعتصم.
(١٤) الحِمام: الموت.

جاء منها:

نقضٌ كَرجْع الطَّرْف قد أبرَمْتَه[١] يا ابن الخلائف أيّما إبرامِ
ما إن رأى الأقوامُ شمسًا قبلها أَفَلَتْ فلم تُعقبْهُمُ بظَلامِ
أكْرِمْ بيومهِمُ الذي مُلّكْتَهُمْ في صدره وبعامهم من عامِ

ثم أخذ في مدح الواثق.

وفي هذه الواقعة يقول ابنُ الزيّات[٢]: [من المنسرح]

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطَفَقتْ[٣] عليك أيدٍ بالتُّرْب والطين
اذهب فنِعم المعينُ كنتَ على الد نيا ونعم الظهير للدين
لن يجبُرَ[٤] الله أمّةً فقدتْ مثلَك إلا بمثل هارون

ومن أشدّ الرثاء صعوبةً على الشاعر وأضيقه مَجالًا أن يرثي امرأةً أو طفلًا. وقد أُخِذ على المتنبيّ في قوله يَرثي أمّ سَيف الدولة[٥] بن حَمْدان: [من الوافر]

سلامُ الله خالِقنا حَنُوطٌ[٦] على الوجه المُكَفَّن بالجمالِ

وقالوا: ما له ولهذه العجوز يصف جمالها! ووبّخه الصاحب بن عبّاد[٧] في قوله فيها:

رواق العز فوقَك مُسْبَطِرٌّ[٨] ومُلْكُ عليٍّ ابنكِ في كَمَالِ

(١) أبرمته: عقدته.
(٢) ابن الزيات، هو محمد بن عبد الملك الزيّات، الوزير العباسي. سبق التعريف به.
(٣) اصطفقت: يقال اصطفقت النساء على الميّت، إذا تجاوبن في النوح والبكاء عليه.
(٤) يجبر: يصلح ويرتق.
(٥) سيف الدولة: لقب الأمير الحمداني علي بن عبد الله، أكبر ملوك الحمدانيين. ملك دمشق وانتزع حلب من الإخشيديين، حارب البيزنطيين، وأغدق على الشعراء والأدباء والفلاسفة ومن بين الشعراء الذين حظوا عنده بالمكانة الرفيعة أبو الطيّب المتنبي. مات سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م.
(٦) الحنوط: الطيّب يحشى به جثة الميت كي لا يدركها الفساد سريعًا.
(٧) الصاحب بن عباد: أديب ولغوي وشاعر ووزير. استوزره مؤيد الدولة البويهي ثم استوزره فخر الدولة. له رسائل مسجّعة جيّدة. من كتبه «المحيط» وهو معجم لغوي، و«كتاب الوزراء» و«الكشف عن مساوىء شعر المتنبي» و«جوهرة الجمهرة» مات سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م.
(٨) مسبطرّ: منتشر وممدّد ومستقيم.

قال أبو الحسن عليُّ بنُ رَشيق[١] الأزدي في كتابه المترجم بالعمدة وبالأغاني أيضًا: أشدُّ ما هجّن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة من الهجاء أنه قرنها «بفوقك» فجاء عملًا تامًّا لم يبق فيه إلا الإفضاء. وإن يكن المتنبي أخطأ في هذا فلقد أجاد في غيره؛ والفاضلُ مَن عُدّت سَقَطاته، وحُفِظت هَفَواته[٢] وفَلَتاتُه؛ وانظرْ إلى قوله في أخت سيف الدولة: [من البسيط]

يا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبِ ... كنايةٍ بهما عن أشرف النسَب

أُجِلُّ قدرَكِ أن تُدْعَيْ مُؤَنَّثَةً ... ومن يَصِفْكِ فقد سمّاكِ للعَرَب

وقوله أيضًا: [من الوافر]

ولو كان النساء كمن فقدْنَا ... لفُضِّلت النساء على الرجالِ

مَشى الأمراءُ حولَيْها حُفَاةً ... كأن المَرْوَ[٣] من زِفّ[٤] الرئالِ[٥]

ومن جيّد ما رُثِي النساء به وأشدِّه تأثيرًا في القلب وإثارةً للحزن قولُ ابنِ عبدِ الملك بن الزيّات في أمّ ولده: [من البسيط]

ألَا مَن رأى الطفل المفارِقَ أمَّه ... بُعَيدَ الكَرى[٦] عيناه تبتدرانِ[٧]

رأى كلَّ أُمٍّ وابنَها غيرَ أُمِّه ... يبيتانِ تحت الليل يَنْتجيانِ

وبات وحيدًا في الفراش تحثُّه ... بلابلُ قلب دائِم الخَفَقانِ

ومنها بعد أبيات:

ألا إنّ سَجْلًا[٨] واحدًا قد أرقتُه ... من الدمع أو سَجْلين قد شَفَيانِي

فلا تَلْحَيانِي[٩] إن بكيتُ فإنما ... أُداوي بهذا الدمع ما تَرَيانِ

وإنّ مكانًا في الثَّرَى خُطَّ لحدُه ... لمن كان من قلبي بكلّ مكانِ

أحقُّ مكانٍ بالزيارة والهوى ... فهل أنتما إن عُجْتُ[١٠] منتظرانِ؟

---

(١) ابن رشيق القيرواني: شاعر وأديب لازم بلاط المعزّ بن باديس بالقيروان. رافق الأمير الزيدي إلى المهديّة إبّان الغزو الهلالي ثم رحل إلى صقلية. مات سنة ١٠٧١ م.

(٢) هفواته: سقطاته وأخطائه.

(٣) المرو: الحصا، والحجارة.

(٤) الزّف: صغار الريش.

(٥) الرئال: أولاد النعام، والمفرد رئل.

(٦) الكرى: النوم.

(٧) تبتدران: تدمعان بانهمار سريع.

(٨) السجل: الدلو.

(٩) تلحياني: تلوماني وتعيبان عليّ.

(١٠) عجت: ملت على.

فهَبْني عزمتُ الصبْرَ عنها لأنّني | جَليدٌ فمن بالصبر لابن ثَمَانِ
ضعيف القُوَى لا يعرف الأجرَ حِسبةً | ولا يأتَسِي[١] بالناس في الحَدَثانِ
ألا مَنْ أُمَنِّيه المُنَى وأُعِدُّهُ | لعَثْرة أيّام وصَرْفِ زَمانِ
ألا مَن إذا ما جئتُ أكرمَ مجلِسي | وإن غبتُ عنه حَاطَني ورعاني
فلم أر كالأقدار كيف تُصيبني | ولا مثلَ هذا الدهرِ كيف رماني

وقال أبو تمّام يرثي جارية له: [من الطويل]

ألم ترني خلَّيْتُ عيني وشانَهَا | ولم أحفِلِ الدنيا ولا حَدَثانَهَا
لقد خوّفتني النائباتُ صروفَها | ولو أمّنتني ما قبِلتُ أمانَها
وكيف على نار الليالي مُعَرَّسِي[٢] | إذا كان شيبُ العارضَيْنِ[٣] دُخانَهَا
أُصِبتُ بخَوْد[٤] سوف أخبُرُ بعدها | حليفَ أسًى أبكِي زماني زمانَهَا
عِنانٌ من اللذّات قد كان في يدي | فلما مضى الإلفُ استردّتْ عِنانها
منحتُ الدُّمَى هجري فلا مُحْسِناتها | أَوَدُّ ولا يهوَى فؤادي حِسانَها
يقولون: هل يبكي الفتى لخريدةٍ[٥] | متى ما أراد اعتاض عشْرًا مكانَها!
وهل يستعيضُ المرء من خَمْس كَفّه | ولو صاغ من حُرّ اللُّجَين[٦] بنانَها!

وقال أبو الفتح كُشاجم[٧] يعزّي بابنة: [من الهزج]

تأسَّ يا أبا بكرِ | لموت الحُرّة البِكْرِ
فقد زوّجتَها القبرَ | وما كالقبر من صِهْرِ
وعُوِّضت بها الأجرَ | وما كالأجر من مَهرِ[٨]
زِفافٌ أُهديت فيه | من الخِدْر إلى القبرِ
فتاةٌ أسبغ الله | عليها أفضل السِّترِ

---

(١) يأتسي: يتخذ أسوةً وقدوة.
(٢) المعرّس: مكان التعريس، وهو الإراحة بعد السفر استعدادًا له ثانيةً.
(٣) العارضان: جانب الرأس وما عليهما من شعر.
(٤) الخود: الحسناء الفتيّة من النساء.
(٥) الخريدة: اللؤلؤة التي لم تثقب، وهي صفة أو كناية عن الفتاة.
(٦) اللجين: الفضّة.
(٧) كشاجم، شاعر عباسي، سبق التعريف به.
(٨) المهر: صداق المرأة، أي الثمن الذي يتعهد بدفعه لها لدى عقد الزواج.

ورزءٌ أشــبــهَ الــنــعـــمـــ ـة فــي الــمــوقِــع والــقَــدْرِ
وقـد يُـخـتـار فـي الـمـكـرو هِ لــلـمـــرء ومـــا يــدري
فــقــابــلْ نــعــمـــةَ الله ومـــا أولاك مـــن شـــكـــرِ
وعَــزِّ الــنــفــسَ عــمّــا فــا ت بــالــتــســلــيــم والــصــبــرِ

وقال أبو مروانَ بنُ أبي الخصالِ الأندلسيّ في مثل ذلك: [من الوافر]

ألا يــا مــوتُ كــنــت بــنــا رَؤوفًــا فــجــدّدت الــحــيــاة لــنــا بــزَوْرَهْ
حـمِـدتُ لـفـعـلك الـمـأثـور لـمّـا كـفـيـتَ مـؤونـة وسـتـرتَ عَـورهْ
فأنكَحْنا الـضـريـحَ بـغـيـر مَـهْـر وجـهّـزْنـا الـفـتـاةَ بـغـيـر شَـوْرهْ

وقال أبو تمّام حبيبُ بنُ أوسٍ الطائيّ في ابنيْن لعبدِ الله بنِ طاهرٍ[١] ماتا صغيرين في يوم واحد من قصيدة: [من الكامل]

نــجــمـــان شــاء الله ألّا يــطــلُــعــا إلا ارتـداد الـطَّـرْفِ حـتـى يـأْفُـلَا
إنّ الـفـجـيـعـةَ بـالـريـاض نـواضـرًا لأجَـلُّ مـنـهـا بـالـريـاض ذوابِـلَا
لـو يُـنْـسَـآنِ[٢] لـكـان هـذا غـاربًـا لـلـمـكـرُمـاتِ وكـان هـذا كـاهِـلًا[٣]
لَهْفي على تلك الشواهد فيهما لـو أُمْـهِـلتْ حتى تكونَ شمائلَا
لَغَدا سكونهما حِجًا وصِباهما حِلْمًا وتلك الأرْيَحيَّةُ[٤] نائلَا
إنّ الـــهـــلالَ إذا رأيــتَ نُـــمُـــوَّه أيـقـنـتَ أن سـيـكـونُ بـدرًا كـامـلَا

وقال أبو الحسن الأنباري في محمدِ بنِ بقيَّة وزيرِ عزِّ الدولةِ بختيارَ بنِ معزّ الدولة ابن بُوَيْهِ لما صلبه عَضُدُ الدولة ابن رُكن الدولة بن بُوَيْهِ عند خلع بختيار، وهي من نوادر المراثي: [من الوافر]

عُـلُـوٌّ فـي الـحـيـاةِ وفـي الـمـمـاتِ لَـحَـقٌّ أنـت إحـدى الـمُـعـجـزاتِ
كـأنّ الـنـاسَ حـولـك حـيـن قـامـوا وفُـودُ[٥] نَـدَاكَ أيّـامَ الـصِّـلاتِ

---

(١) عبد الله بن طاهر: الوالي الذي وطّد الأمن في مصر للعباسيين. ثم خلف أخاه طلحة في حكم خراسان، مات سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م.
(٢) ينسآن: ينسخان، فيكون أحدهما مكان الآخر.
(٣) كاهلًا: سندًا ومعتمدًا.
(٤) الأريحية: الخصلة تجعل الإنسان يرتاح إلى الأفعال الحميد والبذل.
(٥) وفود: رُسُل وجماعات.

كـأنّـك قـائـمٌ فـيـهـمْ خـطـيـبًـا وكُـلُّـهـمُ قِـيـامٌ لـلـصَّـلاةِ
مَـدَدْتَ يـديْـك نـحـوَهُـمُ جـمـيـعًـا كـمـدِّهـمـا إلـيـهـمْ بـالـهِـبَـاتِ[1]
ولـمـا ضـاق بـطـنُ الأرض عـن أنْ يَـضُـمَّ عُـلَاك مـن بـعـد الـمـمَـاتِ
أصاروا الجوَّ قبرَك واستنابوا عن الأكفانِ ثوبَ السافياتِ[2]
لعُظْمِك في النفوس بَقِيتَ تُرْعَى بـحُـرّاس وحُـفّـاظ ثِـقـاتِ
وتُـشْـعَـلُ عـنـدك الـنـيـرانُ لـيـلًا كـذلـك كـنـتَ أيّـامَ الـحـيـاةِ
ولم أرَ قبلَ جذْعك قطُّ جذعًا تـمـكّـنَ مـن عِـنـاقِ الـمـكـرُمـاتِ
ركـبـتَ مـطـيّـةً مـن قـبـلُ زيـدٌ عَـلَاهـا فـي الـسـنـيـن الـذاهـبـاتِ

أشار في هذا البيت إلى زيدِ بنِ الحسن بن عليّ بن أبي طالب لمّا قُتِلَ وصُلِب في أيّام هشامِ بنِ عبدِ الملك.

ومما يدخل في هذا الباب ويلتحق به ما يطرأ من الحوادث التي تعُمّ بها البليّةُ، وتشمَل بسببها الرزيّة؛ كاستيلاء أهلِ الكفر على بلد من بلاد الإسلام، وهزيمتهم لجيشه اللُّهام[3]؛ فمن ذلك ما كتب به القاضي الفاضلُ عبدُ الرحيم البَيْساني إلى الأمير عزّ الدين سامةَ لما استعاد الفِرنْج ـ خذلهم الله تعالى ـ مدينة بيروت: ابتدأ كتابه بأن قال بعد البسملة: قال الله سبحانه في كتابه العزيز مُسلّيًا لنبيّه الكريم ﷺ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنفال: الآية ٧١]، فإذا كان من الناس مَن خان الله ورسوله ﷺ فكيف لا يخون الناسُ الناس! وأين المُوفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرون في البأساء والضرّاء وحين الباس: [من الوافر]

وقـد كـانـوا إذا عُـدُّوا قـلـيـلًا فـقـد صـاروا أقـلَّ مـن الـقـلـيـل

والمولى ـ أعزّه الله بنصره، وعوّضه أحسنَ العِوَض من أجره، وكتب له ثوابَ تسليمه إليه وصبره ـ ليس بأوّل من وَثِق بمن خان، وقضيّةُ بيروتَ بأوّل مقدور قال الله له: كن فكان؛ والقدر السابق لا يدفعه الهمُّ اللاحق، ومن الخَجَلات المستعارة خَجْلةُ الواثق، والموثوقُ به لائقٌ به الخجلُ الصادق؛ ومعاذَ الله أن ينكّسُ المجلس رأسَه حياء، أو أن يَسْخَط لله قضاء؛ أو أن يأسفَ على مال نقله من مُودَعه الذي لا يُؤمَن

(١) الهبات: الأعطيات.
(٢) السافيات: صفة للرمال المتحركة المتناثرة بفعل الرياح التي تسفي.
(٣) اللهام: الجيش العظيم كأنه يلتهم كل شيء.

من الآفات عليه، إلى مُودَع الله الذي يحفظه إلى أن يأتيَه به أحوجَ ما كان إليه؛ والحمد لله الذي جعل مصائبَنا في الدنيا فوائدَنا في الأُخرى، ثم الحمد لله الذي جعل البادرةَ للعُدوان والعاقبةَ للتقوى. وقد علم الله أني مُقاسِمه ومُساهِمه، ومُضمِرٌ من الهمّ بما اتفق من هذا المقدور ما مُقدّره عالمه؛ غير أنه لا حيلةَ لمن لا حيلة له إلا الصبر، وإن صبَر جرى عليه القدَر وجرى له الأجْر، وإن لم يصبر جرى عليه القدَر وكُتِب عليه الوِزر[1]؛ وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب صاحبُه فقد أنعم الله عليه، حيث أخرج ما في يديه وأبقى يديه؛ والمال غاد ورائح، والمال بالحقيقة هو العمل الصالح؛ وإن اجتمع مُوصلها بحضرته فهو يُنهِي ما عندي، ويُؤدّي حقيقةَ ودّي؛ ورأيه الموفّق.

وقال أبو المظفّر الإبيوَرْدِيّ لما استولى الفِرنْج على البيتِ المقدّس في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة قصيدة منها: [من الطويل]

مَزَجنا دماءً بالدموع السواجِم[2] ... فلم يبقَ منا عُرضة للمرَاجم[3]

وشرُّ سلاحِ المرءِ دمعٌ يُفيضُهُ ... إذا الحربُ شبّت نارُها بالصوارمِ

فإيهًا بني الإسلام! إن وراءكم ... وقائعَ يُلْحِقْنَ الذُّرى بالمَناسِم

أتهويمةً[4] في ظِلّ أَمنٍ وغِبْطةٍ ... وعيشٍ كنُوّار[5] الخميلةِ[6] ناعم!

وكيف تنام العينُ مِلْءَ جُفونها ... على هَبَوات[7] أيقظتْ كلَّ نائم

وإخوانُكم بالشأم يُضحِي مَقيلُهمْ[8] ... ظهورَ المَذَاكِي[9] أو بطونَ القَشَاعِم[10]

يسومُهُمُ الرومُ الهوانَ[11] وأنتُمُ ... تجرُّون ذيلَ الخَفْضِ فعلَ المُسَالِم

وكم من دماءٍ قد أُبيحتْ، ومن دُمًى ... تُوَارِي حياءً حُسْنَها بالمعاصِم

---

(١) الوزر: العبء والثقل، والخطأ الفادح. (٢) السواجم: المنصبّة بغزارة.
(٣) المراجم: القبيح من الكلام. والمراجم، جمع مرجم، وهو الشديد الوطء.
(٤) التهويمة: واحدة التهويم، وهو النوم قليلًا، أو هزّ الرأس من النعاس.
(٥) النوّار: النور والزهر. (٦) الخميلة: الموضع الكثير الشجر.
(٧) هبوات: جمع هبوة وهي الغبرة وما يرتفع في الجوّ من غبار الزوابع.
(٨) المقيل: موضع القيلولة، وهي النوم ظهرًا للاستراحة.
(٩) المذاكي: جمع مذكي، وهو من الخيل ما تمّت سنّه وكملت قوته.
(١٠) القشاعم: جمع قشعم، وهو المسنّ من النسور.
(١١) الهوان: الذل.

بحيث السيوفُ البيضُ مُحمرَّةُ الظُّبَى — وسُمْرُ العَوَالِي داميـاتُ اللَّهَاذِمِ[١]
وبين اختلاسِ الطعنِ والضربِ وقفةٌ — تَظَلُّ لها الوِلْدانُ[٢] شيبَ القَوادِمِ[٣]
وتلك حروبٌ مَن يَغِبْ عن غِمارها — ليسلم يَقْرَعْ بعدها سِنَّ نادم
سَلَلْنَ بأيدي المسلمين قَوَاضِيًا — ستُغْمَد منهم في الطُّلى[٤] والجماجِم
يكادُ بهنّ المُستجِنّ بطَيْبة[٥] — ينادي بأعلى الصوت: يا آل هاشم
أرى أمّتي لا يشرعون إلى العِدا — رماحَهُمُ والدِّينُ واهي الدعائم
ويجتنبون النارَ خوفًا من العِدا — ولا يحسبون العارَ ضربةَ لازم
أترضى صناديدُ[٦] الأعاريبِ بالأذى — وتُغْضِي على ذُلٍّ كُمَاةُ الأعاجِم!
فليتهمُ إذ لم يَذُودوا حميّةً — عن الدين ضنُّوا غَيْرةً بالمحارم
وإن زَهِدوا في الأجر إذ حَمِيَ الوَغى — فهلّا أَتَوْه رغبةً في المغانم!
لئن أذعنت تلك الخياشيمُ[٧] للثرى — فلا عَطَسوا إلا بأجدعَ[٨] راغم[٩]
دعوناكُمُ والحربُ ترنُو مُلِحّةً — إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تُراقِبُ فينا غارةً عربيّةً — تُطيل عليها الرومُ عَضّ الأباهِم
فإن أنتُمُ لم تغضَبوا عند هذه — رمتنا إلى أعدائنا بالجرائم

وقال عَلاءُ الدين عليُّ الأوتاريّ الدمشقيّ في مثل ذلك لما استولى التتارُ على دِمشقَ في سنة تسع وتسعين وستمائة: [من الخفيف]

لَكَ عِلْمٌ بما جرى يا سُهَادي — من جفوني على افتقاد رُقادي
لم أجد عند شِدّتي مُؤنِسًا لي — غير سُهْدي مُلازمًا لسَوَادِي
وحبيبُ العين الرقادُ جفاها[١٠] — مُذ رآها خليفةَ الأنكادِ[١١]

(١) اللهاذم: جمع لهذم، وهو حدّ كل شيء قاطع من السيف أو السنان وغيره.
(٢) الولدان: جمع وليد، وهو المولود، والصبيّ والعبد.
(٣) القوادم: جمع قادمة، وهي الريشة الكبيرة في رأس جناح الطائر، كناية عن الشعر.
(٤) الطلى: الأعناق.
(٥) طيبة: اسم للمدينة المنوّرة.
(٦) صناديد: فرسان أشدّاء وشجعان.
(٧) الخياشيم: جمع خيشوم، وهو أقصى الأنف.
(٨) الأجدع: المقطوع الأنف.
(٩) راغم: كاره، مقهور.
(١٠) جفاها: نبذها.
(١١) الأنكاد: جمع نكد، وهو العسر القليل الخير.

أحـسـن الله يـا دِمَـشْـقُ عَـزَاكِ ... فـي مَـغَـانـيـكِ يـا عـمـادَ الـبـلادِ

وبرُسْتاق[١] نَيْرَبَيكَ[٢] مع المِـ ... ـزّة مـع رَوْنَـقٍ بـذاك الـوادي

وبـأُنْـسٍ بَـقـاسِـيُـونَ[٣] ونـاسٍ ... أصبحوا مَغْنَما لأهل الفسادِ

طَرَقتهُم حوادِثُ الدهر بالقتـ ... ـلِ ونَـهْـبِ الأمـوال والأولادِ

وبناتٍ مُحَجّباتٍ عن الشمـ ... ـسِ تناءت بهِنّ أيدِي الأعَادِي

وقُصُور مُشَيّدات تَقَضّتْ ... في ذُرَاها الأيام كالأعيادِ

وبيوت فيها التِّلاوةُ والذكـ ... ـرُ وعالي الحديثِ بالإسنادِ

حَرّقُوها وخرّبوها وبادَتْ ... بقضاء الإلـٰه ربِّ العبادِ

وكذا شارعُ العُقَيْبة والقصـ ... ـر وشاغُورُها[٤] وذاك النادِي

أصبحوا اليومَ مثلَ أمسِ تَقَضّى ... وبَكَتهم سماؤهم والغَوَادِي

ولَكَمْ سُورُها حَوَى مِن مُعَنى ... مُقْرَحِ القلبِ والحشى والفُؤادِ

إن بكى لا يُفيده أو تَشَكّى ... وَجَد المُشْتَكَى حليفَ سُهادِ

يشتكِي فوق ما اشتكاه بأضعا ... فِ فيغدُو وهمه في ازديادِ

فالغَلَا والجَلَا مع الجُوع والعُرْ ... يِ ونهبِ الأقواتِ والأزوادِ

والحصارُ الشديدُ والحبسُ والخو ... فُ مع السادة العُرَاة المَكَادي[٥]

وبوَزْنِ الأموالِ من غير وَجْدٍ ... باعتساف[٦] الغُتْم[٧] الغِلاظِ الشدادِ

كاتُرْ آقجا كبر خوار أنت ياغِيه ... لمحمود غازان قاآن البلادِ[٨]

يا تُرى هل لكَرْبنا من مُجيرٍ[٩] ... أم لتشديد أَسْرنا من مُفَادِي

---

(١) رستاق: لفظة فارسية معرّبة، وتعني السواد، والبيوت المجتمعة.

(٢) نيربيك: اسم قرية بدمشق في وسط البساتين، فيها مصلّى الخضر، والمزّة، اسم موضع بدمشق.

(٣) قاسيون: اسم جبل يشرف على دمشق لجهة المشال.

(٤) العقيبة والقصر والشاغور: أسماء مواضع بعينها.

(٥) المكادي: جمع مكدي، وهو الأسير. (٦) اعتساف: ظلم.

(٧) الغتم: الشداد الغلاظ من الأعاجم.

(٨) معنى هذا البيت الذي لا يضم إلا بضع كلمات عربية: ادفع الخراج أيها العلج الأعجمي لكبير الملوك محمود غازان.

(٩) مجير: مغيث.

لهفَ نفسي على جُيوش تَولَّت ... ثم وَلّت جريحةَ الأكبادِ

كلّ نَدْبٍ عَضْب حَمِيٍّ كَمِيٍّ ... أمجدٍ أضْيَدٍ[١] شجاعٍ جَوادِ

إن سطا في هِبَاته كان بحرًا ... أو سطا خلتَه من الآسادِ

أو بَدَا حاملًا تَخَلْ عَنْتريًّا[٢] ... أو غدا سابِق الجوادِ فغادي

إنْ أتاني مبشِّرٌ بلقاهم ... حاز رُوحي ومُهْجتي وقِيادِي

ولثِمتُ التراب شُكْرًا وعفر ... تُ[٣] خدودي على بلوغ مُرادي

لست أرجو غير البشير شفيعًا ... عند ربّي في المنّ بالإنجادِ[٤]

فهو الصادق الذي وعد الديـ ... ـنَ بنصرٍ جارٍ على الآبادِ

غيرَ أنّ الفسادَ يكسِب ذُلّا ... ويُعَمِّي الفسادُ طُرْقَ السَّدادِ

وارتكاب الفسادِ يُورث فقرًا ... وخرابُ البيوتِ عُقْبَى الفسادِ

يا حبيبَ الإلـٰهِ لا تَتَخَلّى ... عن عُصاة غمرتَهم بالأيادي

يا حبيبَ الإلـٰهِ قد مسّنا الضـ ... ـرّ فجُد بالإسعاف والإسعادِ

يا حبيب الإلـٰه تُبْنا إلى اللـ ... ـه وأنت العِمادُ حتّى المَعَادِ

مَنْ لأسْرَى كَسْرَى حَيَارى دَهَتْهم[٥] ... دَهَمتهم جِيادُ أهلِ العِنَادِ

واضع اللقط[٦] في الحساب عناه ... ـ لو يعِشْ ـ حصرُ كثرةِ الأعدادِ

منهُمُ الطفلُ والصبيّةُ والشا ... بّ يُنَادي، فمن يجيب المنادي!

ويُنَادَى عليهم برغيفٍ ... وبنَزْرٍ بَخْس بسُوق الكَسَادِ

عُوِّضوا عن سرورهم بغرور ... وقصورِ البلاد سُكْنى البَوَادي

وبأهل الوداد شرَّ أُناسٍ ... وبلينِ المِهادِ شواكَ القَتَادِ[٧]

أيُّ عينٍ عليهمُ ليس تبكِي ... أيُّ قلب عليهمُ غيرُ صادي!

فَلأنت الرحيم قلبًا ولُبًّا ... ولأنت الهادي لسُبْل الرَّشادِ

ولأنتَ البديعُ خَلْقًا وخُلْقًا ... ولأنتَ السميعُ للإنشادِ

ولأنت الطِّرازُ[٨] في كلِّ معنًى ... ولسيفِ المقال شبهُ النِّجادِ

---

(١) أصيد: الأصيد من الأسود، الذي في عنقه صيد، وهو الميل في العنق. وهو الأسد عامة.

(٢) عنتريًا: منسوبًا إلى عنترة في الشجاعة.

(٣) عفرت: مرّغت.

(٤) الإنجاد: الإسعاف، والإغاثة.

(٥) دهتهم: أصابتهم بالهلاك.

(٦) اللقط: ما هو يلقط من الأشياء.

(٧) القتاد: شجر شائك، واحدته قتادة.

(٨) الطراز: النمط، والنموذج.

ولأنـت الـحـاوي فُـنُونَ صِـفـاتٍ دون حـصـرٍ لـهـا فَـنَـاءُ الـمِـدَادِ
ولأنـت الـمـمـدوح من فوق عرشٍ بـعـدُ مـاذا يـقـول قُـسُّ الإيـادي[١]
جُلُّ قَصْدِ الفصيح بالنظم معنًى نَشْرُ فضل الممدوح بين العبادِ
فـإذا كـان مُـنـشـىء الـمـدحِ رَبّي عـاد مـدحُ الـفـصـيـح جمعَ سَوَادِ
فعليكَ الصلاةُ يرجو بها الأمـ ـنَ عـلـيٌّ مـن سـائـر الأنـكـادِ

وحيث انتهينا من المراثي والنوادب إلى هذه الغاية، فَلْنذكرْ نُبْذَةً من الزهد والتوكُّل.

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الثاني في الزهد والتوكل

وهذا الباب ـ وفّقنا الله وإياك لقصدنا، وألهمنا سلوكَ سبيل رشدنا؛ واستعمَلَنا في مَرَاضيه، وجنّبنا عن الالتفات بالقول والفعل إلى معاصيه ـ من هذا الفنّ هو واسطة عقْده[٢]، وعضُد زَنْده، وقائم مُرْهَفه[٣] وحَدّ فِرِنْده[٤]؛ وشَبَا سِنَانه[٥]، ومَثْنَى عِنانه، وإنسانُ حَدَقته[٦]، وحدقة إنسانه؛ وكيف لا وهو للنفس دُرّة تاجها، وطبيبُ عِلاجها، وواضح مِنْهاجها؛ ودليلها المُرشد إذا ضلّ الدليل، ومُنْجيها من الهول الأعظم إذا فرّ المرءُ من الأخ والأمّ والأب والابنِ والصاحبةِ والخليل[٧]. فتأمّلْه أيها المُطالعُ بعين قلبِك قبلَ ناظرك، واتخذه من أحصن جُنَّتك[٨] وأعدّ عُدَدك وأنفس ذخائرك؛ ورُضْ[٩] به نفسَك إذا جَمحتْ[١٠]، وسكِّن به آمالك إذا مالت إلى المطامع وجَنَحتْ. واعلم أن الدنيا ظلٌّ زائل، وعدوٌّ قد نَصب لك الشِّباك ومدّ الحبائل، وأنك لا بدّ مسؤول عما اكتسبتَه منها، فليت شعري ما أعددتَ لجواب المُسَائل؟ فهي العدوّ الذي أشبه

(١) قسّ الإيادي: هو قس بن ساعدة، من بني إياد، كان خطيبًا مصقعًا، وكاهنًا يلجأ إليه، في الجاهلية.
(٢) واسطة العقد: أثمن حبة فيه وأكبرها. (٣) قائم مرهفه: مقبض سيفه.
(٤) فرنده: سيفه. (٥) شبا سنانه: حدّ شفرته ونصله.
(٦) إنسان حدقته: السواد الموجود في الحدقة وبها العين يتم إبصار العين.
(٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: الآيات ٣٤ - ٣٧].
(٨) جنتك: درعك وسترتك الواقية. (٩) رض: عوّد.
(١٠) جمحت: نفرت وذهبت بعيدًا في الغيط.

بالصديق، والغادر الماكر الذي ما أخوفني أنّ مَكْرَه بي وبك سيَحيق[١]. فاقتصر على القليل منها، واعلم أنك سترحل في غد عنها؛ وأن الموت نازلٌ بك فلا ينفعك ما جمعته من مال وخَوَل[٢]، ولا يصحبك من الدنيا إلا ما قدّمته لآخرتك من صالح العمل؛ وأنّ مالك سيقتسمه من لعلّه لا يشكرك عليه، وماذا ينفعك شكره أن لو فعل! وغاية ما ينالك من دنياك، وإن بلغتَ منها مُناك، وطال بها مَدَاك؛ أن تتمَتّع بزَهْرتها، وتنال من لذّتها؛ وقد علمتَ بالمشاهدة من حالك وحال غيرك ما يؤول أمر مَلَاذِّها إليه في العاجل، وما يُتَوَقَّع لمن اقتصر من دنياه عليها في الآجل؛ فالمأكل والمَشْرب صائران إلى ما علمته وإنما تحصل اللذّة بهما قبل الازدراد[٣]؛ والمَنْكح والمركب فأنت وهما في الموت والفَنَاءِ على مِيعاد، والملابس فستُخْلِقها[٤] الأيام بعد الجِدّة، والمساكن فستُعَفِّي[٥] الليالي آثارَها ولو بعد مُدّة. فإذا علمت أن مآل الدنيا إلى الزوال، وقُصَاراها إلى الانتقال؛ وملاذّها إلى هذه الغاية، والعمر فيها وإن طال سريعُ النهاية؛ فتقلّل منها حسب طاقتك، واقتصر على ما تسُدّ به بعض خَلّتك[٦] وفاقتك؛ واعمل لآخرتك التي لا ينقضي أَمَدُها، ولا يفْنَى من النعيم الدائِم مَدَدُها. وقد أمرتك الخير وليتني به لو ائتمرت، وأوضحتُ لك سبيل الرشاد وليتني به لو مَرَرت: [من البسيط]

أمرتُكَ الخيرَ لكن ما ائتَمَرْتُ به ... وما استقمتُ فما قولي لك: استقمِ!

وسأورد إن شاء الله على سمعك من هذا الباب ما إن تمسّكت به كان سببًا لإرشادك، وذخيرةً تجدها في يوم مَعَادِك.

ذِكر بيان حقيقة الزهد

قال الإمام الأوحد العالم زينُ الدين حجّةُ المتكلّمين أبو حامدِ محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمد الغزاليّ[٧] الطُّوسيّ رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بإحياء علوم الدين: إعلمْ أن الزهدَ في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين. وينتظم هذا المقام

(١) سيحيق: سيحيط ويحلّ.
(٢) الخول: العبيد والإماء.
(٣) الازدراد: البلع.
(٤) تخلقها: تبليها.
(٥) تعفي: تمحي.
(٦) خلّتك: فقرك.
(٧) الغزالي: أبو حامد محمد، الفيلسوف والمتكلم والمتصوّف المشهور. وُلد في طوس، وتتلمذ على الجويني، علّم في بغداد، ومال إلى التصوّف، له عدة كتب أهمها: تهافت الفلاسفة، وإحياء علوم الدين، والمنقذ من الضلال. مات سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م.

من علم وحال وعمل كسائر المقامات؛ لأن أبواب الإيمان كلّها كما قال السلف[١] ترجع إلى عَقْد وقول وعمل. وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال، إذ به يظهر الحالِ الباطن، وإلا فليس القول مرادًا بعينه؛ وإذا لم يكن صادرًا عن حال سُمّي إسلامًا ولم يسمَّ إيمانًا. والعلم هو السبب في الحال يجري مَجْرى المُثمر، والعمل يجري مجرى الثمرة.

فأما الحال فنعني بها ما يُسمَّى زهدًا، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه؛ فكلّ من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنّما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته فيه. فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يُسَمَّى زهدًا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمّى رغبةً وحبًا. فإذًا يستدعي حال الزهد مرغوبًا عنه ومرغوبًا فيه هو خير من المرغوب عنه. وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضًا مرغوبًا فيه بوجه من الوجوه؛ فمن رغب عما ليس مطلوبًا في نفسه لا يسمَّى زاهدًا، فتاركُ التراب والحجارة والحشرات لا يسمّى زاهدًا، لأن ذلك ليس في مَظِنَّة[٢] الرغبة، وإنما يسمَّى زاهدًا تاركُ الدراهم والدنانير. وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرًا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة؛ فالبائع لا يُقْدِم على البيع إلا والمُشتَرَى عنده خيرٌ من المَبِيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدًا فيه، وبالإضافة إلى العِوَض رغبةً وحبًّا؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾ [يوسف: الآية ٢٠] وشَرَوْه بمعنى باعوه، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمِعوا أن يخلُوَ لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحبّ إليهم من يوسف فباعوه طَمَعًا في العِوَض. فإذًا كلُّ من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكلُّ من باع الآخرةَ بالدنيا فهو أيضًا زاهدٌ ولكن في الآخرة؛ ولكنّ العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن زهد في الدنيا؛ كما خُصِّص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصّة، وإن كان هو الميل في وضع اللسان. قال: ولما كان الزهد رغبةً عن محبوبٍ بالجملة لم يُتَصوَّر إلا بالعدول إلى شيء هو أحبّ منه، وإلا فتركُ المحبوب بغير الأحبّ محال. والذي يرغب عن كلّ ما سوى الله تعالى حتى الفِرْدَوس[٣] ولا يحبّ إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق. والذي يرغب عن كل حظٍّ يُنَال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمِع في الحُور

(١) السلف: أي الصحابة والتابعون.
(٢) المظنّة: الموضع الذي يظنّ فيه وجوده.
(٣) الفردوس: الجنّة.

العِين[١] والقُصور والفواكه والأنهار فهو أيضًا زاهد ولكنه دون الأوّل. والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض، كالذي يترك المال دون الجاه، أو يترك التوسُّعَ في الأكل ولا يترك التجمُّل في الزينة، فلا يستحقّ اسم الزهد مطلقًا؛ ودرجته في الزّهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين، وهو زهدٌ صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة؛ فإنّ التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظّ النفس. والمُقْتصر على ترك المحظورات لا يسمّى زاهدًا، وإن كان زهد في المحظور وانصرف عنه، ولكنّ العادة تخصّص هذا الاسم بتارك المباحات. فإذًا الزهد عبارةٌ عن رغبةٍ عن الدنيا عُدُولًا إلى الآخرة أو عن غير الله عدولًا إلى الله، وهي الدرجة العليا. وكما يُشْتَرط في المرغوب فيه أن يكون خيرًا عنده؛ فيُشْتَرط في المرغوب عنه أن يكون مقدورًا عليه، فإنّ ترك ما لا يُقْدَر عليه محال، وبالترك يتبيّن زوال الرغبة؛ ولذلك قيل لابن المبارك[٢]: يا زاهد؛ فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز[٣]، إذ جاءته الدنيا راغمةً فتركها، وأما أنا ففيم زهِدتُ!.

* * *

وأمّا العلم الذي هو المُثمِر لهذا الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرًا بالإضافة إلى المأخوذ، كعلم التاجر بأن العِوَض خيرٌ من المَبيع فيرغب فيه؛ وما لم يتحقّق هذا العلم لا يُتَصَوَّر أن تزول الرغبة عن المَبيع، فكذلك من عرف أن ما عند الله باقٍ وأن الآخرة خيرٌ وأبقى، أي لذّتها خيرٌ في نفسها وأبقى. فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوَى الرغبةُ في البيع والمعاملة؛ حتّى إنّ من قوِيَ يقينه يبيع نفسه وماله، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبَة: الآية ١١١] الآية، ثم بيّن أن صَفقتهم رابحة فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التّوبَة: الآية ١١١]. فليس يُحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدْر وهو أنّ الآخرة خيرٌ وأبقى؛ وقد يعلم

(١) الحور العين: هنّ اللواتي وعد الله بالزواج منهن في الجنّة عباده الصالحين.

(٢) ابن المبارك: هو أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك التميمي، الزاهد المشهور. كان في أول حياته ميالًا إلى اللهو، مولعًا بالضرب على العود والطنبور، ولما سمع صوتًا في منامه يدعوه إلى الإنابة إلى الله، تاب وزهد وأقبل على العبادة. مات سنة ١٨١ هـ. انظر: مجلة معهد المخطوطات العربية ص ٢٨ بمجلد ٢٧، ج ١ الكويت.

(٣) عمر بن عبد العزيز، هو الخليفة الأموي العادل، سبق التعريف به.

ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إمّا لضعِف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الدنيا والشهوة في الحال عليه ولكونه مقهورًا في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف[١] يومًا فيومًا إلى أن يختطفه الموتُ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفَوْت. قال: وإلى تعريف خَسَاسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النّساء: الآية ٧٧]، وإلى تعريف نَفاسة الآخرة الإشارة بقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ [القصص: الآية ٨٠]؛ فنبّه على أنّ العلم بنفاسته[٢] هو المُرغَّب عن عِوَضه. قال: ولمّا لم يُتَصَور الزهد إلا بمعاوضةٍ ورغبةٍ عن محبوب في أحبَّ منه قال رجل: اللّهمّ أرِني الدنيا كما تراها؛ فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُلْ هذا ولكن قل اللّهمّ أرِني الدنيا كما أَرَيْتَها الصالحين من عبادك». وهذا لأن الله يراها حقيرةً كما هي، وكلّ مخلوق فهو بالإضافة إلى جَلاله حقير، والعبد يراها حقيرةً في حقّ نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له، ولا يُتَصَوَّر أن يرى بائعُ الفرس وإن رغِب عن فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلًا، لأنّه مستغن عن الحشرات أصلًا وليس مستغنيًا عن الفرس؛ والله تعالى غنيٌّ بذاته عن كلّ ما سواه، فيرى الكلّ في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراها متفاوتة بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذي يرى تفاوُتها بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره.

* * *

وأمّا العمل الصادر عن حال الزهد فهو تَرْكٌ وأَخْذ، لأنه بيعٌ ومعاملة واستبدالُ الذي هو خير بالذي هو أدنى. فكما أنّ العملَ الصادرَ مِن عقدِ البيع هو تركُ المبِيع وإخراجُه عن اليدِ وأخْذ العِوَض، فكذلك الزهد يوجب تركَ المزهودِ فيه بالكُلّية وهي الدنيا بأسرِها مع أسبابها ومُقَدماتها وعلائقها، فيُخْرِج من القلب حبَّها ويُدخل حبَّ الطاعاتِ ويُخرج من اليد والعين ما أخرجه مِن القلب، ويُوَظّف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف من الطاعات، وإلّا كان كمن سلّم المَبِيع ولم يأخذ الثمن. فإذا وفّى شرطَ الحالتين في الأخْذ والترك فليَسْتبشر ببيعه الذي بايع به، فإن الذي بايعه بهذا البيع وَفِيٌّ بالعهد؛ فمن سلّم حاضرًا في غائب وسلّم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سُلِّم إليه الغائبُ حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يُوثَق بصدقه وقُدْرته ووفائه بالعهد. وما دام مُمْسِكًا للدّنيا فلا يصحّ زهدُه أصلًا، ولذلك لم يصف

(١) التسويف: المماطلة.

(٢) نفاسته: ندرته وغلاء ثمنه.

الله تعالى إخوةَ يوسف[١] بالزهدِ في بنيامين[٢] وإن كانوا قد قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يُوسُف: الآية ٨]، وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد يوسف حتى شفع فيه أحدُهم فتُرِكَ، ولا وصفهم أيضًا بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه إلا عند التسليم والبيع. فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج. فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهدٌ فيما أخرجت فقط، ولست زاهدًا مطلقًا؛ وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يُتَصَوَّر منك الزهد، لأنّ ما لا تقدِر عليه لا تقدر على تركه. وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيّل إليك أنّ الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهدٌ فيها، فلا ينبغي أن تتدلّى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بمَوْثِق غليظ من الله تعالى؛ فإنّك إذا لم تجرّب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها؛ فكم من ظانٍّ بنفسه كراهةَ المعاصي عند تعذُّرها فلما تيسّرت له أسبابها من غير مُكَدِّر ولا مخوف من الخلق وقع فيها. وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فإيّاكَ أن تثقَ بوعدِها في المباحات. والموثِقُ الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجرّبَها مرّة بعد مرّة في حال القدرة، فإذا وفَتْ بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرًا وباطنًا فلا بأس أن تثق بها وثوقًا ما، ولكن تكون من تغيُّرها على حذَر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبةُ الرجوع إلى مُقتضَى الطبع. وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما تركت فقط وذلك عند القدرة. قال: وليس مِنَ الزهد بذلُ المال على سبيل السخاء والفُتُوَّةِ وعلى سبيل استمالة القلوبِ ولا على سبيلِ الطمع، فذلك كلُّه من محاسنِ العادات ولا مدخلَ له في العبادات، إنما الزهدُ أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتِها بالإضافة إلى نفاسةِ الآخرة. فأمّا كل نوع من الترك فإنه يُتصوّر ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مُروءة وفتوّةً وسخاء وحسن خُلُق، وحسنُ الذكر ومَيْل القلوب من حظوظ العاجلة، وهي ألذّ وأهنأ من المال؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمةً[٣] عفوًا وصفوًا وهو قادرٌ على التنعُّم بها من غير نقصانِ جاه وقبح اسم وفوات حظٍّ للنفس، فتركَها خوفًا من أن يأنس بها فيكون آنسًا بغير الله ومحبًّا لما سوى الله، ويكون مُشركًا في حبِّ الله غيرَ الله؛ أو تركها طَمَعًا في ثواب آخرَ فترك التمتُّع بأَشْرِبة الدنيا طمعًا في

---

(١) يوسف: هو النبيّ يوسف بن يعقوب. باعه إخوته حسدًا إلى تجّار إسماعيليين. استوزره فرعون مصر، وأقرّ عين أبيه به بعد غياب طويل.

(٢) بنيامين: هو ابن يعقوب النبيّ، وأخو يوسف من غير أمه، حمل اسمه أحد أسباط إسرائيل.

(٣) راغمة: مكرهة.

أشربة الجنّة، وترك التمتُّع بالسراري[١] والنسوانِ طمعًا في الحُور العِين، وترك التفرُّج في البساتين طمعًا في بساتين الجنّة وأشجارها، وترك التزيُّن والتجمُّل بزينة الدنيا طمعًا في زينة الجنّة، وترك المطاعم اللذيذة طمعًا في فواكه الجنّة وخوفًا من أن يقال له: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٠] فآثر في جميع ذلك ما وُعِد به في الجنّة على ما تيسّر له في الدنيا عفوًا صفوًا، لعلمه بأن ما في الآخرة خيرٌ وأبقى؛ وما سوى هذه فمعاملات دُنيويّة لا جَدْوى لها في الآخرة أصلًا. وحيث قدّمنا هذه المقدّمة من أحوال الزهد في الحال والعلم فلنذكر بيان فضيلة الزهد وذم الدنيا.

ذِكْرُ فضيلة الزهد وبغض الدنيا

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القَصَص: الآيتان ٧٩، ٨٠]، فنسب الزهد إلى العلماءِ ووصف أهلَه بالعلم، وذلك غايةُ الثناء. وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القَصَص: الآية ٥٤] جاء في التفسير: على الزهد في الدنيا. وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: الآية ٧]. قيل: معناه أيّهم أزهدُ في الدنيا، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال. وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: الآية ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: الآية ١٣١]... إلى قوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: الآية ١٣١]. وقال رسول الله ﷺ: «مَن أصبح وهمُّه الدُّنيا شتّت اللهُ عليه أمرَه وفرّق عليه ضَيْعَته وجعل فقرَه بين عينَيْه ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له ومن أصبح وهمُّه الآخرةُ جمع اللهُ له أمرَه وحفِظ عليه ضَيْعَتَه[٢] وجعل غِناه في قلبِه وأتته الدنيا وهي راغمة». وقال ﷺ: «إذا رأيتم العبدَ قد أُوتِيَ مَنْطقًا وزهدًا في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقّن الحكمة». وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩]؛ ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يومًا أجرى الله ينابيعَ الحكمةِ في قلبه وأطلق بها لسانَه. وقال رسولُ الله ﷺ: «إن أردتَ أن يحبّك الله فازهدْ في الدنيا» فجعل الزهدَ سببًا للمحبّة؛ فمن أحبّه الله فهو في أعلى

(١) السراري: جمع سرّيّة، وهي الأمة التي تقام في البيت.
(٢) الضيعة: المرّة من ضاع، إذا تلف وهلك وضلّ. والضيعة: العقار والمال...

الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد في أفضلِ المقامات. ولما سئل رسولُ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥] وقيل له: ما هذا الشرح؟ قال: «إن النُّور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح». قيل: يا رسولَ الله، هل لذلك من علامة؟ قال: «نَعَمْ التجافي[١] عن دار الغرور والإنابةُ[٢] إلى دار الخلود والاستعدادُ للموت قبلَ نزولِهِ». وقال رسول الله ﷺ: «استَحْيُوا من الله حقَّ الحياء» قالوا: إنا نستحي من الله، فقال: «ليس كذلك تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون». فبيّن أن ذلك يناقض الحياء من الله. وقدم وفدٌ على رسول الله ﷺ فقالوا: إنّا مؤمنون. قال: «وما علامة إيمانكم؟» فذكروا الصبرَ على البلاء، والشكر على الرخاء، والرِّضا بمواقع القضاء، وتَرْكَ الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء. قال: «إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تَنَافَسُوا فيما عنه ترحَلون»؛ فجعل الزهدَ تكملةَ إيمانهم. ورُوِي أن رسول الله ﷺ مرّ في أصحابه بإبِلِ عِشار حُفَّل وهي الحوامل، وكانت من أحبّ أموالهم إليهم وأنْفَسِها عندهم، لأنها تجمع بين اللحم واللبن والوبر والظَّهر، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وغضَّ بصرَه. فقيل له: يا رسول الله، هذه أَنْفَسُ أموالنا، لم لا تنظر إليها؟ فقال: قد نهاني الله عن ذلك، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: الآية ١٣١]. وروى مسروقٌ عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تستطعمُ الله فيُطْعِمك؟ قالت: وبكيت لِمَا رأيت به من الجوع. فقال: «يا عائشةُ والذي نفسي بيده لو سألتُ ربّي أن يُجْرِيَ معي جبالَ الدنيا ذَهَبًا لأجراها حيثُ شئتُ من الأرض ولكن اخترتُ جُوع الدنيا على شبعها وفقرَ الدنيا على غِناها وحزنَ الدنيا على فرحها يا عائشةُ إنّ الدنيا لا تنبغي لمحمدٍ ولا لآلِ محمدٍ يا عائشةُ إن الله لم يرضَ لأُولي العزم[٣] من الرسل إلا الصبرَ على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن يُكَلِّفني ما كلَّفهم فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥] واللهِ ما لي بُدٌّ من طاعته وإنّي والله لأصبِرَنَّ كما صَبَرُوا جهدي ولا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله».

ورُوي عن عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه أنه حين فُتِحَ عليه الفتوحاتُ قالت له ابنتُه حفصةُ: الْبس لَيِّنَ الثيابِ إذا وفَدَت عليك الوفودُ من الآفاق، ومُرْ بصَنْعة طعام

---

(١) التجافي: البعد والاجتناب. (٢) الإنابة: التوبة والعودة.
(٣) أولو العزم من الأنبياء هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ.

تَطْعَمُه وتُطعم مَنْ حضر. فقال: يا حفصةُ، ألستِ تعلمين أنّ أعلمَ الناس بحال الرجل أهلُ بيته؟ قالت: بلى. قال: ناشدتُكِ الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ لبِث في النبوّة كذا وكذا سنةً لم يشبَع هو ولا أهل بيته غُدْوَةً إلّا جاعوا عشيَّة، ولا شبِعوا عشيَّةً إلا جاعوا غُدْوة؟ وناشدتكِ الله، هل تعلمين أن النبيّ ﷺ لبث في النبوّة كذا وكذا سنةً لم يشبَعْ من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر[١]؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ قرّبتم إليه يومًا طعامًا على مائدة فيها ارتفاع فشقّ ذلك عليه حتى تغيّر لونُه ثم أمر بالمائدة فرُفِعت ووُضِع الطعامُ على دون ذلك أو وُضِع على الأرض؟ ناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان ينام على عَبَاءة مَثْنِيَة فثُنِيَت له ليلةً أربعَ طاقات فنام عليها، فلما استيقظ قال: «منعتُموني قيام الليلة بهذه العبَاءَة اثنوها باثنتين كما كنتم تَثْنُونها»؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان يَضَعُ ثيابه لتُغسَل فيأتيه بِلَالٌ[٢] فيُؤْذِنه بالصلاة فما يجد ثوبًا يخرُجُ به إلى الصلاة حتى تجِفّ ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ صَنَعَتْ له امرأةٌ من بني ظَفَر كِساءَيْنِ إزارًا[٣] ورِدَاء[٤] وبعثتْ إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مُشتمل به ليس عليه غيرُه قد عَقَد طَرَفيه إلى عُنُقه فصلّى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها، وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظَنَنّا أنّ نفسه ستخرُج. وفي بعض الروايات زيادةٌ من قول عُمر وهو أنّه قال: كان لي صاحبانِ سَلَكا طريقًا، فإن سلكتُ غير طريقهما سُلِكَ بي طريقٌ غيرُ طريقهما، وإنّي والله سأصبِر على عَيْشهما الشديد لَعَلّي أُدرك معهما عيشهما الرَّغيد. وعن أبي سَعِيد الخُدْريّ[٥] رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لقد كان الأنبياء قبلي يُبْتَلَى أحدُهم بالفقر فلا يَلْبَس إلا العباءة وإن كان أحدهم لَيُبْتَلَى بالقَمْل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحبَّ إليهم من العطاء إليكم». وعن ابنِ عبّاسٍ[٦] رضي الله عنه عن

(١) خيبر: حصن لليهود إلى الشمال من يثرب في الحجاز، فيه كانت وقعة خيبر وانتصار المسلمين، وذلك سنة سبع للهجرة، انظر خبر فتحها في: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٥٧.

(٢) هو بلال بن رباح الحبشي، الصحابي، وأوّل مؤذّن أذّن في الإسلام. عرف ببلال مؤذّن الرسول. مات في دمشق سنة ٢٠ هـ.

(٣) الإزار: الثوب الذي يؤتزر به من أسفل.

(٤) الرداء: الثوب الذي يلبس ويلفّ به الجسم، في أعلاه خاصة.

(٥) أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك الأنصاري، من أعيان الصحابة وفقهائهم، شهد وقعة الخندق وبيعة الرضوان وغيرهما. مات سنة ٧٤ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/ ٨١.

(٦) ابن عباس، عبد الله بن عباس، حبر الأمة وفقيهها، والصحابي العلم، والمحدث الجليل. مات سنة ٦٨ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/ ٨٣.

النبيّ ﷺ أنه قال: «لما ورد موسى عليه السلام ماء مَدْيَن[١] كانت خُضْرة البَقْل تُرَى في بطنه من الهُزَال. وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٣٤] الآية، قال رسول الله ﷺ: «تبًّا[٢] للدُّنيا! تبًّا للدِّينار والدرهم!» فقلنا: نهانا الله عن كَنْز الذهب والفِضّة فأيّ شيءٍ نَدَّخر؟ فقال ﷺ: «ليتَّخِذْ أحدُكم لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجةً صالحةً تُعِينه على أمر آخرته». وفي حديث حُذَيفةَ[٣] رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «مَنْ آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله تعالى بثلاث: هَمًّا لا يُفارق قلبَه أبدًا وفقرًا لا يَسْتَغْنِي أبدًا وحِرْصًا لا يشبَعُ أبدًا». وقال ﷺ: «لا يستكمل العبدُ الإيمانَ حتّى يكون ألّا يُعْرَفَ أَحَبَّ إليه مِن أن يُعْرَفَ وحتى تكون قِلةُ الشيء أحبَّ إليه من كثرته». وقال المسيح عليه السلام: الدنيا قَنْطرةٌ فاعبرُوها ولا تعمُرُوها. وقيل له: يا نبيَّ الله، لو أمرتنا أن نبتني بيتًا نعبُدُ الله فيه! قال: اذهبوا فابنُوا بيتًا على الماء. فقالوا: كيف يستقيم بُنْيانٌ على الماء! قال: وكيف تستقيم عِبادةٌ مع حُبّ الدنيا!. وقال رسول الله ﷺ: «إنّ ربِّي عَرَض عليّ أن يجعل لي بَطْحاءَ مكة[٤] ذهبًا فقلت: لا يا ربِّ ولكنْ أجُوع يومًا وأشبَعُ يومًا فأمّا اليوم الذي أجوع فيه فأتضرَّعُ إليك وأدعوك وأمّا اليوم الذي أشبع فيه فأحمَدُكَ وأُثنِي عليك». وعن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ ذاتَ يوم يمشي وجبريلُ[٥]، معه فصعِد على الصَّفا، فقال له النبيّ ﷺ: والذي بعثكَ بالحقّ ما أَمْسَى لآل محمد كفُّ سَوِيقٍ[٦] ولا سَفَّةُ دقيق[٧]. فلم يكن كلامه بأسرَعَ من أن سمِع هدَّةً من السماء أفظعتْه، فقال رسول الله ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا، ولكن هذا إسرافيلُ[٨]، قد نزل إليك حين سمع كلامك. فأتاه إسرافيلُ فقال: إنّ الله عزّ وجلّ سمِع ما ذكرتَ، فبعثني بمفاتيح الأرض وأمرني أن أَعْرِض عليك إنْ أحببتَ أن أُسيّر

---

(١) مدين: جبال في شمال غربي الجزيرة العربية على البحر الأحمر متفرّعة من جبال الشراة، جاءها موسى النبيّ، وكان فيها شعيب النبي.

(٢) تبًّا: قبحًا ولعنةً.

(٣) هو حذيفة بن اليمان، الصحابي المشهور، ومن الفاتحين. ولّاه عمر على المدائن، وانتصر على الفرس في نهاوند. مات سنة ٣٦ هـ/ ٦٥٦ م.

(٤) بطحاء مكة: مسيلها الواسع القائمة عليه بيوتها. وفيه البيت الحرام.

(٥) جبريل، الملاك المولج بتبليغ الوحي من الله للأنبياء.

(٦) السويق: الناعم من دقيق الحنطة أو الشعير. (٧) الدقيق: البرّ والقمح مطحونًا.

(٨) إسرافيل: اسم الملاك الذي ينفخ في الصور إيذانًا بالبعث والنشور.

معك جبالَ تِهامة[١] زُمُرُّدًا[٢] وياقوتًا وذهبًا وفِضّة فعلتُ، وإن شِئتَ نبيًّا ملِكًا وإن شئتَ نبيًّا عبدًا. فأومأ إليه جبريلُ أن تواضَعْ لله. فقال: «نبيًّا عبدًا» ثلاثًا. وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا زَهَّده في الدنيا ورَغَّبه في الآخرة وبَصَّره بعيوب نفسه». وقال ﷺ: «مَن أراد أن يُؤتيه الله علمًا بغير تَعَلُّم وهُدًى بغير هِدَاية فليَزْهَدْ في الدنيا». وقال ﷺ: «من اشتاق إلى الجَنّة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لَهَا عن الشهوات ومن ترقَّب الموت ترك اللذّات ومن زَهِد في الدنيا هانت عليه المصائب». والأحاديث في ذلك كثيرة وفيما ذكرناه منها كفاية. فلنذكر ما جاء من ذلك في الأثر.

قيل: جاء في الأثر: لا تزال لا إلـٰه إلّا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يَسْألوا ما نقص من دُنياهم. وفي لفظ آخر: ما لم يُؤْثِروا صفقة دنياهم على دِينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إلـٰه إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين. وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: تابعنا الأعمالَ كلَّها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زُهد الدنيا. وقال بعض الصحابة لصدر التابعين: أنتم أكثر أعمالًا واجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرًا منكم. قيل: ولم ذاك؟ قال: كانوا أزهدَ في الدنيا منكم. وقال عمر رضي الله عنه: الزهادة في الدنيا راحةُ القلب والجسد. والآثار أيضًا في ذلك كثيرة فلا نُطوّل بسردها.

ذِكْر بيان ذمّ الدنيا وشيء من المواعظ والرقائق الداخلة في هذا الباب

وقد ورد في كتاب الله عزّ وجلّ كثيرٌ في ذمّ الدنيا وصَرْف الخلق عنها ودَعْوتهم إلى الآخرة؛ وهو أيضًا مقصود الأنبياء ولذلك بُعِثُوا، فلا حاجةَ إلى الاستشهاد بالآيات لظهورها. فلْنذكر نُبْذة من الأخبار والآثار الواردة في ذلك، وذلك من جملة ما اختاره الغزاليُّ رحمه الله في كتابه المترجم بإحياء علوم الدين. فمن ذلك ما رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه مرّ على شاة[٣] ميّتة فقال: «أتَرَوْنَ أن الشاة هيّنةٌ على أهلها»؟ قالوا: مِن هَوَانِها عليهم ألْقَوْها. قال: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدِل عند الله جَناح بَعُوضة ما سَقَى كافرًا منها شربة [ماء]». وقال ﷺ: «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ما كان لله منها». وقال ﷺ:

---

(١) تهامة: منطقة في الجزيرة العربية، على البحر الأحمر جنوب الحجاز.

(٢) الزمرّد، والياقوت، من الأحجار الكريمة. (٣) الشاة: أنثى الضّأن والغنم.

«حُبُّ الدنيا أُسُّ كلِّ خَطِيئة». وقال ﷺ: «يا عَجَبًا كلَّ العَجَبِ لِلمُصَدِّقِ بدار الخُلود[١] وهو يسعَى لدار الغرور![٢]».

ورُوِي أنّ رسول الله ﷺ وقف على مَزْبَلة فقال: «هَلُمُّوا[٣] إلى الدنيا وأخذ خِرَقًا قد بَلِيَتْ على تلك المزبلة وعظامًا قد نَخِرت فقال هذه الدنيا» وهذه إشارةٌ إلى أن زينتها ستخلق[٤] مثل تلك الخِرَق، وأن الأجسام التي تُرَى بها ستصير عظامًا بالية. وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا رَبًّا فتتّخِذَكم عبيدًا، اكنِزُوا كَنْزَكم عند من لا يُضيِّعه، فإنّ صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة[٥] وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة. وقال أيضًا: يا معشر الحَوَاريِّين[٦]، إني قد كَبَبْتُ لكم الدنيا على وجهها فلا تُنْعِشوها بعدي، فإنّ من خبث الدنيا أن الله عُصِي فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تُدْرَكُ إلا بتركها. ألَا فاعبُرُوا الدنيا ولا تعمرُوها، واعلموا أن أصلَ كلِّ خَطِيئة حبُّ الدنيا. وربَّ شهوة أورثتْ حُزْنًا طويلًا. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله جلّ ثناؤه لم يخلُقْ خلقًا أبغضَ إليه من الدنيا وإنه منذ خَلَقها لم ينظر إليها». وقال ﷺ: «ألهاكم التكاثُر يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبِستَ فأبليت أو تصدّقت فأبقيتَ!». وقال ﷺ: «الدنيا دارُ من لا دارَ له ومالُ من لا مالَ له ولها يجمع من لا عقلَ له وعليها يُعادِي من لا علمَ له وعليها يَحْسُد من لا فِقْهَ له ولها يسعى من لا يَقِينَ له». وقال ﷺ: «من أصبح والدنيا أكبرُ هَمِّه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربَع خِصال همًّا لا ينقطع عنه أبدًا وشُغْلًا لا يتفرّغ منه أبدًا وفقرًا لا يبلغ غناه أبدًا وأمَلًا لا يبلغ منتهاه أبدًا». وقال أبو هُريرة[٧] رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هُريرةَ ألَا أرِيك الدنيا جميعًا بما فيها»؟ قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بيدي وأتَى بي واديًا من أودية المدينة، فإذا مَزْبَلة فيها رؤوس

---

(١) دار الخلود: كناية عن الآخرة.
(٢) دار الغرور: كناية عن الدنيا.
(٣) هلموا: اسم فعل بمعنى: تعالَوْا.
(٤) تخلق: تبلى.
(٥) الآفة: الهلاك والتلف.
(٦) الحواريون: أتباع عيسى ابن مريم، الذين نصروه ولحقوا به ولم يكذّبوا بدعوته، وكرزوا بها في الأمصار، وعدّتهم اثنا عشر حواريًا. وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم أكثر من مرّة، منها قوله تعالى في الآية ٥٢ من سورة آل عمران: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: الآية ٥٢].
(٧) أبو هريرة: عبد الرحمٰن بن صخر الأزدي، من صحابة النبيّ ﷺ وكبار رواة الحديث. تُوفي في المدينة سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٨ م.

ناس وعَذِرات[١] وخِرَقٌ وعظام، ثم قال: «يا أبا هريرة هذه الرؤوسُ كانت تحرِصُ كحِرْصِكم وتأمُلُ آمالَكم هي اليوم عظامٌ بلا جِلْد ثم هي صائرة رمادًا وهذه العَذِرات هي ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قَذَفُوها في بطونهم فأصبحت والناس يتحامَوْنَها وهذه الخِرَق الباليةُ كانت رِياشَهم ولباسَهم فأصبحت الرياحُ تُصَفّقها وهذه العظام عظام دَوَابِّهم التي كانوا ينتجعون[٢] عليها أطرافَ البلاد فمن كان باكيًا على الدنيا فليَبْك». قال: فما بَرِحْنا حتى اشتدّ بكاؤنا. وقال ﷺ: «الدنيا موقوفة بينَ السماء والأرض منذُ خلقها الله تعالى لا ينظرُ إليها وتقول يومَ القيامة: يا ربّ اجعلني لأدنى أوليائك نصيبًا اليوم فيقول اسكُتي يا لا شيء إني لم أرْضَكِ لهم في الدنيا أأرضاك لهم اليوم»! وقال ﷺ: «لَيَجِيئَنَّ أقوامٌ يومَ القيامة وأعمالهم كجبال تِهامةَ فيُؤمَرُ بهم إلى النار». قالوا: يا رسول الله، مصلين؟ قال: «نعم كانوا يُصَلُّون ويصومون ويأخذون هَنَةً[٣] من الليل فإذا عرض لهم من الدنيا شيء وَثَبُوا عليه». وقال ﷺ في بعض خُطَبه: «المؤمن بين مخافتين بين أَجَلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ فيه وبين أجلٍ قد بَقِي لا يدري ما الله قاضٍ فيه فليَتَزَوَّد العبدُ من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لِمَوْته ومن شبابه لهرَمَه فإنّ الدنيا خُلِقَتْ لكم وأنتم خُلِقْتم للآخرة والذي نفسي بيده ما بعد الموت مُسْتَعتب[٤] ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنّة أو النار».

قال ﷺ: «احذروا الدنيا فإنها أسحرُ من هَارُوتَ ومَارُوتَ»[٥].

وقال عليه السلام لأصحابه: «هل منكم مَن يريد أن يُذْهِبَ الله عنه العَمَى ويجعله بصيرًا أَلَا إنه من رغِب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبَه على قَدر ذلك ومن زَهِد في الدنيا وقَصُر أملُه فيها أعطاه الله علمًا بغير تَعَلُّم وهُدًى بغير هداية ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم المُلْك إلا بالقتل والتَّجَبُّر ولا الغنى إلا بالفَخْر والبُخْل ولا المحبَّة إلا باتِّباع الهوى أَلَا فمن أدرك ذلك الزمانَ منكم فصَبَرَ للفقر وهو يقدِر على الغِنَى وصَبَرَ على البَغْضَاء وهو يقدِر على المحبَّة وصَبَرَ

(١) عذرات: جمع عذرة، وهي الخرء والسّؤر وفضلات الإنسان التي يخرجها من جوفه.
(٢) ينتجعون: يطلبون النجعة، أي ورود الماء. (٣) الهنة: الشيء الصغير.
(٤) مستعتب: استرضاء.
(٥) هاروت وماروت: اسما ملكين ببابل، كانا يعلّمان السحر. ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ [البقرة: الآية ١٠٢].

للذُّلّ وهو يقدِر على العِزّ لا يريد بذلك إلا وجهَ الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صِدِّيقًا».

وقال عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام: وَيْلٌ لصاحب الدنيا! كيف يموت ويتركُها، ويأمَنُها وتَغُرُّه، ويَثِقُ بها وتخذله!، وويلٌ للمغترّين! كيف أرتْهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبُّون، وجاءهم مَا يُوعَدون! وويلٌ لمن الدنيا هَمُّه، والخطايا عملُه كيف يفتضح غدًا بذنبه!. وقيل له: علِّمنا علمًا واحدًا يحبّنا الله عليه، قال: أَبغِضوا الدنيا يحبَّكم الله.

وقال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضَحِكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة».

ومن الآثار في ذلك ما حكاه داوود بن هلال قال: مكتوبٌ في صُحُفِ إبراهيمَ[١] عليه السلام: يا دنيا، ما أهونَكِ على الأبرار الذين تصنَّعْتِ وتزَّيَنْتِ لهم! إني قذفتُ في قلوبهم بغضَك والصدودَ عنك، وما خلقتُ خَلْقًا أهونَ عليّ منك، كلُّ شأنك صغير، وإلى الفناء تصيرين، قضيتُ عليك يوم خلقتُك ألّا تدومي لأحد ولا يدوم أحدٌ لك وإن بخِل بك صاحبُك وشحّ[٢] عليك. طوبى[٣] للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة! طوبى لهم! ما لهم عندي من الخير إذا وفدوا إليّ من قبورهم [إلا] النورُ يسعى أمامهم والملائكةُ حافُّون بهم حتى أبَلِّغهم ما يرجُون من رحمتي.

وقال عمّارُ بنُ سعيد: مرّ عيسى ابنُ مريَم عليه السلام بقرية فإذا أهلُها موتى في الأفنية والطرق، فقال: يا معشرَ الحوارِيِّين، إن هؤلاء ماتوا عن سَخْطة[٤]، ولو ماتوا عن غير ذلك لَتَدافنُوا. فقالوا: يا رُوح الله، وَدِدْنا أنّا علمنا خبرهم، فسأل الله تعالى فأوحى إليه: إذا كان الليل فنادِهم يُجيبوك. فلما كان الليل أشرف على نَشَز[٥]، ثم نادى يا أهلَ القرية، فأجابه مُجيب: لَبَّيْكَ يا رُوح الله. فقال: ما حالكم وما قِصّتكم؟ قال: بِتْنا في عافية وأصبحنا في الهاوية. قال: وكيف ذاك؟ قال: لحُبِّنا الدنيا وطاعتِنا

---

(١) صحف إبراهيم: الكتب التي نزلت عليه هداية للناس وتبيانًا للحق، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: الآيتان ١٨، ١٩].

(٢) شحّ: بخل.

(٣) طوبى: هنيئًا.

(٤) سخطة: غضبة وانتقام.

(٥) النشز: ما ارتفع من الأرض.

أهل المعاصي. قال: وكيف كان حبُّكم للدنيا؟ قال: حُبّ الصبيّ لأمّه، إذا أقبلت فرِح بها، وإذا أدبرت حزِن وبكى عليها. قال: فما بال أصحابِك لا يُجيبوني؟ قال: لأنه مُلْجَمون[١] بلُجُم من نار بأيدي ملائكةٍ غِلاظٍ شِداد. قال: فكيف أجبتني من بينهم؟ قال: لأنّي كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا مُعَلّق على شَفِير جهنّم لا أدري أنجو منها أم أُكَبُّ فيها. فقال المسيح للحواريّين: لأَكْلُ الخبز الشعير بالملح الجرِيش[٢] ولُبْسُ المُسُوح[٣] والنوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدنيا والآخرة.

قيل: وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يا موسى لا تركَنَنَّ إلى حبّ الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشدُّ منها.

وقال لُقْمانُ[٤] لابنهِ: يا بُنَيّ، إن الدنيا بحر عميق وقد غرِق فيه ناسٌ كثير، فلتكن سفينتُك فيها تَقْوى الله عزّ وجلّ، وحَشْوُها الإيمان بالله تعالى، وشِراعُها التوكُّل على الله عزّ وجلّ، لعلك تنجو وما أراك ناجيًا.

وقال بعض الحكماء: إنك لن تُصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهلٌ قبلك ويكون له أهلٌ بعدك؛ وليس لك من الدنيا إلا عَشَاءُ ليلةٍ وغَدَاءُ يوم، فلا تهلِكْ في أَكْلة، وصُم [عن] الدنيا وأَفْطِر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى ورِبْحَها النار.

وقيل لبعضهم: كيف ترى الدهرَ؟ قال: يُخْلِقُ الأبدانَ، ويُجَدِّد الآمالَ، ويُقَرِّب المنيّةَ، ويُبْعد الأُمْنيّة. قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظفِر به تَعِب، ومن فاته نَصِب[٥]. وفي ذلك قيل: [من الطويل]

وَمَنْ يَحْمدِ الدنيا لعيش يَسُرُّهُ
فسوف لعمري عن قريب يَلُومُها
إذا أَدْبرت[٦] كانت على المرءِ حَسْرَةً
وإن أقبلتْ كانتْ كثيرًا هُمُومُها

---

(١) ملجمون: في أفواههم اللّجم، فما ينطقون. (٢) الجريش: الخشن.
(٣) المسوح: الثياب من شعر وغيره، جمع مسح.
(٤) لقمان: من أنبياء العرب وصلّاحهم. اشتهر بلقب الحكيم. خصّه القرآن الكريم بسورة تحمل اسمه هي سورة لقمان.
(٥) نصب: تعِب. (٦) أدبرت: ولّت.

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها، فإنّ عيشَها نكَد[١]، وصفوها كَدَر، وأهلَها منها على وَجَل[٢]، إمّا بنعمة زائلة، أو بليّة نازلة، أو منيّة قاضية.

وقال أبو حازم[٣]: إيّاكم والدنيا، فإنّه بلغني أنه يُوقف العبدُ يوم القيامة إذا كان مُعَظِّمًا للدنيا فيقال: هذا عظَّم ما حقَّره الله.

وقال ابن مسعود[٤]: ما أصبح أحدٌ من الناس إلا وهو ضَيْفٌ ومالُه عارية، فالضيف يرتحل والعارية مردودة. وفي ذلك قيل: [من الطويل]

وما المالُ والأهلون إلّا وديعةٌ ولا بُدّ يومًا أن تُرَدَّ الودائعُ

وزار رابعةَ العدوية[٥] أصحابُها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمّها، فقالت: أمسِكوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألَا من أحبّ شيئًا أكثر من ذكره.

وقال رجل لعليّ رضي الله عنه: يا أميرَ المؤمنين، صِفْ لنا الدنيا؛ فقال: وما أصِفُ لكم من دار مَنْ صَحَّ فيها ما أَمِنَ، ومن سَقِم فيها نَدِم، ومن افتقر فيها حزِن، ومن استغنى فيها فُتِن؛ في حَلالها الحِسابُ، وفي حرامها العذاب.

وقال الحسنُ بعدَ أن تلا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: الآية ٣٣]: من قال ذا؟ مَنْ خلقها مَن هو أعلم بها. إيّاكم وما شَغَل من الدنيا فإنّ الدنيا كثيرةُ الأشغال، لا يفتح رجلٌ على نفسه بابَ شغل إلا أوشك ذلك البابُ أن يفتح عليه عَشْرةَ أبواب. وقال أيضًا: مسكينٌ ابنُ آدم رَضِي بدار حلالُها حساب، وحرامُها عذاب، إن أخذه من حلّه حُوسب به، وإن أخذه من حرام عُذِّب به. ابن آدم يستقلّ ما له ولا يستقلّ عمله، يفرح بمصيبته في دِينه ويجزَع من مصيبته في دنياه.

---

(١) نكد: حزن ونصب. (٢) وجل: حذر.

(٣) أبو حازم: من الصالحين الزاهدين في أيام بني أمية، ويعرف بأبي حازم الأعرج.

(٤) ابن مسعود، عبد الله، الصحابي والمحدّث. خدم النبيّ ﷺ ولزمه مدّة حياته. من القرّاء الأربعة. أتقن القرآن. مات سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/٣٨ ـ ٣٩.

(٥) رابعة العدوية: هي أم الخير القيسية التي غلب عليها اشتهارها برابعة العدوية، من أشهر نساء المتصوّفة، وشعرها في الحبّ الإلـٰهي معروف. تُوفيت سنة ١٣٥ هـ. انظر شيئًا من أقوالها وأشعارها في: البيان والتبيين، للجاحظ ٣/٤٤٨ ـ ٤٧١ دار صعب. بيروت ١٩٦٨.

وقال داودُ الطائيّ[١]: يا ابن آدم، فرِحتَ ببلوغ أملك، وإنّما بلغتَه بانقضاء أجلك، ثم سوّفتَ بعملك، كأنّ منفعته لغيرك.

وقال بِشْر[٢]: من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه.

وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يَسُرُّك إلا وقد ألصق الله إليه شيئًا يسوءك.

وقال الحسن[٣]: أَهِينوا الدنيا، فوالله ما هي لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها. وقال أيضًا: إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أعطاه عطيّةً من الدنيا ثم يُمسك، فإذا نفِد أعاد عليه؛ وإذا هان عليه عبدٌ بَسَطَ له الدنيا بَسْطًا.

قال الجُنَيْد[٤]: كان الشافعيّ[٥] رحمه الله من المُريدين الناطقين بلسان الحقّ في الدين، وَعَظ أخًا له في الله تعالى وخوّفه بالله فقال: يا أخي، إنّ الدنيا دَحْضُ[٦] مَزَلّة، ودار مذلّة، عُمْرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر؛ شملها على الفُرقة موقوف، وغِناها إلى الفقر مصروف؛ الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يَسَار[٧]؛ فافزَع إلى الله وارضَ برزق الله. لا تَسْتسلف من دار بقائك في دار فَنَائك، فإن عيشك فَيءٌ[٨] زائل، وجِدارٌ مائل؛ أكثِرْ من عملك، وقَصِّرْ من أملك. وهذا من أبلغ المواعظ والترغيب.

---

(١) داود الطائي: هو داود بن نصر الطائي، أحد العباد والزهاد في العصر الأموي والعباسي.

(٢) هو بشر الحافي: أبو نصر بن الحارث، من الزهاد النادرين في العبادة والانقطاع إلى النسك. من أهل مرو، وساكني بغداد. كانت وفاته سنة ٢٢٠ هـ.

(٣) هو الحسن بن أبي الحسن البصري، من أشهر الزهاد وألمع النساك والوعاظ. تابعي ومتكلم ومحدّث. ولد في المدينة وسكن البصرة. تعمق في دراسة الأحكام الإسلامية الشرعية، وانصرف إلى الوعظ والتدريس والحديث. مات سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م. انظر خبر الحسن البصري وشيئًا من أقواله ومواعظه في: البيان والتبيين ٢/ ٣٧٣ و٣/ ٤٤٧ ـ ٤٤٩.

(٤) الجنيد: أبو القاسم بن محمد المروزي المولد، والصوفي البغدادي. تلميذ خاله السّري السّقطي. صاحب الطريقة الجنيدية المعروفة باسمه. ومن أنصار القائلين بالحلول. مات سنة ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م.

(٥) الشافعي، محمد بن إدريس، إمام المذهب السنّي المعروف باسمه. وُلد في غزّة ونشأ في مكة. وفيها لازم الإمام مالك كما لازمه في المدينة المنوّرة، ودرس عليه. له تصانيف عدة أهمها: «الأمّ» في الفروع، و«المسند» في الحديث، و«السّنن» و«الرسالة» في الأصول. مات سنة ٢٠٤ هـ/ ٨٢٠ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٩ ـ ١٠.

(٦) الدحض: الزّلق. (٧) اليسار: الغنى.

(٨) الفيء: الظلّ.

ومن المواعظ ما قاله أبو الدرداء[١] رضي الله عنه: والله لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصُّعُدات[٢] [تجأرون[٣] و]تبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارسَ لها ولا راجعَ إليها إلّا ما لا بدّ لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الأمل، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم وصرتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شرٌّ من البهائم التي لا تدع هواها مخافةً مما في عاقبته. ما لكم لا تَحَابُّون ولا تَنَاصحون وأنتم إخوان على دين الله؛ ما فرّق بين أهوائكم إلا خُبْث سرائركم، ولو اجتمعتم على البِرّ لتحاببتم. ما لكم تَنَاصحون في أمر الدنيا ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يُحِبّه ويُعينه على أمر آخرته! ما هذا إلا من قلّة الإيمان في قلوبكم. لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرّها كما تُوقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك بأموركم. فإن قلتم: حبُّ العاجلة[٤] غالب؛ فإنّا نراكم تَدَعون العاجل من الدنيا للآجل مما تكُدُّون أنفسكم بالمشقّة والاحتراف في طلب أمرٍ لعلكم لا تُدركونه. فبئس القوم أنتم! ما حقّقتم إيمانكم بما يُعْرَف به الإيمان البالغ فيكم. فإن كنتم في شكٍّ مما جاء به محمد ﷺ فأتونا لنبيّن لكم ولنريكم من النور ما تطمئنّ إليه قلوبكم. والله ما أنتم بالمنقوصة عقولُكم فنعذرَكم؛ إنكم لَتَبَيّنُون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم. ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تُصيبونه وتحزَنون على اليسير منها يفوتكم، يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم، وتسمُّونها المصائب وتُقيمون فيها المآتم، وعامّتكم قد تركوا كثيرًا من دينهم ثم لا يتبيّن ذلك في وجوهكم ولا يتغيّر حالٌ بكم!. إني لأرى الله قد تبرّأ منكم. يلقى بعضكم بعضًا بالسرور، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبَه بما يكره مخافةَ أن يستقبله صاحبُه بمثله، فاصطحبتم على الغلّ[٥]، ونبتت مراعيكم على الدِّمن[٦]، وتصافيتم على رفض الأجل. ولَوَدِدْتُ أن الله أراحني منكم وألحقني بمن أُحبّ رؤيته، ولو كان حيًا لم يصابركم. فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم؛ وإنْ تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرًا. والله أستعين على نفسي وعليكم.

---

(١) أبو الدرداء: عويمر بن مالك الخزرجي الأنصاري، من رواة الحديث. كان قاضيًا في دمشق. تُوفي سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٣٩.

(٢) الصعدات: الأماكن العالية.

(٣) تجأرون: تصيحون وترفعون أصواتكم بالبكاء عاليًا.

(٤) العاجلة: كناية عن الدنيا.

(٥) الغلّ: الحقد والكراهية.

(٦) الدمن: جمع دمنة، وهي المزبلة.

وكتب الحسن البصريّ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيز رحمهما الله تعالى:

أمّا بعد، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أُنزل آدمُ عليه السلام من الجَنّة إليها عقوبة؛ فاحذَرْها يا أمير المؤمنين؛ فإنّ الزاد منها تركُها، والغنَى منها فقرها؛ لها في كلّ حين قتيل؛ تُذِلّ من أعزّها، وتُفقر من جمعها؛ هي كالسمّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه. فكن فيها كالمُداوِي جراحتَه، يحتمي قليلًا مخافةَ ما يكره طويلًا، ويصبر على شدّة الدواء مخافة طول الداء. فاحذر هذه الدار الغدّارة الختّالة[١] الخدّاعة التي قد تزيّنت بخُدَعها وفتنت بغرورها، وحَلَت بآمالها، وسوّفت[٢] بخطّابها؛ فأصبحت كالعروس المجلوّة[٣]، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلّهم قالية[٤]؛ فلا الباقي بالماضي معتبِر، ولا الآخر بالأوّل مزدجر[٥]، والعارف بالله عزّ وجلّ حين أخبره عنها مذّكر؛ فعاشقٌ لها قد ظفر منها بحاجته فاغترّ وطغى ونَسِيَ المعاد، فشغل لبّه حتى زلّت به قدمه، فعظُمت ندامته، وكثُرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألُّمه، وحسرات الفوت بغُصّته؛ وراغبٌ فيها لم يدرك فيها ما طلب، ولم يروّح نفسه من التعب؛ فخرج بغير زاد، وقدِم على غير مِهاد. فاحذَرْها يا أمير المؤمنين، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون لها؛ فإنّ صاحب الدنيا كلما اطمأنّ فيها إلى سرورٍ أشخصته إلى مكروه؛ السارّ فيها أهلَها غارّ، والنافع فيها غدّار ضارّ؛ وقد وُصِل الرخاءُ فيها بالبلاء، وجُعِل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوبٌ[٦] بالأحزان. لا يرجع منها ما ولّى وأدبر، ولا يُدْرَى ما هو آتٍ فينتظر؛ أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كَدَر، وعيشُها نكد، وابن آدم فيها على خطر، ومن البلاء على حَذَر. فلو كان الخالق لم يُخبر عنها خَبَرًا، ولم يضرب لها مثلًا، لكانت الدنيا أيقظت النائمَ ونبّهت الغافلَ، فكيف وقد جاء من الله عزّ وجلّ عنها زاجرٌ وفيها واعظ! فما لها عند الله جلّ ثناؤه قَدْر، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عُرضت على نبيّك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا يَنْقصه ذلك عند الله جَناحَ بَعُوضة فأبى أن يقبلها إذ كَرِه أن يُخالف على الله أمره، أو يُحِبّ ما أبغض خالقُه، أو يرفع ما وَضع مليكه. فزَوَاها[٧] عن الصالحين اختبارًا. وبَسطها لأعدائه اغترارًا؛

(١) الختّالة: الخدّاعة.
(٢) سوّفت: ماطلت، وأخلفت.
(٣) المجلوّة: المزيّنة ليلة دخولها على عريسها.
(٤) قالية: كارهة ومبغضة.
(٥) مزدجر: ممتنع.
(٦) مشوب: مخلوط.
(٧) زواها: أبعدها ونحاها جانبًا.

فيظنّ المغرور المقتدر عليها أنه أُكرِم بها، ونسِيَ ما صنع الله عزّ وجلّ بمحمد ﷺ حين شدّ الحجر على بطنه[١]. ولقد جاءت الرواية عنه عن ربّه عزّ وجلّ أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغِنَى مُقبلًا فقل: ذَنْبٌ عُجِّلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلًا فقل: مرحبًا بشِعار الصالحين. فإن شئت اقتديت بصاحب الروحِ والكلمةِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام فإنه كان يقول: إدامي[٢] الجوع، وشِعاري[٣] الخوف، ولباسي الصوف، وصِلائي[٤] في الشتاء مشارق الشمس، وسراجي القمر، ودابّتي رجلاي، وطعامي وفاكهتي ما تُنبت الأرض، أبيت ليس لي شيءٌ وأُصبح وليس لي شيءٌ وليس على الأرض أغنى منّي.

وقال بعضهم لبعضِ الملوك: إن أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها مَن بُسِط له فيها وأُعطي حاجته منها، لأنه يتوقع آفةً تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جَمْعه فتفرّقه، أو تأتي سلطانَه فتهدمه من القواعد، أو تدِبّ إلى جسمه فتُسْقمه، أو تَفْجَعه بشيء هو ضنين به من أحبابه. فالدنيا أحقُّ بالذمِّ، هي الآخذة لما تُعطي، الراجعة فيما تَهَب. بينا هي تُضْحِك صاحبَها إذ أضحكت منه غيرَه، وبينا هي تبكي له إذ بكت عليه، وبينا هي تبسُط كفَّه بالإعطاء إذ بَسَطتها بالاسترداد. تعقِد التاجَ على رأس صاحبها اليومَ وتُعَفِّره في التراب غدًا؛ سواءٌ عليها ذَهابُ ما ذهب وبقاءُ ما بقي، تجد في الباقي من الذاهب خَلَفًا، وتَرْضَى بكُلٍّ من كلٍّ بدلًا.

وعن وهبِ بنِ مُنَبِّهٍ[٥] أنه قال:

لمّا بعث الله عزّ وجلّ موسى وهارون[٦] عليهما السلام إلى فرعونَ قال: لا يَروعنَّكما[٧] لباسُه الذي لبِس من الدنيا، فإنّ ناصيته[٨] بيدي ليس ينطِق ولا يطرِف ولا يتنفّس إلا بإذني، ولا يُعجبنّكما ما مُتِّع به منها فإنما هي زَهْرةُ الدنيا وزينة المُتْرَفين. فلو شئتُ أن أُزَيِّنكما بزينة من الدنيا يعرف فرعونُ حين يراها أنّ قدرته تعجِزُ عمّا أُوتيتما لفعلت، ولكنّي أرغب بكما عن ذلك فأَزْوِي ذلك عنكما، وكذلك

(١) كناية عن الجوع: كانوا إذا شعروا بالجوع الشديد، يضعون حجرًا على البطن ثم يشدّونه عليها.
(٢) إدامي: الإدام، ما يؤكل مع الخبز من الطعام.
(٣) شعاري: غطائي. (٤) صلائي: ما اصطلي به من النار.
(٥) وهب به منبّه: أحد التابعين والمؤرخين المتخصصين بتاريخ الأقدمين. وُلد في اليمن بصنعاء وعاش فيها. له «التيجان في ملوك حمير». مات سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م.
(٦) هارون: أخو موسى، النبيّ، وأول أحبار بني إسرائيل.
(٧) يروعنّكما: يخوفنكما. (٨) ناصيته: الناصية، شعر مقدّم الرأس.

أفعل بأوليائي، إني لأذودُهم[١] عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمَه عن مراتع[٢] الهَلَكة؛ وما ذاك لهوانهم عليّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا مُوَفّرًا. إنما يتزيّن لي أوليائي بالذُّلّ والخضوع والخوف والتقوى تَنْبُت في قلوبهم فتظهر على أجسادهم، فهي ثيابهم التي يلبَسون، ودِثارهم[٣] الذي يُظهرون، وضميرُهم الذي يستشعرون، ونجاتُهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إيّاه يأْمُلون، ومجدهم الذي به يفخَرون، وسيماهم[٤] التي بها يُعْرَفون. فإذا لَقِيتَهم فاخفِضْ لهم جَناحك وذلِّل لهم قلبك ولسانك. واعلم أنّ من أخاف لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة.

وخطب عليّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه يومًا خطبة فقال فيها:

اعلموا أنكم مَيِّتون، ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومَجْزِيُّون بها، فلا تَغُرَّنّكم الحياة الدنيا؛ فإنّها بالبلاء محفوفة، وبالفَناء معروفة، وبالغَدْر موصوفة؛ وكلّ ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دُوَلٌ وسِجَال[٥]؛ لا تدوم أحوالها، ولا يسلَم من شرها نُزَّالها؛ بينا أهلُها في رخاءٍ وسرور، إذا هم منها في بلاءٍ وغرور؛ أحوال مختلفة، وتارات متصرِّفة؛ العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم. وإنما أهلها فيها أغراضٌ مستهدَفَةٌ ترميهم بسهامها، وتُقْصِيهم بحِمامها[٦]؛ وكلٌّ حتفُه فيها مقدور، وحظُّه فيها موفور. واعلموا عبادَ الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل مَنْ قد مضى ممن كان أطولَ منكم أعمارًا، وأشدّ منكم بَطْشًا وأعمر دِيارًا، وأبعد آثارًا؛ فأصبحت أصواتهم هامدةً وخامدةً من بعد طُول تقلُّبها، وأجسادُهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية؛ استبدلوا بالقصور المشيَّدة، والسُّرُرِ والنمارِق[٧] الممهَّدة، الصخورَ والأحجارَ المُسْنَدة، في القبور اللاطئة[٨] المُلْحَدَة؛ فمحَلُّها مُقترِب، وساكنُها مُغترِب، بين أهلِ عمارةٍ مُوحشين، وأهل مَحَلَّة مُتشاغلين؛ لا يستأنسون بالعُمْران، ولا يَتَواصلون تواصُلَ الجِيران والإخوان؛ على ما بينهم من قرب

(١) أذودهم: أبعدهم.
(٢) مراتع: الأمكنة التي ترعى بها الماشية.
(٣) دثارهم: ثوبهم.
(٤) سيماهم: علامتهم وهيئتهم.
(٥) دول وسجال: أي أن بعض أيامها حروب تنتقل من هذا الفريق إلى هذا الفريق. وتارة ينتصر هذا، وتارة ينتصر ذاك.
(٦) حمامها: موتها.
(٧) النمارق: مجمع نمرقة، وهي الطنفسة، والوسادة الصغيرة يتكأ عليها.
(٨) اللاطئة: القليلة الارتفاع، المنخفضة.

المكان والجِوار، ودنوّ الدار. وكيف يكون بينهم تواصلٌ وقد طحنهم بكَلْكَله[١] البِلَى، وأكلتهم الجنادل[٢] والثرى؛ وأصبحوا بعد الحياة أمواتًا، وبعد غَضَارة[٣] العيش رُفاتًا[٤]؛ فُجِع بهم الأحباب، وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات! كلّا إنها كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ[٥] إلى يوم يُبْعَثون؛ فكأنْ قد صِرْتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدةِ في دار المثوى، وارْتُهِنتم في ذلك المَضْجَع، وضمّكم ذلك المُستودَع؛ فكيف بكم لو قد عاينتم الأمور، وبُعْثِرت القبور، وحُصِّل ما في الصدور؛ ووُقِفْتم للتحصيل، بين يدي الملك الجليل؛ فطارت القلوب، لإشفاقها من سالف الذنوب؛ وهُتكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار؛ هنالك تُجْزَى كلُّ نفسٍ ما كسبت. إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: الآية ٣١]؛ وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: الآية ٤٩]. جعلنا الله وإيّاكم عاملين بكتابه، متّبعين لأوليائه، حتّى يُحِلّنا وإيّاكم دارَ المُقَامة من فضله، إنه حميد مجيد.

ومما يلتحق بهذا الفصل ويدخل فيه، خطبةُ قَطَرِيّ بنِ الفجاءةِ[٦] وسترد في كلام البلغاء في باب الكتابة.

وقال بعضهم: يا أيها الناسُ، اعملوا على مَهَل، وكونوا من الله على وَجَل، ولا تغترّوا بالأمَل ونسيان الأجل؛ ولا تركَنوا إلى الدنيا فإنَها غدّارة خدّاعة، قد تزخرفتْ لكم بغُرورها، وفَتنتكم بأمانيها، وتزينت لخُطّابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة؛ العيونُ إليها ناظرة، والقلوبُ عليها عاكفة[٧]، والنفوسُ لها عاشقة. فكم من عاشقٍ لها قتلتْ، ومطمئنٍّ إليها خَذلتْ. فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنّها دار كثرت بوائقُها[٨]، وذمّها خالقها؛ جديدها يبلَى، وملكها يفنَى؛ وعزيزُها يَذِلّ، وكثيرها يقِلّ؛

(١) الكلكل: الصدر. (٢) الجنادل: الحجارة الضخمة.
(٣) الغضارة: نعمة العيش والرواء الحسن.
(٤) الرفات: الحطام، ما بلي ورثّ من جثمان الميّت.
(٥) البرزخ: المرحلة الفاصلة بين الموت والبعث. والحساب في القبر، يعرف بحساب البرزخ.
(٦) قطري بن الفجاءة: من شعراء الخوارج وخطبائهم المعدودين. قلّده الخوارج الخلافة، قضى ثلاث عشرة سنة وهو يقاتل الحجّاج ويرد هجماته. وأخيرًا قتل في معركة بطبرستان سنة ٧٨ هـ/ ٦٩٧ م.
(٧) عاكفة: مقيمة. (٨) بوائقها: شرورها ومصائبها.

وحيّها يموت، وخيرها يفوت. فاستيقظوا من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم؛ قبل أن يقال: فلانٌ عليل، أو مُدْنَفٌ[١] ثقيل، فهل على الدواء من دليل، أو على الطبيب من سبيل؛ فيُدْعَى لك الأطبّاء، ولا يُرْجَى لك الشفاء؛ ثم يقال: فلان أوصَى، ولماله أحصَى؛ ثم يقال: قد ثقُل لسانُه فما يكلّم إخوانه، ولا يعرِف جيرانه؛ وعرِق عند ذلك جبينُك، وتَتَابع أنينُك، وثبت يقينك، وطَمَحت[٢] جُفونك، وصدَقت ظنونك؛ وتلجلج[٣] لسانُك، وبكى إخوانك؛ وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان، ومُنِعْتَ الكلام فلا تنطق؛ ثم حلّ بك القضاء، وانْتُزِعت نفْسُك من الأعضاء، ثم عُرِج بها إلى السماء؛ فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحْضَرت أكفانك؛ فغسّلوك وَكَفّنوك؛ فانقطع عُوّادك[٤]، واستراح حُسّادُك؛ وانصرف أهلُك إلى مالك، وبقيت مُرْتَهَنًا بأعمالك.

وقال بعض الحكماء: الأيام سِهامٌ، والناسُ أغراضٌ، والدهرُ يرميك كلَّ يوم بسهامِه، ويتخرّمك[٥] بلياليه وأيّامه، حتّى يستغرقَ جميعَ أجزائك؛ فكم بقاءُ سلامتك مع وقوع الأيّام بك، وسرعةِ الليالي في بَدَنك! لو كُشِف لك عما أحدثت الأيامُ فيك من النقص لاستوحشتَ من كلّ يوم يأتي عليك، واستثقلت ممرّ الساعات بك؛ ولكنّ تدبير الله فوق تدبير الاعتبار؛ وبالسلوّ عن غوائل[٦] الدنيا وُجِد طعمُ لذّاتها، وإنّها لأمرُّ من العَلْقم[٧] إذا عَجَمها[٨] الحكيم؛ وقد أعيت الواصفَ لعيوبها بظاهر أفعالها، وما تأتي به من العجائب أكثر مما يُحيط به الواعظ. اللهم أرشدنا للصواب.

وخطب عمر بنُ عبدِ العزيز رحمه الله فقال: أيها الناس، إنكم خُلِقتم لأمرٍ إن كنتم تصدِّقون به فإنكم حَمْقَى، وإن كنتم تكذِّبون به إنكم لهَلْكى؛ إنما خُلِقتم للأبد، ولكنكم من دارٍ إلى دارٍ تُنْقَلون. عباد الله، إنكم في دارٍ لكم فيها من طعامكم غَصَص[٩]، ومن شرابكم شَرَق[١٠]، لا تصفو نعمةٌ تُسَرُّون بها إلا بفراق أُخرى تكرهون فِراقها، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه خالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل.

---

(١) مدنف: مريض.
(٢) طمحت: جمحت وارتفعت.
(٣) تلجلج: تعثّر ولم يفصح.
(٤) عوّادك: زوّارك في المرض.
(٥) يتخرّمك: يقطعك ويشقّك.
(٦) غوائل: شرور ومصائب.
(٧) العلقم: نبات الحنظل.
(٨) عجمها: امتحنها واختبرها.
(٩) غصص: عدم إساغة.
(١٠) شَرِقَ فلان بالماء: غصّ.

ذِكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه

فأمّا درجاته فقد قال الغزاليّ رحمه الله: إنها تتفاوت بحسب تفاوت قوّته على درجات ثلاث:

الأولى وهي السفلى منها: أن يزهدَ في الدنيا وهو لها مُشتهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتةٌ ولكنّه يجاهدها ويَكُفّها، وهذا يسمّى التزهُّد، وهو مبدأ الزهد في حقّ مَن يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد. والمتزهّد يُذيب أوّلًا نفسَه ثم كسبه، والزاهد يُذيب أوّلًا كسبَه ثم يُذيب نفسه في الطاعة لا في الصبر على ما فارقه. والمتزهّد على خَطَر، فإنه ربما تغلِبه نفسُه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير.

الثانية: الذي يترك الدنيا طوعًا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمِع فيه كالذي يترك درهمًا لأجل درهمين فإنّه لا يشُقّ عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل. ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه، فيكاد يكون مُعْجَبًا بنفسه وبزهده، ويظنّ بنفسه أنّه ترك شيئًا له قدر لما هو أعظم قدرًا منه؛ وهذا أيضًا نقصان.

الثالثة وهي العليا: أن يزهد طوعًا ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنّه ترك شيئًا إذ عرَف أن الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك خَزَفَةً[1] وأخذ جوهرةً فلا يرى ذلك معاوضةً ولا يرى نفسه تاركًا شيئًا. والدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخسّ من خزفة بالإضافة إلى جوهرة؛ فهذا هو الكمال في الزهد، وسببه كمال المعرفة. وأما أقسامه فمنها ما هو مضاف إلى المرغوب فيه والمرغوب عنه؛ فأما المرغوب فيه فهو على ثلاث درجات:

الأولى وهي السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار. وفي الخبر: «إن الرجل ليُوقَف في الحساب حتى لو وردت مائةُ بعير عِطاشًا على عَرَقه لصَدَرَتْ رِوَاء»[2]؛ فهذا زهد الخائفين وكأنّهم رَضُوا بالعدم لو أُعْدِموا فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم.

---

(١) الخزفة: الفخّارة.

(٢) رواء: شبعي من الماء.

الدرجة الثّانية: أن يزهد رغبةً في ثواب الله ونعيمه واللّذّات الموعودة في جنّته من الحُور والقصور وغيره، وهذا زهد الراجين، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدم والخلاص من الألم بل طمِعوا في وجودٍ دائم ونعيم سَرْمَدٍ[١] لا آخر له.

الدرجة الثالثة وهي العليا: ألا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللذّات ليقصِد نَيْلَها، والظفرَ بها، بل هو مستغرق الهمّ بالله تعالى، وهو الموحّد الحقيقيّ الذي لا يطلب غير الله تعالى، لأنّ من طلب غير الله فقد عبده؛ وكلّ مطلوب معبود، وكلّ طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلبُ غير الله من الشرك الخفيّ؛ وهذا زهد المحبّين وهم العارفون، لأنه لا يحبّ الله تعالى خاصّة إلا من عرفه؛ وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنّه لا يقدِر على الجمع بينهما لم يحبّ إلا الدينار، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف لذّة النظر إلى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذّة وبين لذّة التنعُّم بالحُور العِين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحبّ إلّا لذّة النظر ولا يُؤْثِر غيره. قال: ولا تَظُنَّنّ أن أهل الجنّة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذّة الحُور والقُصور مُتَّسعٌ في قلوبهم، بل تلك اللذّة بالإضافة إلى لذّة نعيم الجنّة كلذّة مُلْك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخَلْق بالإضافة إلى الاستيلاء على عُصفور واللعب به؛ والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبيّ الطالب للّعب بالعصفور التارك للّذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذّة الملك لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذّ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأمّا المرغوب عنه، فقد كثرت فيه الأقاويل.

قال الغزاليّ رحمه الله: لعلها تزيد على مائة قول، وأشار إلى كلام محيط بالتفاصيل فقال: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل.

أما الإجمال في الدرجة الأولى: فهو كلّ ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتّى يزهد في نفسه أيضًا.

---

(١) سرمد: دائم لا ينتهي.

والإجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كل صفةٍ للنفس فيها مُتعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكِبْر والرياسة والمال والجاه وغير ذلك.

وفي الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما، إذ إليهما ترجِع جميع حظوظ النفس.

وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه، إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم، والجاه وإن كثُرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة. قال: وأعني به كلّ علم وقدرة مقصودهما ملك القلوب؛ إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها. قال: فإن جاوزتَ هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فتكاد تُخرِج ما فيه الزهدُ عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤]. ثم ردّه في آية أخرى إلى خمسة فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحَديد: الآية ٢٠]. ثم ردّه في موضع آخر إلى اثنين فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٤]. ثم ردّ الكلّ في موضع آخر إلى واحد فقال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: الآيتان ٤٠، ٤١]؛ فالهوى لفظٌ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه.

قال: فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلّها.

وقال أبو سليمان الداراني[1]: سمعنا في الزهد كلامًا كثيرًا، والزهد عندنا ترك كلّ شيء يشغَلك عن الله عزّ وجلّ، وقرأ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٩]، قال: هو القلب الذي ليس فيه غير الله. فهذا بيان أقسامه بالإضافة إلى المرغوب فيه وعنه.

---

(١) أبو سليمان الداراني: من أصحاب الرياضات والمجاهدة في التصوّف والعرفان. انظر شيئًا من أقواله في: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١١/ ٧٤ ـ ٢٠١. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٩٦٧.

وأما أحكامُه فتنقسم إلى فرضٍ ونفلٍ وسلامة. فالفرضُ هو الزهدُ في الحرام، والنفلُ هو الزهدُ في الحلال، والسلامةُ هو الزهدُ في الشبهات. فهذه درجاته وأقسامُه وأحكامُه على سبيل الاختصار.

ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

قال الغزاليّ رحمه الله: اعلم أنّ ما الناسُ منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهِمّ؛ فالفضول كالخيل المسوّمة[1] - إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفُّه بركوبها وهو قادر على المشي - وغيرِ ذلك مما لا ينحصر. ثم حصَر المهمّ الضروريّ فتميّز ما عداه أنّه فُضُول. قال: والمهمّ أيضًا يتطرّق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته على ما يشرحه من قوله. قال: والمهمّات ستّة أمور، وهي: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه يطلب لأغراض.

فالمهمّ الأوّل المطعم: ولا بدّ للإنسان من قوتٍ حلالٍ يُقيم صُلبه، ولكن له طول وعرض ووقت. فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه قد لا يقنع به، وهو لا يقصُر إلا بقصر الأمل، وأقلّ درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّته وخوف المرض. ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدّخر من غدائه لعشائه؛ وهذه الدرجة العليا.

والثانية: أن يدّخر لشهر أو أربعين يومًا.

والثالثة: أن يدّخر لسنةٍ فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهّاد. ومن ادّخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدًا محال؛ لأنّ من أمّل بقاءً أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدًّا فلا يتمّ منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرضَ لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائيّ فإنه ورث عشرين دينارًا فأمسكها وأنفقها عشرين سنة، فهذا لا يضاد الزهد إلا نداً من جعل التوكل شرط الزهد.

وأمّا عَرْضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مُدّ - وهو ما قدّره الله تعالى في إطعام المساكين في الكفّارة - وما وراء ذلك فهو اتساع واشتغال بالبطن. ومن لم يقدِر على الاقتصار على مُدّ لم يكن له من الزهد في البطن نصيب.

---

(١) المسوّمة: المرعيّة، المرسلة مطلقةً، والمعلمة بعلامات تعرف بها.

وأمّا بالإضافة إلى الجنس فأقلّه ما يَقوت وهو الخبز من النُّخالة، وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه خبز البُرّ[١] غير منخول؛ فإذا مُيّزت النُّخالة منه وصار حُوَّارَى[٢] فقد دخل في التنعُّم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلًا عن أوائله.

وأمّا الأُدُم[٣]، فأقلّه المِلحُ أو البقلُ والخلُّ، وأوسطهُ الزيتُ أو يسيرٌ من الأدهان، وأعلاه اللحمُ وذلك في الأسبوع مرّةً أو مرّتين؛ فإن صار دائمًا أو أكثر من مرّتين في الأسبوع خرج من آخرِ أبوابِ الزهد فلم يكن صاحبُه زاهدًا في البطن أصلًا.

وأمّا بالإضافة إلى الوقت فأقلّه في اليوم والليلة مرّة وهو أن يكون صائمًا ثم يُفطر في وقت الإفطار؛ وأوسطه أن يصومَ ويشرَب ليلةً ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب؛ وأعلاه أن ينتهي إلى أن يَطْوِي[٤] ثلاثة أيام وأسبوعًا وما زاد عليه. وانظر إلى أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه في كيفيّة زهدهم في المطاعم وتركهم الأُدم واقتصارهم على ما يُمسك الرمَق[٥]. قال عائشة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يُوقَد في بيت رسول الله ﷺ مصباحٌ ولا نار. قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودَين التمر والماء. وجاء أهل قُبَاء[٦] إلى النبيّ ﷺ بشربة من لبن مَشُوبةٍ بعسل، فوضع القدحَ من يده وقال: «أمَا إنّي لست أُحرّمه ولكنّي أتركه تواضعًا لله تعالى». وأُتِي عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال: اعزِلوا عنّي حسابها. وقال يحيىٰ بن مُعاذ[٧] الرازيّ: الزاهد الصّادق قوتُه ما وجَد، ولباسه ما سَتر، ومسكنه حيث أدرك؛ الدنيا سجنه، والقبر مضجَعه، والخَلوة مجلِسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والربّ أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شِعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبرُ معتمده، والتوكّل حسبه، والعقل دليله، والعبادة حِرفته، والجنّة مَبلغُه إن شاء الله تعالى.

---

(١) البرّ: القمح.
(٢) حوّارى: الدقيق الأبيض الخالي من النخّالة.
(٣) الأدم، والإدام: ما يؤكل مع الخبز.
(٤) يطوي: يصبر على الجوع، ويصوم.
(٥) الرمق: بقية الرّوح.
(٦) قباء: موضع يبعد ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير، وهناك مسجد التقوى، ومسجد ضرار. انظر: معجم البلدان ٤/ ٣٠٢.
(٧) يحيىٰ بن معاذ: كنيته أبو زكريا، من الريّ، أحد رجال الطريقة الصوفية، ومن العارفين المشهورين تُوفي سنة ٢٥٨ هـ بنيسابور. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٣٨.

المهم الثاني الملبس: وأقلّ درجاته ما يدفع الحَرّ والبرد ويستر العورة، وهو كساء يتغطّى به؛ وأوسطه قميصٌ وقَلَنْسُوة[١] ونعلان؛ وأعلاه أن يكون معه مِنديل وسَرَوايل. وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مُجاوِز حدّ الزهد. وشرط الزهد ألّا يكون له ثوبٌ يلبسُه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعودُ في البيت؛ فإذا صار صاحبَ قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد. هذا من حيث المقدار. وأما الجنسُ، فأقلّه المُسُوحُ الخشنة، وأوسطه الصوفُ الخشن، وأعلاه القطنُ الغليظ.

وأما من حيث الوقتُ، فأقصاه ما يستُر سَنَةً، وأقلُّه ما يبقَى يومًا، وقد رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه؛ وأوسطه ما يتماسك عليه شهرًا وما يقاربه. فطلبُ ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل، وهو مُضادٌّ للزهدِ إلا إذا كان المطلوب خشونته وقد يتبَع ذلك قوَّته ودوامُه. فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدّق به؛ فإن أمسكه لم يكن زاهدًا بل كان محبًّا للدنيا. ولينظر إلى أحوال الأنبياء صلّى الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم كيف تركوا الملابس. قال أبو بُردة: أخرجتْ لنا عائشة رضي الله عنها كِساءً مُلَبّدًا وإزارًا غليظًا فقالت: قُبِض رسول الله ﷺ في هذين. وقال ﷺ: «إن الله تعالى يُحبّ المُتَبَذِّل[٢] الذي لا يُبَالِي ما لبِس». وفي الخبر: «ما من عبدٍ لبِس ثوب شُهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزِعه وإن كان عنده حبيبًا». واشترى رسول الله ﷺ ثوبًا بأربعة دراهم وكان إزاره أربعة أذرع ونصفًا، واشترى سراويل بثلاثة دراهم، وكان يلبَس شَمْلتين[٣] بَيْضاوَينِ من صوف وكانت تسمَّى حُلَّةً لأنهما ثوبان من جنس واحد. وربما كان يلبس بُردين يمانِيَيْنِ أو سَحُوليّين[٤]. ولبس ﷺ يومًا واحدًا ثوبًا سِيراء[٥] من سُندس قيمته مائتا درهم، فكان أصحابه يلمِسُونه ويقولون: يا رسول الله، أنزِلَ هذا عليك من الجنّة! تعجُّبًا، وكان قد أهداه إليه المُقَوْقِس ملك الإسكندرية، فأراد أن يُكرمه بلُبسه ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصَلَه به، ثم حرّم لُبسَ الحرير والديباج. وقد صلّى رسول الله ﷺ

---

(١) القلنسوة: نوع من ملابس الرأس.
(٢) المتبذّل: التارك للاحتشام والتصوّن والفخفخة.
(٣) شملتين: مثنى شملة، وهي الكساء الواسع يشتمل به.
(٤) سحوليين: نسبةً إلى سحول، قرية من قرى اليمن يحمل منها ثياب قطنية بيض تدعى السحولية. انظر: معجم البلدان ٣/ ١٩٥.
(٥) سيراء: برود مخطّطة يخالطها الحرير.

في خَمِيصةٍ[١] لها علم فلمّا سلّم قال: «شَغَلني النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جَهْم واتوني بأَنبجانيّتِهِ» (يعني كساءه) فاختار لبس الكِساء على الثوب الناعم. وكان شِراك[٢] نعله قد أَخْلق[٣] فأُبْدِل بسَيْرٍ جديد فصلّى فيه؛ فلما سلّم قال: «أَعِيدوا الشِّراك الخَلَق وانزِعوا هذا الجديد فإنّي نظرت إليه في الصلاة». وعن جابر[٤] رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة رضي الله عنها وهي تطحَن بالرحا[٥] وعليها كساء من وبر الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: «يا فاطمة تجرَّعي[٦] مرارةَ الدنيا لنعيم الأبد». فأنزل الله عليه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: الآية ٥]. [وقد أَوْصى أمته عامّة باتباعه إذ قال: «من أحبني فَلْيَسْتَنَّ بسُنّتي»[٧]. وقال: «عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين من بعدي عَضُّوا عليها بالنواجذ»[٨]. وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمران: الآية ٣١]]. وأوصى رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها خاصة وقال لها: «إنّ أردتِ اللُّحوق بي فإيّاك ومجالسة الأغنياء ولا تَنْزِعي ثوبًا حتى تَرْقَعيه». وعُدَّ على قميص عمر رضي الله عنه اثنتان وعشرون رقعة بعضها من أدَم[٩]. وفي الخبر: «من ترك ثوب جَمال وهو يقدِر عليه تواضعًا لله تعالى وابتغاءَ لوجهه كان حقًّا على الله أن يدّخر له من عبقريّ الجنّة في أتخات[١٠] الياقوت». وقال عمر رضي الله عنه: اخلَوْلِقوا[١١] واخشوشنوا[١٢]، وإيّاكم وزِيَّ العجم كسرى[١٣] وقيصر[١٤]. وقال الثوريّ[١٥] وغيره: الْبَس من الثياب ما لا يُشَهِّرك عند العلماء ولا يُحقِّرك عند الجهّال. وقال بعضهم: قوّمت ثوبي سُفْيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانيق[١٦]. والأخبار في التقلُّل من اللباس كثيرة فلا نطوّل بسردها.

---

(١) الخميصة: ثوب أسود مربّع.
(٢) الشراك: سير النّعل على ظهر القدم.
(٣) أخلق: بلي، ورثّ.
(٤) جابر: هو جابر بن عبد الله، الصحابي الخزرجي الأنصاري، أحد أشهر رواة الحديث عن النبيّ ﷺ. مات سنة ٧٨ هـ/ ٦٩٧ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٨٤.
(٥) الرحى: الطاحون.
(٦) تجرّعي: اشربي جرعة بعد جرعة.
(٧) سنّتي: طريقتي.
(٨) النواجذ: الأضراس.
(٩) أدم: جلد.
(١٠) أتخات: جمع تخت، وهي الخزانة والعيبة.
(١١) اخلولقوا: استووا بالأرض.
(١٢) اخشوشنوا: تخشّنوا، تعوّدوا حياة الخشونة.
(١٣) كسرى: لفظة تطلق على كل ملك من ملوك الفرس.
(١٤) قيصر: لفظة تطلق على كل ملك من ملوك الروم.
(١٥) الثوري: هو سفيان الثوري، أبو عبد الله، المحدث والمجتهد. له من الكتب الجامع الكبير، والجامع الصغير، في الحديث. مات سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م.
(١٦) دوانيق: جمع دانق، وهو ما يساوي سدس الدرهم.

المهم الثالث المسكن: وللزهد فيه أيضًا ثلاث درجاتٍ، أعلاها ألّا يطلب موضعًا خاصًا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصُفَّة[١]، وأوسطها أن يطلب موضعًا خاصًا لنفسه مثل كُوخ مبنيّ من سَعَف[٢] أو خُصّ[٣] أو ما يشبهه، وأدناها أن يطلب حُجرةً مبنيّة إما بشراء أو إجارة. فإن كان قدرُ سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم تكن فيه زينةٌ لم يُخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد. فإنْ طلب التشييدَ والتجصيصَ[٤] والسعةَ وارتفاعَ السقفِ أكثرَ من ستة أذرع فقد جاوز بالكليّة حدّ الزهد في المسكن. قال: والغرض من المسكن دفعُ المطرِ والبردِ ودفعُ الأعينِ والأذى. وأقلُّ الدرجاتِ فيه معلوم، وما زاد عليه فهو من الفضول، والفضول كلُه من الدنيا، وطالبُ الفضولِ والساعي له بعيدٌ من الزهد. وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بعبدٍ شرًا أهلك مالَه في الماء والطين». وقال الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لَبِنةً على لبنةٍ ولا قَصَبةً على قصبة. وقال عبد الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: مرّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خُصًّا فقال: «ما هذا» قلنا: خصٌّ لنا قد وَهَى؛ قال: «أرى الأمر أعجل من ذلك». واتخذ نوح عليه السلام بيتًا من قَصَب؛ فقيل له: لو بَنَيت! فقال: هذا كثير لمن يموت. وقال الحسن: دخلنا على صَفْوانَ بنِ مُحْرِز وهو في بيت من قَصَب قد مال عليه؛ فقيل له: لو أصلحته! فقال: كم من رجلٍ قد مات وهذا قائم على حاله. وقال رسول الله ﷺ: «من بنى فوق ما يكفيه كُلِّف أن يحمله يوم القيامة». وفي الخبر: «كلّ نفقةٍ للعبد يُؤجَر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين». وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القَصَص: الآية ٨٣] أنه الرياسة والتطاوُل في البُنيان. وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ بناءٍ وبالٌ[٥] على صاحبه يوم القيامة إلا ما أَكَنَّ[٦] من حرّ وبرد». ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشأم إلى صَرْح قد بُنِي بِجَصّ وآجُرٍّ، فكَبَّر وقال: ما كنت أظنّ أن يكون في هذه الأمّة من يبني بنيانَ هامانَ[٧] لفرعون. وكان ارتفاعُ بناءِ السلفِ قامةً وبَسْطة. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدي إلى السقف. وقال عمرو بن دينار: إذا علا العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه مَلَك: إلى أين يا أفسق الفاسقين. وقال الفُضَيل: إنّي لا أعجب

---

(١) الصّفّة: المصطبة المرتفعة الضيّقة، والمقعد قرب المسجد، وهو مظلّل. وهي مقعد الزهّاد.
(٢) السعف: جريدة النخل. (٣) خصّ: بيت صغير من قصب أو شجر.
(٤) التجصيص: طلي البناء بالجصّ، وهو الجفصين.
(٥) الوبال: الشدّة وسوء العاقبة. (٦) أكنّ: أظلّ وستر.
(٧) هامان: هو وزير فرعون الذي ذكر في القرآن الكريم.

ممن بنى وترك ولكنّي أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر. وقال ابن مسعود: يأتي قومٌ يرفعون الطين، ويَضَعون الدين، ويستعملون البراذين[١]، يصلُّون إلى قِبْلتكم، ويموتون على غير دينكم.

المهم الرابع أثاث البيت: وللزهد فيه أيضًا درجات، أعلاها حال عيسى عليه السلام إذ كان لا يصحبه إلا مشطٌ وكوز؛ فرأى إنسانًا يمشطُ لِحيته بأصابعه؛ فرمى بالمشط. ورأى آخرَ يشربُ من النهر بكفَّيه فرمى بالكوز. وهذا حكم كلّ أثاثٍ فإنه إنما يراد لمقصودٍ فإذا استغنى عنه فهو وبالٌ في الدنيا والآخرة. وما لا يُستغنى عنه فيُقتصر فيه على أقلّ الدرجات وهو الخَزَف في كلّ ما يكفي فيه الخزف، ولا يُبالي أن يكون مكسور الطرَف إذا كان المقصود يحصل به. وأوسطها أن يكون له أثاثٌ يقدر الحاجة صحيحٌ في نفسه، ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالذي معه قَصْعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها. وكان السلف يستحلّون استعمالَ آلةٍ واحدة في أشياء للتخفيف. وأعلاها أن يكون له بعدد كلّ حاجةٍ آلةٌ من الجنس النازل الخسيس؛ فإنْ زاد في العدد أو في نَفاسة الجنس خرج من جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول. ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه رضي الله عنهم. قالت عائشة رضي الله عنها: كان ضجاع[٢] رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وِسادةً من أَدَم حَشْوُها لِيف. وقال الفُضَيل: ما كان فِراش رسول الله ﷺ إلّا عَباءةً مَثْنيّة ووسادة حشوها ليف. ورُوِيَ أن عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مَرْمُولٍ[٣] بشريط، فجلس فرأى أثر السرير في جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمر. فقال له النبيّ ﷺ: «ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب»؟ قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من المُلْك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيّه[٤] ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط! فقال ﷺ: «أمَا ترضى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة»! قال: بلى يا رسول الله. قال: «فذلك كذلك». ودخل رجل على أبي ذَرّ[٥] فجعل يقلِّب بصره في بيته فقال: يا أبا ذَرّ، ما أرى في بيتك متاعًا ولا غير ذلك من الأثاث! فقال: إن لنا بيتًا نوجّه إليه صالح

---

(١) البراذين: جمع برذون، وهي دابّة الحمل الثقيلة، أو التركيّ من الخيل العراب.
(٢) ضجاع: نوم. (٣) مرمول: مرقّق، مزيّن بالحصير.
(٤) صفيّه: مَن اصطفاه الله واختاره.
(٥) أبو ذرّ: هو أبو ذرّ الغفاري، واسمه جندب بن جنادة، أحد أشهر صحابة الرسول ﷺ ومن أقدم المؤمنين. اشتهر بالزهد والتقشف والتقوى. مات سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م.

متاعنا. فقال: إنه لا بدّ لك من متاع ما دمتَ هٰهنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه. ولما قدِم عُمَيْر بن سعد أمير حِمْص على عمر قال له: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أتوكّأ عليها وأقتل بها حيّةً إن لقيتها، ومعي جِرابي[1] أحمل فيه طعامي، ومعي قَصْعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي، ومعي مِطْهَرتي[2] أحمل فيها شرابي ووَضُوئي للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تَبَعٌ لما معي. فقال عمر: صدقتَ، رحمك الله. وقِدم رسول الله ﷺ من سفر، فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سترًا وفي يديها قُلْبَيْن[3] من فضّة فرجع. فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله ﷺ. فسأله أبو رافع فقال: «من أجل الستر والسِّوارين»: فأرسلت بهما بِلالًا إلى رسول الله ﷺ وقالت: قد تصدّقت بهما فضَعْهما حيث ترى. فقال: «اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصُّفَّة». فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم. فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال: «بأبي أنتِ قد أحسنتِ». وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبًا قطّ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

المهم الخامس المنكح: قال الغزاليّ: وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته؛ وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال: قد حُبِّب إلى سيِّد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهنّ! ووافقه ابن عُيَينة، وقال: كان أزهد الصحابة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربعُ نسوة وبضْعَ عشرةَ سُرِّيَّة. قال الغزالي: والصحيح ما قاله أبو سليمان الدارانيّ إذ قال: كلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم. والمرأة قد تكون شاغلًا عن الله. قال: وكَشْفُ الحقّ فيه أنّه قد تكون العُزُوبة أفضل في بعض الأحوال فيكون ترك النكاح من الزهد. وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد! وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعلِه ولكن ترك النكاح احترازًا عن مَيْل القلب إليهنّ والأنس بهنّ بحيث يشتغل عن ذكر الله فتركُ ذلك من الزهد. وإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازًا من لذّة النظر والمضاجعة[4] والمواقعة[5] فليس هذا من الزهد أصلًا؛ فإن الولد

---

(١) الجراب: وعاء من جلد.
(٢) المطهرة: الإناء يتطهّر به.
(٣) قلبين، مثنّى قلب: وهو سوار المرأة.
(٤) المضاجعة: النوم مع المرأة.
(٥) المواقعة: المجامعة.

مقصود لبقاء نسله، وتكثيرُ أمّة محمد ﷺ من القُربات. واللذّة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضرّه إذا لم تكن هي المقصد والمطلَب؛ وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازًا من لذّة الأكل والشرب، وليس ذلك من الزهد في شيء؛ لأن في ترك ذلك فواتَ بدنه، فكذلك في ترك النكاح انقطاعُ نسله؛ فلا يجوز أن يترك النكاح زهدًا في لذّته من غير آفةٍ أُخرى. قال: وأكثر الناس تشغَلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمالُ المرأة فلينكح واحدةً غير جميلة وليراعِ قلبه في ذلك. قال أبو سليمان: الزهد في النساء أن تختار المرأةَ الدُّون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة. وقال الجُنَيْد: أُحِبّ للمريد المبتدي ألّا يشغل قلبه بثلاث وإلّا تغيّر حالُه: التكسّب، وطلب الحديث، والتزوّج. فقد ظهر أن لذّة النكاح كلذّة الأكل والشرب، فما شغل عن الله تعالى فهو محذور فيهما جميعًا.

المهم السادس: ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال والجاه. [أمّا الجاه] فمعناه ملك القلوب بطلب محلّ فيها ليُتَوَصّل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال. وكلّ من لا يقدِر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى من يخدُمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه؛ لأنه إن لم يكن له عنده محلٌّ وقدْر لم يقم بخدمته. وقيام القدر والمحلّ في القلوب هو الجاه. قال: وإنما يُحتاج إلى المحلّ في القلوب إما لجلْب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم. فأمّا النفع فيُغني عنه المال؛ فإنّ من يخدُم بأجرة خدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما يُحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أُجرة. وأما دفع الضرر فيُحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمُلُ فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدِر على دفع شرّهم إلا بمحلٍّ له في قلوبهم أو محلّ له عند السلطان. وقدر الجاه فيه لا ينضبط. والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك. بل حق الزاهد ألّا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلًا؛ فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحلّ في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفّار فكيف بين المسلمين.

وأمّا التوهُّماتُ والتقديراتُ التي تُحْوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة؛ إذ مَن طلب الجاه لم يخل عن أذى في بعض الأحوال؛ فعِلاج ذلك بالاحتمالِ والصبرُ أولى من علاجه بطلب الجاه. فإذًا طلبُ المحلّ في

القلوب لا رخصة فيه أصلًا، واليسير منه داعٍ إلى الكثير، وضراوتُه أشدّ من ضراوة[١] الخمر، فليُحترز من قليله وكثيره.

* * *

وأمّا المالُ، فهو ضروريّ في المعيشة أعني القليل منه. فإن كان كسوبًا، فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، هذا شرط الزهد؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهّاد وأقويائهم جميعًا. وإن كانت له ضيعة ولم تكن له قوّة يقين في التوكّل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنةٍ واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكلّ ما يفضُل عن كفاية سنة؛ ولكن يكون من ضعفاء الزهّاد.

قال: وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المُعيِل[٢]. وقد قال أبو سليمان[٣]: لا ينبغي أن يُرهق الرجل أهلَه إلى الزهد بل يدعوهم إليه؛ فإن أجابوا وإلّا تركهم وفعل بنفسه ما شاء. قال: والذي يُضطرّ الإنسان إليه من الجاه والمال ليس بمحدود؛ فالزائد منه على الحاجة سمٌّ قاتل، والاقتصار على قدْر الضرورة دواءٌ نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمًّا قاتلًا فهو مضرّ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواءً نافعًا لكنّه قليل الضرر. والسمّ محظور شُربُه، والدواء فَرْض تناوُله، وما بينهما مشتبهٌ أمرُه. فمن احتاط فإنما يحتاطُ لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينهِ وترك ما يَرِيبه إلى ما لا يريبه وردّ نفسه إلى مَضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة. والمقتصر على قدر الضرورة والمهمّ لا يجوز أن يُنْسَب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرطُ الدين، والشرط من جملة المشروط.

وقد رُوِيَ أن إبراهيمَ الخليل عليه السلام أصابته حاجةٌ إلى صديقٍ له يستقرضُه شيئًا فلم يُقرضْه فرجع مهمومًا. فأوحى الله تعالى إليه: لو سألتَ خليلك لأعطاك. فقال: يا ربِّ، عرفتُ مَقْتَك[٤] للدنيا فخِفت أن أسألك منها شيئًا. فأوحى الله إليه: ليس الحاجة من الدنيا. فعلى هذا يكون قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبالٌ في

(١) ضراوة الخمر: شدّتها وسورتها. (٢) المعيل: ذو العيال من زوجة وأولاد.
(٣) أبو سليمان: هو أبو سليمان الداراني، من رجال المتصوفة وأصحاب الرياضة والمجاهدة. انظر شيئًا من أقواله وحكمه في: شرح نهج البلاغة ١١/ ٧٤ ـ ٧٩.
(٤) مقتك: كرهك.

الآخرة؛ وهو أيضًا في الدنيا كذلك، يعرفه من يخبُرُ أحوال الأغنياء وما عليهم من المِحْنة في كسب المال وجَمْعِه وحفظه واحتمال الذُّلّ فيه؛ وغايةُ سعادته به أن يسلَم لورثته فيأكلوه، وربما يكونون أعداءً له، وقد يستعينون به على المعاصي فيكون هو مُعِينًا لهم عليها. ولذلك شُبِّه جامع الدنيا ومتّبع الشهوات بدود القَزّ إذ لا يزال يَنسُج على نفسه حيًّا ثم يروم[١] الخروج فلا يجد مَخْلَصًا فيموت ويهلِك بسبب عمله الذي عمِله بنفسه؛ فكذلك كلّ من اتبع الشهوات الدنيا. قال الشاعر: [من الطويل]

كَدُودٌ كدودِ القَزِّ ينسُج دائمًا ويَهْلِك غَمًّا وَسْطَ ما هو نَاسِجُهْ

قال: ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبدَ مُهْلِكٌ نفسَه بأعماله واتبّاعه هوى نفسِه إهلاكَ دود القَزّ نفسَه رفضوا الدنيا بالكلّيّة؛ حتى قال الحسن: رأيت سبعين بَدْريًّا[٢] كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم. وفي لفظ آخر: كانوا بالبلاء أشدّ فرَحًا منكم بالخِصْب والرخاء، لو رأيتموهم قلتم: مجانين، ولو رأوا خِياركم قالوا: ما لهؤلاء من خَلَاق[٣]، ولو رأوا شِراركم قالوا: ما يُؤمن هؤلاء بيوم الحساب. وكان أحدهم يعرض له المالُ الحلالُ فلا يأخذه ويقول: أخاف أن يُفسد عليَّ قلبي. فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده، والذين أمات حُبّ الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: الآية ٧]؛ وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: الآية ٢٨]؛ وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: الآيتان ٢٩، ٣٠]؛ فأحال ذلك كلّه على الغفلة وعدم الفكر.

وقال بعضهم: ما من يوم ذَرَّ شارقُه إلا وأربعة أملاكٍ يُنادون في الآفاق بأربعة أصوات: ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالمشرق: يا باغي[٤] الخير هلّم، ويا باغي الشرّ أَقْصِرْ[٥]. ويقول الآخر: اللّهمّ أَعْطِ مُنفقًا خَلَفًا، وأَعط مُمسكًا تلفًا. ويقول اللذان بالمغرب أحدهما: لِدُوا للموت وابنوا للخراب؛ ويقول الآخر: كُلُوا وتمتّعوا لطول الحساب.

---

(١) يروم: يطلب.
(٢) بدريًا: البدري، مَن شهد بدرًا، الموقعة المعروفة بين المسلمين والمشركين زمن النبيّ ﷺ.
(٣) خلاق: نصيب. (٤) باغي: طالب.
(٥) أقصر: توقف.

ذِكْرُ بيان علامات الزهد

قال الغزاليّ رحمه الله تعالى: اعلم أنه قد يُظَنّ أن تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد. فكم من الرَّهَابين[١] من ردّوا أنفسهم كل يوم إلى نَزْرٍ[٢] يسير من الطعام ولازموا ديرًا لا باب له، وإنما مسرّة أحدهم معرفةُ الناس حالَه ونظرُهم إليه ومدحُهم له؛ فذلك لا يَدلّ على الزهد دلالةً قاطعة؛ بل لا بدّ من الزهد في المال والجاه جميعًا حتى يكملُ الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا؛ بل قد يدّعي جماعةٌ الزهد مع لُبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخوّاص في وصف المدّعِين إذ قال: وقوم ادّعَوُا الزهد ولبِسوا الفاخر من الثياب يُمَوِّهون[٣] بذلك على الناس ليُهْدَى إليهم مثل لباسهم لئلّا يُنْظَرَ إليهم بالعين التي يُنْظَرَ بها إلى الفقراء فيُحقروا فيُعْطَوْا كما يُعْطَى المساكين ويحتجّون لأنفسهم باتّباع العلم وأنّهم على السنّة وأنّ الأشياء داخلةٌ إليهم وهم خارجون منها، وإنما يأخذون ما يأخذون بعِلّة غيرهم؛ هذا إذا طُولبوا بالحقائق وأُلْجِئوا إلى المضايق. وكلّ هؤلاء أَكَلة الدنيا بالدين لم يُعْنَوْا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادّعَوْها حالًا لهم، فهم مائلون إلى الدنيا مّتبعون للهوى. هذا كلام الخوّاص.

قال الغزاليّ رحمه الله: فإذًا معرفة الزهد أمرٌ مُشكل، [بل حال الزهد على الزاهد مشكل]؛ فينبغي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات:

العلامة الأولى: ألّا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٢٣]، بل ينبغي أن يكون بالضدّ من ذلك وهو أن يحزن لوجود المال ويفرَح لفقده.

العلامة الثانية: أن يستويَ عنده ذامُّه ومادحُه؛ فالأولى علامة الزهد في المال، والثانية علامة الزهد في الجاه.

العلامة الثالثة: أن يكون أُنسُه بالله عزّ وجلّ، والغالبُ على قلبه حلاوةُ الطاعة، إذ لا يخلو القلبُ من حلاوة المحبّة، إما محبّة الدنيا وإما محبّة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القَدَح؛ فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان؛ وكلّ من أَنِس

(١) الرهابين: جمع راهب، وهو العابد المنقطع إلى الله في صومعته أو ديره.
(٢) النزر: القليل.
(٣) يموّهون: يضلّلون ويتصنّعون.

بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره. وقد قال أهل المعرفة إذا تعلّق الإيمان بظاهر القلب أحبّ الدنيا والآخرة جميعًا وعمِل لهما، وإذا بَطَن الإيمان في سويداء[1] القلب وباشره أبغض الدنيا ولم ينظر إليها ولم يعمل لها. وقد ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللّهمّ إنّي أسألك إيمانًا يُباشر قلبي. وقال أبو سليمان[2]: من شُغِل بنفسه شُغِل عن الناس، وهذا مقام العاملين. ومن شُغِل بربّه شُغِل عن نفسه، وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بدّ أن يكون في أحد هذين المقامين.

وبالجملة فعلامةُ الزهد استواءُ الفقرِ والغنى والعزّ والذُّلّ والمدح والذمّ، وذلك لغلبة الأُنسِ بالله. ويتفرّع عن هذه العلامات علاماتٌ أُخَرُ مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي مَنْ أخذها. وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول: أبني رباطًا[3] أو أعمُرُ مسجدًا؛ وهذا من كلام الأستاذ أبي عليّ الدقّاق[4]. وقال ابن خفيف: علامته وجودُ الراحة في الخروج من الملك. وقال الجُنَيد: علامته خلوّ القلب عمّا خلت منه اليد. وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ[5] وسُفيان[6]: علامة الزهد قِصَر الأَمل. وقال رجل ليحيىٰ بنِ معاذ: متى أدخلُ حانوتَ التوكُّل وألبَسُ بُرد الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرتَ من رياضتك لنفسك في السرّ إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعُف في نفسك؛ فأمّا ما لم تبلُغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح. قالوا: ولا يتمّ الزهدُ إلا بالتوكّل؛ فلنذكر التوكّل.

ذِكْر ما ورد في التوكل من فضيلته وحقيقته

أمّا فضيلتُه فقد قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ١٢]. وقال

(١) سويداء القلب: حبّته.

(٢) هو أبو سليمان الداراني، المتصوّف، سبق التعريف به.

(٣) الرباط: المعهد المبنيّ الموقوف للفقراء.

(٤) أبو علي الدّقّاق: أحد المتصوّفة والعارفين، انظر خبره ونتفًا من أقواله ومواعظه في: شرح نهج البلاغة ١١/ ٧٢ و١١/ ٧٨ و١١/ ١٢٨ و١١/ ١٨٣ ـ ١٩٣.

(٥) أحمد بن حنبل: أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب السنيّة الأربعة، ومذهبه الحنبلي يتصف بالشدّة والتمسّك بالنزعة السلفية، ومخالفة الرأي. قاوم المعتزلة في معضلة «خلق القرآن»، لقي الهوان في عهد المأمون والمعتصم. سجن وعذّب وعفا عنه المتوكل. أشهر آثاره «المسند» في الحديث. مات سنة ٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٩٦ ـ ٩٧.

(٦) سفيان، هو سفيان الثوري، سبق التعريف به.

تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: الآية ٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩]؛ وناهيك بذلك مقامًا. وقال رسول الله ﷺ: «أُريتُ الأُمم في الموسم - فرأيت أمّتي قد ملئوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيئتهم فقيل لي أَرَضيت قلت: نعم قال: ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين يلا يكتوُون[١] ولا يتطيّرون[٢] ولا يَسْتَرْقُون[٣] وعلى ربّهم يتوكّلون». وقال ﷺ: «من انقطع إلى الله عزّ وجلّ كفاه الله تعالى مَؤُونة رزقِه من حيثُ لا يحتسبُ ومن انقطع إلى الدنيا وكله اللهُ إليها».

* * *

وأمّا حقيقةُ التوكل فقد قال الغزاليّ رحمه الله: التوكّل مشتقٌّ من الوِكالة يقال: وَكَل أمرَه إلى فلان أي فوّضه إليه واعتمد عليه فيه. ويسمّى الموكول إليه وكيلًا، ويسمّى المفوّض إليه مُتّكلًا عليه ومُتَوَكِّلًا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتّهمه فيه بتقصيره ولم يعتقد فيه عجزًا ولا قصورًا. ثم قال بعد أن ضرب لذلك أمثلة يطول شرحها: واعلم أن حالة التوكّل في القوّة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون حالُه في حقّ الله تعالى والثقة بكفالتِه وعنايته كحالِهِ في الثقة بالوكيل.

الثانية وهي أقوى: أن يكون حالُه مع الله تعالى كحال الطفل في حق أمّه فإنه لا يعرف غيرَها ولا يفزَع إلى سواها ولا يعتمد إلا إياها؛ فإن رآها تعلّق في كلّ حال بها، وإن نابه أمرٌ في غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه: يا أمّاه، وأوّل خاطر يخطر على قلبه أمه لوثوقه بكفالتها وكِفايتها وشفقتها.

الثالثة وهي أعلاها: أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثلَ الميّت بين يدي الغاسلِ يقلّبُه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير. قال: وهذا المقام في التوكل يُثمر تركَ الدعاء والسؤال منه ثقةً بكرمه وعنايته، وأنه يُعطِي ابتداء أفضلَ مما يُسأل. وقد تكلّم المشايخُ في التوكّلِ وبيانِ حدّه واختلفت عباراتُهم وتكلّم كلُّ واحدٍ عن مقامِ نفسِه وأخبر عن حدّه.

---

(١) يكتوون: يتطبّبون بالكيّ، كيّ اللحم بأسياخ الحديد المحمّاة بالنار.

(٢) يتطيّرون: يعتقدون بالطّيرة، وهي ضرب من العيافة والتشاؤم لدى رؤية شيء ما يتطيرون به ومنه.

(٣) يسترقون: يستعملون الرّقية لمنع إيذاء الجنّ أو الإنس.

قال أبو موسى الدِّيلي: قلت لأبي يزيد[١]: ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت؟ قلت: إن أصحابنا يقولون: لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرُّك. فقال أبو يزيد: نعم هذا قريب، ولكن لو أن أهلَ الجنة في الجنّة يتنعّمون، وأهل النار في النار يُعَذبون، ثم وقع بك تمييزٌ عليهما خرجت من جملة التوكّل. وسُئل أبو عبدِ الله القرشيُّ عن التوكّل فقال: التعلُّق بالله تعالى في كلّ حال. فقال السائل: زِدْني، فقال: ترك كلّ سبب يُوَصِّل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولّي لذلك. وهذا مثلُ توكّل إبراهيمَ الخليل عليه السلام إذ قال له جبريل: ألك حاجةٌ؟ فقال: أمّا إليك فلا؛ إذ كان سؤاله يُفضي إلى سبب فترك ذلك ثقةً بأن الله يتولّى ذلك.

قال أبو سعيد الخرّاز[٢]: التوكّل اضطرابٌ بلا سكون، وسكونٌ بلا اضطراب. أشار بالأوّل إلى فزعه إلى الله تعالى وابتهاله وتضرُّعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمّه؛ وبالثاني إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به. وقال أبو عليّ الدقّاق: التوكّل على ثلاثِ درجات: التوكّل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكّل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضَى بحكمه. وقال: التوكّل بداية، والتسليم وسائط، والتفويض نهاية. وقال: التوكّل صفة المؤمنين، والتسليم صفةُ الأولياء، والتفويض صفةُ الموحّدين.

وسئل ابنُ عطاءٍ[٣] عن حقيقةِ التوكّل فقال: ألّا يظهر فيك انزعاجٌ إلى الأسباب مع شدّة فاقتِكَ إليها، ولا تزولَ عن حقيقة السكون إلى الحقّ مع وقوفك عليها. وقال أبو نصر السرَّاج: شرطُ التوكّل ما قاله أبو تُراب النَّخْشَبِيّ وهو طرحُ البدن في العبودية وتعلّق القلب بالربوبيّة والطّمأنينة إلى الكفاية، فإن أُعْطِي شكر، وإن مُنِع صبَر. وكما

(١) هو أبو يزيد البسطامي، واسمه طيفور، من كبّار صوفية أهل خراسان. اعتقد بمذهب الفناء والوحدة في الله، ووحدة الوجود. مات سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٥ م.

(٢) أبو سعيد الخرّاز، واسمه أحمد بن عيسى، أحد المتصوّفة الذين تحدّثوا عن الوجد والحب الإلٰهي، وكان ممن صحب ذا النون المصري. تُوفي سنة ٢٩٧ هـ. انظر لمعًا من أخباره وأقواله في: شرح نهج البلاغة ١١/ ٧٥ ـ ٨٠. وانظر شعره في: اللمع في التصوّف، لابن الجراح الطوسي ص ٢٥٦، تحقيق: رينولد نكلسون. ط بريل لندن ١٩١٤. وانظر أيضًا: روض الرياحين في حكايات الصالحين، لليافعي. ط ٢. مطبعة البابي الحلبي. القاهرة ١٩٥٥.

(٣) ابن عطاء، هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء، صاحب الجنيد، وفاته سنة ٣٠٩ هـ. وهو الذي حدد المعرفة الصوفية. انظر خبره وشعره وأقواله في: طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمٰن السلمي. ص ٢٦٥. ط ليدن بريل ١٩٦٠.

قال ذو النُّون[١]: التوكّل تركُ تدبير النفس والانخلاعُ من الحول والقوّة. وقال أبو بكر الدقّاق: التوكّل ردُّ العيش إلى يومٍ واحد وإسقاطُ همّ غد.

وسئل ذو النون: ما التوكّل؟ فقال: خلعُ الأرباب، وقطعُ الأسباب. فقال السائل: زدني؛ فقال: إلقاءُ النفس في العُبودية وإخراجُها من الرُّبوبيّة. وقال مَسْروق: التوكّل الاستسلام لجَرَيان القضاء والأحكام. وقال أبو عثمان: التوكّل الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه. وقيلَ: التوكل الثقةُ بما في يد الله واليأسُ مما في يد الناس. وقيل: التوكّل فراغُ السرّ عن التفكُّر في التقاضي في طلب الرزق.

ذِكْر بيان أعمال المتوكلين

قال الغزاليّ رحمه الله: قد يُظَنّ أن معنى التوكُّل تركُ الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوطُ على الأرض كالخِرْقة المُلقاة وكاللحم على الوَضَم[٢]؛ وهذا ظنّ الجهّالِ، فإنّ ذلك حرامٌ في الشرع؛ والشرع قد أثنى على المتوكّلين فكيف يُنال مقامٌ من مقامات الدِّين بمحظورات الدِّين! بل إنما يظهر تأثير التوكّل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده. وسعيُ العبد باختياره إمّا أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادّخار، أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل[٣] والسارق والسباع، أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتداوي من المرض. فمقصود حركات العبد لا يعدو هذه الحالات الأربع التي هي جلبُ النافع أو حفظه أو دفعُ الضارّ أو قطعه. ثم ذكر شرط التوكّل ودرجاته في كل واحد منها، وقرن ذلك بشواهد الشرع، فقال ما مختصره ومعناه:

* * *

أمّا جلب النافع، فالأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات: مقطوع به، ومظنون ظنًّا يوثق به، وموهوم وهمًا لا تثق النفس به ثقةً تامّة ولا تطمئنّ إليه.

فالدرجة الأولى: المقطوع به كالطعام إذا وُضع بين يدي الرجل وهو جائع محتاج إلى تناوله فامتنع من مدّ يده إليه وقال: أنا متوكّل، وشرط التوكل ترك السعي،

(١) ذو النون، أبو الفيض، ثوبان المصري، من كبار رجال المتصوّفة المصريين. أدخل حال الوجد والحب المطلق في التصوّف. اتهم بالزندقة، وسجن ثم أطلق المتوكل سراحه. تُوفي في مصر سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م.

(٢) الوضم: الخشبة التي يقطع اللحام عليها اللحم.

(٣) الصائل: الذي يصول على الناس ويعتدي عليهم.

ومدُّ اليد إلى سعيٍ وحركة، وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسفله؛ فهذا جنون وليس من التوكّل في شيء، فإنه إن انتظر أنّ الله تعالى يخلق فيه شِبَعًا دون الخبز أو يسخّر مَلَكًا يمضغه ويُوصله إلى معدته فهذا رجلٌ جهل سنّة الله تعالى؛ وكذلك لو لم يزرع الأرض وطمِع أنّ الله تعالى يخلق نباتًا من غير بَذْر أو تلد زوجه من غير مباضعةٍ[1] كمَرْيم[2]، فكلّ ذلك جنون؛ بل يجب عليه أن يعلم أن الله تعالى خالق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة، وأنّه الذي يُطعمه ويَسقيه، وأن يكون قلبه واعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام، فليمدَّ يدَه ويأكل فإنه متوكل.

والدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متعيِّنة، ولكن الغالب أن المسبَّبات لا تحصل دونها واحتمالُ حصولها دونها بعيدٌ كالذي يفارق الأمصار[3] والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرُقها الناس إلا نادرًا ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطًا في التوكّل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنّة الأوّلين مع الاعتماد على فضل الله عزّ وجلّ لا على الزاد؛ ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل وهو فعل الخواصّ. قال الغزاليّ: فإن قلت: فهذا سعيٌ في الهلاك وإلقاء النفس إلى التَّهْلُكة، فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حرامًا بشرطين: أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسَه وجاهدها حتى صبَرت عن الطعام أسبوعًا أو ما يقاربه بحيث إنه لا يناله ضيق قلب ولا تشويش خاطر. والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوّت بالحشيش وما يَتّفق من الأشياء الخسيسة، فإنه لا يخلو غالبَ الأمر في البوادي في كلّ أسبوع أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى مَحَلّة أو قرية أو إلى حشيش يتقوّت به؛ وعلى هذا كان يُعَوّل الخَوّاص ونظراؤه من المتوكّلين. وقد كان الخوّاص مع توكُّله لا تفارقه الإبرة والمِقْراض[4] والحبل والركوة[5]، ويقول: هذا لا يقدح في التوكّل.

وأمّا لو انحاز إلى شِعب من شِعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرُقه طارق فيه وجلس متوكلًا فهو آثم به ساع في إهلاك نفسه.

---

(١) المباضعة: المجامعة والزواج.
(٢) مريم، هي البتول مريم العذراء التي ولدت المسيح بقدرة الله، بلا واسطة ما.
(٣) الأمصار: البلدان، جمع مصر.
(٤) المقراض: المقصّ.
(٥) الركوة: إناء للشرب.

وأمّا القاعد في البلد بغير كسب فليس ذلك حرامًا، لأنه لا يبعد أن يأتيه الرزقُ من حيث لا يحتسبُ ولكن قد يتأخّر عنه. فإن أغلق بابَ البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعلُه ذلك حرام. فإن فتح باب البيت وهو بطّال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له أولى، ولكن ليس فعله حرامًا إلّا أن يُشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب. وإن كان مشغول القلب بالله غير متطلّع إلى الناس ولا إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزق، بل تطلُّعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكّل، فإن الرزق يأتيه لا محالة. فلو هرب العبد من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: اختلف الناسُ في كلّ شيء إلا في الرزق والأجل فإنّهم أجمعوا أن لا رازق ولا مُميت إلا الله تعالى. وقال رسول الله ﷺ: «لو توكّلتم على الله تعالى حقَّ تَوَكُّله لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خماصًا[1] وتروح بِطانًا[2] ولزالت بدعائكم الجبال». وقال عيسى عليه السلام: انظُروا إلى الطير لا تزرَع ولا تحصُد ولا تدّخر والله تعالى يرزقها يومًا بيوم، فإن قلتم نحن أكبر بطونًا، فانظروا إلى الأنعام كيف قيّض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي: المتوكِّلون تجري أرزاقُهم على أيدي العباد بلا تعبٍ منهم وغيرُهم مشغولون مكدودون[3]. وقال بعضهم: العبيد كلّهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذلٍّ كالسؤّال، وبعضهم يأكل بتعب كالتجّار، وبعضهم بامتهانٍ كالصنّاع، وبعضهم بعزٍّ كالصوفيّة، يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة.

والدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يُتوهم إفضاؤها إلى المسبّبات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، وذلك يُخرج بالكلّيّة عن درجات التوكّل كلّها، وهو الذي الناسُ كلّهم فيه من التكسُّب بالحيل الدقيقة اكتسابًا مباحًا لمالٍ مباح. هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى في جلب النافع، وذكر لذلك أمثلة ونظائر تركناها اختصارًا.

* * *

وأمّا حفظ النافع فهو التعرضُ لأسباب الادّخار، فمن حصل له مال بإرثٍ أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الادّخار ثلاث أحوال:

---

(١) خماصًا: ضامرة البطون من شدة الجوع. (٢) بطانًا: بطونها ممتلئة من الطعام.

(٣) مكدودون: متعبون مجهدون.

الأولى: أن يأخذ قدرَ حاجته في الوقت فيأكلَ إنْ كان جائعًا، ويلبس إن كان عاريًا، ويشتري مسكنًا مختصرًا إن كان محتاجًا، ويُفرّق الباقي في الحال ولا يدّخر منه إلا ما أرصده لمحتاج؛ فهذا هو المُوفي بموجب التوكّل تحقيقًا، وهي الدرجة العليا.

الحالة الثانية المقابِلةُ لهذه المُخرجة له عن حدود التوكّل: أن يّدخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكّلين أصلًا.

الحالة الثالثة: أن يدّخر لأربعينَ يومًا فما دونها، فهذا يُوجب حرمانَه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكّلين. وقال الخَوّاص: لا يخرج بأربعين يومًا ويخرج بما زاد عليها.

* * *

وأمّا دفع الضارّ عن النفس والمال فقد قال الغزاليّ رحمه الله: ليس من شرط التوكل تركُ الأسباب الدافعة للضرر. أمّا في النفس فكالنوم في الأرض المَسْبعة[1] أو في مجاري السيل من الوادي أو تحتَ الجدار المائل أو السقف المتكسّر، فإنّ ذلك مَنهيٌّ عنه وصاحبُه قد عرّض نفسَه إلى الهلاك بغير فائدة. وأمّا في المال فلا يَنقص التوكّلَ إغلاق باب البيت عند الخروج منه ولا أن يُعقّل البعيرُ. فهذه أسباب عُرفت بسنّة الله تعالى، فقد رُوِيَ عن أَنَسِ[2] بنِ مالكٍ رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل على ناقة فقال: يا رسول الله، أَدَعُها وأتوكل؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعقِلْها[3] وتوكّل».

* * *

وأمّا إزالة الضرر فقد قال الغزاليّ رحمه الله تعالى: إن الأسباب المزيلةَ للضرر تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع؛ وإلى مظنون كالفَصْد[4] والحجامة[5] وشرب الدواء وسائر أبواب الطبِّ؛ وإلى موهوم كالكيّ والرُّقْية.

---

(١) الأرض المسبعة: الكثيرة السباع والوحوش.
(٢) أنس بن مالك، صحابي مشهور، خدم النبيّ ﷺ وهو صغير حتى عرف بخادم الرسول. مات سنة ٩٣ هـ/ ٧١١ م.
(٣) اعقلها: اربطها، واجعل لها عقالًا، أي رباطًا. (٤) الفصد: شقّ العرق لاستخراج الدم منه.
(٥) الحجامة: التداوي بالمحجمة، وهي كأس توضع على جلد المريض فتجذب الدم وتشنّج العضو المشكوّ منه.

أمّا المقطوع به فليس من التوكّل تركه بل تركه حرامٌ عند خوف الموت.

وأمّا الموهوم، فشرط التوكل تركه، إذ بتركه وَصف رسولُ الله ﷺ المتوكّلين، قال رسول الله ﷺ: «لم يتوكّل من استَرْقَى واكتوى». وقال سعيد بن جُبَير[١]: لدغتني عقربٌ فأقسمت عليّ أُمّي لَتَسْتَرْقِيَنّ، فناولتُ الراقي يدي التي لم تُلدغ.

وأمّا الدرجة الوسطى وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطبّاء ففعلُ ذلك لا يُناقض التوكّل بخلاف الموهوم، وتركُه ليس بمحظور[٢] بخلاف المقطوع به. وقد تداوى رسولُ الله ﷺ وأمر بالتداوي وقال: «ما من داءٍ إلا وله دواءٌ عرَفه من عرفه وجهِله من جهله إلّا السامَ» يعني الموت؛ وتضافرت الأحاديث بالأمر بالدواء.

ومنهم من رأى أن ترك التداوي قد يُحمد في بعض الأحيان إذا اقترن به أحد أسباب ستة:

الأوّل: أن يكون المريض من المكاشَفين وقد كُوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه، وتحقّق ذلك إما برُؤيا صادقةٍ أو بحَدْس وظنّ أو بكشف محقّق كحال أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه لمّا قيل له في مرض موته: لو دعَوْنا لك طبيبًا! فقال: الطبيب نظر إليّ وقال إنّي فعّال لما أُريد. وكان رضي الله عنه من المكاشَفين؛ والدليل على ذلك أنّه قال لعائشةَ رضي الله عنها في أمر الميراث: إنما هنّ أُختاك؛ وما كان لها إلا أُختٌ واحدة وكانت امرأته حاملًا فولدت أنثى؛ فلا يبعد أن يكون كوشف بانتهاء أجله؛ ومحال أن يُنكر التداوي وقد رأى رسولَ الله ﷺ فَعَله.

الثاني: أن يكون المريض مشغولًا بحاله وبخوف عاقبته واطّلاع الله تعالى عليه، فيُنسيه ذلك ألَم المرضِ فلا يتفرّغُ قلبُه للتداوي شُغلًا بحاله، كحال أبي ذَرٍّ لمّا رَمِدتْ[٣] عيناه، فقيل له: لو داويتَهما! فقال: إنّي عنهما مشغول. فقيل له: لو سألت الله أن يعافيَك! فقال: أسأل فيما هو أهمُّ عليّ منهما. وكحال أبي الدرداءِ فإنه قيل له في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: مغفرةَ ربي. قالوا: ألَا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيب أمرضني. ويكون حال هذا كالمصاب بموت عزيز من أحبابه أو كالخائف من ملِك فيشغَله ذلك عن ألم الجوع.

---

(١) سعيد بن جبير، صحابي جليل، سبق التعريف به.

(٢) محظور: ممنوع.

(٣) رمدت عينه: أصابها الرمد، وهو داء يحدث غالبًا في الربيع.

الثالث: أن تكون العلّة مزمنةً والدواء الذي يُؤمر به بالإضافة إلى علّته موهوم كالكيّ والرَقية، فتَركه للتوكّل كالربيع بن خيثَمْ فإنه أصابه فالج، فقيل له: لو تداويت! فقال: لقد هَمَمت ثم ذكرت عادًا[١] وثمود[٢] وقرونًا بين ذلك كثيرًا وكان فيهم الأطِبّاء فهلَك المُداوِي والمداوَى ولم تُغنِ الرُّقَى شيئًا. أي إن الدواء غير موثوق به.

الرابع: أن يقصد العبد تركُ التداوي استيفاءً للمرض لينال ثوابَ المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى وليجرِّب نفسه في القدرة على الصبر.

الخامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوبٌ وهو خائفٌ منها عاجزٌ عن تكفيرها فيرى المرضَ إذا طال تكفيرًا، وتَرَك التداوي خوفًا من أن يُسرع زوالُ المرض ورغب في مضاعفة الأجر. فقد ورد عن النبيّ ﷺ أنه قال: «حُمَّى يومٍ كفّارة[٣] سنة».

السادس: أن يستشعر العبدُ في نفسه مبادىء البَطَر[٤] والطُّغيان بطول مدّة الصحّة، فيترك التداويَ خوفًا من أن يُعاجلَه زوالُ المرض فتعاودَه الغفلةُ والبطرُ والطغيانُ أو طولُ الأمل والتسويفُ في تدارك الفائت وتأخيرِ الخيرات؛ فإن الصحة تُحرّك الهوى وتبعث على الشهوات وتدعو إلى المعاصي، وأقلّها أنْ تدعو إلى التنعّم في المباحات وهو تضييع الأوقات وإهمال الربح العظيم في مخالفة النفس وملازمةِ الطاعات. وإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا لم يُخلِهِ عن التنبيه بالأمراض والمصائب؛ ولذلك قيل: لا يخلو المؤمنون من عِلّة أو قِلّة[٥] أو ذِلّة. قال: فلما أن كثُرت فوائد المرض رأى جماعة تركَ الحيلة في زوالها، إذ رأَوْا لأنفسهم مَزِيدًا فيها لا من حيث رأوا التداوي نُقصانًا، وكيف يكون ذلك نقصانًا وقد فعله رسول الله ﷺ!.

فهذه نُبذة كافية في مقامي الزهد والتوكل. فلنذكر الأدعية.

الباب الرابع
من القسم الرابع من الفن الثاني في الأدعية

وهذا الباب ـ يقبل الله منا ومنك وفينا وفيك صالح الدعوات، وجعلنا وإيّاك ممن اعتمد على كرمه ومنّته في الحركات والسكنات؛ ووفّقنا للتضرع والسكون إلى

(١) عاد: قوم من قدامى العرب كفرت بالنبيّ الذي أرسله الله إليهم وهو لوط.
(٢) ثمود: قوم أرسل الله إليهم نبيّه صالحًا فكذّبوه.
(٣) الكفارة: مقدار معيّن يدفعه المسيء تكفيرًا عن سيّئة. أو هو القيام بصلاة ما أو بصوم ما معلوم.
(٤) البطر: كفران النعمة. (٥) القلّة: الفقر والضائقة المادية.

فضله، وعاملنا بما هو من أهله لا ما نحن من أهله ـ هو مَشْرَع[١] الظمآن إلى موارد الكرم العذبة، ومَفْزَعُ الحيران إذا ألمّتْ به الضائقة وحصرته الكُربة؛ فيه يُتَوَسّل إلى الله تعالى في مطالب الدنيا والآخرة، ويُتَوَصّل إلى النعم الوافية والخيرات الوافرة؛ كيف لا وقد أمرنا الرب العظيم بالدعاء والإنابة، ووعدنا وهو الوفيّ الكريم بالقبول والإجابة؛ وترادفت بفضله الأخبار الصحيحةُ، وجاءت بشرفه الآثارُ الصريحة؛ على ما ستقف على ذلك إن شاء الله تعالى واضحًا، وتعوّل عليه مقيمًا وظاعنًا[٢] وغاديًا ورائحًا. فلازِمه في سائر أحوالك، وتَعَاهَدْه[٣] في بُكَرك[٤] وآصالك[٥]؛ فستجني إن شاء الله منه ثمار غَرْسك، وتجد حلاوة ذلك في قلبك وأنسه في نفسك.

واعلم أن للدعاء، كما قال ابنُ عطاءٍ، أركانًا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا. قال: فإن وافق أركانَه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السمٰوات، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنْجح. فأركانه حضور القلب والرقة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب. وأجنحته الصدق. ومواقيته الأسحار. وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦]. رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة أكنت ترى لبعض دعائك الإجابة ولا ترى لبعضه فيقول نعم فيقول له أمَا إنك ما دعوتني بدعوة إلا وقد استجبتُ لك فيها أليس دعوتني يوم كذا وكذا فرأيت الإجابة فيقول نعم ويقول ودعوتني يوم كذا وكذا فلم تر الإجابة فيقول نعم فيقول فإني ادّخرتها لك في الجنة فلا يُبقي له دعوة إلا بيّنها له حتى يتمنّى المؤمن أن دعواته كلها كانت ذخائره في الآخرة». وعن النعمان بن بَشِير[٦] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» قال: وقرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: الآية ٦٠]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء». وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الدعاء ينفع مما

(١) المشرع: موضع شروع الماء والأخذ منه. (٢) ظاعنًا: مرتحلًا.
(٣) تعاهده: صنْه ولازمه وحافظ عليه. (٤) البكر: الغدوات صباحًا.
(٥) الآصال: جمع أصيل، وهو الوقت قبل غروب الشمس.
(٦) النعمان بن بشير: من الشعراء الصحابة والولاة. وُلي الكوفة لمعاوية، وحمص ليزيد. انضمّ إلى ثورة ابن الزبير فمات قتلًا سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م.

نزل ومما لم ينزل فعليكم عبادَ الله بالدّعاء». وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ حيٌّ كريم يستحي إذا بَسَطَ الرجلُ إليه يديه أن يردَّهما صِفرًا[١] ليس فيهما شيء». وعن أبي سعيد الخُدْرِيّ[٢] رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «دعوةُ المسلم لا تُرَدُّ إلا بإحدى ثلاث ما لم يدعُ بإثم أو قطيعةِ رَحِم إمّا أن يستجيبَ الله له فيما دعا أو يدّخر له في الآخرة أو يَصرِف عنه من السوء بقدر ما دعا». وعن أنس رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: إنا ندعو بدعاء كثيرٍ منه ما نرى إجابتَه ومنه ما لا نرى إجابته فقال: «والذي نفسي بيده ما من أحدٍ يدعو بدعوة إلا استُجِيب له أو صُرِف عنه مثلُها شرًّا». قالوا: يا رسول الله، إذًا نُكثر؟ قال: «الله أكثر وأكثر» ثلاث مرات. وعنه رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «دعوة في السر تَعدِل سبعين دعوةً في العَلَانِيَة». وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عزّ وجلّ في الليل والنهار عُتَقاءَ[٣] من النار ولكلّ مسلم ومسلمةٍ في كلّ يومٍ وليلة دعوة مستجابة». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول من ذا الذي دعاني فلم أُجِبْه وسألني فلم أُعْطِه واستغفرني فلم أَغْفِر له وأنا أرحم الراحمين». وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا فَتَح الله على عبدٍ بابَ الدعاء فليُكثر فإنّ الله يَستجيب له». وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من فُتِح له بابٌ في الدعاء فُتِحت له أبواب الإجابة». وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من لم يسألِ الله يغضَبْ عليه». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦] الآية فقال ﷺ: «اللّهم إنّكَ أمرتَ بالدعاء وتوكّلت بالإجابة لبّيك اللهم لبّيك لبّيك لا شريك لك لبيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك أشهد أنّك فردٌ أحد صَمَدٌ لم يَلِد ولم يُولد ولم يكن له كُفُوًا أحد وأشهد أنّ وعدك حق ولقاءك حقّ والجنة حق والنار حق وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنّك تبعث من في القبور». هذا مما ورد في الحثّ على الدعاء.

* * *

وأمّا ما ورد في نفع الدعاء ودفعه للبلاء؛ رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أنواعَ البرّ[٤] كلّها نصفُ العبادة والنصف الآخر الدعاء». وعن عائشة رضي الله عنها

---

(١) صفرًا: خاليتين خائبتين. (٢) أبو سعيد الخدري، من المحدثين الثقات.
(٣) عتقاء: جمع عتيق، وهو الناجي والمحرّر. (٤) البرّ: التقوى والخير والمعروف.

أنها قالت: قال رسول الله ﷺ «لا ينفع حَذَرٌ من قَدَر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن الدعاءَ لَيَلْقَى البلاءَ فيعتلجان إلى يوم القيامة». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن الدعاء لَيَردّ القضاء المُبْرَم[1] وإن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فلا يزال أحدُهما يدفع صاحبَه إلى يوم القيامة». وعن سَلْمان الفارسيّ[2] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يردّ القضاءَ إلا الدعاءُ ولا يزيد في العمر إلا البِرّ». وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء سِلاحُ المؤمن وعِمادُ الدِّين ونورُ السمٰوات والأرض».

* * *

وأمّا ما ورد في الإلحاح في الدعاء وهيئة الذِّلّة والإنابة؛ قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ٥٥]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يحبّ المُلِحِّين في الدعاء». وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم مُوقِنون بالإجابة واعلموا أن الله عزّ وجلّ لا يستجيبُ دعاءً من قلب ساهٍ لاهٍ»[3]. وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه في الدعاء حتى يُرَى بياضُ إبطيْه[4]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا جعل باطن كفّيه إلى وجهه. وعنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «سلوا الله ببطون أكفّكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم» وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم عزّ وجلّ حيٌّ كريم يستحي أن يرفع العبد يديه فيردّهما صِفرًا لا خير فيهما فإذا رفع أحدكم يده فليقل يا حيّ لا إلٰه إلا أنت يا أرحم الراحمين ثلاث مرات ثم إذا ردّ يده فليُفرغ ذلك الخير على وجهه». وعن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا مدّ يديه في الدعاء لم يردّهما حتى يمسح بهما وجهه. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الإخلاص هكذا ورفع إصبعًا واحدًا من اليد اليمنى والدعاء هكذا وجعل بطونهما مما يلي السماء والابتهال هكذا ومدّ يديه شيئًا وجعل ظهر الكفّ مما يلي السماء».

---

(١) المبرم: الذي لا مردّ له، ولا مناص منه.
(٢) سلمان الفارسي: صحابي جليل، من أصل فارسي. شارك المسلمين وقعة الخندق، ودلّهم على طريقة حفر الخندق. ولّاه عمر المدائن بالعراق. مات سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٥ م.
(٣) ساهٍ: غافل.
(٤) إبطيه: مثنى إبط، وهو باطن الكتف.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجد فأكثِروا الدعاء».

* * *

وأمّا ما ورد من كراهية استعجال الإجابة ورفع البصر والسجع في الدعاء قال تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: الآية ٤١]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يستجابُ لأحدكم ما لم يعجَل فيقول قد دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لي». وعنه ﷺ: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل». قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول قد دعوت الله مرارًا فلا أراه يستجيب لي». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام عن رفع أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء أو لَتُخْطَفَنّ أبصارُهم». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: إيّاك والسجْعَ في الدعاء فإنّي شهِدت النبيّ ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك.

* * *

وأمّا ما ورد فيمن تجاب دعواتُهم. قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: الآية ٦٢]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٦٧]. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «خمسُ دَعَواتٍ لا تُرَدّ دعوةُ الحاجّ حتّى يصدُر ودعوة الغازي حتى يرجع ودعوة المظلوم حتى يَنتصِر ودعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الأخ لأخيه بالغيب وأسرعُ هؤلاء الدعوات إجابةً دعوةُ الأخ لأخيه بالغيب». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: ثلاثُ دعوات مستجابات لا شكّ فيهنّ دعوةُ الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم». وفي حديث آخر: «دعوة الصائم بدل دعوة الوالد». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺﷺ لمُعاذ[1] حين بعثه إلى اليمن: «إنّك تأتي قومًا أهلَ كتابِ فاتّق دعوة المظلوم». وعنه ﷺ: «الإمام العادل لا تُرَدُّ دعوته». وقال ﷺ: «ثلاثة لا تردّ دعوتهم إمامٌ مُقْسِط[2] ودعوة الصائم ودعوة المظلوم تُفتح لها أبواب السَماء ويقول الله عزّ وجلّ لأنصرنّك ولو بعد حين». وعنه ﷺ: «دعاء الوالد لولده مثل دعاء النبيّ لأمته». وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أسرعُ الدعاء

---

(١) هو معاذ بن جبل الذي اشترك في غزو الشام، ومات بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ/ ٦٣٩ م.

(٢) مقسط: عادل.

إجابةً دعوةُ غائب لغائب». وعن أبي الدرداء[١]، رضي الله عنه، عنه ﷺ أنه قال: «دعوةُ الرجل لأخيه بظهر الغيب تعدِل سبعين دعوةً مستجابةً ويُوَكّل الله عزّ وجلّ ملَكًا يقول آمين ولك مثل ما دعوت». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن مؤمنٍ يدعو لأخيه المؤمن بظهرِ الغيبِ إلّا قال له ملَكٌ عن يمينه وملَكٌ عن شِماله ولكَ مثلُه». وعن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حامل القرآن له دعوةٌ مستجابة». وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا دخلت على المريض فسَلْه يدعو لك فإن دعاءه كدعاء الملائكة». وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من أُلهم الدعاء لم يُحْرَم الإجابةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠] ومن أُلهم التوبةَ لم يحرم القَبولَ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: الآية ٢٥] ومن أُلهم الشكر لم يحرَم الزيادةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧] ومن أُلهم الاستغفارَ لم يحرم المغفرةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: الآية ١٠] ومن أُلهم النفقةَ لم يحرم الخَلَفَ[٢] لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سَبَا: الآية ٣٩].

ذِكْر الأوقات التي يُرجى فيها إجابةُ الدعاء

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: الآية ٦]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَنزِل الله حين يبقى ثُلثُ اللّيل إلى السماء الدُّنيا فيقول من يسألني فأُعطيَه ومن يدعوني فأَستجيبَ له ومن يستغفرني فأغفرَ له». وعنه ﷺ: «تُفتح أبوابُ السماء ويُستجاب دعاءُ المسلم عند إقامة الصلاة وعند نزول الغيث[٣] وعند زَحْف الصفوف[٤] في سبيل الله وعند رُؤية الكعبة». وعنه ﷺ أنه قال: «إذا فاءت الأفياء وهبّت الرياح فارفعوا إلى الله حوائجكم فإنّها ساعة الأوّابين[٥] إنه كان للأوّابين غفورًا». وعن أبي أُمامةَ قال قلت: يا رسول الله، أيّ الدعاء أسمع؟ قال: «جوفَ الليل وأدبارَ المكتوبات»[٦]. وعن ابن عمر قال: أفضلُ الساعات مواقيت

(١) أبو الدرداء: من رجال الحديث، سبق التعريف به.
(٢) الخلف: العوض.
(٣) الغيث: المطر.
(٤) الصفوف: الجيوش المصطفة.
(٥) الأوّابون: التوابون، جمع أوّاب.
(٦) أدبار المكتوبات: أواخر الصلوات اليومية المفروضة خمس مرّات.

الصَّلاة فادعوا فيها. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «خيرُ يومٍ طلعت فيه الشمس يوم الجمعة إن فيه لساعةً لا يوافقها عبدٌ يصلّي يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إيّاه». وقد اختلف في ابتداء وقت هذه الساعة فقيل: أوّلُ ساعة من طلوع الشمس، وقيل: آخرُ ساعة من غروبها، وقيل: عند جلوس الإمام على المنبر، وقيل: من الزوال[1] إلى ابتداء الصلاة، وقيل: من بعد العصر إلى الغروب، وقيل: إنها تنتقل في ساعات اليوم كما تنتقل ليلة القَدْر في شهر رمضان. رُوِيَ عن أبي بُرْدة بن أبي موسى الأشعريّ قال: قال لي عبد الله بن عمر رضي الله عنهم: أسمعتَ أباك يحدّث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة؟ قال: نعم، سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة يقول: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاةُ». وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها عن أبيها ﷺ أنه قال: «إن في الجمعة لساعةً لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إياه». فقلت: يا أبت، أيّ ساعة هي؟ قال: «إذا تدلّى نصف الشمس للغروب». فكانت فاطمة رضي الله عنها إذا كان يوم الجمعة تأمر غلامًا لها يقال له زيد يرصُد لها الشمس، فإذا تدلّى نصف الشمس للغروب أعلمها، فتقوم فتدخل المسجد فتدعو حتى تغرب الشمس وتصلّي.

وحيث ذكرنا هذه المراتب فلنذكر الأدعية المنصوص عليها.

ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها

قد أورد الشيخ أبو العباس أحمدُ بنُ عليِّ بنِ يوسفَ القرشيّ البُونِي رحمه الله تعالى دعواتِ الساعاتِ في اللُّمعة النورانيّةِ فبدأ بيوم الأحدِ وذكر دعاءَ كل ساعةٍ منه، ثم ذكر يومَ الاثنين فقال: ساعة كذا يُدعَى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الأحد، ثم ذكر يوم الثلاثاء فقال: ساعة كذا يدعى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الاثنين وكذلك في بقيّة ساعات الأيام والليالي، يذكر كلّ ساعة ويُحيل في دعائها على ساعة من اليوم أو الليلة التي قبلها. فرأيت أن الراغب في الدعاء يحتاج في معرفته إلى كشف طويل وتحقيق إلى أن يصل إلى تلك الساعة من يوم الأحد، وربما تعذّر ذلك على كثير من الناس، فرتّبت الأدعية على ما ستقف إن شاء الله تعالى عليه ليسهُل على المتناول طريقها ويدنو من المحاول تحقيقُها؛ فقلت وبالله التوفيق:

(١) الزوال: الظهر، عندما تبدأ الشمس بمفارقة سمت الرأس في وسط السماء.

دعاء يُدْعَى به في الساعة الأولى من يوم الأحد، وفي الثامنة من ليلة الاثنين، وفي العاشرة من يوم الاثنين، وفي الخامسة من ليلة الثلاثاء، وفي السابعة من يوم الثلاثاء، وفي الثانية من ليلة الأربعاء وفي الرابعة من يوم الأربعاء، وفي الحاديةَ عشرَة من ليلةِ الخميس وفي الأولى من يوم الخميس، والحادية عشرة من ليلة الجمعة والعاشرة من يوم الجمعة، وفي الثامنة من ليلة السبت وفي السابعة من يوم السبت، وفي الخامسة من ليلة الأحد، وهو:

«ربّ اغمسني[1] في بحر من نور هيبتك[2] حتى أخرجَ منه وفي وجهي شعاعات هيبةٍ تخطَف أبصار الحاسدين من الجنّ والإنس فتُعمِيهم عن رمي سهام الحسد في قرطاس[3] نعمتي، واحجُبني عنهم بحجاب النور الذي باطنُه النورُ وظاهرهُ النار. أسألك باسمك النور وبوجهك النور يا نور النور أن تحجُبني في نور اسمك بنور اسمك حجابًا يمنعني من كلّ نقصٍ يُمازج منّي جوهرًا أو عَرَضًا إنّك نُور الكلّ ومنوّر الكل بنورك».

قال البُوني: تدعو بهذا الدعاء ثمانيًا وأربعين مرّة في هذه الساعة على وضوء بعد صلاة ركعتين فيما يتعلق بسؤال الهيبة وإقامة الكلمة وقهر العدوّ. ويناسب هذا الدعاء من القرآن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النُور: الآية ٣٥] الآية، قال: من قرأ هذه الأية هذا العددَ المتقدّمَ في بيت مظلم وعيناه مغلقتان شاهد أنوارًا عجيبة تملأ قلبه، وإن استدام ذلك تشكّلت له في عالَم الحسّ. وهو ذِكْرٌ يصلُح لأربابِ الهممِ وأهل الخلوات، وكاتبُه وحاملُه تظهر له زياداتٌ في قوى نفسه وقهر عدوّه وخَصْمه لم يكن يعهدها من قبل؛ ومن أمكنه أن يداوي به العلل الكائنة في الرأس خصوصًا من البرودة وجد تأثير ذلك لوقته.

دعاء يدعى به في الساعة الثانية من يوم الأحد والتاسعة من ليلة الاثنين وفي الحادية عشرة من يوم الاثنين، وفي السادسة من ليلة الثلاثاء وفي الثامنة من يوم الثلاثاء، وفي الثالثة من ليلة الأربعاء وفي الخامسة من يوم الأربعاء، وفي الثانية عشرة من ليلة الخميس وفي الثانية من يوم الخميس، وفي الحادية عشرة من يوم الجمعة، وفي التاسعة من ليلة السبت وفي الثامنة من يوم السبت، وفي السادسة من ليلة الأحد وهو:

---

(١) اغمسني: أنزلني، واجعلني أغوص فيه. (٢) هيبتك: وقارك.
(٣) قرطاس: ورق.

«ربّ فرّحني بما ترضى به عنّي فرحًا يُبهجني بجميل المَسَارّ[1]، حتى لا ينبسط شيء من وجودي إلا بما بسطه جودك العليّ. ربّ فرّحني بنيل المراد منك بفناء إرادتي منّي حتى لا يكون في كَوْنِي إرادةٌ إلا إرادتُك محفوظةً من عوارض التكوين، وأبهج بذلك في سرّ سماء الأفراح في الوجودَيْن برزق الباطن والظاهر، إنك باسطُ الرزق والرحمة يا ذا الجودِ الباسطِ يا ذا البسط والجود».

هذا الذكرُ من ذَكَره في ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرةً أذهب الله تعالى عن قلبه الحزنَ وعن صدره الحَرَجَ والضّيق، ونفى عنه كل همّ وغمّ، وبه يدعو المسجونون والمأسورون والمحزونون فيفرّج الله تعالى عنهم، وذلك بعد صلاة تسليمتين[2]؛ والآيات المناسبة لهذا القسم ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٠] الآية، ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ [يُونس: الآية ٥٨] الآية. قال البُوني: ويقدّم على ذكر هذه الآيات: اللّهُمّ اجعلني من الفَرِحين بما آتاهم الله من فضله، يقول ذلك بعد الذكر الأوّل مثل العدد المذكور، فيرى المهموم من فضل الله تعالى به عجبًا، ويزداد به ذو السرور سرورًا لا يعرف سببه. ويصلح هذا الذكرُ لأرباب الفيض من أهل الخَلَوات فإنّهم يَسْتَرْوِحون منه أُنسًا في خَلَواتهم ومخاطباتٍ بألفاظ مختلفةٍ بقدر الفيضِ والمقام والسببِ، يعرف ذلك من كانت له إحاطةٌ بكشف أسرار الدعوات والأسماء.

دعاء يُدْعَى به في الساعة الثالثة من يوم الأحد، والعاشرة من ليلة الاثنين وفي الثانية عشرة من يوم الاثنين، وفي السابعة من ليلة الثلاثاء وفي التاسعة من يوم الثلاثاء، وفي الرابعة من ليلة الأربعاء وفي السادسة من يوم الأربعاء، وفي الأولى من ليلة الخميس وفي الثالثة من يوم الخميس، وفي الأولى من ليلة الجمعة وفي الثانية عشرة من يوم الجمعة، وفي العاشرة من ليلة السبت وفي التاسعة من يوم السبت، وفي السابعة من ليلة الأحد. وهو:

«ربّ قَلّبني في أطوار معارف أسمائك تقليبًا تُشْهدني به في ذَرَّات وُجودِي ما أودعته ذرّات وجودِي المُلْكِ والمَلَكُوت حتّى أعاين سَرَيان سرّ قدركَ في معالم المعلومات، فلا يبقى معلوم إلا وبيدي سِرّ دقيقةٍ منه مجذوبةٍ بيد الكمال ونور الطوع؛

(١) المسارّ: جمع مسرّة، وهي السّرّاء، والفرح والابتهاج.

(٢) تسليمتين، مثنّى تسليمة، وهي توجيه التحية والسلام إلى النبيّ في دبر كل صلاة.

وأذهِبْ ظلمة الإكراه حتى أتصرّف في المُهَج[1] بمُبهجات المحبّة إنك أنت المحبّ المحبوب يا مقلّب القلوب».

قال: من دعا بهذا الاسم والذكر ستَّ عشرةَ مرةً بعد صلاةِ ثلاث تسليمات قلب الله قلبه عن كل خاطر فيه نقصٌ إلى كلّ خاطر فيه كمالٌ في حقه، ويصلح لأرباب الاستخارات، وفيه لسرعة قضاء الحاجات معنى بديع. والآيات المناسبة له ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الأنعام: الآية ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزُمَر: الآية ٥] إلى آخر الآية، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح: الآيتان ٥، ٦] الآية؛ وما يناسب ذلك من القرآن.

وهو ذكرٌ يصلح لأرباب القلوب من تكرار الخواطر والوساوس، وله في تقلُّب الأحوال أمور عجيبة عظيمةٌ لمن فهم ذلك؛ وكذلك من كتب الذكر كله وعلّقه عليه عصمه الله في تقلّباته من الآفات حتى في أمور دنياه وآخرته.

دعاء يُدعى به في الساعة الرابعة من يوم الأحد، وفي الحادية عشرة من ليلة الاثنين وفي الأولى من يوم الاثنين، وفي الثامنة من ليلة الثلاثاء وفي العاشرة من يوم الثلاثاء، وفي الخامسة من ليلة الأربعاء وفي السابعة من يوم الأربعاء، وفي الثانية من ليلة الخميس وفي الرابعة من يوم الخميس، وفي الثانية من ليلة الجمعة والأولى من يوم الجمعة، وفي الحادية عشرة من ليلة السبت وفي العاشرة من يوم السبت، وفي الثامنة من ليلة الأحد. وهو:

«ربّ قابلني بنور اسمك مقابلة تملأ وجودي ظاهرًا وباطنًا حتى تمحو منّي حظوظ الأشكال كلها فيبدو لي في وجودي ومن وجودي سرّ ما كتبه قلم تقديرك من كل مُستودَع في مُسْتَقَرّ ومستقرٌ في مستودع فلا يخفى عليّ ما غاب عنّي فَأَنْظِرْني بك وأَنْظِر مَنْ سواي بنور اسمك فأرى الكمال المطلق في المُلْك المطلق، يا مُودِع الأنوار قلوبَ عباده الأبرار يا سريعُ يا قريبُ».

قال: من دعا بهذا الدعاء في ساعة من هذه الساعات ستَ عشرةَ مرةً ثم قصد أيَّ حاجةٍ أراد، أسرع الله تعالى قضاءها ونمّى له ما يملِكه من مال أو جاه أو حال أو مقام. ومن خاصّة هذا الذكر وضع البركة في أيّ شيء وُضع عليه. ويصلح هذا الذكر لطالبي المكاشفات من أرباب الخَلَوات فإنهم إذا داوموا هذا الذكر أَلْقى إليهم الخاطر

(١) المهج: الأرواح، جمع مهجة.

الصحيح. قال: وإن أضيف له يا سريعُ يا قريبُ يا مُبين ظهر له ما يريد من كشف العواقب في الأفعال المرتبطة بعالَم الغيب والشهادة.

دعاء يُدعى به في الساعة الخامسة من يوم الأحد، وفي الثانية عشرة من ليلة الاثنين وفي الثانية من يوم الاثنين، وفي التاسعة من ليلة الثلاثاء وفي الحادية عشرة من يوم الثلاثاء، وفي السادسة من ليلة الأربعاء وفي الثامنة من يوم الأربعاء، وفي الثالثة من ليلة الخميس وفي الخامسة من يوم الخميس، وفي الثالثة من ليلة الجمعة وفي الثانية من يوم الجمعة، وفي الثانية عشرة من ليلة السبت وفي الحادية عشرة من يوم السبت، وفي التاسعة من ليلة الأحد. وهو:

«ربِّ أسألك مددًا رُوحانيًا تقوَى به قُواي الكلّية والجزئيّة حتى أقهر بمبادىء نفسي كلّ نفسٍ قاهرة فتنقبض لي رِقابُها انقباضًا تسقُطُ به قُواها، فلا يبقى في الكون دو رُوح إلّا ونارُ القهر أخمدت ظهورَه، يا شديدُ يا ذا البطش يا قهّارُ يا جبّارُ أسألك بما أودعته عزرائيل من قُوى أسمائك القهريّة فانفعلت له النفوسُ بالقهر أن تكسوني ذلك السرّ في هذه الساعة حتى أُلَيِّن به كلّ صعب، وأُذِلّ به كلّ منيع بقوّتك يا ذا القوّة المتين».

قال: مَن دعا بهذا الدعاء في ساعة من هذه الساعات تسعًا وثمانين مرة، ثم دعا على ظالم أُخِذ لوقته، وذلك بعد صلاة خمس تسليمات بالفاتحة لا غير. ويناسب هذا الدعاء من آي القرآن العظيم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هُود: الآية ١٠٢]. قال: في هذا الذكر قمعُ الجبابرة، وقطعُ دابرِ الظالمين، وخرابُ ديار الماردين[1]، وما شابه ذلك. وهو ذكر يليق بالسالكين في مبادىء الرياضات والمنتهين في مقامات التجلّي إلى الخلوة؛ وهو من الأسرار العجيبة، ولا يذكره من غلبته الشيخوخة إلّا وجد في قلبه خفقانًا بالخاصيّة، ولا يذكره محمومٌ إلا برىء من حُمَّاه لوقته، وإن كتبه وعلّقه عليه دامت صحّته.

دعاء يدعى به في الساعة السادسة من يوم الأحد، وفي الأولى من ليلة الاثنين وفي الثالثة من يوم الاثنين، وفي العاشرة من ليلة الثلاثاء وفي الثانية عشرة من يوم الثلاثاء، وفي السابعة من ليلة الأربعاء وفي التاسعة من يوم الأربعاء، وفي الرابعة من ليلة الخميس وفي السادسة من يوم الخميس، وفي الرابعة من ليلة الجمعة وفي الثالثة

(١) الماردون: العتاة والعصاة.

من يوم الجمعة، وفي الأولى من ليلة السبت وفي الثانية عشرة من يوم السبت، وفي العاشرة من ليلة الأحد. وهو:

«رب صَفِّني من كدرات الأغيار صفاء من صفَّته يدُ عنايتك من نقص التكوين حتى ينجلي في مرآة قلبي ومستوى نفسي كلُّ اسم انطبع في قُوّة جبرائيل فقوِي به على كشف ما في اللوح من أسرار أسمائك ومجامع رسائلك، فكلّ نفس منفوسة امتدّت لها من دقائقه دقيقةٌ طرفها منه والثاني لمن هو به، ومجامع هذه الدقائق في دقيقة الاسم الجبرائيلي العالم العليم العلّام، ياذا الكرم الذي علّم بالقلم، فموادّ الوحي والإلهام والتحديث والفهم تسري بنفحة منه في هذه الساعة إلى مثلها. إلٰهي مَنْطِقْنِي بالدقيقة العظمى منه حتى أتلقّى عنك بما به تلقّى عنك جبرائيل مما أملأُ به وجودي بل ميلٍ لغلبة حتى أتلذّذ بمصافاتك تلذُّذ جبريل برسائلك، إنك علّام الغيوب».

قال: مَن دعا به خمسًا وعشرين مرة في ساعة من هذه الساعات ألْهم رشده في عواقب أموره. والاسم اللائق بهذا الدعاء يا علّام الغيوب يا عالم الخفيّات وما شاكل هذا النمط من الأسماء، ومن القرآن العظيم ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: الآية ٥٩] الآية. قال: وهو من الكبريت الأحمر وبعضه من الدِّرياق[١] الأكبر. وهذا الذكر للذي فُتِح عليه بابٌ من المعارف فإنّه مهما استدامه أُلهم قلبُه إلى علوم جليلةٍ، ويُخاطب في نفسه بإلقاءات من وحي الإلهام، ويخاطبه الحيوانُ بمعنى يفهمه فيستفيد علومًا عظيمة، يعرف ذلك أرباب المنازلات لفهم الحديث.

دُعاء يدعى به في الساعة السابعة من يوم الأحد، وفي الثانية من ليلة الاثنين وفي الرابعة من يوم الاثنين، وفي الحادية عشرة من ليلة الثلاثاء وفي الأولى من يوم الثلاثاء، وفي الثامنة من ليلة الأربعاء وفي العاشرة من يوم الأربعاء، وفي الخامسة من ليلة الخميس وفي السابعة من يوم الخميس، وفي الخامسة من ليلة الجمعة وفي الرابعة من يوم الجمعة، وفي الثانية من ليلة السبت وفي الأولى من يوم السبت، وفي الحادية عشرة من ليلة الأحد. وهو:

«ربّ أوقفني موقف العزّ حتّى لا أجد فيّ ذرّةً ولا رقيقةً ولا دقيقة إلا وقد غشّاها[٢] من عزّ عزّتك ما منعها من الذُّلّ لغيرك، حتى لا أشهدَ ذلّ مَنْ سواي لعزّتي

(١) الدرياق: لغة في الترياق، وهو السّمّ الشافي، والدواء.

(٢) غشّاها: غطّاها.

بك مُؤيَّدًا برقيقة من الرعب يخضع لها كلّ شيطان مَرِيد[١]، وجَبارٍ عَنِيد؛ وأَبق على ذلّ العبوديّة في العزّة بقاءً يبسط لسانَ الاعتراف، ويقبِض لسانَ الدعوى، إنّك العزيز الجبّار المتكبّر القهّار».

قال: من دعا بهذا الدعاء في هذه الساعة أو في ساعة من هذه الساعات ستّ عشرة مرة بعد صلاةٍ وحضورِ قلبٍ نُصِر على أيّ عدوٍّ قصده ظاهرًا وباطنًا.

دعاء يدعى به في الساعة الثامنة من يوم الأحد، وفي الثالثة من ليلة الاثنين وفي الخامسة من يوم الاثنين، وفي الثانية عشرة من ليلة الثلاثاء، وفي الثانية من يوم الثلاثاء، وفي التاسعة من ليلة الأربعاء وفي الحادية عشرة من يوم الأربعاء، وفي السادسة من ليلة الخميس وفي الثامنة من يوم الخميس، وفي السادسة من ليلة الجمعة وفي الخامسة من يوم الجمعة، وفي الثالثة من ليلة السبت وفي الثانية من يوم السبت، وفي الثانية عشرة من ليلة الأحد. وهو:

«إلٰهي أطلع على وجودي شمس شهودي منك في الأكوان والألوان حتى أمشيَ بما أشهدتني في آفاق الملكوت فأكشفَ منه معنى كلمةِ التكوين فينفعلَ لي كلُّ مكَّونٍ انفعاله للكلمة بإذنك الذي سخّرت به ما في الوجودين بلا ظلمةِ وَضْع ولا ظلمة طبع، إنك منوِّر الكلّ بكلّك ومنوِّر الأنوار بنورك الذي صدورُه عن اسمك النورِ والظاهر والحي والقيُّوم، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» الآية.

قال البُوني: لا يذكر أحدٌ هذا الذكر في ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرة إلا كساه الله نورًا يجد ذلك في نفسه، ويُيسّر عليه المقسوم من الرزق، وتسري كلمته في الأسباب سَرَيانًا عجيبًا. وهو ذكر يصلح لأرباب المكاشفات يُثبت لهم ما يكاشفون.

دُعاء يدُعى به في الساعة التاسعة من يوم الأحد، وفي الرابعة من ليلة الاثنين وفي السادسة من يوم الاثنين، وفي الأولى من ليلة الثلاثاء وفي الثالثة من يوم الثلاثاء، وفي العاشرة من ليلة الأربعاء وفي الثانية عشرة من يوم الأربعاء، وفي السابعة من ليلة الخميس وفي التاسعة من يوم الخميس، وفي السابعة من ليلة الجمعة وفي السادسة من يوم الجمعة، وفي الرابعة من ليلة السبت وفي الثالثة من يوم السبت، وفي الأولى من ليلة الأحد. وهو:

(١) مريد: الشديد المرادة والعصيان والخبث والشرّ.

«سيِّدي أدخلْني في بواطن رياض اسمك من الباب الخاصّ الذي لا يُحْجَب بنورٍ ولا بظلمة ولا بشيء منه ولا بشيء خارجٍ عنه، وأطلق يد قُوَايَ في نيل النعمة، وألهمني تحقيق ذوق كلّ مَذُوق منه حتى أكونَ بك فيه وأكونَ فيه بك مبتهجًا منك وبك، ربّ إنك لطيفٌ عَطُوف رحيم رحمٰن».

قال: هذا الذكر بخاصيّة فيه يجلب الفرح ويُذهب الحزن ويُطيب الوقت ويجلو الكرب[١]؛ ومن دعا به أربعين مرة في ساعة من هذه الساعات على طهارة واستقبال فُرِّج به كربُه وانجلى غمُّه.

دعاء يُدعى به في الساعة العاشرة من يوم الأحد، وفي الخامسة من ليلة الاثنين وفي السابعة من يوم الاثنين، وفي الثانية من ليلة الثلاثاء وفي الرابعة من يوم الثلاثاء، وفي الحادية عشرة من ليلة الأربعاء وفي الأولى من يوم الأربعاء، وفي الثامنة من ليلة الخميس وفي العاشرة من يوم الخميس، وفي الثامنة من ليلة الجمعة وفي السابعة من يوم الجمعة، وفي الخامسة من ليلة السبت وفي الرابعة من يوم السبت، وفي الثانية من ليلة الأحد. وهو:

«يا مَن نسبةُ العلوم إلى علمه نسبةُ لا شيءٍ لشيء لا يتناهى، أظهرت الحروفَ بالقلم فكان له صريف[٢] في ألواح الملكوت[٣] قام لها مقام مخارج الحروف من الحلق والصدر واللَّها[٤] واللسان، كلّ جنس صدر عنه اسمٌ لا يعلم تركيبه سوى مَلَك قلمك؛ وكلّ نوع صدر عنه مركّبًا، فلوح إسرافيل[٥] أظهره بقوّة ما في آحاد كليّاته من جزئيّات تراكيبه، أسألك بهذا السرّ الخفيّ الذي وقف العقل دونه وتقدّم إليك السرّ بسرٍّ أودعته فيه يوم إمكان وجوده، أسألك كشف حجاب الغيب حتى أُعاينَ[٦] الغيب بما به حَيَّ الرُّوح الباقي، يا حيّ، ياهْ يا هو، يا أنت يا مهيمنُ يا خالقُ يا بارىء أنت هو».

قال البُوني: هذا الذكر من ذكره في ساعة من هذه الساعات مائةَ مرة يُسِّر له قضاءُ أيّ حاجة قصدها بغير مشقّة.

---

(١) الكرب: الحزن الشديد. (٢) الصريف: الصوت.
(٣) الملكوت: الملك العظيم، والعزّ والسلطان، ولا يكون إلّا لله تعالى.
(٤) اللها، جمع لهاة، وهي اللحمة في أقصى سقف الحلق.
(٥) إسرافيل: الملك المولج بالنفخ بالصور إيذانًا بالبعث والنشور.
(٦) أعاين: أرى بعيني.

دعاء يُدعى به في الساعة الحادية عشرة من يوم الأحد، وفي السادسة من ليلة الاثنين وفي الثامنة من يوم الاثنين، وفي الثالثة من ليلة الثلاثاء وفي الخامسة من يوم الثلاثاء، وفي الثانية عشرة من ليلة الأربعاء وفي الثانية من يوم الأربعاء، وفي التاسعة من ليلة الخميس وفي الحادية عشرة من يوم الخميس، وفي التاسعة من ليلة الجمعة وفي الثامنة من يوم الجمعة، وفي السادسة من ليلة السبت وفي الخامسة من يوم السبت، وفي الثالثة من ليلة الأحد. وهو:

«يا من لوجوده العليّ باعتبار حكمته إلى كلّ موجود حصل من وجوده اسم يليق به هو مفتاحه الخاصّ، ومعناه المغيّب، وحقيقته الوجودية وسرّه القابل؛ فما في الأكوان جوهر فرد من جواهر آحاد العالم العُلويّ والسُّفليّ إلا ومقاليد أحكامه متعلّقة باسم من أسمائه، واجتماعُها برقائقها بيد اسمك الذي استأثرتَ به عن جميع خلقك فلم يظهر لهم إلا ما ناسب الأفعال، فأسماؤك إلٰهي لا تُحْصى، ومعلوماتك لا نهايةَ لها، أسألك غمسةً في بحر هذا النور حتى أعود إلى الكمال الأوّل فأتصرّف في الكون باسم الكمال تصرُّفًا يَنْفي النقص بالوقوف على عبودية النقص، إنّك المُعِزّ المُذِلّ اللطيف الخبير العَدْل المُجِيب».

قال: من ذكر هذا الذكر ستّ عشرة مرة في ساعة من هذه الساعات ثم سأل الله تعالى فيها رزقًا، وتيسير أسباب، وسكونَ بحر هائج، وسلطان غاصب، ونفسٍ متمرّدة من شيطاني الإنس والجنّ وما ناسب ذلك إلّا أُجيب له لوقته، وذلك على طهارة وصلاة وجمع همة في موضع خال من الأصوات.

دعاء يُدعى به في الساعة الثانية عشرة من يوم الأحد، والسابعة من ليلة الاثنين والتاسعة من يوم الاثنين، وفي الرابعة من ليلة الثلاثاء وفي السادسة من يوم الثلاثاء، وفي الأولى من ليلة الأربعاء وفي الثالثة من يوم الأربعاء، وفي العاشرة من ليلة الخميس وفي الثانية عشرة من يوم الخميس، وفي العاشرة من ليلة الجمعة وفي التاسعة من يوم الجمعة، وفي السابعة من ليلة السبت وفي السادسة من يوم السبت، وفي الرابعة من ليلة الأحد. وهو:

«تعاليتَ يا من تَقَاصر كلُّ فكرٍ عن حصر معنًى من معاني أسمائه، فكل علوّ ورِفْعة فمن ذلك العلوّ والرِفعة صدورُه ظاهرًا وباطنًا؛ تقدّس مجدك يا من أستارُ عرشه أظهر فيها كبرياءه ومجده، أسألك بالصفات التي لا تَعَلُّقَ لها بموجود، ياذا العظمة والكبرياء والجلال والجمال والبهاء، أسألك الأُنس بمقابلات سِرّ القَدَر أُنسًا يمحو آثار

وحشة الفكر حتى يطيب وقتي بك فأطيب بوقتي لك، فلا يتحرّك ذو طبع لمخالفتي إلا صَغُر لعظمتك وقُصِم بكبريائك، إنك جبّار الأرض والسماء، وقاهر الكلّ بقهرك يا مجيب».

قال البُوني: من ذكر هذا الذكر سبعًا وعشرين مرةً في ساعة من هذه الساعات ودعا [بما يريد] كُفِي لوقته [شرَّ ما يحاذره]. فهذه دعوات ساعات الأيّام واللّيالي.

ذِكر ما يُدعى به في المساء والصباح، والغدوّ والرّواح، والصلاة والصوم، والجماع والنوم؛ والوِرْد والصدَر، والسفر والحضر؛ وغير ذلك

فأمّا ما يقال عند المساء والصباح؛ فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وقد سأله فقال: يا رسول الله مُرْني بشيء أقولُه إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ. فقال: «قل اللهمّ عالَم الغيبِ والشهادةِ فاطرَ السمٰوات والأرض ربَّ كلّ شيء ومليكه أشهد أن لا إلٰه إلّا أنت أعوذُ بك من شرّ نفسي وشرّ الشيطان وشِرْكه قُلْهن إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ وإذا أخذتَ مَضْجَعَك»(١). وكان رسول الله ﷺ إذا أَصبح يقول: «أصبحنا على فِطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبيّنا محمد ﷺ وملّةِ أبينا إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين». وكان ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا وأصبح المُلْكُ والكبرياءُ والعظمةُ والخَلق والأمر واللّيل والنهار وما سَكَن فيهما من شيء لله وحده لا شريكَ له اللّهم اجعل أوّلَ هذا النهار لنا صَلاحًا وأوسطَه فَلاحًا وآخرَه نَجاحًا أسألك خيرَ الدنيا وخير الآخرة يا أرحم الراحمين». وكان ﷺ يقول إذا أصبح: «اللّهمّ بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور»(٢). وإذا أمسى قال: «اللّهم بك أمسينا وبك نحيا وبك نموت». وعنه ﷺ أنه قال: «من قال حين يصبح أو يمسي اللّهم أنت ربِّي لا إلٰه إلّا أنت خلقتَني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوءُ(٣) لك بنعمتك عليك وأبوءُ بذنبي فاغفر لي إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت فمات من يومه أو من ليلته دخل الجنة». وعنه ﷺ أنه قال: «من قال لا إلٰه إلّا الله وحده

---

(١) مضجعك: مرقدك ونومك.
(٢) النشور: البعث يوم القيامة.
(٣) أبوء: أنيب وأرجع.

لا شريكَ له له الملكُ وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير بعد ما يصلّي الغداة عشر مرّات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيّئات ورفع له عشر دَرَجات وكنّ له عِدْل رقبتين من ولد إسماعيل وكنّ له حجابًا من الشيطان حتّى يُمسي فإن قالها حين يُمسي كان له مثلُ ذلك وكنّ له حجابًا من الشيطان حتى يُصبح»، وفي رواية: «من قالها في يوم مائةَ مرّة كانت له عِدْل عشر رقاب وكُتِبت له مائة حسنة ومُحِيت عنه مائةُ سيّئة وكانتْ له حِرْزًا من الشيطان يومه ذلك حتّى يُمسي ولم يأت أحد بأفضلَ مما جاء به إلا رجلٌ عمِل أكثر منه ومن قال سبحانَ الله وبحمده في اليوم مائةَ مرة حُطّت خَطَاياه وإن كانت مثل زَبَد البحر». وعنه ﷺ أنه قال: «من قال حين يُمْسي أعوذ بكلمات الله التامّات كلّها من شرّ ما خلق لم تضرّه لَدْغة عقرب حتى يُصبح». وعنه ﷺ: «من قال حين يُصبح في أوّل يومه أو في أوّل ليلته باسم الله الذي لا يَضُرّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاثًا لم يضرّه شيءٌ في ذلك اليوم أو تلك الليلة». وعنه ﷺ : «من قال إذا أصبح باسم الله العليّ الأعْلى الذي لا ولدَ له ولا صاحبةَ ولا شريكَ أشهد أنّ نوحًا رسولُ الله وأنّ إبراهيم خليلُ الله وأنّ موسى نَجِيُّ[1] الله وأنّ داود خليفةُ الله وأنّ عيسى روحُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وأنّ محمدًا رسول الله وخاتَمُ النبيّين لا نبيَّ بعده لم تلسعه حيّة ولا عقرب ولم يخف من سلطان ولا كاهن ولا ساحر حتى يُمسي وإذا قالها إذا أمسى لم يخف شيئًا من ذلك حتى يُصبح».

* * *

وأمّا ما يقال عند النوم؛ رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وإذا أخذتَ مضجَعك فتوضّأ وضوءَك للصّلاة ثم اضطجِع[2] على شِقّك الأيمن ثم قُلْ أسلمتُ وجهي إليك وفوّضتُ أمري إليك وألجأت ظهري إليك رهبةً ورغبةً إليك لا ملجأَ ولا منجى منك إلا إليك اللّهم آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ ونبيّك الذي أرسلتَ فإن متّ من ليلتك متّ على فِطرة الإسلام واجعلهنّ آخر ما تتكلّم به». قال البَرَاء بن عازِب[3]: فردّدتها على النبيّ ﷺ، فلما بلغتُ اللهم آمنتُ بكتابك الذي أنزلت قلت: ورسولِك قال: «ونبيك الذي أرسلتَ». وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قام من اللّيل يقول: «اللهم لك الحمدُ أنت نورُ السمٰوات والأرض

---

(١) نجيّ الله: من ناجاه الله وكلّمه. (٢) اضطجع: تمدّد للنوم.

(٣) البراء بن عازب: من الصحابة والمحدثين والمجاهدين. شارك في فتح فارس، ومات سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م.

ولك الحمدُ أنت قَيّام السمٰوات والأرض ومَن فيهنّ أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنّة حق والنار حق والساعة حق اللّهم لك أسلمتُ وبك آمنت وعليك توكّلت وإليك أنَبْتُ وبك خاصمتُ وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدَّمتُ وما أخّرت وما أسرَرْت وما أعْلنت أنت إلٰهي لا إلٰه إلا أنت».

* * *

وأمّا ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما؛ رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا وَلج[١] الرجلُ بيتَه فليقُلْ باسم الله اللّهم إنّي أسألك خيرَ المَوْلِج وخيرَ المَخْرَج باسم الله وَلَجْنا وباسم الله خرجْنا وعلى الله توكّلنا ثم ليسلِّمْ على أهله». وعنه ﷺ: «إذا دخل الرجلُ بيته فقال باسم الله قعد الشيطانُ على الباب وقال ما مِنْ مقِيلٍ[٢] فهل من غَداء فإذا أُتي بغَدَائه فقال باسم الله قال ما مِنْ غَدَاء ولا مَقِيل». وعنه ﷺ: «إذا خرج الرجلُ من بيته فقال سبحان الله قال المَلك هُدِيتَ وإذا قال لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله قال الملك وُقِيتَ فإذا قال توكّلت على الله يقول الملك كُفِيت يقول الشيطان عند ذلك كيف أعمَل بمن كُفِي وهُدِي ووُقي». وعن أُمّ سَلَمة[٣] رضي الله عنها قالت: ما خرج رسول الله ﷺ من بيته صباحًا قطّ إلا قال: «اللّهم إنّي أعوذ بك أن أَزِلّ أو أَضِلّ أو أظلم أو أجهل أو يُجْهَل عليّ». وعنه ﷺ: «ما من مسلم خرج من بيته يريد سفَرًا أو غيره فقال حين يخرج باسم الله آمنتُ بالله اعتصمتُ بالله توكّلت على الله لا حول ولا قوّة إلا بالله إلا رُزِق خيرَ ذلك المَخْرَج وصُرف عنه شرُّ ذلك المخرج». وعن أبي سعيد[٤] رضي الله عنه قال فُضَيل بن مرزوق ـ أحسبه رفعه ـ قال: «من قال حين يخرج إلى الصَّلاة اللّهم إني أسألك بحقّ السائلين عليك وبحقّ مَمْشاي هذا إني لم أَخْرج أشَرًا[٥] ولا بَطَرًا ولا رياءً ولا سُمْعة خرجتُ خوفَ سخطك وابتغاءَ مَرْضاتِك أسألك أنْ تُنقذني من النّار وأن تغفر ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وكّل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل اللهُ عليه بوجهه حتى يفرُغَ من صَلاته». وعن فاطمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد قال: «باسم الله والسلام على رسول الله اللّهم اغفر لي وافتح لي أبوابَ رحمتك وإذا خرج قال باسم الله والسلام على رسول الله اللّهم اغفر لي ذنوبي وافتح

---

(١) ولج: دخل.

(٢) المقيل: النوم عند الظهر، القيلولة، أو موضع القيلولة.

(٣) أم سلمة: إحدى أزواج النبيّ ﷺ.

(٤) هو أبو سعيد الخدري، سبق التعريف به.

(٥) الأشر: البطر والمرح.

لي أبوابَ فضلك». وقال ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللّهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللّهم إني أسألك من فضلك».

❋ ❋ ❋

وأمّا ما يقال عند النداء؛ فقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا كان عند الأذان فُتِحت أبوابُ السماء واستُجِيب الدعاءُ وإذا كان عند الإقامة[١] لم تُرَدّ دعوة». وعنه ﷺ: «من قال حين يسمع المؤذّن وأنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمدًا عبده ورسوله رضيتُ بالله ربًّا وبمحمد رسولًا وبالإسلام دينًا غُفِر له ذنبُه». وعنه ﷺ أنه قال: «من سمع المؤذّن فقال اللّهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلة وابعثه مَقَامًا محمودًا الذي وعدتَه حلّت له شفاعتي يوم القيامة». وعنه ﷺ: «إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثلَ ما يقول ثم صلُّوا عليّ فإنه من صلّى عليّ مرّةً صلّى الله عليه بها عشرًا».

❋ ❋ ❋

وأمّا ما يقال عند دخول الخلاء[٢]؛ فقد كان رسول الله ﷺ إذا دخل الخَلاء قال: «اللّهم إني أعوذ بك من الخُبُث والخبائث» وإذا خرج قال «غفرَانَك». وفي لفظٍ إذا خرج قال: «الحمدُ لله الذي أَذْهب عنّي الأذَى وعافاني». وعن أَنَس رضي الله عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا دخل الخلاء قال: «اللّهم إنّي أعوذ بك من الرِّجس النِجس الخبِيث المُخْبِث الشيطان الرجيم»، وإذا خرج قال: «الحمد لله الذي أذهب عنّي الأذى وعافاني».

❋ ❋ ❋

وأمّا ما يقال عند الوضوء وغَسْل الأعضاء؛ قال رسول الله ﷺ: «لا صلاةَ لمن لا وُضوء له ولا وضوءَ لمن لم يذكر اسم الله عليه». وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عليُّ إذا توضّأْتَ فقلّ بِاسم اللهِ والصلاةُ على رسول الله». وعن محمدِ بنِ الحَنَفيّة[٣] قال: دخلتُ على والدي علّيّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ وإذا عن يمينه إناءٌ من ماءٍ، فسمَّى ثم سَكَب على يمينه ثم

---

(١) الإقامة: كالأذان تقريبًا مع اختلاف يسير، وهي تلي الأذان، قبل الدخول في الصلاة.

(٢) الخلاء: الكنيف والمرحاض.

(٣) محمد بن الحنفية: والحنفية لقب أمّه، ابن علي بن أبي طالب. واسم أمّه خولة. مال بعض الشيعة إلى موالاته بعد استشهاد الحسين، فعرفوا باسم الكيسانية. مات سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م.

تَمَضمض[١] فقال: اللّهم حَصِّنْ فَرْجي واستُرْ عورتي ولا تُشْمِت بي الأعداء؛ ثم تمضمض واستنشق[٢] وقال: اللّهم لَقِّني حُجّتي ولا تحرِمني رائحةَ الجنّة. ثم غسل وجهَه وقال: اللّهم بَيِّضْ وجهي يوم تَسْوَدُّ الوجوه ولا تُسَوِّدْ وجهي يوم تبيضّ الوجوه. ثم سكب على يمينه فقال: اللّهم أعْطِني كتابي بيميني والخلدَ بشمالي. ثم سكب على شماله وقال: اللّهم لا تُعْطِني كتابي بشمالي ولا تجعلها مغلولةً[٣] إلى عُنُقي. ثم مسح برأسه وقال: اللّهم غَشِّنا برحمتك فإنّا نخشى عذابك، اللّهم لا تجمع بين نواصينا[٤] وأقدامنا. ثم مَسَح عنقه فقال: اللّهم نَجِّنا من مُقَطَّعات[٥] النيران وأغلالها. ثم غسل قدميه فقال: اللّهم ثَبِّتْ قَدَميّ على الصراط المستقيم يوم تَزِلّ فيه الأقدام. ثم استوى قائمًا فقال: اللّهم كما طَهّرتنا بالماء فطهِّرنا من الذنوب، ثم قال بيده هكذا، يقطُرُ الماء من أنامله، ثم قال: يا بُنَيّ، افعل كفعلي هذا فإنه ما من قَطْرةٍ تقطر من أناملك إلا خلق الله منها مَلَكًا يستغفر لك إلى يوم القيامة. يا بُنَيّ؛ من فعل كفعلي هذا تساقطت عنه الذنوب كما يتساقط الورق عن الشجر يوم الريح العاصف.
وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ إذا توضّأتَ فقل اللّهم إني أسألك تمامَ الوضوء وتمامَ مغفرتك ورضوانك». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «من توضّأ فأحسن وضوءه ثم قال أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صادقًا من قلبه فتح الله له ثمانية أبواب الجنّة يدخل من أيّها شاء». وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عليّ إذا فرغتَ من وُضوئك فقل أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله اللّهم اجعلني من التوّابين واجعلني من المتطهّرين تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمّك وتُفتح لك ثمانيةُ أبواب الجنة فيقال ادخلْ مِن أيِّها شئت».

* * *

وأمّا أدعية الصلاة، فهي إمّا أن تقع قبلها أو فيها أو بعدها. فأمّا ما يقال قبلها فقد رُوي عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمٰن قال: سألتُ عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها بأيّ شيء كان نبيّ الله ﷺ يفتتح الصلاة إذا قام من الليل؟ قالت: إذا قام يفتتح

(١) تمضمض: أدخل الماء فمه ولاجه ثم قذفه. (٢) استنشق: أدخل الماء إلى أنفه ثم رماه.
(٣) مغلولة: مقيّدة.
(٤) نواصينا: جمع ناصية، وهي شعر مقدّم الرأس.
(٥) مقطّعات: الجباب من الثياب.

صلاته يقول: «اللهم ربَّ جِبريل وميكائيل وإسرافيل فاطرَ السمٰوات والأرض عالَم الغيب والشهادة أنت تحكُمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلفتُ فيه من الحقّ بإذنك إنك تَهْدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وإمّا ما يُدعى به في نفس الصلاة، فقد رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا افتتح الصلاة رفع يديه حذو مَنْكِبيه ثم يقول: «سبحانَك اللّهُمّ وبحمدك تبارك اسمُك وتعالى جَدُّك ولا إلٰه غيرُك». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا كبّر في الصلاة سكت هُنَيَّةً قبل أن يقرأ. فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما تقول في سكوتك بين التكبير والقراءة؟ قال: «أقول اللّهم باعِدْ بيني وبين خَطَاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب اللّهم نَقِّني من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس واغسِلني من خطاياي بالثلج والماء والبَرَد». وعن جُبَيْر بن مُطْعِم رضي الله عنه أنه رأى النبيّ ﷺ يصلّي قال: فكبّر فقال: «الله أكبر كبيرًا ثلاث مرات والحمد لله كثيرًا ثلاث مرات وسبحان الله بكرةً وأصيلًا ثلاث مرات اللّهمّ إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثه». قال راويه عمرو بن مُرّة: نفخه: الكبر، ونفثه: السحر، وهَمْزه: المُوتة، وهي الجنون. وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ كان إذا افتتح الصلاة كبّر ثم قال: «وجّهت وجهي للّذي فطر السمٰوات والأرضَ حنيفًا مُسلمًا وما أنا من المشركين إن صَلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوّلُ المسلمين اللّهم أنت الملك لا إلٰه إلا أنت أنت ربّي وأنا عبدك ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا لا يغفر الذنوبَ إلا أنت واهْدِني لأحسنِ الأخلاق لا يَهدي لأحسنها إلا أنت واصرِف عني سيِّئها لا يصرِف سيِّئها إلا أنت لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ والخير كلّه في يديك والشرّ ليس إليك وأنا بك وإليك تباركتَ وتعاليتَ أستغفرك وأتوب إليك». فإذا ركع قال: «اللّهم لك ركعتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ خشَع لك سمعي وبصري ومُخّي وعظمي وعَصَبي». فإذا رفع رأسه قال: «سمع الله لمن حمِده ربّنا ولك الحمد مِلْءَ السمٰوات والأرض وما بينهما وملءَ ما شئت من شيء بعد». فإذا سجد قال: «اللّهمّ لك سجدتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ سجد وجهي للّذي خلقه وصوّره فأحسن صُوره وشقّ سمعه وبصره فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين». فإذا فرغ من الصلاة وسلّم قال: «اللّهمّ اغفر لى ما قدّمتُ وما أخّرتُ وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إلٰه إلا أنت». وقد ورد

في لفظ آخر أنه يقول: اللّهمّ اغفر لي إلى آخر الدعاء بين التشهُّد والتسليم. وعن حذيفة[١] رضي الله عنه قال: صلّيت مع رسول الله ﷺ فسمعته يقول في ركوعه: «سبحانَ ربّي العظيم»، وفي سجوده: «سبحانَ ربّي الأعلى». وفي لفظٍ أنه كان يقول ذلك ثلاث مرات. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده وركوعه: «سُبُّوح قُدُّوس ربّ الملائكة والروح». وعن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «ربّنا لك الحمد ملء السمٰوات وملء الأرض وملء ما شئتَ من شيء بعدُ أهل الثناء والمجد أحقّ ما قال العبد وكلّنا لك عبد اللّهمّ لا مانعَ لِمَا أعطيتَ ولا مُعطي لما منعتَ ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ». وعن النبيّ ﷺ: «من قال وهو ساجدٌ ثلاث مرّات ربّ اغفر لي لم يرفع رأسه حتّى يُغْفَرَ له». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلّمنا التشهّد كما يعلّمنا السُّورة من القرآن، وكان يقول: «التحيّات المباركات الصلوات الطيبات لله سلامٌ عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته سلامٌ علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأشهد أن محمدًا رسولُ الله». ورُوِيَ: «السلامُ» في الموضعين. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنّا نقول في الصلاة خلف رسول الله ﷺ: السلام على الله السلام على فلان. فقال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم: «إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيّاتُ لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإذا قالها أصابت كلَّ عبد صالح في السماء والأرض أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ثم يتخيّر في المسألة ما شاء». وقد علّم رسول الله ﷺ أصحابه الصلاة عليه. وفي سأله كعب بن عُجْرة[٢] عنها فقال: «قولوا اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآلِ إبراهيم إنّك حميدٌ مَجيد وبَارِكْ على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهّد فليتعوّذ بالله من أربع: من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة المَحْيا والممات وشرّ المسيح الدجّال». وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه قال:

---

(١) هو حذيفة بن اليمان، الصحابي والفاتح. ولّاه عمر المدائن فانتصر على الفرس في نهاوند سنة ٦٤٢ م.

(٢) هو كعب بن عجرة الأنصاري الحديبي. كان من فضلاء الصحابة. مات سنة ٥٢ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/٥٨.

قلت يا رسول الله: علِّمني دعاءً أدعو به في الصلاة وفي بيتي قال: «قل اللّهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك إنّك أنت الغفور الرحيم». ورُوِيَ بعد قوله من عندك: «وارحمني إنك أنت التوّاب الرحيم».

* * *

وأمّا ما يُدعى به بعد التسليم؛ فقد رُوِيَ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقول دُبُرَ[1] كلّ صلاة: «لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمد يحيي ويُميت وهو على كلّ شيء قدير اللّهم لا مانعَ لِمَا أعطيتَ ولا مُعْطِيَ لما منعت ولا ينفع ذَا الجَدّ منك الجَدّ». وعن عبد الله بن الزُّبَير[2] رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سلّم من صلاته يقول بصوته الأعلى: «لا إلـٰهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حولَ ولا قوّة إلا بالله ولا نعبد إلا إيّاه له النعمةُ وله الفضلُ وله الثناء الحسن لا إلـٰه إلا الله مُخلصين له الدينَ ولو كره الكافرون». وفي طريق آخر: «له الدينَ وهو على كل شيء قدير». وعن أُمّ سلمةَ رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ كان إذا صلّى الصبح قال: «اللّهم إني أسألك علمًا نافعًا ورزقًا طيّبًا وعملًا مُتقَبَّلًا». وعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «من قال حين ينصرف من صلاته سبحانَ الله العظيم وبحمده لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله العليّ العظيم ثلاث مرات فإنه مغفور له». وعن أبي أُمامة الباهليّ[3] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسيّ دُبُرَ كلّ صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «ما من عبدٍ بَسَط كفَّيه في دبر صلاته ثم يقول إلـٰهي إلـٰه إبراهيم وإسحـٰق ويعقوب إلـٰه جبريلَ وميكائيل وإسرافيل أسألك أن تستجيبَ دعوتي وتَعْصِمَني في دِيني فإني مبتلًى وتنالَني برحمتك فإنّي مذنبٌ وتنفيَ عني الفقرَ فإني مُستمسك إلّا كان حقًّا على الله ألّا يردّ يديه خائبتين». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «من

---

(١) دبر: بعد.

(٢) عبد الله بن الزبير بن العوام. شارك المسلمين فتوحاتهم. وناصر عائشة في معركة الجمل. ثار على الأمويين وأعلن نفسه خليفة في الحجاز بعد موت يزيد بن معاوية. قضى عليه الحجاج سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢ م.

(٣) هو أبو أمامة الباهلي: أحد رواة الحديث النبوي. روى حوالي ٢٥٠ حديثًا. انظر: شذرات الذهب ١/ ٦٣.

قال دبر كلّ صلاة الحمدُ لله ثلاثًا وثلاثين مرّة وسبحانَ الله ثلاثًا وثلاثين مرة واللهُ أكبرُ ثلاثًا وثلاثين مرّةً وتمامَ المائة لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير غُفِرَتْ ذنوبُه ولو كانت أكثر من زَبَد البحر». وعن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في آخر وَتْره: «اللّهم إني أعوذ برضاك من سَخَطِك وأعوذُ بمُعافتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أُحْصِي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك». وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال: علّمني رسولُ الله ﷺ كَلِماتٍ أقولهنّ في الوَتْر[1]، وفي لفظ: في قُنوت[2] الوتر: «اللّهم اهْدِني فيمن هديتَ وعافِني فيمن عافيتَ وتولّني فيمن تَوَلَّيت وبارك لي فيما أعطيتَ وقِني شرَّ ما قضيتَ إنك تَقْضِي ولا يُقْضَى عليك وإنّه لا يَذِلُّ من وَالَيْتَ تباركت ربَّنا وتعاليت». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلّى رسول الله ﷺ على جنازةٍ فقال: «اللّهم اغفر لحيِّنا وميِّتنا وصغيرنا وكبيرنا وذَكَرنا وأُنثانا وشاهدنا وغائبنا اللّهم من أَحْيَيته منّا فأَحْيِهِ على الإيمان ومن توفَّيْتَه منا فتوفَّه على الإسلام اللّهم لا تحرِمْنا أجرَه ولا تُضِلّنا بعده». وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ إذا صلّيت على جنازة رجلٍ فقل اللّهم هذا عبدُك ابن عبدِك ابنُ أمتك ماضٍ فيه حكمُك خلقتَه ولم يكن شيئًا مذكورًا نزل بك وأنت خيرُ منزولٍ به اللّهم لَقِّنْه حُجّته وأَلْحِقْه بنبيّه محمد ﷺ وثبّته بالقول الثابت فإنه افتقر إليك واستغنيتَ عنه كان يشهدُ أنْ لا إلـه إلّا الله فاغفر له وارحمه ولا تحرِمْنا أجرَه ولا تفتِنّا بعده اللّهم إن كان زاكيًا فَزكِّه وإن كان خاطئًا فاغفرْ له. وإذا صلّيتَ على جنازة امرأةٍ فقل اللّهم أنتَ خلقتها وأنت أَحْييتها وأنت أَمتَّها تعلم سرّها وعَلانِيَتَها جئناك شفعاءَ لها فاغفر لها وارحمها ولا تحرِمنا أجرها ولا تفتِنّا بعدها. وإذا صلّيتَ على جنازة طفل فقل اللّهم اجعله لوالديه سَلَفًا واجعله لهما ذُخرًا واجعله لهما رَشَدًا واجعله لهما نُورًا واجعله لهما فَرَطًا[3] وأَعْقِب لوالديه الجنّة ولا تحرِمنا أجره ولا تفتِنّا بعده». وعن عَوْف بن مالك[4] رضي الله عنه قال: سمعت النبيّ ﷺ صلّى على جنازة يقول: «اللّهم اغفر له وارحمه واعفُ عنه وعافه وأكرم نُزُلَه ووسِّع مَدْخله واغسِله بماءٍ وثلج وبَرَد ونقِّه من الخَطَايا كما يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدنَس وأبدله دارًا خيرًا من داره وأهلًا خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه وقِهِ فتنةَ

---

(١) الوتر: هي صلاة الوتر التي تعقب صلاة الشفع، قبيل الفجر من صلاة الليل.

(٢) القنوت: الدعاء في الصلاة قبيل الركوع. (٣) فرطًا: الفرط، المتقدم قومه إلى الماء.

(٤) هو عوف بن مالك الأشجعي. كان ممّن شهد فتح مكة. مات سنة ٧٣ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/ ٧٩.

القبر وعذابَ القبر وعذابَ النار». قال عوف رضي الله عنه: فتمنّيتُ لو كنت أنا الميّت لدعاء رسول الله ﷺ.

* * *

وأمّا ما يقال عند رؤية الجنازة والتلقينِ[١] والدفن، وما في ذلك من الأجر؛ رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: من رأى جنازةً فقال الله أكبرُ صدَق الله ورسولُه هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه اللّهم زِدْنا إيمانًا وتسليمًا كُتِبَ له عشرون حسنةً في كلّ يوم من يوم يقولها إلى يوم القيامة». وقال ﷺ: «لَقِّنوا موتاكم لا إلـٰه إلا الله». وقال ﷺ: «إذا وضعتم مَوْتاكم في القبر فقولوا باسم الله وعلى مِلّة رسول الله». وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا سُوِّيَ على الميّت الترابُ قال: «اللّهم أَسْلَمَه إليك الأهلُ والمالُ والعشيرةُ وذنبُه عظيم فاغفرْ له». وعن سعيد بن عبد الله الأوْديّ قال: شهدت أبا أُمامة وهو في النَّزْع[٢] فقال: إذا أنا مُتُّ فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ أن نصنع بموتانا، أمرنا فقال: «إذا مات أحد من إخوانكم فسوَّيتم الترابَ على قبره فليقُمْ أحدكم على رأس قبره فليقل يا فلان ابن فلان فإنه يسمعه ولا يُجيبه ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنّه يستوي قاعدًا ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يقول أَرْشدنا رحمك الله ولكن لا تشعرون فليقُل اذكُرْ ما خرجتَ عليه من الدنيا شهادة أن لا إلـٰه إلّا الله وأنّ محمدًا عبدُه ورسولُه وأنّك رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دِينًا وبمحمد نبيًّا وبالقرآنِ إمامًا فإن مُنْكَرًا ونكِيرًا[٣] يأخذُ كلُّ واحدٍ منهما بيدِ صاحبه ويقول: انطلِقْ بنا ما نقعد عند من لُقِّن حُجّته فيكون الله حجيجَه[٤] دونهما». فقال رجل: يا رسول الله فإن لم يعرف أُمَّه؟ قال: «فينسبه إلى حوّاء يا فلان ابن حوّاء».

* * *

وأمّا ما يقال عند زيارة القبور؛ عن عائشة رضي الله عنها أنّها تبِعت النبيَّ ﷺ إلى زيارة البَقِيع[٥] فقال لها: «قولي السَّلامُ على أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات ويرحمُ الله المُستقدِمين منّا والمُستأْخِرين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون». وكان

---

(١) التلقين: تلقين الميّت الشهادة وهو مضطجع في لحده قبل أن يهال التراب عليه.

(٢) النزع: الاحتضار قبل الموت.

(٣) منكر ونكير: الملكان اللذان يحضران في القبر عقب دفن الميّت لمحاسبته عن أعماله وسؤاله عن دينه والإقرار بالشهادة.

(٤) الحجيج: المغالب بإظهار الحجّة.

(٥) البقيع: مقبرة قريبة من مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنوّرة.

رسول الله ﷺ إذا أتى المقابر قال: «السلامُ عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم لنا فَرَطٌ ونحن لكم تَبَعٌ أسأل الله العافيةَ لنا ولكم».

* * *

وأمّا ما يقال عند الإفطار من الصوم، والأكل والشرب؛ رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه كان إذا أَفْطر قال: «اللّهم لك صُمْنا وعلى رزقك أَفْطرنا فتقبَّلْ منّا إنك أنت السميع العليم». وعنه ﷺ: «من قال اللّهم لك صُمتُ وعلى رزقك أَفطرتُ وعليك توكّلت كُتِبَ له من الأَجْر بعدد من صام ذلك اليوم». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أحدكم لَتُوضَعُ مائدةٌ بين يديه فما تكاد أن تُرْفَعَ حتى يُغْفَرَ له». قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: «لأنه يُسَمّي الله إذا وُضِعت المائدةُ وأَكَل ويحمَدُ الله إذا رُفِعت». وعن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ قال: «إذا نَسِيَ أحدُكم أن يذكر اسم الله في أوّل طَعامه فليقل باسم الله أوّلَه وآخِرَه». وعنه ﷺ: «من أكل طعامًا ثم قال الحمدُ لله الذي أَطْعمني هذا الطعامَ ورزقَنِيه بغير حول منّي ولا قُوّة غُفِر له ما تقدّم من ذنبه». وكان رسول الله ﷺ إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعم وسَقَى وسوَّغه[1] وجعل له مَخْرَجًا». ومن رواية أنس: «الحمد لله الذي أَطْعمني وسقاني وهداني وكلّ بلاء حسن أبلاني الحمدُ لله الرازقِ ذِي القوّة اللّهم لا تَنْزِعْ منّا صالحًا أعطيتَناهُ ولا صالحًا رَزَقْتناهُ واجعلنا لك من الشاكرين». وعنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعَمنا وسقَانا وأَشْبَعَنا وآوانا وكفانا». وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسولُ الله ﷺ فقال: «يا عليّ إذا شربتَ ماءً فقل الحمدُ لله الذي سقانا ماءً عَذْبًا فُراتًا[2] برحمته ولم يجعلْه مِلْحًا أُجاجًا[3] بذنوبنا تُكْتَب شاكرًا». وكان ﷺ إذا أَفطر عند أهل بيتٍ قال لهم: «أَفْطَرَ عندكم الصائمون وأَكَل طعامكم الأبرارُ ونزلت عليكم الملائكة»؛ ورُوِيَ: «وصلّت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده».

* * *

وأمّا ما يقال عند لباس الثوب وإلباسه؛ وعند النظر في المرآة والتسريح[4] وفي المجلس؛ روى أبو سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا استجدّ

---

(١) سوّغه: جعله سائغًا سهلًا مأكله ومشربه. (٢) فراتًا: عذبًا.
(٣) أجاجًا: شديد الملوحة. (٤) التسريح: تمشيط الشعر وزينته.

ثوبًا ـ سمّاه باسمه قميصًا أو إزارًا أو عمامةً ـ يقول: «اللّهم لك الحمدُ أنت كَسَوْتَنِيه اللّهم إني أسألك من خيره وخيرِ ما صُنِع له وأعوذُ بك من شرّه وشرِّ ما صُنِع له». وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عليّ إذا لَبِست ثوبًا فقل باسم الله الحمدُ لله الذي كساني ما أُوَارِي[1] به عَوْرتي وأستغني به عن الناس لم يبلغ الثوبُ رقبَتك حتى يُغْفَرَ لك يا عليّ من لبِس ثوبًا جديدًا وكَسَا أسماله[2] عُرْيانًا أو مِسكينًا كان في جِوار الله وأَمْنِه وحفظِه ما دام عليه منه سِلْك»[3]. وعن رسول الله ﷺ: «مَن لَبِس ثوبًا فقال الحمدُ لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حولٍ منّي ولا قوّة غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان النبيّ ﷺ إذا نظر في المرآة يقول: «الحمد لله رب العالمين الذي خلقني وسوَّى خَلْقِي وجعلني بَشَرًا سَوِيًا ولا حول ولا قوّة إلا بالله». قال ابن عباس رضي الله عنهما: فما تركتُها منذ سمعتها من رسول الله ﷺ، ثم قال: لا يَمَسّ وجهَ من قالها سوءٌ أبدًا. وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ إذا نظرت في المرآة فقل اللهم كما حسّنتَ خَلْقي فأَحْسِنْ خُلُقي وارزقني». وعن الرِّضَى عليّ بن موسى[4] عن أبيه عن آبائه أبًا فأبًا رضي الله عنهم عن النبيّ ﷺ قال: «من أَمَرّ المشط على رأسه ولِحيته في كل يومٍ سبعَ مرات وقال في كلّ مرة سبحانَ الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم لم يقارنه ذنب». وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «من جلس في مجلس كثُر لَغَطه فيه فقال قبل أن يقوم سبحانَك اللّهم ربَّنا وبحمدك لا إلٰه إلّا أنت أستغفرُك وأتوبُ إليك غَفَر الله له ما كان في مجلسه ذلك».

* * *

وأمّا ما يقال في المرض والرُّقَى والوَسْواس والحَرِيق؛ عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ كان يقول للمريض: «باسم الله تربةُ أرضِنا وريقةُ بعضِنا يُشْفَى سقيمُنا بإذْن ربّنا». وعن عثمان بن أبي العاص الثقفيّ رضي الله عنه قال: قدِمتُ على رسول الله ﷺ وبي وَجَعٌ قد كان يُبْطِلني فقال لي ﷺ: «اجعل يدك اليمنى عليه ثم قل

---

(١) أواري: أستر. (٢) أسماله: ثيابه.
(٣) سلك: خيط.
(٤) هو علي بن موسى: الملقب بالرضى، الإمام الثامن من الأئمة الشيعة الاثني عشر. مات في طوس، ودفن هناك.

باسم الله أعوذُ بعزة الله وقدرته من شرِّ ما أَجِد سبعَ مرات»، ففعلت ذلك فشفاني الله تعالى. وعنه ﷺ: «مَن عاد مريضًا لم يحضُرْ أجلُ فقال عنده سبعَ مرات أسألُ الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يَشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض». وكان ﷺ إذا دخل على مريض وضع يده اليمنى على خَدّه وقال: «أذهِب البَاس، ربَّ النَاس واشفِ أنت الشافي شِفاءً لا يغادر سَقَمًا». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ في أُذُن مبتلًى فأفاق، فقال له النبيّ ﷺ: «ما قرأت في أذنه»؛ قال: قرأت ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥] إلى آخر السورة. فقال النبيّ ﷺ: «لو أنّ رجلًا مُوقِنًا قَرَأ بها على جبلٍ لزال». وعن ابن عمر أن النبيّ ﷺ قال: «من رأى صاحب بَلَاءٍ فقال الحمد الله الذي عافاني مما ابتلاكَ به وفضّلني عليك وعلى كثيرٍ ممن خَلَق الله عافاه من ذلك البلاء كائنًا ما كان أبدًا ما عاش». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أَرْقِي رسول الله ﷺ من العَين فأضعُ يدي على صدره وأقول: أَذهِب البَاس، ربّ الناس؛ بيدك الشفاءُ ولا كاشف له إلا أنت. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما رفع الحديث أنّ النبيّ ﷺ قال: «هذه الكلمات دواءٌ من كلّ داء أعوذُ بكلمات الله التامّة وأسمائه كلها عامّة من السامّة والهامّة[١] وشرِّ العين اللّامّة[٢] ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَد ومن شرِّ أبي قِتْرَةَ[٣] وما وَلَد ثلاثون من الملائكة أَتَوْا ربَّهم عزّ وجلّ فقالوا وَصَبٌ بأرضنا فقال خُذُوا تربةً من أرضكم وامسحوا بوَصَبكم رُقْيَةُ محمد ﷺ من أخذ عليها صَفَدًا[٤] أو كَتَمَها أحدًا فلا أَفْلح أبدًا». وعن عليّ رضي الله عنه قال: من اشتكى ضِرْسه فليأخذ الترابَ من موضع سجوده ثم يمسح يده على الموضع الذي يشتكي، ثم يقول: باسم الله، والشافي الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه أتاه رجل فذكر له أن أباه احتبس بولُه وأصابته حَصَاةٌ منعته البول فعَلّمه رُقْية سمعها من النبيّ ﷺ وهي: «ربَّنا الله الذي في السماء تقدّس اسمك أمرُك في السماء والأرض كما رَحْمَتُك في السماء فاجعل رحمتَك في الأرض واغفِرْ لنا حُوبَنا[٥] وخطايانا أنت ربّ الطيّبين فأَنْزِلْ شفاءً من شفائك ورحمةً من رحمتك على الوَجَع فيبرأ»؛ فأمره برَقْيه بها فرقاه بها فبرىء. وعن عليّ رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبيّ ﷺ فوافقه مُغْتَمًّا، فقال: يا

---

(١) الهامّة: وجمعها الهوام، وهي كل ما يزحف ويدبّ.

(٢) اللامّة: المصيبة بسوء.

(٣) أبو قترة: اسم علم لإبليس.

(٤) صفد: أجر وعطاء.

(٥) حوبنا: إثمنا وخطأنا وزلّتنا.

محمد، ما هذا الغمّ الذي أراه في وجهك؟ قال: «الحسن والحسين أصابتهما عَيْن». فقال: يا محمد، صدِّق العينَ فإن العَيْنَ حقّ. ثم قال: أَفَلا عوّذتَهما بهؤلاء [illegible]» فقا[illegible]: «قلِ اللّهمّ ذا السلطان العظيم، ذا المَنِّ القديم، ذا الوجهِ الكريم، والكلمات التامّات، والدعوات المُستجابات عافِ الحسنَ والحسينَ من أَنْفُس الجِنّ وأَعْيُن الإنس». فقالها النبيّ ﷺ فقاما يلعبانِ بين يديه. فقال النبيّ ﷺ لأصحابه: «عَوِّذُوا أنفسكم بهذا التعوُّذ فإنّه لم يتعوَّذ المتعوِّذون بمثله». وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني النبيّ ﷺ فقال: «أَمَانٌ لك من الحَرَق أن تقول سبحانَك ربِّي لا إلـٰهَ إلّا أنت عليك توكّلتُ وأنت ربّ العرش العظيم». وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ أمانٌ لك من الوَسْواس أن تقرأ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ٤٥]، ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٦].

* * *

وأمّا ما يقال عند دخول السوق وشراء الجارية والدابّة؛ رُوِيَ أنّ رسول الله ﷺ كان إذا دخل السوق قال: «اللّهم إنّي أسألُك من خير هذه السوق وأعوذُ بك من الكفر والفُسوق». وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عليّ إذا دخلت السوق فقل حينَ تدخل باسم الله وبالله أشهدُ أن لا إلـٰه إلّا الله وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسوله يقول الله عزّ وجلّ عبدي هذا ذَكَرني والناسُ غافلون اشهَدوا أنّي قد غفرتُ له». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «من دخل السوق فقال لا إلـٰهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو حيٌّ لا يموت بيده الخيرُ وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألفَ ألفِ حسنة ورفع له ألفَ ألفِ درجة» أو قال: «وبنى له بيتًا في الجنّة». وعن رسول الله ﷺ: «إذا أفاد أحدُكم الجاريةَ أو المرأةَ أو الدابّة فليأخذْ بناصيتها وليَدْعُ بالبركة وليقُل اللّهم إنّي أسألك خيرَها وخيرَ ما جُبلْتَ عليه وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما جُبِلت عليه فإن كان بعيرًا[1] فليأخذ بذروة سَنَامه»[2].

* * *

(١) بعيرًا: جملًا.

(٢) سنامه: حدبته في أعلى ظهره.

وأمّا ما يقال عند هبوب الرياح وفي الرعد والمطر؛ عن أُبَيّ بن كعب[١] رضي الله عنه أن الريح هاجت على عهد رسول الله ﷺ فسبَّها رجلٌ فقال له النبيّ ﷺ: «لا تسبَّها فإنها مأمورة ولكن قل اللّهم إني أسألك خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُمِرَتْ به وأَعوذُ بك من شرّها وشر ما فيها وشرّ ما أُمِرت به». وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمِع الرعْد أو البرْق قال: «اللّهم لا تقتلنا غَضَبًا ولا تقتلنا بغتةً وعافِنا قبل ذلك». وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللّهم لا تُهْلِكنا بغضبك ولا تقتلنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك». وعن أنَس أن النبيّ ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء[٢] حتى يُرى بياضُ إبطَيه. وعن كعب بن مُرّة السلميّ رضي الله عنه قال: كنّا عند رسول الله ﷺ وجاءه رجل فقال: يا رسول الله، استسق الله لمُضَر[٣]، فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: «اللّهم اسقِنا غَيْثًا مُغيثًا مَريعًا مريئًا عاجلًا غيرَ رائثٍ نافعًا غيرَ ضارّ». قال: فما جَمّعوا[٤] حتى أَحْيَوْا[٥]. فأَتَوْه فشكَوْا إليه المطرَ فقالوا: يا رسول الله قد تهدّمت البيوتُ. فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم حَوَالَيْنا ولا علينا»، فجعل السحاب يتقطّع يمينًا وشمالًا. وعن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ كان إذا رأى ناشئًا[٦] في أُفُق السماء ترك العمل وإن كان في صلاة، ثم يقول: «اللّهم إني أعوذُ بك من شرّها»؛ فإن رأى مطرًا قال: «اللّهم صَيِّبًا هَنيئًا». وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى المطرَ قال: «اللّهم صيّبًا نافعًا».

* * *

وأمّا ما يقال في الخوف والشدائد؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا تخوّف الرجلُ من السلطان فليقل اللّهم ربّ السمٰوات السبع وربَّ العرش العظيم كن لي جارًا من فلان ابن فلان يسمّي الذي يريد وشرِّ الجنّ والإنس وأحزابهم وأتباعهم أن يفرُط عليّ أحدٌ منهم أو يَطْغَى عَزّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلٰهَ غيرُك». وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ: «من خاف من

---

(١) أُبي بن كعب: أبو المنذر بن كعب الخزرجي، سيّد القرّاء، من علماء الصحابة. تُوفي سنة ١٩ أو ٢٢ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/٣١.

(٢) الاستسقاء: الدعاء إلى الله والصلاة له لكي يبعث المطر بعد طول احتباس.

(٣) مضر: أي العرب، وعرب الشمال خاصةً أو العدنانية.

(٤) جمّعوا: دخلوا في الجمعة.

(٥) أحيوا: نزل عليهم الحياء وهو المطر.

(٦) ناشئًا: أول ما يظهر من السحاب.

السلطان أو غيره فليفزَعْ إلى هذه الدعوةِ الله أكبر وأعزُّ من خَلْقه جميعًا الله أكبرُ وأعزُّ مما أخافُ وأحذَر وأعوذ بالله الذي لا إلـهَ إلّا هو مُمْسِك السمٰوات السبع أن يَقَعْنَ على الأرض إلّا بإذنه من شرّ فلان ابن فلان يا ربّ كن لي جارًا من شرّه عزَّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلـهَ إلا أنت العليّ العظيم يقولهنّ ثلاثَ مرات إلّا أعاذه الله من شرّ ذلك». وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني النبيّ ﷺ فقال: «يا عليّ إذا اشتدّ بك أمرٌ فكَبِّر ثلاثًا وقل الله أكبرُ وأعزُّ من كل شيء والله أكبرُ أعزّ من خَلقه وأقدر وأعزّ مما أخاف وأحذر اللّهم أَدْرَأُ[1] بك في نَحْره وأعوذُ بك من شرّه فإنك تُكْفَى بإذن الله عزّ وجلّ».

* * *

وأمّا ما يقال في الغضب والفزع؛ عن سليمانَ بنِ صُرَدٍ[2] رضي الله عنه قال: استَبّ[3] رجلان عند النبيّ ﷺ فجعل أحدُهما تحمَرّ عيناه وتنتفِخ أوداجهُ. فقال رسول الله ﷺ: «إنّي لأعرف كلمةً لو قالها لَذَهَب عنه الذي يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وعن النبيّ ﷺ: «إذا فزع أحدكم فليقُلْ أعوذُ بكلمات الله التامّة من غضبه وعذابه ومن شرّ عباده ومن هَمَزَات الشياطين وأن يحضرونِ فإنّها لم تضرّه». قال فكان عبد الله يعلّمها من بلغ من ولده، ومن لم يبلُغْ منهم كَتَبها في صَكٍّ وعلّقها عليه. وفي لفظ: «إذا فزع أحدكم في النوم فليقل...» يعني الكلمات؛ وفي طريقٍ: كان خالد بن الوليد رجلًا يفزع في نومه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال له: «إذا اضطجعت للنوم فقل...» يعني الكلمات، فقالها فذهب ذلك عنه.

* * *

وأمّا ما يقال في السفر وركوب الدابّة والسفينة ودخول القرية؛ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا توضأ فأسبغ وضوءه وصلّى ركعتين، ويقول وهو في مجلسه مستقبِلَ القبلة: «الحمد لله الذي خلقني ولم أكُ شيئًا ربِّ أعِنّي على أهوال الدنيا والآخرة ومن مصيبات الليالي والأيّام في سفري فاحفظني وفي أهلي

---

(١) أدرأ: أدفع.

(٢) هو سليمان بن مرو الخزاعي الصحابي، أحد قادة جيش التوّابين الذين خرجوا سنة ٦٥ هـ يطلبون بدم الحسين بن علي، فقتل سليمان فيها على أيدي جنود عبيد الله بن زياد؛ انظر: شذرات الذهب ١/ ٧٣.

(٣) استبّ: سبّ كل واحد منهما الآخر.

فاخلُفني». وعن النبيّ ﷺ: «ما استخلَف العبد في أهله إذا هو شدّ عليه ثيابَ سفره خيرًا من أربع ركعاتٍ يُصَلِّيهِنّ في بيته يقرأ في كل واحدة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول اللّهم أنّي أتقرّب بهنّ إليك فاجعلْهُنّ خليفتي في أهلي ومالي قال فهو خليفته في أهله وماله وولده ودُورِ حولَ داره حتى يرجِعَ إلى داره». وعن أنس رضي الله عنه قال: لم يُرِد النبيّ ﷺ سفرًا قطّ إلا قال حين ينهض من جلوسه: «بك انتشرتُ إليك وَجَّهت وبك اعتصمت أنت ثِقتي ورجائي اللّهم اكفِنِي ما يهمُّني وما لا أهتمّ به وما أنت أعلم به منّي اللّهم زوّدني التقوَى واغفر لي ذنبي ووجِّهني إلى الخير أينما توجّهتُ». وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا ركبتم الإبل فتعوّذوا بالله واذكروا اسم الله عليه فإنّ على سَنَام كلّ بعيرٍ شيطانًا». وكان رسول الله ﷺ إذا استوى على بعيره يريد السفر كبّر ثلاثًا ثم قال: «سبحانَ الذي سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنِين وإنا إلى ربّنا لَمُنْقَلِبُون اللّهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى ومِن العملِ ما ترضَى اللّهم هَوِّنْ لنا سفرنا هذا واطْوِ عنّا بُعْدَه اللّهم أنت الصاحبُ في السفر والخليفةُ في الأهل والمال والولد»، وإذا رجع ﷺ قالهن وزاد فيهن: «آئبون تائبون لربّنا حامدون». وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ كان إذا قَفَل من حَجّ أو عُمرة فأشرفَ على شَرَفٍ كبّر ثلاثًا ثم قال: «لا إلٰهَ إلّا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير آئبون تائبون لربّنا حامدون صدق الله وعدَه ونصر عبدَه وهزم الأحزاب وحدَه وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلّا وجهَه له الحكُم وإليه تُرْجعون اللّهم إني أعوذ بك من وَعْثَاء[1] السفَر وكآبة المُنْقَلَب وسوءِ المنظَر في الأهلِ والمال». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمَانٌ لأُمّتي من الغَرَق إذا ركِبوا السُفُن أن يقولوا بسم الله الرحمٰن الرحيم وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعًا قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ والسمٰواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سبحانَهُ وتَعَالَى عَمّا يُشْرِكون باسم الله مَجْريها ومُرْساها إن رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيم». وكان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل اللّيلُ قال: «يا أرضُ ربِّي وربُّكِ اللهُ أعوذُ بالله من شرِّك وشرّ ما فيك وشرّ ما يدِبّ عليكِ أعوذُ بالله من أَسَدٍ وأَسْوَدَ ومن الحيّة والعقرب ومن ساكنِ البلد ومن والد وما وَلَد». وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ «يا عليّ إذا نزلتَ منزلًا فقل باسم الله اللّهم أَنْزِلْنا منزلًا مباركًا وأنت خيرُ المُنْزِلين تُرْزَقْ خيرَه ويُدْفَعْ عنك شرُّه». وقال ﷺ: «مَنْ نزل منزلًا ثم قال أعوذُ بكلماتِ الله التامّات كلِّها من شرِّ ما خلق لم يضرّه شيءٌ حتى

(١) وعثاء: مشقة.

يرتحل من منزله ذلك». وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إذا أردتَ الدخول إلى مدينةٍ أو قرية فقل حين تُعاينها اللّهم إنّي أسألك خيرَ هذه القريةِ وخيرَ ما كتبتَ فيها وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما كتبت فيها اللّهم ارزُقْني خيرَها وأعوذُ بك من شرِّها وحَبِّبْنا إلى أهلها وحَبِّبْ أهلَها إلينا». وعن صُهَيبٍ[1] رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ لم ير قريةً يُريدُ دخولَها إلّا قال: «اللّهم ربَّ السمٰوات السبع وما أَظْلَلْنَ وربَّ الأرَضِينَ السبع وما أَقْللنَ وربَّ الرياحِ وما ذَرَيْنَ وربَّ الشياطينِ وما أَضْللنَ أسألك خيرَ هذه القريةِ وخير ما فيها وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها». وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأراد أن ينزل قريةً عدَل إليها وقال: «اللهُ أكبرُ ثلاثًا اللّهم ارزُقْنا خيرَها واصْرِفْ عنّا وَبَاءَها وحَبِّبْنا إلى صالح أهلها وحَبِّبْهم إلينا».

❊ ❊ ❊

وأمّا ما يقال في الزواج والجماع؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوّج أحدكُم ثم دخل على أهله[2] فليقُل اللّهمّ بارك لي في أَهْلي وبارك لأهلي فيّ وارزُقْني منها وارزقها مني واجْمَع بيننا ما جمعتَ في خيرٍ وإذا فرّقتَ بيننا ففرّق في خير». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبيّ ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهلَه قال اللّهم جنّبنِي الشيطانَ وجَنِّب الشيطانَ ما رزقتَني فإنْ قُضِي بينهما وَلَدٌ لم يضرّه الشيطان»، أو قال: «لم يُسَلَّط عليه».

❊ ❊ ❊

وأمّا ما يقال في قضاء الدَّين ونجاح الحوائج؛ عن أبي سَعيد رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجدَ فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: «يا أبا أمامة مالي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت صلاة»؟ قال: هُمومٌ لَزِمتني وديونٌ يا رسول الله. قال: «أفلا أُعلِّمك كلامًا إذا قلتَه أذهب اللهُ همَّك عنك وقضى عنك دَيْنَك»! قال: بلى يا رسول الله. قال: «قل إذا أصبحتَ وأمسيتَ اللّهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحَزَن وأعوذُ بك من العجز والكَسَل وأعوذ بك من الجبن والبُخْل وأعوذُ بك من غَلَبة الدَّين وقَهْرِ الرجال»؛ قال: ففعلت ذلك

---

(١) هو صهيب بن سنان الرومي، من خدام النبيّ ﷺ وصحابته. تُوفي في المدينة سنة ٣٨ هـ. انظر خبره في: شذرات الذهب ١/ ٤٧.

(٢) أهله: زوجته.

فأذهب الله همّي وقضى عنّي دَيْني. وعن مُعاذ بن جَبَل رضي الله عنه أنّه تخلّف عن صلاة من الصلوات ففقده النبيّ ﷺ. فلما جاءه قال: «ما خلّفك عن الصلاة يا معاذ»؟ قال: ليُوحَنّا اليهوديّ عليّ دَيْنٌ فخشِيتُ إن خرجتُ أن يَلْزَمني فلا أنا وصلتُ إليك ولا أنا كنتُ في أهلي. فقال ﷺ: «أَلَا أُعَلِّمك كلماتٍ إذا قلتَهنّ قضى الله عنك دينكَ ولو كان مثلَ الأرض أو مثل صبرٍ[1] ذهبًا أو وَرِقًا قضاه الله عنك»! قلت: بلى يا رسول الله قال: «قل اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ الملكَ مِمَّنْ تَشاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إنّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ في اللَّيْلِ وتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. رَحْمٰنَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما تُعطِي منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء أسألك بعِزَّتك ورحمتك أن تقضيَ عنّي دَيني». وعن عبد الله بن أبي أَوْفَى[2] الأسلميّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له حاجةٌ إلى الله أو إلى أحد من بني آدم فليتوضّأ وليُحسِن الوضوءَ وليصلِّ ركعتين ثم لُيثْنِ على الله عزّ وجلّ ويصلِّ على النبيّ ﷺ ثم ليقُلْ لا إلٰه إلا الله الحكيم الكريم سبحانَ الله ربَّ العرش العظيم والحمدُ لله ربّ العالمين أسألك مُوجباتِ رحمتك وعزائمَ مغفرتِك والغنيمةَ من كلِّ بِرّ والسلامةَ من كلِّ ذنب لا تدع لي ذنبًا إلا غفرتَه ولا همًّا إلا فرّجتَه ولا حاجةً هي لك رِضًا إلا قضيتَها». وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ إذا خرجتَ من منزلك تريدُ حاجةً فاقرأ آيةَ الكُرْسيّ[3] فإنّ حاجتَك تُقْضَى إن شاء الله تعالى». وعنه رضي الله عنه قال: «إذا أراد أحدُكم الحاجةَ فليُبَكِّرْ في طلبها يوم الخميس وليقرَأْ إذا خرج من بيته آخر سورةِ آلِ عِمْرانَ وآيةَ الكرسيّ وإنّا أنزلناه في ليلة القدر وأمَّ الكتاب[4] فإنّ فيها قضاءَ حوائج الدنيا والآخرة».

***

(١) صبر: اسم جبل في اليمن.

(٢) عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي، آخر الصحابة موتًا بالكوفة، وآخر من مات من أهل بيت الرضوان. مات سنة ٨٦ هـ: شذرات الذهب ١/ ٩٦.

(٣) آية الكرسي، هي الآية ٢٥٥ من سورة البقرة، وهي التالية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾.

(٤) أم الكتاب: هي الفاتحة.

وأمّا ما يقال في ردّ الضالة[١]؛ عن مكحول[٢] رضي الله عنه أنه كان يدعو في الضالّة: اللّهم هاديَ ورَادَّ الضَّوَالِّ اردُدْ عليّ ضالّتي ولا تُعَنِّنِي بطلبها ولا تَفْجَعْني بمُصِيبتها فإنها من رزقك وعطائك. وكان يقول في الآبق: اللّهم ضَيِّق عليه البلادَ واجعلْه في أضيقَ من ضرورة الحمل حتى تَرُدَّه.

* * *

دعاء الاستخارة؛ عن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول إذا أراد الأمرَ: «اللّهم خِرْ لِي واخْتَرْ لي». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمنا الاستخارةَ في الأمور كما يعلّمنا السورةَ من القرآن، يقول: «إذا همّ أحدكم بالأمر فليركَعْ ركعتين من غير الفريضة ثم ليقُلْ اللّهم إنّي أستخيرُكَ بعلمك وأستَقْدِرُك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدِر ولا أقدِر وتعلَم ولا أعلَم وأنت علّامُ الغيوب اللّهم إنْ كنت تعلم أن هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومَعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فاقدُرْهُ لي [ويسّره لي ثم بارك لي فيه] وإن كنتَ تعلم أن هذا الأمرَ شرٌّ لي في دِيني ومعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فا[صْرفه عنّي وا]صرِفْني عنه واقدُرْ لي الخيرَ حيث كان ثم رَضِّني به ويُسَمِّي حاجتَه».

ذِكْر ما ورد في أسماء الله الحسنى والاسم الأعظم

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للهِ عزّ وجلّ تسعةً وتسعين اسمًا مائةً غيرَ واحدٍ إنّه وِتْرٌ[٣] يُحبّ الوتْر مَن أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إلٰهَ إلّا هُوَ الرحمٰن، الرحيم، الملك، القُدُّوس، السَّلام، المُؤْمِن، المُهَيْمِن، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، الخالق، البارىء، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزّ، المُذِلّ، السميع، البصير، الحَكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العليّ، الكبير، الحفيظ، المُقِيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب،

---

(١) الضالّة: الشيء الذي يفقد.

(٢) هو أبو عبد الله مكحول مولى بني هذيل. فقيه وصاحب فتوى. مات سنة ١١٣ هـ. شذرات الذهب ١/١٤٦.

(٣) وتر: واحد أحد.

الواسع، الحكيم، الودود، المَجيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القويّ، المتين، الوليّ، الحميد، المُحْصِي، المُبْديء، المُعيد، المُحيي، المُميت، الحيّ، القَيُّوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصَّمَد، القادر، المقتدِر، المقدِّم، المُؤَخِّر، الأوّل، الآخِر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعال، البَرّ، التوّاب، المنتقم، العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقْسِط، الجامع، الغني، المغْنِي، المانع، الضارّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصَّبُور.

وقد نبّه البُوني رحمه الله في اللُّمعة النورانية على كيفية العلم والعمل بأسماء الله الحسنى وخاصيّة كل اسم منها، ورتّب ذلك وجعله عشرة أنماط فقال:

النمط الأوّل

مِنْ نَظْم الأسماء اسمُه الله، والإلـه، والرب، والخالق، والبارىء، والمصوّر، والمبدىء، والمُعيد، والمُحيي، والمُميت. قال البوني: هذا النمط عشرة أسماء لا تكون إلّا أذكارًا للذاكرين على اختلاف أحوالهم. فالله والإلـه ذِكْرُ الأكابر والمُوَلّهين في الغالب. والربُّ، والخالقُ، والبارىء ذكر الأكابر من السالكين المُريدين. والمصوّر، والمبدىء، والمعيد، والمُحْيي، والمُميت ذكر عباد الله المتعبِّدين والمتبصّرين.

النمط الثاني

الأحد، الواحد، الصمد، الفعّال، البصير، السميع، القادر، المقتدر، القويّ، القائم. قال: هذه الأسماء العشرة سِلْكٌ واحدٌ في تقارب الأذكار؛ وهذا القسم فيه أذكار السالكين المتعلّقين بأسرار التوحيد ذكرُهم الأحد والواحد. وأمّا الصمد فذكر يصلح للمرتاضين بالجوع، فذاكره لا يُحِسّ بألم الجوع البتّة ما لم يُدخل عليه ذكرًا غيره. والفعّال اسم للمغلوبين بالخواطر والوساوس وكثرة الأفكار واغتمام القلب بهذا السبب؛ فمهما ذكره مَنْ هذه صفتُه تقلّبت أفكاره إلى ما يقع له به سرور وفرح. وأما السميع والبصير فتنزيه جليل، وهو ذكر يصلح للملحّين في الدعاء فإنه ربما أسرعت لهم الإجابة. وأمّا القادر، والمقتدر، والقويّ، والقائم فذكر يصلح لأصحاب الإعياء والحِرَف الثقيلة؛ ولو علم سرّه من يعاني الأثقال واستدامه لم يحسّ بثِقلٍ فيما يتعاطاه البتّة؛ ومن نقشها في فص[1] خاتم وتختّم به أدرك ذلك لوقته؛ ومن ضعُف عن شيء ما وعلّقه عليه وذَكَره قوِي لوقته.

(١) فصّ الخاتم: ما يركّب في الخاتم من الحجارة الكريمة.

النمط الثالث

الحيّ، القيُّوم، الرحمٰن، الرحيم، الملك القدير، العليّ، العظيم، الكبير، المتعال. قال: هذا القسم من الأسماء يحتوي على أذكار المراقبين، وفيه أعمال جليلة البرهان. فالحيّ القيُّوم اسمان جليلان، ذكرٌ لأهل الحضرة، وهو من أذكار إسرافيل وملائكة الصُّور أجمعين، يصلُح أن يُذكر من مبادىء الفجر إلى طلوع الشمس، يجد ذاكره من الزيادة والخشية والتطلُّع إلى طلب الفضائل ما لم يعهَدْه قبلُ؛ ومن نقش الاسمين عند طلوع الشمس من يوم الجمعة مستقبلَ القِبلة على ذِكْرٍ وأمسكه عنده أحيا الله ذِكْرَه إنْ كان خَاملًا، وأحيا رزقَه إنْ كان قليلًا. وأمّا الرحمٰن الرحيم فأذكار شريفة للمضطرّين وأمانٌ للخائفين لا ينقُشه أحدٌ في خاتم في يوم جمعة آخر النهار فيرى ما يكرهه ما دام عليه. ومن أكثر من ذكره كان مَلْطوفًا به في كل أموره. وأمّا الملك والقدير فـذكر يذكر عند كل ذي ملك وقدرة فإنه ما من مَلِك يستديم هذا الذِّكرَ في عموم أوقاته إلّا ثبت مُلْكه وانبسطت قدرته؛ ويصلح للسالك الذي تغلبه شهواتُ نفسه؛ فإنه ما يستديم ذكره مَنْ هذا مقامُه إلا بعث الله إليه قوّةً مَلَكِيّةً تؤيّده وتنصره على من يخالفه من عوالمه. وأما العليّ العظيم فللتنزيه. والكبير المتعال مناسب للتنزيه أيضًا، وهما اسمان لائقان بأهل التعظيم من أرباب الأحوال ليس للعامّة في الذكر بهما قسم.

النمط الرابع

المهيمِن، المُقيت، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، المحيط، الحفيظ، الفاطر، المجِيد ذو الجلال. قال البوني: أمّا المهيمن، والمُقيت فللعلم والاستيلاء والمراقبة في الجزئيات والكليات. والعزيز، والجبّار، والمتكبِّر فمن أسماء صفات الذات اللازمة للخوف والرهبة والعظمة، لا يذكرها ذليل إلا عزّ، ولا حقير إلا ارتفع، ولا بين يدي جبّار إلا ذلّ وخضَع، ولا يذكرها ملك من ملوك الأرض إلا وجد في نفسه ذِلَّةً وانكسارًا. وأما الحفيظ فإنه اسم سريع الإجابة للخائفين في الأسفار. وأما المحيط، والمجيد، والفاطر، وذو الجلال، فأسماء التنزيه وزيادات في التوحيد.

النمط الخامس

العليم، الحكيم، البديع، النور، القابض، الباسط، الأوّل الآخر، الظاهر، الباطن. قال: هذا القسم من الأسماء جليل القدر عظيم الشأن. فأمّا العليم، والحكيم

فللتوحيد الخاص، لا يصلحان إلا لمَنْ أُبهِمَ عليه أمرٌ من كشف سرٍّ من أسرار الله تعالى يعسُرُ على الفكر إدراكُه، فإنه إذا استدام ذِكْرَ العليم الحكيم يسّر الله عليه علم ما سأل وعرّفه الحكمة فيه، ومنه اسمه البديع أيضًا مثل ذلك. وأمّا النُّور، والباسط، والظاهر، فذكر أرباب المكاشفات. ومن أراد أن ينظر شيئًا في منامه فليذكر هذه الأسماءَ على طهارة وهو في فراشه إلى أن ينام على هذا الذكر، ويُعْمِلْ همَّتَه فيما يريده فإنه يُمَثَّلُ له في نومه كشف ذلك. وأمّا القابض، والأوّل، والآخر، والباطن، فكلها أسماء للتعظيم والتوحيد.

النمط السادس

الحليم، الرؤوف، المنّان، الكريم، ذو الطَّوْل، الوهّاب، الغَفُور، الغافر، العَفُوّ، المُجِيب. قال: هذا النَّمَطُ من الأسماء عليه مدار إبقاءِ الوجود ودفعِ الأضداد وجمعِ المتفرّق. أما الحليم، والرؤوف، والمنّان، فذكر للخائفين؛ ما داومه مَنْ يخاف شيئًا إلا أوجده الله تعالى بَرْدَ الطُّمَأنِينة وسكَّن رَوْعَه. قال البوني: وذكر لي من له اطلاع أنه من استدام هذا الذكر إلى أن يغلب عليه حال منه على خلوّ مِعِدَة ثم أمسك النارَ لم تَعْدُ عليه، ولو تنفّس حينئذٍ على قِدْر تَغْلي سَكَن غَلَيَانُها بإذن الله تعالى، ولا يكتبها أحد ويقابل بها من يخاف منه إلّا أطفأ الله شرّه عند رؤيته، ولا يستديم هذا الذكر مَنْ غلبته شهوتُه إلا نَزَع اللهُ منه النزوعَ إليها في أثناء ذكره. وأما الكريم، الوهّاب، وذو الطَّول[1]؛ فلا يتسديم على هذا الذكر مَنْ قُدِر عليه رِزْقُه ومسّتْه حاجةٌ إلا يَسّر الله عليه من حيث لا يشعر، ومن نقش هذه الأسماءَ وعلّقها عليه لم يدر كيف يُيَسِّر الله عليه المطالب من غير عُسْر. وأما الغفور، والغافر، والعفوّ، فَنَظْمٌ متقارِبٌ لسؤال دفع المُؤلِم خصوصًا من آلام الدين والدنيا. وأمّا المجيب، فيذكر في آخر الدعوات.

النمط السابع

الكافي، الغنيّ، الفتاح، الرزاق، الوَدُود، اللطيف، الواسع، الشهيد، نِعْم المولى ونعم النصير. قال: هذا النَّمَطُ من الأسماء جليل القدر، به يُنَزِّل الله الرغائب من كل مفضول به على أحد من عباده. فاسمه الكافي، والغنيّ، والفتاح، والرزّاق لا يذكرُ أحدٌ هذه الأسماءَ الأربعةَ وهو يتمنّى شيئًا لم تبلغه أمنيته إلا بَلَغَه بإذن الله تعالى

(١) الطول: القدرة.

من جهةٍ لا يعتمد عليها لم تخطر بباله. لا يذكر أحد هذا الذكر على القليل إلا كثّره الله ولا على طعام إلا ظهرت فيه زيادة، ولا يذكره مَنْ هو في رتبة وهِمَّتُه طالبةٌ أعلى منها إلا يسّر الله له الوصولَ إليها. وأمّا الوَدُود، واللطيف، والواسع، والشهيد، فنَمَطٌ جليل النظم لأرباب الهجوع والخَلْوة؛ واللطيف خصوصًا لتفريج الكرب في أوقات الشدائد لا يضاف إليه غيره؛ لا يذكره من يُؤْلِمه شيء في نفسه وبدنه إلا أزاله الله عنه أثناء الذكر.

النمط الثامن

الشديد، ذو القوّة، المتين، السريع، الرقيب، المقتدر، القاهر، الوارث، الباعث، القويّ. هذا النمط من الأسماء عظيم الشأن. فأمّا الشديد، وذو القوّة، والقاهر، والمقتدر، فهي أسماء القهر لا يذكرها ضعيف الهِمّة إلا قَوِيت نفسه، ولا يدعو بها أحد على ظالم في احتراق الشهر في السابعة من الليل في بيت مظلم حاسرَ[1] الرأس على الأرض لا حائل بينه وبينها مائة مرة يقول في آخرها: يا شديد خُذْ لي بحقّي من فلان؛ ولا يشخُص شيئًا فالله أعلم بما يعمل. قال: وقد جُرّب مِئِين من المرّات. ولا ينقشها أحد في خاتم ويتختّم به إلا ألبسه الله تعالى مهابة يُدْرِكها مِن نفسه ويُدْركها غيره منه، ويرتاع منه كل جبّار عَنِيد عند رؤيته، حتى كأن الجبال على كاهله ما دام ينظر إلى من هو معه. وأمّا السريع، والرقيب، والمتين، فذكر لأرباب المراقبة في الأفعال تنفتح لهم بذلك مكاشفات وأسرار. وأمّا الوارث، والباعث، فلحكمة الاعتبار والتصديق بآثار القدرة.

النمط التاسع

التوّاب، الشاكر، الوليّ، الحسيب، الوكيل، القريب، الصادق، البَرُّ، الباقي، الخلّاق. قال: هذا القسم مرتَّب على سلوك مقامات السالكين؛ فالتوّاب للتائبين، والشاكر للشاكرين، والوليّ للأولياء، والحسيب لأهل الكفاية، والوكيل للمتوكلين، والقريب من أهل القرب، والصادق مع الصادقين، والبَرُّ مع أهل البِرّ، والباقي مع الشهداء، والخلّاق لذوي الاعتبار. وللمشايخ في هذا الميدان مَجَالٌ رَحْب بحسب اختلاف أحوالهم.

(١) حاسر الرأس: مكشوف الرأس.

النمط العاشر

الهادي، الخبير، المبين، علّام الغيوب، ذو الجلال والإكرام، القُدُّوس، السلام، المُؤمِن، وينتظم في ذلك المُعِزّ، والمُذِلُّ، وما في آخر سورة الإخلاص. قال: فالهادي، والخبير، والمبين، لمن أراد كشف عواقب الأمور بجُوع وسهَر؛ ويَذْكُرُ هذه الأسماء وعلى رأس مائة من أعداد الذكر يقول: اهدني يا هادي، وخبِّرني يا خبير، وبيِّن لي يا مُبين؛ ويسمِّي ما يريده وذلك في جوف الليل، فإذا أدركه النوم مُثِّلَ له كشفُ ما أراده من أيِّ نوع شاء. هذا مختصر ما قاله البوني في ترتيب أسماء الله الحسنى.

وأمّا ما ورد في الاسم الأعظم؛ فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه سمع رجلًا يقول: اللّهم إني أسألك أني أشهَدُ أنك أنت الله لا إلٰه إلا أنت الأحد، الصمد، الّذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكنْ له كُفُوًا أحد؛ فقال: «لقد سألتَ الله بالاسم الذي إذا سُئِل به أعطى وإذا دُعِي به أجاب». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل من الأنصار يقال له أبو عَيَّاش الزُّرَقِيّ(١) يصلِّي، فدنوت منه، فدعا في صلاته: اللّهم إني أسألك ـ بأن لك الحمدَ لا إلٰهَ إلا أنت المنّان بديعُ السمٰوات والأرض ذو الجلال والإكرام ـ أن تغفرَ لي. فقال رسول الله ﷺ: «لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِي به أجاب وإذا سُئِل به أعطى». وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: الآية ١٦٣] وفاتحة سورة آل عمران ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [الآيتان ١، ٢]. وعن أبي أُمَامة واسمه صُدَيّ بن عَجْلَان الباهِلِيّ(٢) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اسم الله الأعظم لفي ثلاث سور من القرآن في البقرة وآل عمران وطٰه». قال فالتمستها فوجدت في البقرة آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [الآية ٢٥٥]، وفاتحة آل عمران ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾، وفي طٰه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [الآية ١١١].

---

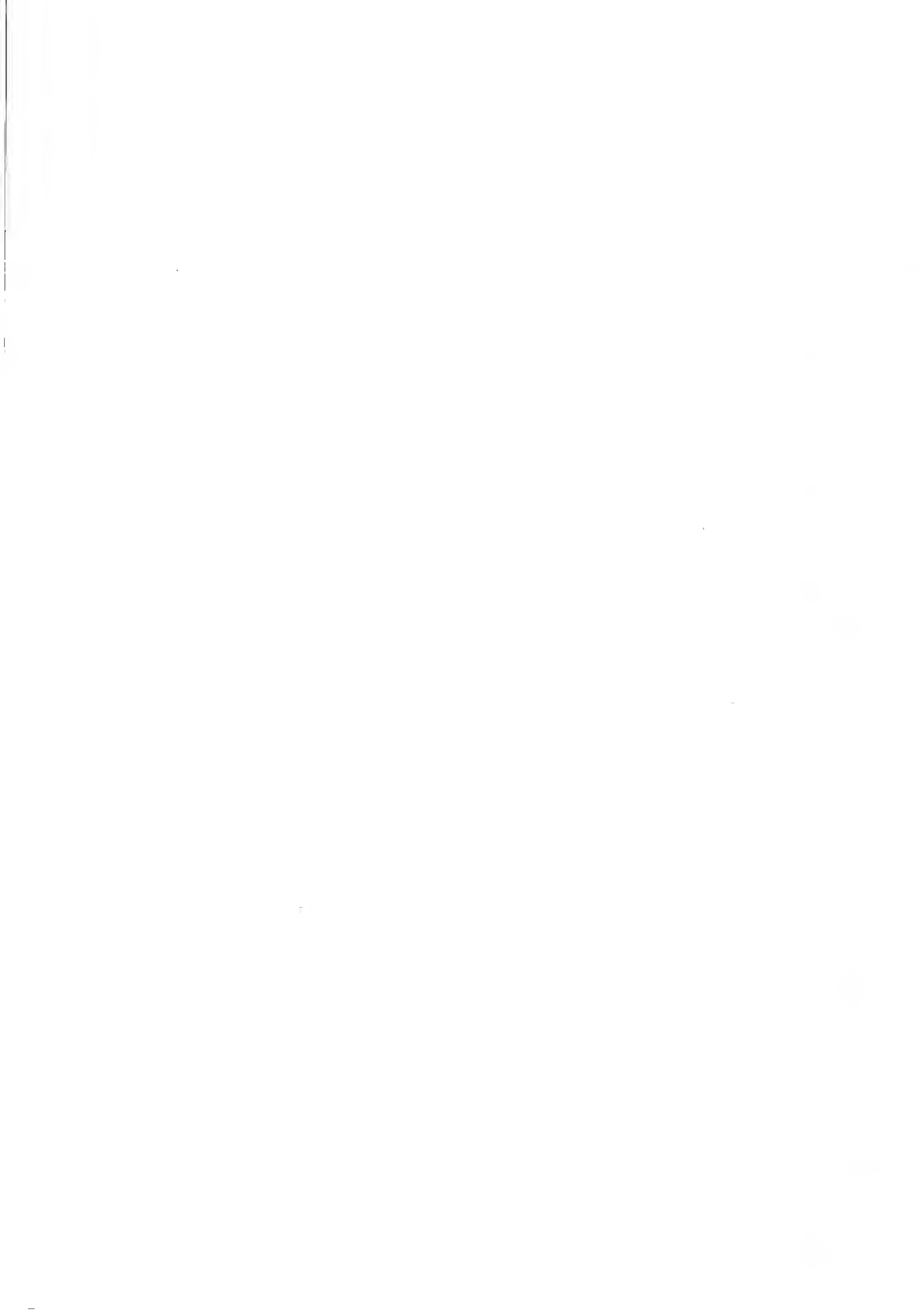
(١) من الصحابة الذين رووا عن النبيّ حديث صلاة الخوف.

(٢) سبق التعريف به.

والأدعية المختارة كثيرةٌ وقد أتينا منها بما فيه كفايةٌ لمن توجّه إلى الله تعالى وسأله. ولْنَختمْ هذا الباب بما ختم به البخاريُّ[١] كتابَه: كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحانَ اللهِ وبحمدهِ سبحانَ اللهِ العظيم.

تمّ الجزء الخامس من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويريّ،
والحمد لله وحده، وصلّى الله على مَن لا نبيّ بعده محمد وآله وسلّم
يتلوه إن شاء الله الجزء السادس

(١) البخاري: أبو عبد الله محمد، محدّث مشهور. وُلد في بخارى. أشهر مصنفاته «الجامع الصحيح» وهو أحد الكتب الستّة في الحديث. مات سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م.



قائمة المصادر والمراجع

١ - **الأعلام**، للزركلي، الطبعة الثانية، دمشق.

٢ - **الأغاني**، لأبي الفرج الأصبهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩.

٣ - **البيان والتبيين**، للجاحظ، دار صعب، بيروت ١٩٨٦.

٤ - **التنبيه والإشراف**، للمسعودي، دار صعب، بيروت.

٥ - **الحيوان**، للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.

٦ - **ديوان أبي العتاهية**، طبعة دمشق، ١٩٧٥.

٧ - **ديوان امرىء القيس**، طبعة دمشق، ١٩٧٣.

٨ - **ديوان عمر بن أبي ربيعة**، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت ١٩٦٨.

٩ - **ديوان عنترة**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠.

١٠ - **ديوان النابغة الذبياني**، دار صعب، بيروت ١٩٨٠.

١١ - **رياض الرياحين في حكايات الصالحين**، لليافعي ط٢، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٥.

١٢ - **السيرة النبوية**، لابن هشام، تحقيق السقا - الإبياري شلبي، دار الكنوز الأدبية.

١٣ - **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤ - **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٧.

١٥ - **طبقات الصوفية**، لأبي عبد الرحمٰن السلمي، ليدن بريل ١٩٦٠.

١٦ - **طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين**، لابن سلّام، ط أوروبا.

١٧ - **العقد الفريد**، لابن عبد ربّه، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.

١٨ - **فقه اللغة**، للثعالبي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٢٠.

١٩ - **الفهرست**، لابن النديم، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨.

٢٠ ـ **الكامل في اللغة والأدب**،للمبرد، مكتبة المعارف، بيروت.

٢١ ـ **اللمع في التصوف**، لابن الجراح الطوسي، بريل ليدن ١٩١٤.

٢٢ ـ **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مجلد ٢٧، ج ١، الكويت.

٢٣ ـ **مجمع الأمثال**، للميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنّة المحمدية ١٩٥٥.

٢٤ ـ **معجم الأدباء**، لياقوت، ط. دار المأمون، القاهرة.

٢٥ ـ **معجم البلدان**، لياقوت، دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ١٩٨٤.

فهرس المحتويات

القسم الرابع
من الفنّ الثاني في التهاني والبشائر والمراثي والنّوادب والزهد والتوكّل والأدعية